

الدكتور وجدى الفيشاوى



عَلَيْهِ
الْصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ

محمد

سنوات المدينة

دراسة
نقدية

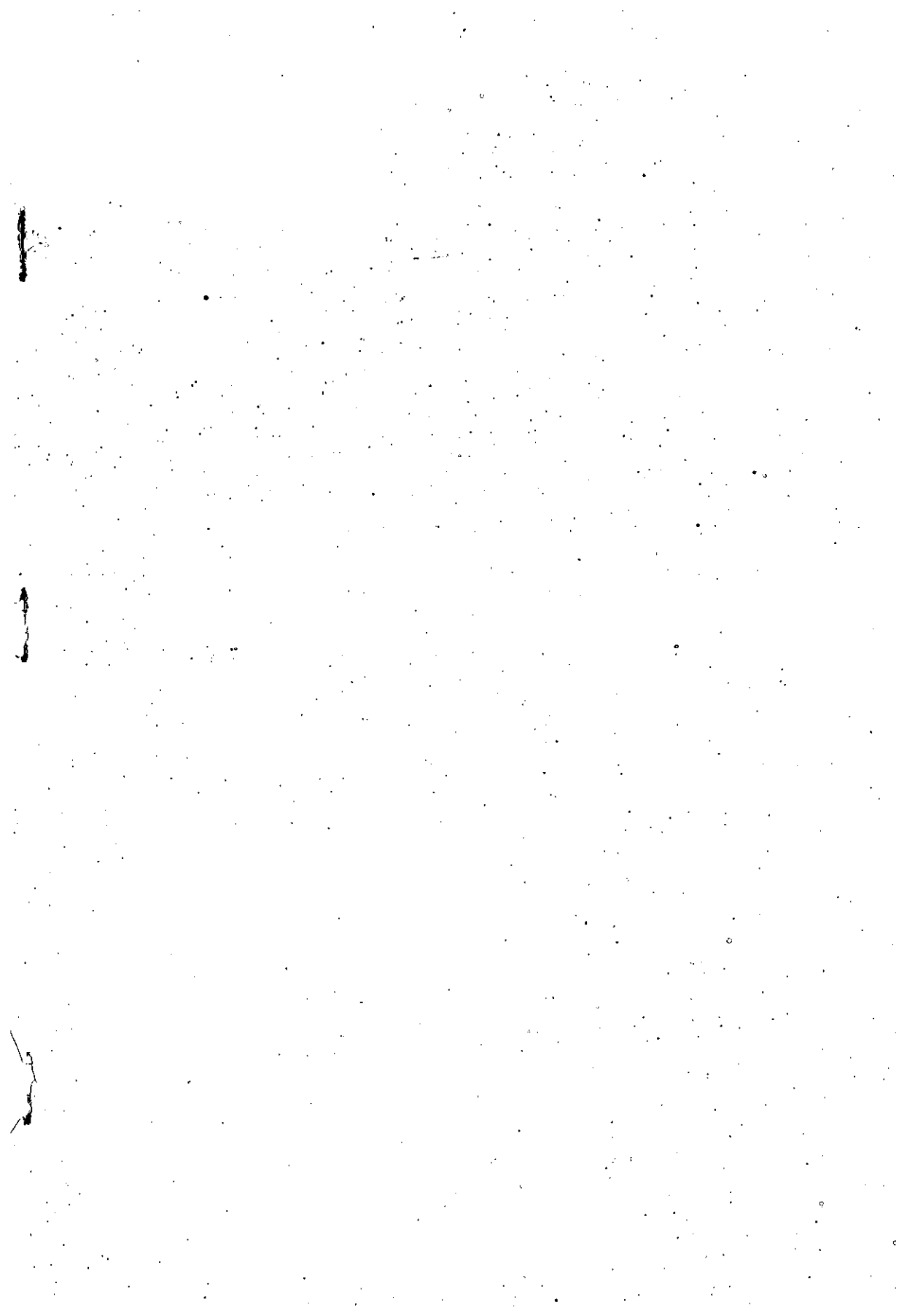
٢٤ - ٣٥

محمد

صلى الله عليه وسلم

سنوات المدينة
دراسة نقدية

الدكتور وجدى الفيشاوى



إلى أمي وأبي
روح وريحان

مدخل

فى كتابنا : سنوات مكة ، ناقشنا ما جاء فى كتب التراث وكذلك ما كتبه المستشرقون عن تلك الفترة من حياة النبى . وطالبنا بحذف الكثير مما جاء فى تلك الكتب التراثية ، وكذا بتنقيتها مما لحق بها وأضيف إليها من تشوهات تسئ إلى الإسلام وإلى شخصية النبى .

كما عرضنا آراء المستشرقين وناقشناها فى حيادية تامة ، وأثبتنا بالدليل القاطع والبرهان البين أن أغلبهم ، إن لم يكونوا جميعا - باستثناء القلة النادرة - يكتبون عن عدم إلمام وجهل ، أو عن ضيق أفق وحقد ، أو بدافع التعصب والانحياز الباطش لما يؤمنون به ، سواء كانوا ينتمون إلى يهودية أو مسيحية أو لا دينية لا هوية لها .

قد يكون وراء هؤلاء جميعا إحساس واحد ، يدفعهم - عنفا - فى اتجاه عدائى واحد: ألا وهو الخوف من تأثير الإسلام وقوة نفوذه وسيطرته الربانية الجارفة على نفوس معتقيه من أنقياء النفوس الذين طهرت قلوبهم وسمت أرواحهم فغدوا قدوة جاذبة يخشى تأثير جاذبيتها على شعوب خضعت طوال قرون طويلة لسلطة الكنيسة وطوقوها المستغلقة الغامضة .

نحن لا نهاجم صاحب دين ، أيا كان هذا الدين ، ولا نتهمك على أحد ، ولا نسخر من أحد ، ولا نتهم أحدا بالمروق والعصيان أو بالكفر والزندقة .

إننا نناقش رأى بالرأى ، ونقابل الدليل - إن وُجد - بالدليل ، ونواجه الحجة بالحجة ، ونزيح الستار عن الجهل عندما نواجهه ، ونتصدى للتعصب والحقد بالحسب والتسامح والغفران ، لا من مركز الضعف المستسلم ، ولكن من موقف القدرة العلمية القادرة .

هذا الكتاب : سنوات المدينة ، يعتبر مكملا لكتابنا : سنوات مكة . ولقد سرنا فيه على نفس النهج العلمى التحليلى النقدى للقرينة المحايد الذى لا يخضع إلا لسلطان الله . ما أردنا بهذا كسبا دنيويا ، ما تاجرنا يوما بعلم ، ما تملقنا أبدا صاحب سلطان ، ما لنا من نور إلا ذلك النور الذى يهذى به الله من يشاء .

الشكر والتقدير للأخ العزيز الروائى الأديب الأستاذ محمود عرفات الذى بذل جهدا وفيرا كى يخرج الكتاب فى صورته الحالية ، كما نذكر بكل اعتزاز وامتنان الروائى

الأديب الأستاذ فخرى أبو شليب الذى بذل من الجهد ما أجده حبا ، لإيمانه بقيمة هذا
العمل وإصراره على أن يرى النور .
والله ولى التوفيق .

وجدى الفيشاوى

فيلا الكرمتان - طنطا

٢٠٠٨/٣/٢٦

الفصل الأول تكوين الأمة

الفصل الأول

تكوين الأمة

(١)

بناء المسجد

اختار النبي بناء المسجد حيث بركت ناقتة "القصواء" التي قال عنها لمن هم حوله: دعوها تبرك حيث تشاء فإنها مأمورة. وبركت الناقة في مرتب^١. لغلامين يتيمين من بنى النجار كانا في كفالة أسعد بن زرارة ، أول من دعا للإسلام في المدينة قبل هجرة النبي إليها. وكان أسعد بن زرارة يصلى في نفس المكان هو ومن أسلم ويُجمَع فيه الجمعة.

كان لذلك المريد جدارا ، ولا سقف له ، وكان به نخل وقبور جاهلية وماء راكد. ويروى أن النبي قال لهم ، أى لبنى النجار : ثامنوني ، أى اطلبوا الثمن . فقالوا : لا نبتغي به ثمنا إلا ما عند الله . رفضوا أن يأخذوا للمكان ثمنا. لكن رواية أخرى تقول إن النبي ابتاعه بعشرة دنانير من الغلامين اليتيمين وأمر أبا بكر أن يعطيها ذلك^٢.

تم تقطيع النخل ، ونبش القبور وتغيب ما بها من عظام ، كما تم التخلص من الماء الراكد ، وإصلاح الأرض إعداداً للبناء.

اشترك النبي في بناء مسجده ، كى يكون قدوة لأصحابه ، حمل معهم الحجارة ، وما كان لأحد منهم بعد ذلك أن يتأخر أو يتكاسل أو يُحجم ، وكان لسان حالهم يقول ، كما عبر عن ذلك أحدهم :

لئن قعدنا والنبي يعملُ لذلك منا العمل المضللُ

وارتجز المسلمون وهو يبنون :

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم أرحم الأنصار والمهاجرة

^١ موضع يجفف فيه التمر .

^٢ ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٣٩ .

وردد النبي معهم كلمات الأرجوزة ، مع تغييره لكلمات المقطع الثاني ، فكان يقول: اللهم ارحم المهاجرين والأنصار.

وتعلق كارين أرمسترونج على تغيير النبي للكلمات بقولها : كان محمد يغير الشطر الثاني، فيقول : " اللهم ارحم المهاجرين والأنصار " ، وهو التعديل الذي يبتعد بالكلام عن الوزن والقافية ، مما يبين أن محمداً كان " أمياً " فلم يكن شاعراً بالفطرة . والواقع أن نقص مهارته اللغوية يثبت مدى إعجاز القرآن .^٣

لم يكن أصحاب النبي من قريش قد اعتادوا جميعاً هذا العمل اليدوي . لذا تردد البعض في الاشتراك ، كما بدا بوضوح في حالة عثمان بن عفان ، زوج ابنة النبي الذي تعود حياة الثراء والنعيم والأناقة والرفامية ، فما كان له أن يرهق جسده المترف بحمل الحجارة . أو أن يلوث يديه الناعمتين بطين الأرض . كان مثل هذا العمل بالنسبة له يبدو مرهقاً.

كان في مقدمة الذين يعملون بحماس متقد على بن أبي طالب وعمار بن ياسر . ومن كثرة الجهد ، شعر عمار بن ياسر بإرهاق شديد وقد أنقلوه بحمل اللب .

دخل عمار بن ياسر على النبي ، وهو في حالة يرثي لها ، قال : يا رسول الله ، قتلوني ، يحملون على ما لا يحملون ، قالت أم سلمة : فرأيت رسول الله ينفذ وفرته بيده ، وكان رجلاً جعداً . وهو يقول : ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية.^٤

انطلق عمار ، في حماسه الدافق ، يعمل دون كلل . حاول أن يدفع بعض المتكاسلين إلى المشاركة في البناء ، وكان من بينهم عثمان بن عفان ، لكن كبر على عثمان - وهو من هو في قريش أصلاً وثراء - أن يستحثه إلى العمل عمار بن ياسر ، وهو يعرف جيداً من هو ياسر ، ومن هي سمية أم عمار وزوجة ياسر ، وربما نسي أو تناسى أنهما - رغم فقرهما - كانا أول شهداء المسلمين . كانت ما تزال بعثان بقايا نزعة جاهلية ، وإن كان الإسلام قد رققها وهذبها ، لكن أثارها كانت غير خافية في تعامله مع عمار . لقد هدد عمار بالضرب على نفسه

^٣ كارين أرمسترونج ، محمد ، ص ٢٢٢ .

^٤ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

بالعصا ، إن لم يكف . ويروى ابن إسحق أن عثمان قال : قد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية ، والله إنى لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك .

عندما سمع النبي بذلك غضب - رغم ندره غضبه - وقال : ما لهم ولعمار ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، إن عمارا جلدة ما بين عيني وأنفى ° .

تمت إقامة المسجد ، كان بناءً بسيطاً يخلو من أى مظهر من مظاهر الأبهة والفخامة المادية ، جدرانه من الطوب اللبن ، وغواميده من جذوع الشجر وسقفه من زعف النخيل ، طوله حوالى مائة ذراع وكذلك عرضه ، ألحقت به عدة حجرات تم بناؤها من نفس المواد : اللبن وجذوع النخل والجريد . وكما يروى ابن هشام ، كانت حجرات نساء النبي تسعا . ولا نعرف لماذا حدد ابن هشام عدد الغرف منذ البداية بتسع ، رغم أن النبي لم يكن له فى تلك الآونة سوى زوجة واحدة هى سودة ، ولم يكن قد بنى بعائشة بعد .

جعل النبي قبلة المسجد إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : بابا فى مؤخره ، وبابا يقال له باب الرحمة ، وهو الباب الذى يدعى باب عائكة ، والباب الثالث الذى يدخل فيه .

أثناء بناء المسجد نزل النبي على أبى أيوب خالد بن زيد فى بنى غنم بن النجار . ويقال إن النبي عاش فى دار أبى أيوب حوالى سبعة أشهر حتى تم بناء مسجده وحجراته ، عندها انتقل من دار أبى أيوب إلى منزله . ويروى أن سرير النبي كان عبارة عن خشبات مشدودة بالليف ، لا أكثر من ذلك . نعيم الدنيا وبهرجها ما خطرا له على بال .

المنبر وأول خطبة الجمعة :

كان النبي إذا خطب الجمعة ، يخطب مستنداً إلى جذع نخلة فى المسجد . وعندما رأى بعض الصحابة أن القيام قد شق عليه ، قالوا : يا رسول الله إن الناس قد كثروا فلو اتخذت شيئاً تقوم عليه إذا خطبت يراك الناس . فقال : ما شئتم . فقال له تميم الدارى : ألا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام ؟ فشاور النبي المسلمين فى ذلك فأروا أن يتخذوه ، وتم عمل المنبر . كان عبارة عن درجتين ومقعدا ، ويقال ثلاث درجات ، وموقعه هو نفس موقع المنبر الحالى .

⁵ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

ويروى أن النبي قال : لا يحلف رجل على يمين أئمة عند هذا المنبر إلا تبوأ مقعده من النار ولو على سواك أخضر، وقال : ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة .^٦

نورد هنا أول خطبة جمعة خطبها النبي ، وكانت بقاء ، ربما يتعلم منها خطباء الجمعة في أيامنا هذه فلا يطيلون في كلامهم ساعة وربما أكثر من ساعة دون مبالاة بمن هم بين المصلين من مرضي وكبار سن وضعاف لا يتحملون كل هذه الإطالة المبالغ فيها والتي ربما اعتبرها الخطيب من سمات البلاغة والتمكن والسيطرة على مستمعيه من المصلين ، وما هي على كل ذلك بدليل ، على العكس ربما تكون إلى الحماقة أقرب لأن فيها إيذاء لبعض المصلين والدين يسر لا عسر .

يقول النبي في أول خطبة له : أما بعد أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم تعلمن ، والله ليصنعن (ليموتن) أحكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ، وأتيتك مالا وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميننا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم . فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .^٧

أهل الصفة:

خُصَّصَ الركن المسقوف من المسجد لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون مسكنا، وعرف من نزلوا فيه بأهل الصفة . كان هذا الركن بمثابة مدرسة يقضى القائمون فيه جل وقتهم في دراسة الدين والتبحر فيه ، أما إعالنتهم فقد تكفل بها أغنياء المسلمين . ومن بين أهل الصفة خرج جماعة من الفقهاء الذين رفعوا راية الإسلام عاليا، وكان من أبرزهم أبو هريرة الذي نقل عنه الكثير من أحاديث النبي . وكما سبق وقلنا ، لم يكن أهل الصفة يملكون مالا أو يتكسبون معاشا ، وكثيرا ما كان أثرياء المسلمين يدعونهم لتناول الطعام .

^٦ ابن سعد ، ج ١ ، انظر ص ٢٤٩ - ٢٥٤ .

^٧ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

وعن أهل الصفة يقول الإمام أبو حامد الغزالي ، فى كتابه إحياء علوم الدين : كانوا نحو أربعمائى رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر. جمعوا أنفسهم فى المسجد كاجتماع الصوفية قديما وحديثا فى الزوايا والربط ، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة ، كانوا يحتطبون .. بالنهار ، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواسيهم ويحث الناس على مواساتهم ، ويجلس معهم ويأكل معهم .. وكان يفرقهم على أهل الجدة والسعة ، يبعث مع كل واحد ثلاثة ومع الآخر أربعة ، وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم " ^٨

أفراح فى المسجد :

عندما تم بناء المسجد ، احتفل بعض المسلمين بالزواج فيه . وهذا معناه أن المسجد كان دار عبادة ، ودار علم ، ودار لقاء النبى بأصحابه للتشاور فى أمور دينهم ودنياهم ، وهذا معناه أيضا أنه أصبح مركزا لتكوين الأمة ، إلى جانب كونه دارا للمناسبات الاجتماعية.

اقترح النبى على زيد أن يتزوج امرأة أخرى إلى جانب أم أيمن ، وقد تقدمت بها السن ، وكانت تكبره بكثير. ولم يكتف النبى بأن يشير عليه بالزواج من زينب بنت جحش ، ابنة عمه النبى ، بل تقدم هو بنفسه لخطبتها نيابة عن زيد .

رفضت زينب فى البداية ، كما رفض أخوها عبد الله ، لقد كانت على قدر كبير من الجمال ، كما كانت هاشمية ، ولم يكن فى زيد ما يغريها على الزواج منه . كانت تعلم جيدا أنه بيع فى بداية حياته عبدا إلى أن أعتقه النبى ، ولم يكن فى شكله العام ما يتناسب مع شدة جمالها، فقد كان أسمر اللون ، قصير القامة ، أظطس الأنف ، أى أنه كان يخلو من وسامة الرجل الذى كانت تطمح أن يكون زوجها لها . لكنها عندما علمت أن هذه هى رغبة النبى ، رضخت لمشيئته ، ووافق أخوها ، فما كان لهما أن يعترضا على ما ارتآه النبى . وتم الزواج الذى لم يكن موقفا ، لتعالى زينب على زيد وإعراضها عنه .

وقام أبو بكر بتزويج ابنته أسماء إلى الزبير بن العوام ، أحد أقرباء النبى ، زيادة فى توثيق الصلة وتقوية الرابطة بينه وبين النبى .

^٨ الإمام أبو حامد محمد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، الجزء الخامس ، ص ٨٥ ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

كما بنى النبي بعائشة ، وكان ذلك بعد مقدمه المدينة بثمانية أشهر ، فى ذى القعدة فى قول، وفى قول آخر : بعد مقدمه المدينة بسبعة أشهر فى شوال ، وكان قد خطبها بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة خديجة. وانتقلت عائشة من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، وكان مسكنها إلى جانب مسكن سودة التى وجدت فيها عائشة منذ البداية أما ودودا حانية ، لم تختلف معها أبدا . أما النبي فقد كان بالنسبة لهذه الزوجة الصغيرة زوجا عطوفا وأبا باراً ، لم يعترض يوما على لعبها بعرائسها أو لهوها مع من هن فى مثل سنها .

(٢)

بداية تكوين الأمة

المؤاخاة بين المسلمين:

فى المدينة رأى النبي أنه لابد من قيام مجتمع مترابط تقوم على أساسه أمة ناهضة قوية يمكنها نشر دين الله القائم على دعائم الحق والعدل والمساواة بين البشر ، لا فضل لعربى على أعجمي ولا لأبيض على أسود ، الكل لآدم وآدم من تراب ، للسيد حقوق وللمسود حقوق وكلاهما أمام الله سواء ، لا كهنوت فى الدين ولا وساطة بين الخالق والمخلوق ، فالمخلوق يلجأ إلى خالقه مباشرة فى أى وقت ويناجيه.

والنبي بسلوكه كان قدوة للجميع ، فهو يخدم نفسه ، ويرتق ثوبه ، ويصلح نعله ، ويحلب شاته ، ويذهب إلى الأسواق لشراء ما يحتاج ، يتحدث إلى كل من يود التحدث إليه : أمة أو أرملة أو مسكين ، يقدم يد المساعدة ويقضى حاجة المحتاج ويعود المريض ، ما ورد بخاطره يوما أن تكون له أبهة ملك أو عظمة سلطان ، كان وأصحابه سواء حتى فى مجلسه لا يتميز عليهم فى شئ ويجلس حيث يجد المكان ، لا يسمح لأحد منهم أن يخلى له مكانه .

يروى أن رجلا وقف بين يدي النبي يوما فأخذته رعدة وسيطر عليه ارتباك شديد، فما كان من النبي إلا أن قال له : هَوْن عليك فلست بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد^٩.

^٩ مختصر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ١٢١

ولكى يوحد صفوف المسلمين ، ويجعل بينهم مودة ورحمة وتعاطفا وقوة ، قرر النبي أن يواخي بينهم ، دعاهم إلى أن يتآخوا فى الله أخوين أخوين . ويقال إنه آخى بسين المهاجرين بعضهم البعض ، وآخى بين المهاجرين والأنصار على الحق والمؤاسة وإنكار الذات إلى حد التوارث بعد الممات دون نوى الأرقام . فلما كانت وقعة "بدر" وأنزل الله تعالى : " وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شئ عليم " نسخت هذه الآية ما كان قبلها وانقطعت المؤاخاة فى الميراث ، ورجع كل إنسان إلى نسبة وورثه ذوى رحمه .^{١٠}

عاش المهاجرون فى بيوت من آخوهم من الأنصار وشاركوهم معيشتهم . فأغلبهم قدم المدينة وهم لا يملك الكثير وربما لا يملك شيئا ، بعد أن تركوا ما يملكون فى مكة طوعا أو كرها . وكان كل ما حمله أبو بكر لا يزيد عن خمسة آلاف درهم أنفق منها الكثير . لم يكن بين المهاجرين من هو على ثراء سوى عثمان بن عفان ، وكان صاحب مال وفير . أما حمزة وعلى وزيد ، وغيرهم كثيرون ، فما كانوا يملكون شيئا ، ويقال إن حمزة توجه يوما إلى النبي يطلب الطعام . أما على فيقال إنه كان يحمل الماء فى قربة على ظهره ويبيعه للناس .

إتجه بعض المهاجرين إلى التجارة كى لا يكونوا عالة على الأنصار . ويروى أن عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع كانا أخوين ، آخى بينهما النبي ، وكان عبد الرحمن بن عوف قد وصل يثرب خاوى الوفاض لا يملك شيئا ، فعرض عليه سعد أن يقاسمه ماله ، فأبى ابن عوف وطلب من سعد أن يبدله على السوق . وفى السوق بدأ عبد الرحمن يبيع أشياء بسيطة كالجن والزبد ، واستطاع بمهارته كأحد تجار مكة أن يوسع دائرة بيعه وشرائه ، وأن يُنمى تجارته ، حتى نجح فى تكوين ثروة وأصبحت له قافلة تخرج بتجارته وتعود محملة بما يحتاجه أهل المدينة . وكما فعل عبد الرحمن بن عوف ، فعل أكثر من مهاجر وهم تجار بحكم الطبيعة والتكوين . وسنرى فيما بعد كيف سينجحون فى الاستقلال بسوق لهم فى المدينة ، مما سيثير غضب تجار اليهود وحنقهم .

ويذكر بعض الرواة ، من أمثال الطبري وابن سعد ، أن بعض المهاجرين ، ومن بينهم أبو بكر وعمر ، قد اشتغلت أسرهم بالزراعة في أراضي الأنصار ، وبذلك تمكنوا من تدبير أمور معيشتهم .

أما الفقراء والمعوزون الذين لا مال ولا ماوى لهم ، فقد عاش أغلبهم في المسجد ، وأطلق عليهم - كما سبق وأشرنا - أهل الصُّفَّة ، وتكفل الأثرياء القادرون بالإنفاق عليهم .
الزكاة :

وفى تلك الآونة فرضت الزكاة التى كان بعض المسلمين فى أشد الحاجة إليها، أصبحت فريضة جوهرية من فرائض الدين . فالمسلم الذى يقيم الصلاة لابد وأن يؤتى الزكاة : " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " . وهكذا بدأ التكافل فى المجتمع . للفقراء حق معلوم فى أموال الأغنياء . يقول الدكتور شوقي ضيف فيما يختص بفريضة الزكاة : لم يُجعل قانون الزكاة تقبلا بحيث يصعب على المسلمين تحمله ، إذا كان ولا يزال - العشر فى حصيدة الأرض التى تزرع بالآلات ، وربع العشر فى رؤوس الأموال وفى عروض التجارة.¹¹

بجانب الزكاة كانت الصدقة ، وهى تعطي تطوعا ، سرا وجهرا ، دون استعلاء أو غطرسة أو تجريح : " قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى " ، فالصدقة المصحوبة بالمن أو المهانة لا ثواب عليها عند الله ، ولا رضاء عنها لدى البشر ، حتى الذين يتلقون هذا النوع من الصدقة لا يسعدون ، وقد تشقى نفوسهم بها رغم احتياجهم إليها ، والكلمة الطيبة فى هذه الحالة أفضل .

وعلى مانح الزكاة أن يعطي من أفضل ما عنده لا من أردئة ، ولو فعل ذلك سرا لكان الفضل عظيمًا والثواب أعظم ، وبذلك حفاظا على كرامة المحتاج وحفظا لماء وجهه.

¹¹ د. شوقي ضيف ، محمد ، ص ١٦٨

الصيام :

فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الصيام ، وهو فريضة يتوخد فى أدائها المسلمون توخدا كاملا ، فهم يمسكون عن الطعام فى وقت واحد ويتناولونه أيضا فى وقت واحد ، تماما كما يتوحدون وهو يؤدون الصلاة فى أوقاتها.

والصوم فى اللغة ، كما يقول الشيخ الصابوني ، هو الإمساك عن الشئ والتترك له .. ويقول أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم . وفى الشرع هو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع ، مع النية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، وكماله باجتناب المحظورات وعدم الوقوع فى المحرمات .

ويقول معاذ بن جبل إن رسول الله قدم المدينة فصام يوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر ، ثم إن الله عز وجل فرض شهر رمضان .. وبذلك حل صوم شهر رمضان محل صوم يوم عاشوراء الذى أصبح بعد ذلك تطوعا يصومه من يريد وينصرف عن صومه من لا يريد ولا لوم عليه .

ويقال إن شهر رمضان سمي رمضانا لأنه يرمض الذنوب أى يحرقها . ويقول الزمخشري : لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت فيها ، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمي رمضان ^{١٢}.

وشهر رمضان - الشهر التاسع فى السنة القمرية التى تفتتح بشهر المحرم - هو أفضل الشهور عند الله وعند المسلمين ، ذلك لأنه هو الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، لذلك وجب صومه.

كان النبى عندما قدم المدينة - كما أشار معاذ بن جبل - قد وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم عن ذلك ، فأخبروه أنه اليوم الذى أهلك الله فيه فرعون وآله وأنقذ موسى وقومه من طغيان فرعون وجبروته ، فهو بالنسبة لهم يوم خلاص يجب أن يتقربوا فيه إلى الله بالصيام . عندها - كما يحكى الرواة - قال النبى : نحن أحق بموسى منهم وأمر الناس بصوم يوم عاشوراء .

¹² الصابوني ، تفسير آيات الأحكام ، ج ١ ، ص ١٨٨ - ١٩٠ .

لكن ابن سعد يذكر سببا آخر لصوم عاشوراء ، فهو يرجعه إلى الطوفان وخروج نوح ومن معه من الفلك ، يقول : ثم تَبَدَّ الطوفان ، فركب نوح السفينة ومعه بنوه ... فركبوا فيها لعشر ليال مضين من رجب ، وخرجوا منها يوم عاشوراء من المحرم ، فلذلك صام من صام يوم عاشوراء .^{١٣}

تقول كارين أرمسترونج : يبدو أن محمداً في تلك الفترة كان يحاول أن يتخذ من حياة اليهود الدينية نموذجاً لحياة المسلمين غير أنه قبل بدر بأيام قليلة حرر الإسلام من عادات العقيدة القديمة حينما غير موضع القبلة ، وعقب الانتصار بأيام قليلة ، في يوم التاسع من رمضان ، أعلن محمد أن صوم عاشوراء ليس إجبارياً ، وأنه بدلا من ذلك سيصوم المسلمون رمضان ليحيوا ذكرى فرقانهم الخاص في بدر . وأصبح صوم رمضان ، والتي بدأت مراعاة أدائه لأول مرة في مارس عام ٦٢٥ ، أحد الممارسات الخمس الأساسية في الإسلام .^{١٤}

وفي رده على بعض المستشرقين الذين يدَّعون أن محمداً قد بدأ الصوم في المدينة تشبهاً بصيام اليهود ، يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : في الواقع أن صيام رمضان كان موجوداً عند العرب قبل الإسلام وأن محمداً خلال إقامته في مكة كان يحافظ على هذه الشعيرة العربية قبل الإسلام .^{١٥}

الدكتور بدوي يشير بقوله هذا إلى ما كان يفعله الحنفاء في مكة قبل الإسلام من انقطاع للعبادة والصوم مدة قد تطول أو تقصر كل حسب استطاعته ، فلم تكن هناك شريعة محددة ، بل كان كل منهم يتصور حسب رؤاه ما كانت عليه شريعة إبراهيم عليه السلام . ولقد كتبنا من قبل ، عن خلوة النبي وتعبده في غار حراء شهراً من كل عام ، وكان الشهر في أغلب الحالات هو شهر رمضان .^{١٦}

أصبح الصوم فريضة من فرائض الإسلام الأساسية .. في صيامه توحيد للأمة ، وذلك باتباع قانون إلهي يتسامي فيه المسلمون جميعاً فوق ماديّات الحياة ومتاعها وإغراءاتها ، مسيطرين على شهواتهم ، كابحين لنزواتهم ، في نفس الوقت الذي يحسون فيه بما يحس الفقراء

^{١٣} ابن سعد ، ج ١ ، ص ٤١ .

^{١٤} كارين أرمسترونج ، محمد ، ص ٢٦٩ .

^{١٥} د. عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن محمد ، ص ١٦٦ .

^{١٦} أنظر كتابنا : محمد - سنوات مكة - دراسة نقدية .

والمعوزون . هذه المشاركة في الإحساس تولد في النفوس تعاطفا وحنوا ، فيمد القادر يده بالمساعدة لمن هو في حاجة إليها ، ويخرج الغني من ماله برضاء نفس ما يسد حاجة الفقير ، وبذلك يتماسك المجتمع الإسلامي ويتوحد .

وتبين آيات القرآن الكريم حتمية هذه الفريضة . يقول جل شأنه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ . وَإِنْ تُصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (البقرة : ١٨٣ - ١٨٤)

زكاة الفطر :

بعد الصيام فرضت زكاة الفطر التي أوجبها الله على القادرين مساعدة منهم للفقراء والمحتاجين ، كي لا يشعروا بالاحتياج في ذلك اليوم الذي هو عيد يجب أن يسعد به الفقراء كما يسعد الأغنياء وفي هذه الزكاة تخفيف لبعض العناء .

صلاة العيدين :

وفي السنة الثانية للهجرة صلى النبي بالناس صلاة العيدين : الفطر والأضحى . وكانت الصلاة قبل الخطبة بغير أذان .

الأذان :

هنا نأتي إلى موضوع الأذان وكيف تم التوصل إليه والأمة ما تزال في بداية نشأتها وتكوينها . يقول ابن اسحق : لما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار ، استحکم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام .. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواعيدها بغير دعوة ، فهم رسول الله حين قدمها أن يجعل بوقا كبوق اليهود الذي يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر الناس بالنافوس فنحبت ليضرب به للمسلمين للصلاة .^{١٧}

^{١٧} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

لكن ابن سعد يقول إن النبي قد استشار أصحابه في أمر الأذان ، وقد كان يكتفى منذ قدومه بأن ينادي منادي : الصلاة جامعة ، فيجتمع الناس . وقد ذكر أصحاب النبي أشياء يجمعون بها الناس للصلاة ، فقال بعضهم البوق وقال بعضهم الناقوس .^{١٨}

كان بين الحضور عبد الله بن زيد الخزرجي ، الذي أهمله ما أمم النبي من أمر الصلاة والأذان ، فأخذ يفكر بعمق ، واستغرقه التفكير لدرجة أنه عندما عاد إلى بيته رفض أن يمسه الطعام ، وأرهقه التفكير فنام . في المنام طاف به طائف : مر به رجل عليه ثوبان أخضران وفي يده ناقوس . قال عبد الله للرجل : أتبيع هذا الناقوس ؟ قال الرجل : ماذا تريد به . قال عبد الله : أريد أن أبتاعه لكي أضرب به للصلاة لجماعة الناس . قال الرجل : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ سأل عبد الله : وما هو ؟ أجاب : تقول الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .^{١٩}

لم ينتظر الخزرجي إلى الصباح ، توجه في الليل إلى النبي وأخبره بالذي رأى . قال النبي : إنها لرؤيا حق ، إن شاء الله . وطلب منه أن يلقيها على بلال كي يؤذن بها ، وأذن بلال للصلاة ، وهو الأذان القائم حتى اليوم ، ويقال إن بلالا في الصباح زاد : الصلاة خير من النوم ، فأقرها النبي ، ولم تكن فيما رأى الخزرجي .

وينقل ابن هشام ما ذكره بعض الرواة من أن الأذان لم يكن رؤيا لرجل من الأنصار ، إنما كان وحيا مباشرا لرسول الله . يقول ابن هشام : اتهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر يريد أن يشتري خشبتين للناقوس إذ رأى عمر بن الخطاب في المنام أن لا تجعلوا الناقوس بل أنتموا للصلاة ، فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بالذي رأى ، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بذلك ، فما راع عمر إلا بلال يؤذن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحي .^{٢٠}

^{١٨} ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

^{١٩} المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

^{٢٠} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

(٣)

دستور الأمة

نجح النبي في المدينة في وضع أسس قوية لأمة إسلامية ناشئة. كان المهاجرون والأنصار خير عون له في تنفيذ أوامر الله ، وتجنب ما نهى عنه ، كما كانت طاعتهم للنبي صادقة مخلصة ، دون شك أو تردد ، فقد كانوا يجدون فيه خير قدوة وأفضل مثل .

لكن المدينة لم تكن مغلفة على مسلميها. كان هناك اليهود وهم أهل كتاب وأصحاب علم وخبرة وفكر وعقيدة من الصعب أن يرتضوا بغيرها بديلا. كما كان هناك من رفضوا الإسلام تمسكا بدين الآباء ، أى بالشرك الوثني ، وإلى جانبهم كان هناك من تظاهروا باعترافهم بالإسلام ولم تؤمن قلوبهم ، وهكذا كانت بداية النفاق في المدينة .

كان على النبي أن يواجه هؤلاء جميعا في صبر وحكمة ، وأن يحاول استيعابهم ، بحيث تندمج القبائل كلها - إن أمكن - في كيان واحد ، وأمة واحدة موحدة .

هنا ، كما يجمع المؤرخون شرقا وغربا ، يبرز دون النبي كسياسي ورجل دولة .

يقول أ. جيفري : في المدينة أصبح محمد رجل دولة وقائد أمة أكثر منه رسولا ورجل

دين .^{٢١}

وتقول كارين ارمسترونج : كان محمد يتمتع بموهبة سياسية رفيعة القدر إذ تمكن من تغيير أحوال أمته تغييرا شاملا وأنقذهم من العنف غير المجدي .. لكن نجاح محمد اعتمد على الرؤيا الدينية التي نقلها للعرب .. ولولا أن الاعتبار الأول للنبي ورفاقه المقربين كان للدين ما كتب لهم البقاء .. كان محمد مؤمنا بالوحي المباشر الآتي من الله ، لكنه كان عليه أيضا أن يوظف كل ملكاته الطبيعية .^{٢٢}

²¹ A.Jeffery, p.3

²² كارين ارمسترونج .

ويرى الدكتور طه حسين أن جهاد النبي في المدينة لم يعد يقتصر على الجهاد الديني، بل شمل الناحيتين السياسية والاقتصادية، وهو وضع أملته طبيعة الأشياء في المدينة. وفي هذا يقول: منذ هاجر النبي إلى المدينة تكونت للإسلام وحدة سياسية لها قوتها المادية وبأسها الشديد، وأحست قريش أن الأمر قد تجاوز الأوثان والآراء الموروثة والسنن القديمة، إلى شيء آخر كان فيما يظهر أعظم خطراً في نفوس قريش من الدين وما يتصل به، وهو السيادة السياسية في الحجاز، والطرق التجارية بين مكة وبين البلاد التي كانت ترحل إليها بتجاريتها في الشتاء والصيف... كان الجهاد في مكة وثنياً خالصاً.. فلما انتقل إلى المدينة أصبح هذا الجهاد دينياً وسياسياً واقتصادياً.^{٢٣}

تبدو مقدرة النبي كسياسي في الأسلوب الذي عالج به الوضع القائم في المدينة. لقد حاول قدر المستطاع أن يضع نظاماً تتوحد به الأمة، ويخضع له كل أهل المدينة من مسلمين ومشركون ويهود، دون أن يفرض على أحد قبول الدين الذي جاء به: لا إكراه في الدين، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالإجبار والقهر. لكن هذا المجتمع لا بد وأن يتوحد، وأن يخضع كل فرد فيه لدستور عادل ينظم العلاقة بين الأفراد وكذلك بين القبائل والعشائر المسلمة وغير المسلمة، ويحمي المدينة من أي خطر يهددها سواء كان ذلك من داخلها أو من خارجها.

هنا تكمن أهمية الكتاب أو الوثيقة التي وضعها النبي كدستور، والتي تعتبر من الوثائق النادرة وغير المسبوقة في تاريخ الأديان، خاصة وأنها تعلن ومنذ البداية عن تسامح النبي وعدم تعصبه وقبوله للآخر حتى ولو اختلف معه في أمور العقيدة: لكم دينكم ولي دين. هذا مبدأ جوهرى من أهم مبادئ الإسلام.

لقد نصت الوثيقة، بوضوح لا لبس فيه، على أن لليهود مثل ما للمسلمين من حقوق وعليهم مثل ما على المسلمين من واجبات في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مع احتفاظهم بحريتهم الدينية: لا يضارون في دينهم ولا يعتدي عليهم في اعتقادهم. يقول ابن إسحق فيما يختص بنص هذا الكتاب أو هذا الدستور:^{٢٤}

^{٢٣} طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص ٤٩.

^{٢٤} ابن هشام، ج ٢، ص ١١٩-١٢٣.

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وادّغ فيه يهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم : " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس : - المهاجرون من قريش على ربعتهم (أى على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدماء) يتعاقلون بينهم (أى يدفعون ديانتهم بعضهم مع بعض) وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تقدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تقدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وكرر النبي هذه العبارة فيما يختص بكل بطن من بطون الأنصار من أوس وخزرج ، إلى أن قال :

- وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا (متقلا بالدين والعيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

- وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى ظلما أو إثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

- ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة : يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

- وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

- وإنه لا يجبر مشرك (من بقى على شركه من أهل المدينة) مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

- وإنه من قتل مؤمنا عن بينة فإنه قودّ (قصاص) به إلا أن يرضى ولى المقتول.

- وإنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما فى هذه الصحيفة وأمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه ، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة .

- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين : لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

ويكرر النبى نفس العبارة بالنسبة ليهود بنى النجار ، ويهود بنى الحرث ، ويهود بنى ساعدة ، ويهود بنى جشم ، ويهود بنى الأوس ، ويهود بنى ثعلبة .

- إنه لا يخرج منهم (أي من اليهود) أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم (أى لا يخرج أحد منهم لقتال إلا بإذن من النبى) .

- وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لا يأثم أمرؤ بحليفة ، وإن النصر للمظلوم .

- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دعوا إذا صلح يصالحونه ويلبونه .

- وإن يهود الأوس : مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذا الكتاب .

- وإن من خرج من المدينة آمن ومن قعد آمن ، إلا من ظلم وأثم .

وفى ختام هذا الدستور الشامل يقول النبی : وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله .

ولقد بيّن هذا الكتاب ، أو هذا الدستور ، بوضوح كامل ، فيما يختص باليهود ، أن لهم ما لأهل المدينة جميعا من حقوق مع احتفاظهم الكامل بحرية العقيدة ، لكن عليهم أن يلتزموا بالمبادئ والواجبات العامة التى تطبق على كل سكان المدينة ، فهم جزء من هذه الأمة الناشئة ومن المستحيل أن تكون لهم أحكام خاصة تتعارض مع النظام العام الذى نصت عليه الوثيقة.

وبنفس الوضوح . نص هذا الدستور على أن اليهود قد أصبحوا ملتزمين أمام النبی، وأمام مجتمع المدينة ألا يناصروا قريشا أو غيرها من المشركين ضد النبی ، وأن يشتركوا فى الدفاع عن المدينة إذا هوجمت ، وأن يساهموا فى نفقات الحرب لأنهم جزء من مجتمعها لا انفصال بينهم وبين أهلها ، فإذا ما أخلوا بهذا العهد سقطت حقوقهم التى كفلها لهم النبی وفقدوا صفتهم كجزء من نسيج هذه الأمة ، وأصبح من حق المسلمين محاربتهم وقتلهم أو إخراجهم من المدينة إذا استدعى الأمر ذلك .

كانت النصوص واضحة ، وقد قبلها اليهود بدليل أنهم لم يعترضوا عليها فى حينها، وقد كانوا آنذاك فى وضع قوى يمكنهم من الاعتراض أو الرفض ، لكنهم لم يعترضوا ولم يرفضوا، وهذا معناه أنهم قبلوا بما نص عليه النبی فى هذا الدستور الملزم .

ويرى مونتجمرى وت أن احتواء الصحيفة على اليهود والإشارة إليهم على أنهم جزء من الأمة معناه أن الوثيقة قد تم تحريرها قبل معركة بدر. لكن عدم ذكر القبائل الثلاث التى تمثل أكثر الجماعات اليهودية - بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة - يعنى أن الصحيفة فى صيغتها الحالية تنتمي إلى فترة ما بعد القضاء على قريظة التى تم استئصالها تماما فى صيف عام ٦٢٧م . وعلى ذلك فإن الوثيقة لآبد وأن تكون قد أخذت شكلها النهائى بعد هذا التاريخ .^{٢٥}

ويمكن الرد على ما يقوله مونتجمرى وت بأن القبائل والعشائر اليهودية ، وإن لم تذكر بالإسم ، فقد تمت الإشارة إليها كحلفاء للعشائر العربية مثل " يهود بنى النجار " أى اليهود

²⁵ Montgomery Watt, Muhammad , Prophet and Statesman, p. 93.

الموالين لبني النجار ، ويهود بني الحرث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود الأوس .. وفى هذا تضمين لكل يهود المدينة .

هكذا وضع النبىء دستوره الذى حاول بما جاء فيه أن يوحد بين مختلف قبائل المدينة وعشائرها ، وأن يخلق منها وحدة متكاملة متفهمة لما لها من حقوق وما عليها من واجبات . وكان هو على رأس هذه الأمة هاديا ومبشرا ونذيرا .

(٤)

الدفاع عن الأمة

كان لابد وأن يكون للأمة الناشئة قوة تحميها ، فالحق لابد وأن تناصره القوة ، وبلا قوة يستشرى الفساد ويسود الباطل ويسيطر الشرك ولا يجد الذين آمنوا مكانا إلا مكان المستضعفين الأذلاء ، وهذا ما يتناقض تماما مع الإيمان بدين الله الواحد الأحد القوى القادر . وما كان للمؤمنين أن يكونوا ضعافاً يرتعدون فى عجز إذا ما ركب الباطل خيله وشرع سيفه . ولهذا كان من الحتمي أن تعد هذه الأمة عدتها للدفاع عن النفس ، وحماية العقيدة ، والعيش فى أمان وإيلاء أو الموت فى سبيل الله .

الإذن بالقتال :

لقد أخرج المهاجرون من ديارهم بعد أن اضطهدوا وأهينوا وغنّبوا وجرد أغلبيهم مما يملك ، وكان من المستحيل أن ينسوا ما فعلته بهم قريش فقد ترك فى النفوس جراحا غائرة . ولو أن قريشا عادت إلى رشدّها وأقلعت عن غيها وطغيانها وأظهرت ولو قليلا من التسامح مع من حاولت أن تسحق من أهلها - فالذين هاجروا ما كانوا إلا قطعاً من أكبادها - .. لو فعلت قريش ذلك لبدت للمسلمين بارقة أمل فى أن يشمل الله بنوره أهل مكة .

لكن قريشا ، على العكس من ذلك ، بدأت تتصل باليهود والمشركين من أهل المدينة ، وكذلك بالذين أسلموا نفاقا ولم تؤمن قلوبهم وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول .. أخذت تحرص هؤلاء جميعا على اتخاذ موقف عدائى من محمد وأصحابه .

ويقال إن قريشا أرسلت خطابا إلى عبد الله بن أبي ، الذى كان سينصب ملكا على المدينة قبل وصول النبى ، تقول فيه : لقد أويت رجلنا (تقصد محمدا) ، وعليك أن تقتله أو تخرجه من المدينة ، وإلا فإننا نقسم أن نغزوكم .. نقتل رجالكم ونسبى نساءكم فيصبحن لنا متاعا .²⁶

لم يكنف القريشيون بذلك ، بل بدأوا التحرش بالمسلمين رغم بعد الشقة . أرسلوا بعض رجالهم فأغاروا على أطراف المدينة ، دمروا الأشجار بما تحمله من ثمار ، واسبقولوا على أغنام وماشية .

ووصلت الأخبار إلى النبى ، ثم توالى وصولها : إن قريشا لن تترك المسلمين كي يعيشوا فى سلام ، لكنها بالتحالف مع قبائل أخرى ستقوم بالهجوم على المدينة بغية القضاء عليهم .

بالطبع كان لقريش مخاوفها ، فقوافل تجار مكة تمر بصحراء المدينة وهى فى الطريق إلى الشام ، ولو قويت شوكة محمد وأصحابه لاعترضوا طريق التجارة وتصدوا للقوافل وأغاروا عليها ، ولو فعلوا ذلك مالمهم أحد . وقريش لا تنسى - فالعهد قريب - أنها جردت أغلب هؤلاء المهاجرين من أموالهم ، سلبتهم سلبا . فإذا ما حاول هؤلاء استرداد ما سلبت قريش بالباطل لبدا عملهم مشروعا ، فهى محاولة بالحق لاسترداد ما سلب بالقهر . العين بالعين ، والسن بالسن ، والبادئ أظلم : هذا قانون يعرفه الجميع ، مسلمون ومشركون ويهود ، ولا ينكره أحد .

لهذا كان اتصال القريشيين باليهود والمشركين من أهل المدينة ، فى محاولة لتأليبهم على المسلمين ، ولهذا كان التحرش بأتباع النبى ومهاجمة أطراف المدينة وتخريب ونهب كل ما يمكن تخريبه ونهبه ، تهديدا وتخويفا وتمهيدا لضربة ساحقة تنهى مشكلات قريش وتقضى على مخاوف أهلها من خطر محمد وأصحابه .

ونزل الوحي بالإذن بالقتال دفاعا عن النفس : " أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَغْيًا فَإِنَّمَا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَّا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " (الحج : ٣٩ - ٤٠) .

²⁶ A. Husain, p. 25 .

هذه أول آية نزلت في القتال. ويقول أبو بكر بن العربي : والصحيح أن أول آية نزلت آية الحج : "أذن للذين يقاتلون.." ثم نزل : " وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم"، فكان القتال إذنا ، ثم أصبح بعد ذلك فرضا ، لأن آية الإنان في القتال مكية ، وهذه الآية مدنية متأخرة .^{٢٧}

الواضح هنا ، بصورة جلية لا لبس فيها ، أن الإسلام دعا إلى القتال دفاعا عن النفس وحفظا للكرامة ، وفي سبيل الله ، وضد من يهددون دعوة الحق ويحاولون القضاء عليها . وينتهي القتال بانتهاء الدافع إليه ، فلا انتقام ولا مثلة ولا حرق ولا تدمير ولا إبادة ، فالسلام هو جوهر الإسلام .

وهنا- أيضا - تجدر الإشارة ، ولو بصورة عابرة ، إلى ما رَوَّج له كثرة من كتاب الغرب ، نتيجة حقد أو جهل وغالبا ما هو جهل لضعف معرفتهم بالدين الحق ، من أن محمدا قد أمسك بالسيف ورفع منبرا ومهددا بإراقة الدماء كي يفرض ما جاء على مجتمع يبغضه ويرفضه . والصحيح هو عكس هذا الكلام ، فقد كان محمد وأصحابه هم المهديين دوما بالإبادة والاستئصال .

لقد وضع الإسلام مبادئ سامية للقتال ، دفاعا لا اعتداء ، يندر وجودها في أى شريعة أو دين . ومن أهم هذه المبادئ :

١- السلام جوهرى وهو دعامة الحياة في الإسلام ، أما الحرب فلا يتم اللجوء إليها إلا في حالات الضرورة القصوى إذا ما ضاقت كل السبل وسدَّت كل المنافذ ، فما جاء الإسلام إلا لتوفير السكينة والسلام للبشرية جمعاء . وكلمة الإسلام تعني السلام بين البشر والاستسلام ، أى الطاعة ، لمشينة الله وإرادته : " وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " . (المائدة: ٢).

٢- حياة الفرد في الإسلام لها قدرها واحترامها ، ويجب حمايتها وعدم الاستهانة بها ، لا الفتك بها والقضاء عليها : " فاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ " (الزخرف: ٨٩). وطالما احترمت الإنسان حق الآخرين في الحياة، فليس من حق أحد أن يعتدي عليه أو أن يقتله: " وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "

²⁷ الصابوني ، تفسير آيات الأحكام ، ص ٢٣٠ .

(الأنعام : ١٥١) ، و " مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ
نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا " (المائدة : ٣٢) . وهذا يؤكد قداسة الحياة في الإسلام .

٣- لكن إذا ما مُدِّدَ المسلمون في أنفسهم وفي مجتمعهم بمن يريد حربهم وتدميرهم، فإن
الحرب في هذه الحالة لا تصبح اختياراً ، بل تصبح قدراً مقدوراً . القتال في هذه الحالة
لا مفر منه لأنه فرض على المسلمين فرضاً ولم يكونوا هم بادئين بقتال : " أَذِنَ لِلَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ " (الحج : ٣٩) ، وهي أول آية نزلت
فيما يختص بالقتال دفاعاً عن النفس .

٤- الحرب لم تشرع في الإسلام للعدوان ، وحتى في حالة الاعتداء على المسلمين
ومهاجمتهم يجب عدم اللجوء إلى السلاح إلا بعد أن تستنفد كل البدائل من أجل السلام ،
فإذا فشلت كل المحاولات في إقناع العدو بالجنوح إلى السلم فإن الحرب في هذه الحالة
تصبح حتمية ، وهي حرب دفاع لا اعتداء . لقد طلب النبي من أصحابه ألا يتمنوا
الحرب وأن يصلوا نوماً من أجل السلام .

٥- أوصى النبي أصحابه ألا يقتلوا رجلاً استسلم لهم دون قتال ، أو ألقى سيفه علامة على
الخضوع وعدم المقاومة .

٦- حرّم النبي قتل النساء والأطفال والشييوخ والرهبان .

٧- تجنب إزهاق الأرواح كان وما يزال من أهم سلوكيات الحرب عند المسلمين . فليس من
أهداف الإسلام إراقة الدماء . ومن المعلوم تاريخياً أنه خلال خمس عشرة غزوة من
غزوات النبي لم ترق قطرة دم واحدة . وفي معارك بدر وأحد والأحزاب وحنين ،
وهي معارك كبيرة ، بل إنها هي المعارك الرئيسية في حياة النبي ، كان عدد القتلى
٢٩٨ قتيلاً (١١٧ من المسلمين و١٨١ من المشركين) .

لقد كان عدد القتلى في كل المعارك التي خاضها المسلمون في عهد النبي منذ بدايتها إلى
نهايتها ١٠١٤ قتيلاً (٢٥٥ من المسلمين و ٧٥٩ من غير المسلمين). وكان العدد الإجمالي

لأسرى الحرب ٦٥٦٤ ، تم إطلاق سراحهم جميعا باستثناء اثنين كانا قد ارتكبا جرائم فى السابق فتم قتلهم.

إن تخليص شبه الجزيرة العربية من عبادة الأوثان ، وهدايتها كي تتبّع ديانة توحيدية خالصة وتجريدها من كل موبقات ممارساتها الجاهلية ، بهذه التضحيات شديدة الضالة ، يعتبر عملا قذا من أروع أعمال العبقريّة الخلاقة .

وعلى الذين يتشدقون " بدموية " النبي ، أن يخلّجوا إذا ما ذكرناهم بالملايين من البشر الذين تمت إبادتهم فى حروب المدنيات الحديثة .

٨- حرّم الإسلام الاعتداء على الأدميين المسالمين الذين يريدون العيش فى سلام : " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " (البقرة: ١٩٠) .

٩- احترام العهود والمواثيق التى يتم عقدها بين المسلمين وغير المسلمين وعدم نقضها ، ما دام الطرف الآخر يحترمها ولا يخرج على ما جاء بنصوصها : " ... وبُعْثَ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ " (الأنعام ١٥٢) .

١٠- عدم قتل أسرى الحرب ومعاملتهم بمودة ورحمة : " وَيطعمونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا " (الإنسان ٨-٩) .

١١- عدم مقاتلة العدو إذا ما ألقى السلاح وأعلن عدم الرغبة فى الحرب : " فَإِنْ اعْتَذَلَوكُمْ فَلَمْ يَقَاتِلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا " (النساء: ٩٠) .^{٢٨}

١٢- ينهى الإسلام عن وضع الأغلال فى رقاب الأسرى إذلالا لهم . يقول النبي لأصحابه وهو خارجون للقتال : انطلقوا باسم الله وعلى بركة الله . لا تقتلوا شيئا فانيا ولا طفلا ولا امرأة . ولا تغلّوا .. وأصلحوا إن الله يحب المصلحين.

²⁸ Afzalur Rahman, Muhammad, Ecycopadia of Seerah, vol. I, The Muslim School Trust, London, 1981, pp. 665- 668.

١٣- حرم الإسلام النهب وأوجب على المقاتلين ألا يستولوا إلا على ما يفي باحتياجاتهم ، كما نهى عن إتلاف الزرع وقطع الأشجار والفتك بالحيوان، ونهى عن الإجهاز على الجريح .

ومما سبق يبدو بوضوح أن قوانين الحرب فى الإسلام هى قوانين رحمة ، لا سوط عذاب: " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " .

وإذا ما تمت المقارنة بين هذه التعاليم الإنسانية السامية وما جاء فى " التوراة " من قوانين خاصة بالحرب . نجد الفرق هائلا ، بل مخيفا ومروعا. يقول النص التوراتي : " فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر ، وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم .. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم . وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار. وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم " (عدد ٣١ : ٧-١١) .

وفى سفر " التثنية " تنص التوراة على القتل والحرق والإبادة الكاملة : " فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتُحرِّمُها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف. تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعد " (تثنية ١٣ : ١٥-١٦) .

هذا ما نص عليه كتاب اليهود " المقدس " وهو أيضا مقدس بالنسبة للمسيحيين ، فالمسيحيون يؤمنون بالتوراة إيمانهم بالأنجيل ، أى أن كلا من اليهود والمسيحيين يؤمنون بما نصت عليه قوانين الحرب التوراتية من تدمير وحرق وإبادة شاملة دون رافة أو رحمة. وهذا ما فعله اليهود خلال كل أطوار حياتهم كلما ملكوا مقدره الفعل ، وما يفعلونه بفلسطين اليوم من إبادة جماعية وهدم للمدن وتدميرها كاملا وقتل الأطفال حتى الرضع منهم ، خير دليل على أنهم ينفذون التعاليم الشيطانية التي يعتقدون أن الرب قد أملاها على نبيهم فى التوراة .

ولقد فعل المسيحيون ما هو أسوأ أثناء الحروب الصليبية التي أبادوا فيها عشرات الآلاف من المسلمين إبادة كاملة دون شفقة أو رحمة ، معتقدين أنهم يحاربون فى سبيل الصليب ،

ونسى السفهاء أن صاحب الصليب كان داعية سلام . كانوا ينفذون التعاليم الشيطانية التى اعتقدوا - كما اعتقد اليهود - أنها من وحي الرب .

(٥)

الغزوات والسرايا

" السرية " - كما يرى كتاب السيرة - هى مجموعة صغيرة من المقاتلين تحت إمرة واحد منهم يعينه النبى ، تخرج للاستطلاع والحراسة ، وأحيانا تقاتل إذا ما دعت الحاجة للقتال .
أما " الغزوة " فهى التى يخرج فيها النبى بنفسه على رأس الجيش المقاتل ، وربما قاتلوا وربما لم يقاتلوا ، والذى حدث بالفعل هو أنه فى أغلب الغزوات لم يقاتل النبى ، ربما لفرار العدو أو لعقد الصلح أو لأسباب خارجة عن قدرة الفريقين المتحاربين كما حدث فى غزوة الخندق عندما ثارت الطبيعة واشتدت الرياح مما أدى إلى انسحاب الأحزاب .

ويروى ابن سعد ، عن آخرين ، أن عدد مغازى النبى التى غزا بنفسه كان سبعة وعشرين غزوة ، وكانت سراياه التى بعث بها سبعا وأربعين سرية ، وكان ما قاتل فيه من المغازى تسع غزوات : بدر القتال وأحد والمريسيع والخندق وقريظة وخيبر وحنين والطائف . فهذا ما اجتمع لنا عليه ^{٢٩} وما عدّد ابن سعد ثمانية فقط ، فكيف يقول إنها تسع !!؟
سرية حمزة :

ومما يدل على جنوح المسلمين للسلم وعدم نزوعهم للقتال ، هو أن أول سرية يأمر النبى بخروجها ، وقد عقد لواءها لعمه حمزة بن عبد المطلب ، لم تؤمر بقتال كما أن السرية التى تلتها ، وهى سرية عبيدة بن الحارث ، هى أيضا لم تقاتل .

كان خروج حمزة فى الشهر السابع من الهجرة ، وقد خرج فى ثلاثين رجلا من المهاجرين ، ولم يخرج معهم من الأنصار أحد ، ذلك لأن الأنصار كانوا قد تعاهدوا مع النبى على حمايته إذا ما هوجم فى المدينة .

^{٢٩} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ .

عقد النبي لحمزة لواء أبيض ، يقال إنه أول لواء عقد في الإسلام . وخرج حمزة بمن معه إلى ساحل البحر الأحمر واعترض عيراً لقريش قادمة من الشام في طريقها إلى مكة ، وكان على رأس القافلة أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل ، ولم يحدث بين الفريقين قتال . ويقال إن ذلك كان بسبب تدخل مجدي بن عمرو الجهني وكان حليفاً للفريقين . انصرف أبو جهل بمن معه إلى مكة ، وعاد حمزة ومن معه إلى المدينة .

سرية عبيدة بن الحارث :

وقد حدث نفس الشيء عندما خرجت سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في الشهر الثامن للهجرة . وكان النبي قد عقد له لواء أبيض وأمره بالخروج على رأس ستين رجلاً من المهاجرين ، فلقى أبا سفيان بن حرب وهو في مائتين من أصحابه .. التقوا على ماء بالحجاز يقال له " أحياء " ولم يكن بين الفريقين قتال ، إلا أن سعد بن أبي وقاص رمى بسهم ، فكان أول سهم رمي به في الإسلام ، ثم انصرف القوم عن القوم .³⁰

غزوة ودان :

كما أن أولى غزوات النبي وهي غزوة ودان ، كانت للموادة ، ولم يحدث بها أي قتال . خرج النبي في هذه الغزوة في صفر بعد أن مضى عليه في المدينة اثنا عشر شهراً ، واستعمل على المدينة سعد بن عباد . صحبه جمع من المهاجرين ليس بينهم أنصاري ، وقد حمل اللواء الأبيض حمزة بن عبد المطلب . بلغ النبي " الأبواء " وهي قرية علي بعد عشرين أو ثلاثين ميلاً من المدينة . وهناك وادع مخشى بن عمرو الضمري ، سيد بني ضمرة ، على ألا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه . ولا يكثرؤا عليه جمعا ، ولا يعينوا عدوا ، وكتب بينه وبينهم كتاباً .³¹ هكذا نرى أن الخروج لم يكن لقتال ، إنما كان لعقد عهد أمان وسلام . هذا إلى جانب إشعار المشركين من قريش وغيرها أن المسلمين قد أصبحوا قوة قادرة على حماية نفسها والدفاع عن دينها وأرضها .

30 ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

31 ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٨ .

بدر الأولي :

ومما يطلق عليه " غزوة " وما هي بغزوة ، خروج النبي لطلب كُرز بن جابر الفهري ، في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهرا من الهجرة . أغار كُرز بن جابر على سرح المدينة . كان السرح يرعى على بعد ما يقرب من ثلاثة أميال من المدينة فاستأقاه كُرز ، وخرج النبي في طلبه حتى بلغ واديا يقال له " سفوان " من ناحية بدر .

وفاته كُرز بن جابر فلم يدركه ، وعاد النبي إلى المدينة ويطلق كتاب السيرة على هذا الخروج عبارة " غزوة بدر الأولى " .

ولا ندري لماذا أطلق عليها كتاب السيرة اسم " غزوة " ولم يكن بها لقاء من أي نوع في ساحة قتال . كانت مجرد سرقة ، لص ماشية نجح في سرقة بعض الإبل والغنم ونجح في الفرار . وخرج النبي وبعض صحبه في أثر اللص كي يستردوا ما سرق فلم يدركوه . فلماذا تسمي هذه غزوة ، تقف من حيث التسمية على قدم المساواة مع بدر وأحد والأحزاب ، على سبيل المثال ؟

سرية عبد الله بن جحش :

لن نقدم سردا تفصيليا لكل ما ذكرته كتب التراث من سرايا وغزوات ، لأننا بتكرارها لن نضيف شيئا ، وكتب التراث كلها مكتظة ومتشابهة في هذا المجال . لكننا سنركز على المعارك الفاصلة التي كان لها أثر محوري بارز في تاريخ الإسلام .

هنا تجدر الإشارة إلى سرية عبد الله بن جحش ، لما أثارته من جدل ، ولما نزل فيها من

وحي .

بعث النبي عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي - في رجب من العام الثاني للهجرة - ومعه ثمانية من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد . ويرى الواقدي أن الذين خرجوا مع عبد الله بن جحش لم يكونوا ثمانية ، بل كانوا اثني عشر رجلا . كتب النبي لعبد الله بن جحش كتابا وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين ، بعدها ينظر في الخطاب ويمضي لما أمر به ، بشرط ألا يستكره أحدا من أصحابه .

بعد مسيرة يومين ، فتح عبد الله الكتاب ، فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فسر حتى تبلغ نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم .

يلاحظ هنا ، بمنتهي الوضوح أن هذه السرية لم تخرج لقتال ، بل كانت مجرد سرية استطلاعية لمعرفة أخبار أهل مكة وما إذا كانوا يدبرون لكيد أو حرب ، وهذا مباح ومشروع ، بل ضرورى ومطلوب ، للحفاظ على أمن المسلمين وسلامة أمته الناشئة .

ولا ينكر أحد أن نظم الاستطلاع والتجسس وتجنيد العملاء فى كل دول العالم حاليا - وخصوصا العالم الغربى الذى يتشدد المستشرقون فيه بأكذوبة انتشار الإسلام بحد السيف - قد بلغت درجة هائلة من التغلغل والافتحام عن طريق أحدث الأجهزة المعقدة واستخدام المال والجنس والتهديد بالتصفية الجسدية ، وهم لا يبالون بفناء المئات ، بل الآلاف من البشر فى سبيل تحقيق أهدافهم وضمان أمن بلادهم ، دون مراعاة لأى مبدأ من مبادئ الأخلاق ، ذلك لأن السياسة فى رأيهم لا ضمير ولا خلق لها . ومع ذلك يخرج بعض سفهاء المستشرقين فى تلك البلاد وهم يتصايحون ويولولون وينشرون الأكاذيب عن " بشاعة الإسلام وقسوته " لأن رجلا واحدا من المشركين قد قتل أثناء تنفيذ هذه السرية لمهمتها .

قال عبد الله بن جحش لمن معه : قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشا حتى آتية منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره منكم أحدا ، فمن كان يريد منكم الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، وأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومضى عبد الله بن جحش ومن معه ، لم يتخلف عنه منهم أحد ، لكن سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان أضلهما بعير لهما كانا يعتقبانه فتخلفا ، واستمر عبد الله وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة .

يعلق مونتجرى وت على تعليمات النبى لهذه السرية بقوله :

أول ما يلاحظ فى هذه القصة هو الاحتياطات التى اتخذها محمد للحفاظ على السرية الكاملة . إنه لم يكتف بإعطاء قائد السرية تعليمات فى رسالة مغلقة ، لم يكن يعلم بمحتواها سواه هو نفسه وكاتب الرسالة وواحد أو اثنين من أقرب خلائه ، لكنه أرسل السرية عن

طريق نجد في اتجاه الشرق ، رغم أن هدفهم النهائي كان في الجنوب . لقد فعل ذلك ، دون أدنى شك ، كي يضلل نظام التجسس المكي فلا يمكنهم من اكتشاف ما هو مقبل عليه .

أما السبب الذي أثار التردد في نفوس بعض أفراد المجموعة ، عندما قرأوا تعليمات محمد ، فقد كان بالتأكيد إدراكهم لخطورة ما هم مقدمون عليه . إن العربي جرئ إلى حد التهور عندما يفعل ويثار دمه ، لكنه عندما يفكر في هدوء يحاول دوما أن يتجنب مكامن الخطر . وهذا بلاشك هو ما دعا محمدا إلى أن يطلب من عبد الله بن جحش أن لا يستكره أي شخص يراه مترددا في قبول المهمة . وعلى ذلك فإن واقعة سعد بن أبي وقاص وصاحبه الذي كان يشاركه ركوب الناقة تستحق الاهتمام . إن القصة التي قاما بروايتها عند وصولهما إلى المدينة - بعد أن عادت السرية وقد أدت مهمتها بنجاح - عن أن الناقة قد شردت وأنهما ذهبا يبحثان عنهما ، وبذلك انقطعت صلتها ببقية المجموعة .. هذه القصة يمكن الشك في صدقها .³²

في " نخلة " حيث تمركز عبد الله بن جحش وصحبه ، مرت غير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة قريش قدموا بها من الطائف ، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميان والحكم ابن كيسان مولى هشام بن المغيرة .

تشاور عبد الله ومن معه في أمر القافلة . كان ذلك في آخر يوم من رجب وهو من الأشهر الحرم . ترددوا قليلا وقد هابوا الإقدام ، ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على الهجوم وقد قرروا الاستيلاء على القافلة ولو أدى ذلك إلى سفك الدماء .

رمي واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، وكان أول دم أراقه المسلمون . تم أسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ونجح نوفل بن عبد الله في الفرار .

وزع عبد الله بن جحش الغنيمة على أصحابه ، بعد أن حجز للنبي خمس العير ، وذلك قبل أن يفرض الخمس من المغنم . وطبقا لهذه الرواية يكون عبد الله بن جحش هو أول من فرض الخمس للنبي في الإسلام . وفي هذه السرية سُمي عبد الله بن جحش أمير المؤمنين .

³² Montgomery Watt Muhammad at Madina, p. 6.

فلما قدموا على النبي ، قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام . وقف العير والأسيرين ورفض أن يأخذ من ذلك شيئ . فلما قال النبي ذلك سقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم المسلمون فيما صنعوا . قالوا لهم : صنعتم ما لم تؤمروا به وقاتلتهم في الشهر الحرام ولم تؤمروا بقتال !!!

وقالت قریش : استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، فسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال . وقالت يهود : تغافل بذلك على رسول الله : عمرو بن الحضرمي قتله . واقد بن عبد الله : " عمرو " عمرت الحرب ، و " الحضرمي " حضرت الحرب ، و " واقد بن عبد الله " وقدت الحرب .^{٣٣}

اشتد الغضب في قریش ، كما كان الاستياء قويا بين بعض الأنصار في المدينة ، إذ تصوروا أن النبي قد انتهك حرمة شهر حُرِّم فيه القتال . وفات هؤلاء جميعا أن النبي لا نخل له مطلقا بما حدث ، فقد أرسل أصحابه للاستطلاع فقط ولم يأمرهم بقتال .

ولقد قال ذلك صراحة لرجال السرية عندما عادوا : ما أمرتكم بقتال . فلماذا إذن يوجه اللوم للنبي وتهاجم مبادئ الإسلام ؟ لقد أخطأ ثمانية ، أو عشرة من الرجال ، ولم ينفذوا أوامر النبي ، وعليهم أن يتحملوا وزر ما فعلوا . ثم لماذا يتباكي أهل مكة على قتل فسي الشهر الحرام . وهم أنفسهم كانوا في قتالهم ينتهكون المقدسات ولا يراعون أشهرها حرما أو غير حرم ، بل كانوا لا يترددون مطلقا في قتل أعدائهم جوار الكعبة داخل المسجد الحرام !!!

ربما كان أهل المدينة أكثر تمسكا من أهل مكة بالعقائد القديمة ، لذا كان رد فعلهم تجاه ما حدث قويا ، مما جعل النبي يفكر مليا قبل أن يتخذ قراره النهائي في شأن السرية والغنيمة . لقد كان للأشهر الحرم (رجب ، ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم) قدسيتها في الديانة الوثنية القديمة ، ولم يقم الإسلام بالتقليل من قدرها أو الخروج عليها .

لكن لو افترضنا - يقول مونتجيري وت - أن محمدا عزم على انتهاك حرمة " الشهر الحرام " ، رغم أنه لا يوجد ما يبرهن على صحة ذلك ، فليس معني ذلك أنه كان ينوي شيئا مشينا . إن قدسية شهر رجب كانت مرتبطة بالديانة الوثنية التي يشجبها ، وانتهاك الشهر

"المقدس" يقف على قدم المساواة مع تحطيم الأصنام . لكن - وعلى أساس هذا الافتراض - لماذا تردد محمد في قبول خمس الغنيمة ؟ لا يمكن أن نكون عادلين إذا ما افترضنا أن محمدا قد تخلى عن أصحابه ، أو أنه كان خائفا من قريش .. كل ما في الأمر هو أنه وجد أن الإحساس كان قويا ضد انتهاك حرمة الشهر " الحرام " بين بعض الأنصار في المدينة .. كان أقوى مما يتوقع .^{٣٤}

ونزل الوحي فحسم القضية بأكملها : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ " (البقرة ٢١٧) . فإن كان المسلمون قد قتلوا قريشيا في الشهر الحرام ، فقد ارتكبت قريش ما هو أفصح وأشنع من ذلك ، فقد أهانوا المسلمين وعذبوهم وأخرجوهم وفتنوهم عن دينهم والفتنة أكبر من القتل .

فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف، قبض رسول الله العير والأسيرين . وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، فقال النبي : " لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا " ، يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، "إنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم" ، فقدم سعد وعتبة .. فأما الحكم بن كيسان فأسلم ، فحسن إسلامه وأقام عند رسول الله حتي قتل يوم بدر معونة شهيدا ، وأما عبد الله فلاحق بمكة فمات بها كافرا .

ويقول ابن هشام : وكانت هذه أول غنيمة ، غنمها المسلمون ، وعمر بن الخطاب أول من قتله المسلمون ، وعثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون .^{٣٥}

³⁴ Montgomery Watt, Muhammad at Madina, p.6 .
³⁵ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

الفصل الثاني

غزوة بدر الكبرى

الفصل الثاني غزوة بدر الكبرى

عرفت هذه الغزوة باسم "غزوة بدر الكبرى" كى يتم التفرقة بينها وبين "غزوة بدر الأولى" التى لم تكن فى الواقع غزوة بالمعنى الحقيقى للغزوات . ولقد ناقشنا هذه الحادثة فى صفحات سابقة.

أما غزوة بدر الثانية^١ ، أو غزوة بدر الكبرى ، فهى غزوة فارقة فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، ويومها يسمى بيوم الفرقان ، ذلك لأنها فرقت بين الحق والباطل، أظهرت الحق قويا شامخا منتصرا رغم تفوق الباطل عددا وعدة ، ورغم أن الدلالات المادية على أرض الواقع كانت كلها تشير بوضوح إلى أن تلك القلة التى اتبعت النبى لا يمكن أن تصمد فى وجه الزحف القرىشى المتعطرس باستعلاء الكثرة وقوى السلاح ووفرة المال .

لم يرد بخاطر طواغيت قريش ، بل لم يهدم تفكيرهم القاصر إلى أن تلك القلة التى تواجههم تملك من السلاح ما لا يملكون. لقد تحولوا تحت قيادة النبى إلى قوة روحية هائلة .. طوفان إيمانى يحرك أجسادهم فيقاتلون ببسالة نورانية وكأنهم سيوف الله فى الأرض يجثثون الباطل حتى الجذور. والفرق هائل بين من آمن قلبه وامتلا بنور الله فاستعلى على الدنيا ومن أظلمت روحه وجفت ينباع الخير فى أعماقه فطغى فى عماء وتجبر فى جهل وهو لا يدري أن فى جهله هلاكه وأن فى طغيانه دماره. ما فكرت الكثرة الباغية من قريش لحظة ، الحق أحق أن يتبع . كان هذا أبعد ما يكون عن نهج القوة المتعطرسة.

١- تاريخ المعركة ودوافعها :

يرى ابن إسحق أن وقعة بدر كانت يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان . ونضيف أن ذلك كان فى العام الثانى للهجرة ، أما بيتى كيلين Betty Kelen فتقرى أن المعركة بدأت صباح الجمعة السادس عشر من رمضان ، الموافق الخامس عشر من مارس عام ستمائة وأربع وعشرين ميلادية. ولكن مونتجرى وت يحدد ثلاثة أيام فى رمضان ، هى إلسابع عشر والتاسع عشر والحادي والعشرين من العام الثانى للهجرة ، ولا يجزم فى أى من هذه الأيام وقعت المعركة ، يكتفى بالقول : وقعت فى إحداها.

^١ بدر هى محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئر مفسوبة إلى رجل حفرها يقال له بدر بن النارين . قال الشعبى : بدر بئر لرجل يسمى بدرا (مختصر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣١٥).

والاختلاف في تاريخ المعركة ، بثلاثة أو أربعة أيام. لا يمس جوهرها ، ولا يغير في قليل أو كثير من مسيرتها أو نتائجها ، بدليل أن الذين أرخوا لها لم يركزوا على هذا الاختلاف ، بل ولم يهتموا حتى بمجرد مناقشته. ونميل إلى الأخذ برأى ابن إسحق فهو الشيخ السلطة في هذا المجال .

كانت بدر - في رأى بيتى كيلين - هى أول المعارك الفاصلة : لقد تيقن محمد أنه لابد وأن يتخذ بعض المواقف التى تنسم بالقوة والحسم كى يملأ بطون الجياع من المهاجرين . إنه لا يمكنهم الاعتماد إلى الأبد على إحسان إخوانهم فى الدين وقد كان أغلبهم من المزارعين الفقراء . وجاء الحل لمحمد فى صورة وحى من السماء . وكان هذا الوحى بداية التغيير فى سياسته ومواقفه : فى مكة صرّح له فقط بأن يبشر ويدعو ويتحمل الأذى ، أما فى المدينة فقد أذن له بالقتال .

فى كلمات أخرى ، أو بمعنى آخر ، لن يحصل المهاجرون على طعامهم فى هذا الوقت العصيب من أصدقائهم البشريين ، لكنهم سيقتنصونه اقتناصا من أعدائهم القرشيين الذين لا تتقطع قوافلهم من المرور ذهابا وعودة من مكة إلى سوريا.

خطة محمد هذه جعلت بعض المستشرقين يصفه بأنه لص وقاطع طريق ، وهذا ما لا نؤيده ، ذلك لأن الإغارة على القوافل فى زمنه كانت وسيلة معترف بها لاسترداد الحقوق أو كسب العيش ومواصلة الحياة .

إلى جانب هذا ، فقد كان بإمكان محمد أن يجادل بأن المهاجرين لا يريدون أكثر من تعويض عما فقدوه من ممتلكاتهم ووسائل كسب معيشتهم .. ومما يقوى وجهة النظر هذه هو أن المهاجرين فقط هم الذين اشتركوا فى " الغارات " قبل أحد . ولم يشترك فيها أى من أهل المدينة .²

لقد أنصفت بيتى كيلين فى تحليلها للموقف ولم تتح منحى أغلبية المستشرقين وكتاب الغرب الذين تحاملوا على الإسلام وعلى نبي الإسلام ، كما أوضحنا من قبل فى كتابنا : محمد : سنوات مكة .

النبي يريد أن يسترد بعض ما فقدّه أتباعه من أموال ومناخ .. أن يشعر المسلمون أن سنوات الهوان قد ولت وبلا رجعة .. أن أيام التعذيب والإذلال أبدا لن تعود .. وأنهم قد صاروا قوة قادرة على أن ترهب أعداء الله .. وأنهم قد غدوا قدر الله فى أرضه لإعلاء كلمة هذا الدين .

² Betty Kelen, pp. 117- 118.

٢- أخرجوا إلى غير قريش :

علم النبي أن قافلة كبيرة قد خرجت من مكة متوجهة إلى الشام يقودها أبو سفيان ويحرسها من أشداء قريش ما بين الثلاثين والأربعين وعدد العير ألف ، تقدر حمولتها بخمسين ألف دينار ، وهو مبلغ هائل بحسابات ذلك الزمان .

أراد النبي اعتراض القافلة في رحلة الذهاب ، لكنه لم يدركها. انتظر عودتها وقد عقد النية على ألا تغفل منه .. لا الأموال ، ولا العير ، ولا الرجال. قال لمن حوله : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها. وكما يروى ابن هشام: خف بعضهم وتقل بعضهم ذلك لأنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا.

خرج النبي يوم الاثنين ، الثامن من رمضان ، على رأس أصحابه . استعمل على المدينة أبا لبابة ، كما استعمل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس. هذا ما رواه ابن هشام^٣. لكن ابن سعد يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، على رأس تسعة عشر شهرا من مهاجرة^٤. أما الطبري فيروى - عن غير ابن اسحق - أن خروج النبي من المدينة كان لثلاث ليال خلون من شهر رمضان^٥.

وكما اختلفوا في تاريخ الخروج ، اختلفوا أيضا في عدد من خرجوا مع النبي. ذكر بعضهم أنهم كانوا ثلاثمائة رجل وخمسة نفر ، وذكر آخرون أنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وزاد البعض واحدا فأصبح العدد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ، وزاد آخرون على الزيادة فجعلوهم ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا ، واكتفى البعض بالقول : كانوا ثلاثمائة وسبعة ، ولم يزيّدوا . أما عامة السلف فقد قالوا : كانوا ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلا. وهذا قول حسن ونفضل الأخذ به .

خرج مع النبي من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلا. أما البقية فقد كانوا من الأوس والخزرج ، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها جمع من الأنصار مع النبي للغزو. وأراد بعض المشركين أن ينضموا إلى النبي في الغزو - من أجل الغنائم بالطبع - فأدرك ذلك وأبى .

^٣ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٥١.

^٤ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٢.

^٥ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٥.

تخلف بعض المهاجرين والأنصار عن الخروج لعلّه بيّنه ، وسمح لهم النبي وكان أبرز هؤلاء عثمان بن عفان الذي تركه النبي كي يرعى زوجته رقية في مرضها ، وقد أقام عليها حتى وافتها المنية ولاقت ربها قبل عودة النبي .

كانت الإبل سبعين بعيرا ، فكانوا يعتقبونها ، كل اثنين أو ثلاثة أو أربعة يعتقبون بعيرا ، أى يتناوبون الركوب وكان النبي كأي رجل في صحابته يعتقب بعيرا ، هو وعلى بن أبي طالب وزيد بن حارثة ، لا يمتاز عنهم في شيء ولا يقبل أن يعفوه من الممسير . كان يقول : لست أقل منكم قوة ، ولا أقل منكم طلبا للأجر .

أما عن الخيل ، فلم يكن معهم سوى فرسين فقط : أحدهما للمقداد بن عمرو والآخر لمرثد بن أبي مرثد الغنوي .

دفع النبي باللواء - وكان أبيض - إلى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد الدار . وكان أمامه ريتان سوداوان ، إحداهما مع على بن أبي طالب والأخرى مع سعد بن معاذ .

علم أبو سفيان بخروج النبي .. كانت له عيون تتحسس وتتجسس .. لن يحدث له ما حدث لابن الحضرمي عندما هاجمته سرية عبد الله بن جحش فقتلت وأسرت وسأقت العير . أعمل أبو سفيان فكره .. تجنب طريق بدر وساحل بالعير ، أى شق طريقه بجوار ساحل البحر وترك بدرأ بيسار .. أفلت بما معه ومن معه ونجا .. لكنه في نفس الوقت وزيادة في الحرص أرسل إلى قريش يستغيث بها كي تحمي مالها وتدافع عن شرف كرامتها ووجودها لو حدث ما لم يكن في الحسبان وحم به القضاء على أيدي المسلمين .. استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم . ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها في أصحابه .

خرج ضمضم سريعا إلى مكة ، وكى يلفت الأنظار ، ويدلل على فداحة ما هو مخبرهم به ، جدد بعيره أى قطع أنفه ، وحول رحله ، وشق قميصه ، وصرخ بأعلى صوته وهو واقف على بعيره : يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة - أى العير التي تحمل الحرير والطيب - قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تسدروها ، الغوث الغوث !!^٦

فوجئت قريش بما لم يكن في حسابها ، طعنت في صميم فؤادها بما لم يدر أبدا بخلدائها : " طريد " مكة يخيف رجالها ، يهددها في أموالها وثرواتها ، يطعن كبرياءها ،

^٦ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

يجعلها أضحوكة بين قبائل العرب ، دون ذلك رقاب تقطع ورؤوس تطير من فوق أجسادها. لم يعد هناك أبو طالب أو عبد المطلب ، والعباس مرابى قريش ما زال يحيا بينهم فى ظل كبير عشيرته أبى لهب .

أيظن محمد أن العير التى يقودها أبو سفيان كعير ابن الحضرمي ؟ كلا واللات والعزى وكل أصنام الكعبة التى تقدسها قريش ، ليعلمن غير ذلك . هكذا وسوست لهم شياطينهم .

قادة قريش وأبطالها أعدوا أنفسهم للخروج .. هذا يوم الحزم والحسم .. يوم وجدت فيه قريش فرصتها ، لا لتعطي محمدا ومن معه درسا بحد السيف ، ولكن لتجنته هو ومن معه فلا تبقى لهم من باقية . لن يتخلف من أشرفها أحد . خرج العباس لين عبد المطلب ليواجه ابن أخيه ، النبى ، واصطحب العباس معه طالب وعقيل ولدي أبى طالب أبناء عم النبى. لم يفكر العباس إلا فى ماله الذى يتاجر ويرابى به فى ربوع مكة والذي خشى إن تأخر عن الخروج أن يضار فيه .

لم يرغم أحد العباس على الخروج ، كما يدعي بعض كتاب السيرة فى محاولة لإيجاد تعليل يزيل الحرج عن سلوك عم النبى. ولو تم إرغامه فعلا ، لأرغم من أرغمه أخاه أبا لهب كى يخرج هو أيضا ويرفع سيفه فى وجه ابن عبدالله . لم يخرج أبو لهب رغم كل ما عرف عنه وعن مواقفه المتشددة ضد محمد ، اكتفى بأن بعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة ، وكان قد أربى له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلس بها ، فاستأجره بها على أن يجزى عنه بعثه ، فخرج عنه وتخلف أبو لهب .^٧

وخرج أيضا مع من خرج حكيم بن حزام ابن أخى السيدة خديجة ، وأبو العاصى ابن الربيع زوج زينب ابنة النبى ، وعبد الكعبة بن أبى بكر ، والعاصى بن هشام بن المغيرة خال عمر بن الخطاب .

ويروي ابن هشام أن أمية بن خلف كان أجمع القعود ، وكان شيخا جليلا جسيما ثقيلا ، فأثناء عقبة بن أبى معيط وهو جالس فى المسجد بين ظهراني قومه بمجرة يحملها فيها نار ومجمر حتى وضعها بين يديه ثم قال :

- يا أبا على استجمر فإنما أنت من النساء . قال أمية :

- قبحك الله وقبح ما جئت به !!

⁷ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

وتقدم أبو جهل هو أيضا نحو أمية بن خلف وقدم له مكحلة ومزود ، وقال : اكتحل يا أبا على فإنما أنت امرأة !!

ولم يتحمل أمية بن خلف قسوة السخرية المهينة ، فتجهز وخرج مع الناس .

٣- رؤيا عاتكة :

خرج من مكة جيش قوامه نحو ألف رجل تحت قيادة أبي جهل بن هشام الذي سخر قبل خروجه من رؤيا رأتها عاتكة بنت عبد المطلب ، وبدلا من أن تستوقفه كى يتدبر الأمر قليلا أثارت غضبه وسخطه علي محمد وكل بيت بنى عبد المطلب .

يقال إن عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم^٨ قد رأت قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعها ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له : يا أخي ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني ، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فساكنتم على ما أحذثك به . قال لها : ما رأيت ؟ قالت : رأيت راكبا أقبل على بعير له ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بأعلى صوته : أن انفروا يا آل غدر لمصارعكم .. ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلت منه فلقه .

انتشر أمر الرؤية بين الناس وتحدثت بها قريش حتى وصلت أبا جهل فلم يتوان عن السخرية من بنى عبد المطلب وهو يخاطب العباس وجها لوجه . يقول أبو جهل للعباس ، حسب ما تذكر الرواية : يا بنى عبد المطلب ، متى حدثت فيكم هذه النبوة ؟! ويسأل العباس : وما ذاك ؟ يرد أبو جهل : الرؤيا التي رأت عاتكة .. يا بنى عبد المطلب ، أما رضيتم أن تنتبأ رجالكم ، حتى تنتبأ نساؤكم ؟! زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث ، فسنترى بكم هذه الثلاث ، فإن يكن ما قالت حقا فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك من شئ ، نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب^٩ .

لكن فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، أصيب أبو جهل بصدمة صادمة ما كان ليتوقعها هو أو غيره : ظهر ضمضم وقذف فى وجوههم بالخبر المشنوم .

^٨ تزوجها فى الجاهلية أبو أمية بن المغيرة ، ثم أسلمت بمكة وهاجرت إلى المدينة .
^٩ الطبرى ، ج ٢ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

قد تكون هذه الرؤيا حقيقية ونحن لا ننكر الرؤى فهي جزء من التكوين الإيماني للأصفياء في كل الأديان . وقد تكون جزءا من تراث الأدب الشعبي المتداول في تاريخ الشعوب ، فهي بلا بينة في آية من آيات القرآن ، وبلا مرجع في حديث من الأحاديث ، حتى الذي ذكرها مجهول الهوية ، إذ يشير ابن إسحق إلى من رواها بقوله : وحُثثي من لا أتهم^{١٠} . ونحن لا نعرف شيئا عن ذلك الذي لا يتهم .

٤- رؤيا جهم بن الصلت :

تفوص كلمات عاتكة في أعماق رجل هو أيضا من بني عبد المطلب: جُهَيْم بن الصَّلْت بن مخزومة بن عبد المطلب بن مناف .. تسيطر على وجدانه ، تترسب في عقله الباطن مختلطة بخوفه من مخبة المعركة على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فيختلط القلق الفزع بكلمات عاتكة ويتجسد في رؤيا جديدة يعلنها جهيم قبل المعركة مباشرة ، يقول : إني رأيت فيما يرى النائم وإني لبين النائم واليقظان إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بغير له ، ثم قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأممية ابن خلف ، وفلان ، وفلان ، فعدد رجالا ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش ، ثم رأيته ضارب في لبة بغيره ثم أرسله في العسكر ، فما بقى خبياء من أخبية العسكر إلا أصابه نضج من دمه . قال : فبلغت أبا جهل ، فقال : وهذا أيضا نبي آخر من بني عبد المطلب ، سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا^{١١} .

انتشر خبر هذه الرؤيا قبل المعركة مباشرة ، وكان جهيم يريد أن يثبط بها عزيمة قريش فتعود أدراجها ، دون أن تسفك دماء أبنائها من المشركين ودماء المسلمين المهاجرين وهم أيضا من أبنائها.

٥- قريش تخرج إلى بدر :

تجهز جيش قريش بالسلاح والعتاد والمؤن وبدأوا المسير ، لكنهم فوجئوا برسول آخر من ألبى سفيان يبلغهم أنه قد نجا بالغير ولا حاجة لهم في الخروج أو القتال : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله ، فارجعوا.

قال أبو جهل بن هشام وكان يتزعم الجمع : والله لا نرجع حتى نرد بدر (وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنفق عليه ثلاثا ، فننحصر

^{١٠} الطبري ، ج ٢ ، ص ٢ .
^{١١} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب
وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها ، فامضوا .^{١٢}

٦- النبي يستشير أصحابه :

زاغ أبو سفيان ونجا ، هو والرجال والعير وما تحمل العير . وبدلا من العودة بثرء
الغنيمة إلى المدينة ، أتى النبي الخبر الذي لم يكن يتوقعه : لقد خرجت قريش عن بكرة
أبيها كي تمنع عيرها ، ولن تعود حتى بعد نجاة العير .

أرسل النبي عيونه يستطلع : على بن أبي طالب ، الزبير بن العوام ، سعد بن أبي
وقاص .. ذهبوا إلى ماء بدر يلتصقون الخبر .

الجيش القادم ما بين التسعمائة والألف ، يضم صفوة أشراف قريش : عتبة بن
ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبا البختري بن هشام ، والحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ،
والحرث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحرث ، وزمعة
بن الأسود ، وأبا جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد
ود .

هذا معناه أن مكة قد جادت بصفوة صفوتها ، أو كما قال النبي : هذه مكة قد ألفت
إليكم أفلاذ كبدها .

ماذا يفعل النبي في مواجهة حشود مكة وما خرج لقتال ، وما معه من الرجال سوى
ثلاثمائة وبضعة نفر لم يعدوا إعداد نفسيا وماديا لمواجهة عدو يتفوق عليهم في العدد
والعدة ، وتدفعه رغبة متعطسة في الإذلال والانتقام ؟!

فرت العير ، وما بقى إلا النفير . هل يعود بمن معه إلى المدينة ويتجنب مواجهة
قريش ؟ لو فعل ، لانتشر الإحساس بالمهانة بين المسلمين ، وما جاء هذا الدين إلا مبشرا
بقوة الإيمان ورفعة من اتبعه من المؤمنين .

كان على النبي أن يواجه قريشا . مواجهة الحق للباطل في ساحة قتال أصبح لامفر
منه ، ربما لحكمه ربانية لا تتركها عقول البشر . إنه لا يريد إراقة دماء ، وما بعث من
أجل هذا . لكنها قريش هي التي فرضت المكان والزمان واستلت السيوف
من أعمادها .

^{١٢} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

صحبة النبي أغلبها من الأنصار ، ولم يعاهده الأنصار على القتال خارج حدود المدينة . لقد بايعوه على الحماية والقتال إذا مادهم العدو المدينة ، لكنهم ليسوا مجبرين على الخروج معه لقتال عدو لم يهدد أمن بلدهم .

أراد النبي أن يتأكد .. أن يعرف فيما يفكر من هم حوله قبل أن يحدد خطوته التالية، فالموقف جد خطير : إنه مصير نبي وصحابة وأمة ناشئة ودعوة .

على رأس المهاجرين قام أبو بكر .. تكلم .. فقال وأحسن .. ومن بعده قام عمر فأيد ما قاله أبو بكر وقال وأحسن . من بعدهما قام للمقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله أمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : "فذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون" ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلي برك الغماد (موضع بناحية اليمين) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

أنهى النبي على المقداد بن عمرو ودعاه ، ثم صمت لحظات ينتظر . لكن سكنت الناس .

هنا قال النبي وهو يلتفت جهة الأنصار: " أشيروا على أيها الناس " كانت الإشارة واضحة . إنه يريد الأنصار ولم يكن قد تكلم منهم أحد . إنه لا ينسى أنهم عندما بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله . إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناؤنا ونساعنا .

انبري سعد بن معاذ^{١٣} ، صاحب راية الأنصار ، وزعيم الأوس ، قال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . قال النبي : أجل . قال سعد : لقد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فأمض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخصناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .^{١٤}

انشرح قلب النبي، سره كلام سعد ، قال : سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

^{١٣} تخلف سعد بن عباد ، مدعيا أنه يعاني من عضة أفعى .
^{١٤} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

تمت عملية الشحن الروحي ، لن يكونوا وحدهم في المعركة ، معهم وعد الله ، وفي مقدمة صفوفهم يقف رسول الله ، وفوق رؤوسهم ترفرف راية لا إله إلا الله . إنهم جند الله ، ولن يخلد الله جنده .

ارتحل النبي - كما يروى ابن اسحق - حتى استقبل الصفراء - وهي قرية بين جبلين - ثم سلك ذات اليمين على واد يقال له ذُفْرَان .. ثم ارتحل من ذفران فسلك على ثنايا يقال لها الأصافر ، ثم انحط منها على بلد يقال لها الدَّبَّة^{١٥} .. ثم تحرك حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به .

هنا ، يبدى الحباب بن المنذر بن الجموح وجهة نظره ، ويستمع النبي .. وجَّه الحباب إلى النبي سؤالا ، يستفسر ، قال : يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل أمزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال النبي : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

تأكد الحُباب أن اختيار الموقع ليس بناءً على وحي من السماء ، عندها أشار بما يراه صوابا ، كفارس من فرسان المعركة التي يتم الإعداد لها وكجندي من جنود النبي الذي جاء معلما للجرأة في قول الحق والشجاعة في إبداء الرأي. قال الحُباب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نعوِّر (نفسد) ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون.

وجاء الرد في صفاء نبوي يثني على ذلك الذي تحدث ، ويشعره بحسن ما أبدى من رأى. قال النبي : لقد أشرت بالرأى .

نهض النبي ومن معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغُورَت ، أى ردمت وأفسد ماؤها ، وبنى حوضا على القلب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية^{١٦} .

٧- شقاق في صفوف قريش :

سرت همهمات في صفوف قريش : نجت العير فعلام يكون القتال ؟ من أجل ماذا تراق الدماء ؟ لم يواجه الأب ابنه ، والابن أباه ، كل منهما يريد قتل الآخر ؟ هل هناك ما هو أبشع من هذا السلوك ؟ لم يستل بنو عبد المطلب السيوف ويرمون بالنبل والحرايب

^{١٥} الطبري ، ج-٢ ، ص ٢٦ .

^{١٦} ابن هشام ، ج-٢ ، ص ٢٦٠ .

يبتغون إزهاق أرواح بنى عبد المطلب ؟ ومحمد هذا ، حتى ولو لم يؤمنوا به ، أليست أمه من بنى زهرة ؟ إذن ، فلماذا يعمل بنى زهرة على اقتلاع من نبت فى بستان زهرة ؟ قريش تلتهم أبناءها ؟! هل هذا منطق العقلاء ، وبين القوم حكماء مشهود لهم برجاحة العقل ، وسؤدد الرأى ، وعلو الشأن ؟!

تحولت الهمهمات إلي أصوات ، ارتفع صوت الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، وكان حليفا لبني زهرة ، قال : يا بنى زهرة ، قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما نفرتكم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بي جنبها ، وارجعوا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضئعة ، لا ما يقول هذا الرجل ، يعني أبا جهل ، فرجعوا ، فلم يشهدا زهرى واحد . أطاعوه وكان فيهم مطاعا .^{١٧}

وتحاور طالب بن أبى طالب مع بعض قريش فتطاولوا عليه واتهموه بأنه خرج مرغما وأن هواه مع محمد ، قالوا : والله لقد عرفنا يا بنى هاشم وإن خرجتم معنا إن هواكم لمع محمد ، فغضب ، ورجع إلى مكة مع من رجع .

اتبعت سائر قريش أبا جهل ، نزلوا بالعدوة القصوى خلف كتيب من الزمال . أرسل لهم خفاف بن إيماء بن رخصة الغفاري - وكان حليفا لقريش - ابنا له بجزائر أهداها لهم ، عرض عليهم أن يمدهم برجال وسلاح ، ولكنهم أبوا .. كانوا يتقون فى قوتهم ، ربما غرورا ، ويستخفون بمحمد ومن معه ، ربما حمقا وجهلا .. أرسلوا إليه مع ابنه ، قالوا : أن وصلتك الرحم ! لقد قضيت الذى عليك ، فلعمري لئن كنا نقاتل الناس ، ما بنا من ضعف عنهم ، وإن كنا نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله من طاقة .^{١٨} وكانهم كانوا ، دون وعي ، يتنبأون .

أرسلوا غُمير بن وهب الجُمحي يستطلع أخبار جيش محمد ، ويقص لهم خبر المسلمين . خرج عمير واستجال بفرسه ، دار قدر ما يستطيع حول عسكر النبي ، ضرب فى الوادي أبعد ما يمكنه البعد ، ربما هناك كمين أو حشد آخر أو مدد .. أخبر قومه أن عدد أصحاب محمد ثلاثمائة رجل ، ربما يزيدون قليلا أو ينقصون ، ثم أضاف : لكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا^{١٩} تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم

^{١٧} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

^{١٨} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

^{١٩} جمع بلية ، وهى الناقة أو الدابة تربط على قبر الميت فلا تelf ولا تسقى حتى تموت . وتقول بعض العرب إن صاحبها يوم البعث سوف يحشر عليها .

ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منا أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟

البلايا تحمل المنايا .. كانت صبيحة عمير الفازعة المفزعة .. الموت قادم على أعناق الإبل : لن يقتل من أصحاب محمد رجل إلا إذا قتل من قريش رجلاً أو أكثر .. أصحاب محمد قد حكموا سيوفهم دفاعاً عن دينهم وشرفهم وما خرجوا من أجله وهو استرداد ولو جزء يسير مما أخذ منهم عنوة واغتصاباً ، وتجبراً واضطهاداً .

لم تكن صبيحة عمير مجرد صرخة رجل يهذى في هلع مرتعب . لقد أخذت ملجأ الجد ، وكان لها أثرها في نفوس كبيرة لبعض رؤساء القوم . مشى حكيم بن حزام في الناس حتى أتى عتبة بن ربيعة ، وكل من حوله يعترف من هو عتبة بن ربيعة ، إنه في قريش سيد مطاع وفارس من أمجد فرسانها . قال حكيم وهو يخاطب عتبة : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيد المطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر . قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو ابن الحضرمي . قال : قد فعلت أنت على بذلك ، إنما هو حليفي فعلى عقله وما أصيب من ماله ، فأت أنت ابن الحنظلية .²⁰

كان عمرو بن الحضرمي قد قتلته سرية عبد الله بن جحش - كما سبق وأوضحنا - وكان عتبة بن ربيعة وليه ، وبذلك أصبح من واجب عتبة أن يدفع دية وأن يعوض أهله عما فقد من ماله أو أن يثأر له .

رأى عتبة ، فيما قاله حكيم ، حكمة بالغة .. يقدم لأهل ابن الحضرمي من ماله ما يرضيهم ويزيد ، ويحقن دماء المئات من أهل قريش ، سواء كانوا في جيش المكيين أو جيش المسلمين ، فقريش قد انقسمت على نفسها .. هذا قتال تعافه النفوس الزكية ، وترفضه العقول الواعية .

العقبة الوحيدة في طريق العودة بسلام هو " ابن الحنظلية " أبو جهل بن هشام . وعتبة يشير إليه في هذا الموقف باسم أمه " أسماء بنت مخربة .. بن حنظلة " . وربما تدل الإشارة إلى أبي جهل باسم أمه على ضيق في نفس عتبة وقدر من الاستياء من موقف أبي جهل الذي لو تم له النصر لانفرد بزعامة مكة وفرض نفوذه عليها ، وهذا ما كان يثير المخاوف في نفوس الكثرة ويولد فيهم الرغبة في العودة دون قتال .

²⁰ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

لم يتوان عتبة بن ربيعة لحظة في إتباع ما يمليه عليه الإحساس بخطورة الموقف. قام فى الناس خطيبا ، قال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته . فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب . فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون .^{٢١}

أشار عتبة على الناس بالرجوع . اختتم كلماته بقوله : لا تردوا نصيحتى ولا تسفهوا رأيى .

ثارت ثائرة أبى جهل. اتهم عتبة بالخوف من ملاقة ولده الذى يقا تل فى صفوف محمد ، قد يلتقيا فيقتل أى منهما الآخر. اتهم أبو سفيان عتبة بالجبن ، وأقسم أن لا يرجع حتى يحسم الأمر بحد السيف . لقد استمع أبو جهل لصوت الشيطان فى داخله ، ولم يستمع لصوت الحكمة والعقل ، ولكى يقطع على الجميع خط الرجعة بعث إلى عامر بن الحضرمي وحفزه واستناره ، أمره أن يستصرخ الناس مطالبا بثأر أخيه.

انتقلت حمي الشر من أبى جهل إلى ابن الحضرمي ، قام ، انتفض ، صرخ بكل قواه : واعمره ، واعمره !! اجتمع أمر الناس من حوله ، سيطرت نكرة الجاهلية منبعثة من ظلمات النفوس ، واعمره ، واعمره !! لا بد وأن ترتوي رمال بدر بالدماء . تبخرت كلمات عتبة ، ما عاد يذكرها الناس. كان لا بد وأن تنشب الحرب .

٨ - النبي يسوى الصفوف:

رأى المسلمون أن العدو قد أجمع على محاربتهم. ما كان عليهم إلا الثبات ، هذا قدر الله ولا بد من الامتثال لقضائه ، وهم أصحاب حق يدافعون عنه ويقا تلون فى سبيله إذا ما أرغموا على القتال ، لن يرهبهم عدد العدو وعدته فالعدو لا يملك ما يملكون من قوة إيمان ، ولن يخذل الله نبيه ولن يتخلى عن عباده .

بنى المسلمون الحوض ، كما أشار الحباب بن المنذر ، ثم غوروا ما وراءه من آبار كي يشربوا ولا يشرب العدو. وكما أشار الحباب ببناء الحوض ، أشار سعد بن معاذ أن يُبنى للنبي عريش يكون فيه وتعد عنده ركائبه ، فتكون فى متناول يده إذا ما احتاجها عند الضرورة .

^{٢١} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٦٣.

يقول سعد : يا رسول الله : نبني لك عريشا من جريد فتكون فيه ، ونَجِدُ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك مما أحببناه ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراعنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصرونك ويجاهدون معك .^{٢٢} ثم تنفذ ما أشار به سعد بن معاذ ، وقد أنتهي عليه النبي ودعا له بالخير .

تحركت قريش من وراء الكتيب حيث كمننت ، وظهرت في انبساطة الوادي . عندها رفع النبي يديه إلى السماء متوسلا بالدعاء : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك (تعاديك وتمتنع عن طاعتك) وتكذب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أجنهم (أهلكهم) الغداة .^{٢٣}

أمر النبي أتباعه أن يعدوا أنفسهم للقتال في صفوف متراسة ، وكان في وجوده أمام جنده ، يسوى الصفوف ويعدلها بنفسه ، قوة ما بعدها قوة ، وقوة ما بعدها قوة ، فها هو ذا النبي يقف في مقدمة الصفوف غير هباب ولا وجل .

ولا يخلو الموقف ، رغم خطورته ، من شيء من الدعابة اللطيفة والحلم النبيل الذي اتصف به النبي . يروى ابن إسحق عن يوم بدر يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قِذْحٌ يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار وهو مستنسل (متقدم) من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح ، وقال : استو يا سواد . فقال سواد : يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني (أقّص لي من نفسك) . فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال استنقد . فاعتنقه ، فقبل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله ، حضر ما ترى . فأردت أن يكون آخر العهد بك . أن يمس جلدك جلدي . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير .

أعدّ النبي جنده للقتال . عاد إلى العريش في صحبه أبي بكر رفع يديه إلى السماء مناشدا ربه : اللهم أنجز ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم (يعني المسلمين) لا تعبد بعد اليوم . ولم يزل كذلك حتى سقط رداؤه . وأبو بكر من ورائه يقول : كفاك يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، سينجز الله لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : " إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ . أَنِّي مُمِذِّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِينَ " (الأنفال : ٩) .

^{٢٢} الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

^{٢٣} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

وفى حديث آخر عن ابن عباس أن النبي قال وهو فى قبته يوم بدر : اللهم إني أسألك عهدك ووعدك . اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم !! فأخذ أبو بكر بيده ، ثم قال : حسبك يا نبي الله ، فقد ألححت على ربك .. فخرج وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهي وأمر.^{٢٤}

٩- القتال والنصر:

خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي من صفوف قريش ، قال وهو يندفع فى شراسة عرف بها مقترنة بسوء خلق : لأشربن من حوضهم أو لأهمنه أو لأموئن دونه . وهو يقصد الحوض الذى بناه المسلمون كى يشربوا منه ولا تشرب قريش . ولقد أراد بسلوكه هذا أن يظهر عدم اكتراث قريش بأصحاب محمد ، ولو نجح فيما حاول ، لأثبت فعلا صدق قوله . لكن حمزة عم النبي - الذى ترهبه قريش كلها إذا ما انتزع من الغمد سيفه - خرج إليه . عاجله بضربه سيف أطار بها نصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره لكنه فى عناد زحف إلى الحوض يريد أن يبر بقسمه فأتبع حمزة الضربة الأولى بضربة ثانية فقتل عليه .

هنا خرج فرسان قريش يطلبون المبارزة ، كما هى عادة العرب . تقدم عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبه بن ربيعة وابنة الوليد بن عتبة . وربما كان سبب خروجه أول من خرج أنه كان يريد أن يثار لمقتل وليه ابن الحضرمي ، ولكي ينفي عن نفسه تهمة التردد والجبن التى وجهها إليه أبو جهل .

خرج إليهم من صفوف المسلمين ثلاثة فتية من الأنصار ، هم : عوف ومعوذ ابنا الحارث ، وأمهما عفراء ، وكان ثالثهم هو عبد الله بن رواحه . تقدموا فى ثبات ، غير هيايين . سألهم عتبة : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . رفض عتبة النزال . قال : ما لنا بكم من حاجة . إنه يريد أكفاء من قومه . وإن دل هذا السلوك على شئ فإنما يدل على كبرياء عتبة وأنفته وربما نبهه أيضا ، فهو لن يرفع سيفه إلا فى وجه من هو فى مثل مكانته رسوخا وشموخا ، ومن لها سوى أسد الله !!

أمر النبي حمزة بالخروج : قم يا حمزة . قم يا على ، قم يا عبدة بن الحرث .. أكفاء كرام ، فى مواجهة أكفاء كرام . ولا يجب أن ننسى أن عتبة وشيبة ابني ربيعة هما اللذان أمرا خادمهما أن يقدم لمحمد عنقود عنب عندما لجأ إلى بستانهما فى الطائف ، بعد أن طارده سفاؤهما وأدموا قدميه بالحجارة . ويجب ألا ننسى أيضا أن عتبة ابن ربيعة هو

^{٢٤} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٣٣ .

الذى اعترض أبا جهل وقاومه ، بل واعتدي عليه ، عندما حاول "فرعون" قريش أن يمنع وصول الزاد إلى محمد وأهله وقد حاصرتهم قريش فى شعب من شعاب مكة ، وعتبة هو أيضا الذى حاول أن يثني عزيمة قريش ويعود بها دون قتال . وها هى ذى حتمية الأحداث ترغمه على أن يكون أول من يطلب المبارزة .

وفى لحظة خاطفة كلمح بالبصر ، أو كطامة كاسحة من طامات القدر المرسوم لقريش ورجالها ، قتل حمزة شبيهة ، وقتل على الوليد ، وأصاب عتبة عبيدة بن الحرث بجروح كان سبب موته فيما بعد . وكر حمزة وعلى بسيفيهما على عتبة فأردياه قتيلا . ثلاثة من كبار سادة قريش سقطوا فى سويغات قدرية فارقة .

وتزاحف الناس على الناس .. دنا بعضهم من بعض .. ثارت الدماء .. ما عاد هناك أمل فى العدول عن القتال .

ولأول مرة يقوم النبی بدور القائد الحربى ، على رأس الجند ، فى ساحة قتال . لقد دفعته قريش إلى ذلك دفعا ، وكان عليه فى سبيل رسالته وكى ينفذ أصحابه من هلاك محقق ، أن يقوم بدور النبی المقاتل ، وما كان فى ذلك أول الأنبياء . لقد قاتل موسى من قبل ، كان نبيا وقائدا ، وكذا كان داود ، مع الفارق الهائل بين رحمة محمد ورأفته بصورة عامة فى معاملة من يحاربه . وعنف موسى وداود وقسوتهما التدميرية فى معاملة العدو كما جاء فى النص التوراتي .

يقول الرب لموسى وهو يقود بنى إسرائيل فى إحدى معاركه : " لا تخف منه (عوج ملك باشان) لأنى قد دفعته إلى يدك مع جميع قومه وأرضه . فتفعل به كما فعلت بـسبحون ملك الأموريين الساكن فى خشبون . فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق له شارد وملكوا أرضه " (عدد ٢١ : ٣٤-٣٥) .

أما داود فيقطع أعداء بالمناشير ويبيدهم حرقا فى أتون النار : " فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربة وحاربها وأخذها . وأخذ تاج ملكهم عن رأسه .. وكان على رأس داود . وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جدا . وأخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرهم فى أتون الأجر . وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون . ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم " (صموئيل الثاني ١٢ : ٣٠-٣١) .

تحرك النبی القائد وسط جنده . وبعث وجوده فى نفوسهم قوة إيمانية هائلة بحتمية النصر ، امتلأت قلوبهم باليقين ففارقها الخوف وحل محله قوة إيمانية عظيمة أنستهم نفوق العدو فى عدده وعدته ، فتقدموا فى ثبات ويقين .

لا تحملوا ، صاح النبي القائد ، حتى أمركم ، وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم (أرموهم) عنكم بالنبل . وتبادل الفريقان الرمي بالنبل وسقط القتلى على الجبهتين . كان أول قتل من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب ، رمي بسهم فقتل ، ثم قتل حارثة بن سراقة أحد بنى عدي بن النجار ، أصاب سهم نحره فسقط في الحال .

عندها أمر النبي أصحابه أن يحملوا على المشركين ، فاندفعوا في ثبات غير وجلين ، والنبي وسطهم يحثهم ويرفع من روحهم المعنوية إلى آفاق ما وعوها من قبل ، يقول : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر . إلا أدخله الله الجنة .

ويبلغ الحماس بأحد المسلمين أن يرمي بتمرات في يده كان يأكلها ، ويقول : بخ بخ (كلمة تقال عند الفخر) أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء . رمي بالتمرات وقاتل في بطولة حتى قتل .

جندي آخر يسأل النبي وهو وسط المعركة : يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ ويرد النبي : غمسه يده في العدو حاسراً . فما كان من الجندي إلا أن نزع درعه وهاجم في ضراوة وكأنه يريد أن يروى ظما سيفه . اخترق الصفوف وظل يقاتل حتى قتل .

لا خوف اليوم ، ولا تهقر ، ولا جبن ، فالجبن والخوف لا يحلان في قلوب عمرت بإيمانها بخالقها وبتقنها في قائدها . ويصل إليهم صوت النبي مدويا : شدوا .. شأهت الوجوه !! قالها النبي بعد أن أخذ حفنة من الحصباء واستقبل بها قريشا فلفحهم بها.. شأهت الوجوه !!

وجال حمزة بن عبد المطلب .. صال وجال .. أطار الرؤوس وشق الهامات .. وما صمد له أحد ، وكأنه قضاء الله يحمل سيف عدله . ويسأل أمية بن خلف بعد أن تم أسره : من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره ، ويرد عبد الرحمن بن عوف وهو أسره : ذاك حمزة بن عبد المطلب ، ويكون تعليق أمية : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل .

أما علي بن أبي طالب فقد كان هو أيضا من أعلام المعركة ، لم يستطع أن يوقفه أحد ، قتل فيمن قتل ابن أبي رفاعة وحرمة بن عمر والعاص بن سعيد . وكان من المثير للدهشة أن يقتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة . لكن ذلك لم يكن مستغربا بالنسبة لعمر .

ارتفع صوت النبي محذرا وناهيا : لا تقتلوا بنى هاشم ، لا تقتلوا العباس ، لا تقتلوا
أبا البختري بن هشام . لم يكن ذلك محاباة لأهله ، بل كان وفاء للذين آزره وأحسنوا إليه
ولم يؤذوه ، بل ساندوه رغم شركهم في مواجهة مشركي مكة . لقد كان أبو البختري على
رأس أولئك الذين طالبوا بنقض الصحيفة وفك الحصار عن محمد وآله ، رغم أنه لم يؤمن
بما جاء به ، ولم يصدق ، لكنه أبدا لم يؤذ به حاول أن يكف أذى الناس عنه . ولقد أراد
النبي ان يبقي عليه وفاء وبفاء ونبلا بنبل .

سمع المسلمون صوت النبي وهو يعلن أنه شفيح هؤلاء : إني قد عرفت أن رجالا
من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كُرْها لا حاجة لهم بقتالنا . فمن لقي منكم واحدا من
بنى هاشم فلا يقتله . ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحرث بن أسد فلا يقتله . ومن
لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله ، فإنما أخرج مُسْتَكْرَها .

لم يستوعب أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة كلمات النبي . لقد رأى أباه وهو يقتل أمام
عينيه . قتله حمزة وعلى في بداية المعركة ، قطعاه بسيفيهما ولم يشفع له أحد ، رغم أنه
لم يكن ليقف في الشهامة والأصالة والنبيل عن أبي البختري . انفلتت منه كلمات غاضبة
محمومة مصبوغة بدم أبيه الذي لم يجف بعد ، قال : أنقتل آبائنا وأبنائنا وإخواننا
وعشيرتنا ، ونترك العباس ! والله لئن لقيته لألجمته السيف !!!

أخذ العباس أسيرا ، لم يُقتل ، ما صادفه أبو حذيفة كي يلحمه السيف ، رغم أنه لو
قابله ما قتله لأنه ندم على ما فاه به من كلمات . أما أبو البختري فقد رفض الأسر .
شموخة رفض الانحناء رغم سنوح فرصة النجاة . لقية المجذر بن زياد البلوي ، حليف
الأنصار من بنى عدي . أخبره المجذر أن النبي قد نهى عن قتله وكان معه صاحب قد
خرج معه من مكة . طلب منه المجذر أن يستأسر أو ينجو بنفسه . أشار أبو البختري إلى
صاحبه ، وسأل : وزميلي هذا ؟ وأجاب المجذر : لا والله ، ما نحن بتاركيه . وسيطر
على أبي البختري إباء نفسه فأبى أن ينجو أو يستأسر ، تاركا صاحبه كي يواجه قدره
المحتوم وحده . رفض في شموخ ، قال : لا والله ، لأموتن أنا وهو جميعا ، لا تُحدث عني
نساء قريش من أهل مكة أني تركت زميلي حرصا على الحياة . وأبى إلا القتال . فاقتتلا
وقتلة المجذر .^{٢٥}

هذا موقف لا يحسب للمجذر ، بل يحسب عليه ، وكلمات النبي كان يجب أن تطاع .
فقد عرف النبي نفسه لأبي البختري قدره ونهى عن قتله . كان على المجذر أن يخلي

^{٢٥} الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٤-٣٥ .

سبيله، حتى ولو كان معه عشرة رجال لا رجل واحد . لكن الواضح أن الأعرابي قد طمع في سلبه .

أحاط أبو جهل - طاغية قريش - نفسه بكوكبه من الفرسان ، على رأسها ابنه عكرمة . كان من الصعب أن يُخلص إليه ، أى أن يصل إليه أحد ، لكن معاذ بن عمرو بن الجموح جعله هدفه ، صمم أن يصل إليه حتى ولو لقي في هذا التصميم حتفه . شق طريقه نحوه حتى واجهه . ضربه ضربة أطاحت بقدمه ونصف ساقه . دافع عكرمة عن أبيه ، هاجم معاذ ، وجه إليه ضربة طرحت يده .

أكمل معوذ بن عفراء عمل معاذ . ضرب أبا جهل ضربة أثبتته . تركه على شفا الموت . وقاتل معوذ حتى قُتل ، ثم جاء عبد الله بن مسعود يبحث عن أبي جهل ، وقد أمر النبي أن يلتصق بين القتلى ، فوجده في آخر رمق . وضع ابن مسعود رجله على عنق أبي جهل وقد أذله الله ، ما عاد يخشاه أحد ، وقد كان يثير الرعب في قلب من يشاء من جموع مكة . قال ابن مسعود وقدمه على عنق الطاغية : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال: وبماذا أخزاني ؟ أعمدُ من رجل قتلتموه ؟ وعندما شعر بقدم عبد الله بن مسعود على رقبته ، قال في سخريته الحادة التي ما فارقت حتى الموت : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رُوَيْعِي الغنم !! اجتز ابن مسعود رأس أبي جهل ، وهلل المسلمون مسبحين بحمد الله .

وفي الميدان يلتقى عبد سابق ، تعذب كثيرا ، وسيده الذى عذبه : بلال بن رباح وأميه بن خلف . ما نسي بلال أبدا قسوة أميه بن خلف وحشيته وقد سَطُرَت على ظهره ضربا بالسياط ، مازال بلال ، حتى تلك اللحظة ، يحس بضلوعه وهى تكاد تنثني وتتكسر تحت ثقل الصخرة الهائلة الجائئة فوق صدره ، وما هى ذى لحظة قدرية نادرة تبزغ فجأة وكأنها تناديه كي يأخذ ثأره ويتخلص من كل عذاباتة .

يدعي بعض من كتبوا فى تاريخ السيرة أن بلالا خاض المعركة وسيفه بيده حتى واجه أميه بن خلف ، فبارزه وقاتله حتى قتله . فى مقدمة هؤلاء يقف عبد الرحمن الشرقاوى ، إذ نراه يقول : اندفع بلال بن رباح نحو أميه بن خلف ، وقاتله حتى قتله .. وحمل رأسه على سيفه وهو يرقص طربا تحت غبار المعركة الذى أخذ ينقشع الآن وفرسان مكة يفرون وصفوف قريش تتراجع^{٢٦} .

لم يكتب الأستاذ الشرقاوى بقلم المؤرخ ، ولم ينظر بعين الناقد ، بل تحرك الكاتب المسرحي فى داخله وأشعل خياله ، فمسرح موقفا لم يحدث ، وجسد بطولة لم يشر إليها

²⁶ الشرقاوى ، ص ١٨٦ .

أى من كتاب السيرة . دفعه الحماس المتقد ولم يخضع لسلطان المنطق ، فأبدع عنتره بن شداد من نوع جديد .

لقد عرف بلال بأنه مؤذن الرسول ، واشتهر بورة وقوة إيمانه وصلابته فى مقاومة الشرك ، لكنه لم يشتهر بفروسية فى ميدان قتال أو ببطولة فى استخدام السيف . لقد كان أمية بن خلف فى صحبة ابنه على ، كان الابن يلزم أباه كظله . ولو واجه بلال الاثنين معا ما استطاع قتلهما ، أو قتل أى منهما ، وربما كانت نهايته هو هى الأقرب إلى الواقع المنطقي فى هذا المجال .

ما حدث ، وما أجمعت عليه كتب التاريخ الذى يعالج الوقائع بلا مبالغة أو تحريف ، هو أن أمية بن خلف عندما تأكد من انكسار جيش قريش وهزيمته ، قرر أن يستسلم هو وولده وهو يعلم جيدا أن للأسير حقوقا لا يمكن أن ينكرها محمد وأصحابه . رأى عبد الرحمن بن عوف ، فى جيش المسلمين وقد كان صديقا له فى مكة ، وهو يحمل أدرعا قد استلبها . ناداه ، قال : هل لك فى فأننا خير من هذه الأدرع التى معك . قال : نعم ها الله إذن .^{٢٧}

طرح عبد الرحمن بن عوف الأدرع وأخذ بيد أمية بن خلف ويد ابنه . لقد استأسرا ، والأسير فى الحرب ثروة خصوصا إذا كان من سادة القوم وأثريائهم ، فبقدر المنزلة والثراء تكون الدية . ربما لم تدر هذه الفكرة بخلد عبد الرحمن بن عوف ، ربما قاد أمية بن خلف وولده محافظا على حياتهما وفاء لصداقة سابقة وود قديم ، والنبيل دائما متأصل فى نفوس الكبار .

لكن بلالا ، من سوء حظ أمية وولده ، لمجها فى صحبه عبد الرحمن . عندها صرخ وولول وملأ الدنيا صياحا : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا . حاول عبد الرحمن بن عوف أن يوقف صراخه : أى بلال أنه أسيري . لكن بلالا لم يكثرث . واستمر فى الصراخ . عندها صاح عبد الرحمن : أسمع يا ابن السوداء ؟^{٢٨}

ولم يسمع ابن السوداء . صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف . لا نجوت إن نجا .

لم يكن بيد أمية بن خلف سيف كى يدافع به عن نفسه ، وكذا لم يكن بيد ولده . لقد استأسرا . ولم يدر بخلد هما أن يقتل الأسير وقد ألقى طواعية بالسلاح . أحيط بهما من كل

^{٢٧} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

^{٢٨} نفس المرجع ، ص ٢٧٣ .

جانب وتدافعت السيوف. حاول عبد الرحمن أن يدافع عن صاحبه وولده لكن ما أغني عنهما شيئا . تكاثرت السيوف ، هبروهما هبرا حتى فرغوا منهما . وسعد بلال وهو يرى السيوف تمزق الأسيرين الأعزلين . أنساه عذابه القديم عدالة الحق في معاملة الأسير .

انهزمت قريش . أدار من بقى من رجالها أعنة الجياد ورقاب النوق ، ومن لم يملك فرسا أو ناقة أطلق ساقيه مسابقا للريح ، كل يريد النجاة . لقد حلت الطامة . لم تكن هذه الهزيمة الكاسحة في حساباتهم . خيل إليهم أنهم لا يقاتلون رجالا - وقد عرفوا من قبل معدن الرجال وعركوه - إنما يقاتلون قوِي فوقية لا قبل لهم بها ، لا يستطيعون مقاومتها أو الصمود لها ، وإلا فما هو السر في هذه الهزيمة الكارثة ؟ إنهم لا يدركون ولا يفهمون. ولم يكن هناك وقت للتأمل والتفكير. الأسرع والأسلم هو الفرار ، النجاة ، وبعدها يكون موقف وتدبير .

اندفع المسلمون يجمعون الغنائم ويأسرون ، وللأسير ثمن وهم يعلمون. كان النبي يرقب الموقف وهو على باب العريش ، يحرسه سعد بن معاذ وجماعة من الأنصار. تأمل النبي وجه سعد بن معاذ فرأى فيه كراهية لما يصنع الناس . قال النبي: والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ، قال : أجل والله يا رسول الله . كانت أول واقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال .

قُتل من المشركين سبعون ، وأسر منهم سبعون ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر ، من المهاجرين ستة نفر ، ومن الأنصار ثمانية نفر .

أمر النبي بدفن شهداء المسلمين في قليب (أى فى حفرة) وأعلن أنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم . وأمر أن تجمع جثث المشركين وتطرح فى قَلْب . لن يترك جثثهم طعاما للجوارح والكواسر ، أو كى تنتن وتتحلل فى العراء ، فالجسد الإنساني - مهما كانت عقيدة صاحبه - له حرمة .

طرحت جثث المشركين فى القلب ، وأهيل عليها التراب ، باستثناء جثة أمية بن خلف - وكان فى حياته ضخما جسيما - ذلك لأن الجثة بعد مقتلة انتفخت وتفرقت أعضاؤها عندما حاولوا تحريكها . لذا أمر النبي أن يلقوا عليه من التراب والحجارة ما يُغَيِّبُه ، أى ما يغطي الجثة ولا يظهر منها شيئا .

التفت النبي إلى أبى حذيفة بن ربيعة ، فإذا بالكأبة تشع من وجهة والحزن يطل من عينيه : كانوا يسحبون جسد أبيه عتبة بن ربيعة كى يلقى فى القليب . قال له النبي : يا أبا حذيفة ، لعلك دخلك من أمر أبيك شئ . قال أبو حذيفة : لا والله يا نبي الله ، ما شككت

فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، حزنتي ذلك .^{٢٩}

ولقد كان أبو حذيفة على حق ، فقد كان أبوه صاحب فضل وحلم ، كما سبق وأوضحنا . لكن الأيام لم تمهله فاشترك فى معركة ما كان يريد خوضها ، وقتل فى حرب حاول قدر المستطاع أن يتجنبها .. ولم يستطع .

خرج النبى فى جوف الليل ، تجول حيث وقع القتال ، تأمل القلب حيث طرح سادة مكة وكبرأؤها ، هؤلاء الذين اضطهدوه وآذوه وأخرجوه ، ولم يكتفوا بذلك بل خرجوا إلى حيث كان كي يضعوا حدا لوجوده وما يدعو إليه . والنتيجة : هاهم العتاة الجبابرة جنثا بواربها التراب .

وقف النبى على القلب ، وقد دارت بمخيلته أحداث السنين منذ بدء النبوة ، قال : يا أهل القلب ، بنس عشيرة النبى كنتم لنبيكم : كذبتوني وصدقتي الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتوني ونصرني الناس .. يا أهل القلب ، يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبه بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام .. هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدني ربي حقا .

قال بعض من حضر وسمع : يا رسول الله ، أأتدأ قوما جيئوا ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .^{٣٠}

إنهم لا يسمعون بالمعنى المتعارف عليه كما يسمع البشر ، لأنهم فقدوا بشريتهم بالموت : " وما أنت بمسمع من فى القبور " (فاطر : ٢٢) ، لكن أرواحهم لا بد وأن قد أدركت صدق ما يقول .

أرسل النبى إلى أهل المدينة يبشرهم بنصر الله . بعث عبد الله بن رواحه إلى أهل "العالية" وزيد بن حارثة إلى أهل " السافلة " . وصل البشير وقد ماتت رقيقة وووريت التراب ، وكان الله بهذه البشرى أراد أن يخفف من أحزان زوجها عثمان بن عفان الذى تخلف عن المعركة ، بإذن من النبى ، كي يرعاها فى مرضها الأخير .

²⁹ الطبرى ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

³⁰ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

انتشرت أخبار هزيمة قريش ونصر المسلمين . وسمي اليوم بحق يوم الفرقان . وكان يوم الفرقان هذا هو البداية ، بداية انتشار دين الله في كل أنحاء جزيرة العرب ، ثم بعد ذلك في كل أرجاء الدنيا ، لا توفقه قوة . كان قدر الله .

ويعزي مونتمجري وت أسباب نصر المسلمين في موقعة بدر إلى عدة عوامل ، لا تزيد في قليل أو كثير عما ذكرناه من قبل ، لكننا نشير إليها كمثال لما يسجله بعض الكتاب المنصفين في الغرب ، فليس كل من كتّب في الغرب تحامل وأساء ، وإن كانت القلة من صفوة الصفوة الفكرية هي التي سجلت حقائق التاريخ في مجرد موضوعي غير متحيز . يقول مونتمجري وت : عدة عوامل مجتمعة ساهمت في النصر المؤزر الذي أحرزته المسلمون ، أهمها :

١- نقص الوحدة في صفوف القريشيين .. فبسبب ارتداد البعض نقص عددهم من ما يقرب ٩٥٠ إلى ما يقرب ٦٠٠ أو ٧٠٠ وحتى هؤلاء الذين لم ينسحبوا ، لم يكن أغلبهم يؤيد سياسة أبي جهل تليّدا كاملا .

٢- كانت تقتهم في أنفسهم زائدة عن الحد بسبب ثرائهم العريض الذي كان يرجع جزئيا إلى سيطرتهم الكاملة على الجزء الغربي من شبه جزيرة العرب . هذا إلى جانب استهانتهم بهؤلاء الذين يواجهونهم عددا وعتادا .

٣- لم يكن القريشيون قد خاضوا معارك جادة منذ حوالي عام ٥٩٠ م ، وربما أثر فيهم رغد العيش فأصبحوا أكثر نعومة .

٤- كان بين المشركين عدد كبير من كبار السن ، بينما كان أغلب المهاجرين شبابا في قمة لياقتهم الجسدية .

٥- قيادة محمد الفاهمة الواعية جعلت المسلمين في وضع تكتيكي أفضل .

٦- ربما عاني القريشيون من شدة العطش .

٧- كان المسلمون يحاربون بشجاعة مطلقة ، دون أدنى خوف ، وذلك لإيمانهم بالنصر أو الشهادة . والموت في سبيل الله يعني لهم الخلود فيما وعدوا به: الجنة.^{٣١}

لم ينكر مونتمجري على المسلمين شدة بأسهم بسبب قوة إيمانهم ، ونص صراحة على أنهم كانوا يحاربون دفاعا عن عقيدتهم لنصرة الدين الذي بشر به محمد . وبقوة

^{٣١} Montgomery Watt, Muhammad at Madina, p. 13.

إيمانهم أصبح أصحاب محمد ربانيين لا يخشون من البشر أحدا ، أعماقهم تتوق إلى الشهادة ، رخيصة أرواحهم في سبيل الله . وفي هذا رد شديد للوضوح ، شديد القوة ، شديد الوقع ، على من يدعون أن معركة بدر كانت في سبيل متاع دنيوى رخيص وزائل .

١٠- الأنفال :

قبل أن نسترسل في شرح هذه النقطة نود أولا أن نفسر معنى كلمة "الأنفال". نرجع في تفسيرنا هذا إلى ما ذكره الشيخ محمد علي الصابوني في تفسير آيات الأحكام ، حيث يقول : الأنفال جمع " نفل " ... والمراد هنا الغنيمة . وأصل " النفل " بالسكون الزيادة ، ومنه صلاة النافلة لأنها زيادة على الفريضة الواجبة .

لكن هل الغنيمة والفئ شئ واحد ؟ قال بعضهم : الغنيمة ما أخذ عنوة من الكفار في الحرب . والفئ ما أخذ بغير قتال أى عن صلح . وقيل : الغنيمة والفئ بمعنى واحد . لكن الرأى الصحيح هو الرأى الأول .

والغنائم تخمس ومعنى التخمس أن يصرف خمسها فيما ذكره الله لليتامي . والمساكين وابن السبيل .. وبوزع الباقي وهو أربعة أخماس بين الغانمين . ورأى جمهور العلماء هو : أن يعطي الفارس سهمين ويعطي الرجل سهم واحد ، ذلك لأن الذى يركب الفرس يحتاج إلى نفقة لفروسه ويكون بلاؤه في الحرب أعظم ، ولذلك فإن الشارع الحكيم راعي هذه الناحية فزاده في القسمة فأعطى سهماً له وسهما لفروسه .^{٣٢}

انهزم المشركون مخلفين وراءهم ما جاءوا به من مكة : العير والسلاح والمؤن ، والقارء لا يلوى على شئ ، لا يهمه إلا النجاة والعودة بسلام ، إن استطاع ، من حيث جاء .

وجد المسلمون أنفسهم أمام غنيمة كبيرة .. أول ما غنموه في حرب ضروس . لم يكن لهذا الموقف سابقة يحتذون بها ويسيروا على نهجها ، لهذا اختلفوا : انقسموا إلى ثلاث فرق ، قال من جمع ما تركه المشركون ومن سلب ، هو لنا . وما كانوا على صواب ، إذ قال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصبتموه ، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم . وقال فريق ثالث ، هؤلاء الذين كانوا يحرسون النبي : والله ما أنتم بأحق به منا ، لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله تعالى أكتافهم ،

^{٣٢} الصابوني ، تفسير آيات الأحكام ، ج ١ ، ص ٦٠٠ .

ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، لكننا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كره العدو ، فقمنا دونه ، فما أنتم بأحق به منا .^{٢٣}

يوقف النبي كل هذا النزاع . فى الحال ، فكل ما غنموه لا يستحق الخصام وإثارة العدا . كان على الجميع أن يسمعوا ويطيعوا . الأمر متروك لله والرسول : " وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (الأنفال : ٤١) . هكذا قسم بينهم بالتساوى كل ما جمعه - مائة وخمسين من الإبل ، وعشرة خيول ، ومعدات ودروع - بعد أن أخذ منه الخمس لإنفاقه فيما أمر الله .

توجه سعد بن أبى وقاص إلى النبي بسؤال ، يستفسر ، قال : أعطى فارس القوم الذى يحميمهم مثل ما يعطى الضعيف ؟ ورد النبي وهو يبتسم فى لطف : وهل تُتصرون إلا بضعفائكم ؟^{٢٤}

١١ - الأسرى :

انتهت مشكلة الغنائم ، شق النبي طريقة إلى المدينة ومعه الأسرى ، حتى إذا كان " بالروحاء " لقيه المسلمون ، كل يهنئ بالنصر وبما أفاء الله عليه وعلى المسلمين . عندها قال أحد أصحاب النبي - سلمة بن سلامة - وقد استخفه النصر : ما الذى تهنئوننا عليه . فوالله إن لقينا إلا عجانز صلعا كالبدن المعلقة فنحرناها . قال النبي فى أسى : " أى ابن أخى أولئك الملاء " ، أى أولئك أشراف قريش ورؤساؤها .

كان بين المرموقين من أسرى بدر السبعين سهيل بن عمرو - سيد بن عامر - ابن عم سودة زوجة النبي ، وعمرو بن أبى سفيان ، والنصر بن الحرث ، وعتبة بن أبى معيط ، هؤلاء إلى جانب العباس بن عبد المطلب عم النبي ، وأبى العاص بن الربيع زوج زينب ابنة النبي . ولقد أصدر النبي أوامره بحسن معاملة الأسرى ، رغم وضعهم فى القيود .

عندما وصل النبي " الصفراء " أمر بقتل النصر بن الحارث . ويقال إن الذى قتله هو على بن أبى طالب . والسبب فى الأمر بقتله هو أنه كان شديد العدا للإسلام فى مكة . كان يسفه كلام النبي ويدعو الناس لازدرائه ، محاولا إقناعهم أنه هو نفسه أكثر بلاغة وأفصح

^{٢٣} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

^{٢٤} شوقى ضيف ، محمد ، ص ٢١٦ .

لساننا ، وأن ما يقول به محمد ما هو إلا أساطير الأولين قصها عليه البعض ، وكل ما يفعله هو أن يحكي الرواية ويعيد القص .

كان النضر بن الحارث كثير الأسفار ، واسع الإطلاع ، يعرف الكثير عن ملوك الفرس وما نسج حولهم من أساطير . وكلما انتهى النبي من حديثه جوار الكعبة ، كان ذلك النضر يجمع الناس حوله ويقص عليهم من الحكايات ما يحاول به إفساد كل تأثير تركه النبي فيمن حوله . كان يدعي أنه هو الأكثر صدقا ، والأعلى مقاما . هذا إلي جانب أنه كان حامل لواء قريش . لذا وجب قتله كي يكون في قتله عبرة لأهل الشرك ، وكى لا يعود - إذا ما وهبت له الحياة - فيفعل ما اعتاد فعله من قبل ، ويغدو سهما ساما موجها طوال الوقت إلى قلوب المسلمين .

بعدها أمر النبي بقتل أسير آخر . هو عقبة بن أبي معيط ، وكان عقبة هذا يوصف بأنه من شياطين قريش . اضطهد النبي في مكة وأساء إليه في تجبر لا أخلاقي ، وفي جبروت وحشى ، وقد بلغت به القسوة اللا إنسانية يوما أن وضع رجله على عنق النبي وهو ساجد يصلى ، وضغط بكل قواه حتى غامت الرؤيا أمام عيني النبي . كان سلوكه يتسم بالخسة والوضاعة ، إذ اختار لحظة لا يستطيع فيها النبي الدفاع عن نفسه . هذا إلى جانب أنه كان من كبار المحرضين على الحرب بغية القضاء على محمد .

ويروي ابن إسحق أن عقبة ، حين أمر النبي بقتله ، قال : أقتلني يا محمد من بين قريش ؟ قال : نعم . صاح عقبة : فمن للصبية يا محمد ؟ قال : النبي : النار !! فقتله عاصم بن ثابت الأنصاري ويقال قتله على بن أبي طالب .³⁵

صيحة عقبة : من للصبية يا محمد ، ورد النبي : النار ، يستحقان لحظة تفكير وتأمل .

من أين أتى ابن إسحق بهذا الكلام ؟ ما هو مصدره ؟ من الذى رواه ؟ هل سمعه أحد الصحابة فرواه والصحابة مصدر ثقة من الصعب أن يكذبهم أحد ؟ هل أشار النبي بنفسه إلى ما دار - إذا كان فعلا قد دار - بينه وبين عقبة قبل قتله ؟ هل تحدث به لمن ساروا معه في طريق العودة أو صرح به للمسلمين وهم جلوس حوله في المسجد ؟

ابن إسحق لا يذكر مصدره ، ولا يخبرنا بمن رواه . لم ينقل أى من الصحابة هذا الحوار ، ولو رواه النبي بنفسه لشاع بين المسلمين وتناقله الناس . هذا لم يحدث ، لأنه لو كان قد حدث لذكر ابن إسحق أسماء من أخذ عنهم ، كما هي عادته ، فهو يقول - على

³⁵ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

سبيل المثال - فى ذكر موقف سودة زوجة النبى حىال الأسارى : وحدثني عبد الله بن أبى بكر ، أن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زراة قال ^{٣٦}...

ابن إسحق ، إذن ، فى أغلب ما ينقل عنه ، يذكر اسم أو أسماء الرواة. أما فى هذا الموقف شديد الدقة ، شديد الحساسية ، فيما يختص بسلوك النبى ، فهو لا يذكر أحدا.

وينقل عنه الطبرى يقول : قال محمد بن أبى إسحق : كما حدثني بعض أهل العلم من أهل مكة ، قال : ثم خرج رسول الله حتى إذا كان بعرق الطيبة ، قتل عقبة بن أبى معيط ، فقال حين أمر به الرسول أن يقتل : فمن للصبيبة يا محمد ، قال : النار.

والسؤال هنا : من هم هؤلاء بعض أهل العلم من أهل مكة ؟ الطبرى بالطبع لا يعرف ، ولو قد عرف لذكر . وابن إسحق هو أيضا لا يعرف ، ولو قد عرف لكتب أسماء " أهل العلم من أهل مكة " ، كل الأسماء . والواضح أنه كان لا يعرف . وربما كان يعرف ثم تاهت من ذاكرته الأسماء ، عندها كان من الأفضل له ألا يكتب . إنه يكتب عن النبى الخاتم ، لا عن نبى من المعدادين بالعشرات فى بنى إسرائيل ، وكان عليه أن يدرك مقدار خطورة ما يكتب .

على أية حال ، نحن لا نتفق مع ابن إسحق فى روايته . لا نأخذ برأيه ولا نصدقه. فما ذنب الصبيبة الذين لم يسيئوا ، ولم يخطئوا ، ولم يقاتلوا ، وربما كانوا فى مرحلة الفطرة لا يدركون معنى ما يحدث حولهم ، ولا صلة لهم مطلقا بما فعل أبوههم ؟ ما جاء النبى سوط عذاب متلفعا بالسنة من نار جهنم حاشا لله. ما كتبه ابن إسحق ما كان يجب أن يكتب أبدا عن نبى المرحمة .

المثير للاستياء ، أن أغلب كتاب السيرة من القدامى ، كالطبرى ، وأغلب كتاب السيرة من المحدثين ، وعلى رأسهم الدكتور محمد حسين هيكى ، نقلوا ما كتبه ابن إسحق نقلا حرفيا دون تعليق ، أى دون دراسة أو تحليل أو تقييم ، وكان الأمر رغم خطورته - فقد تلقفه المستشرقون وبالغوا فيه وأساءوا للنبى - لا يعينهم فى قليل أو كثير. اكتفوا بالنقل والصمت ، إثارا للسلامة ، إذ ربما ترتفع أصوات بعض المتفقيهيين ، المتشجيين ، المشربلين بالجهل ، موجهين لهم الاتهام بالزندقة والكفر. وهذا جائز فى زمن يتم فيه الاتجار بالدين .

لقد جذبت هذه النقطة بالذات انتباه كاتبة عربية ، أثارت دهشتها فلم تستطع تجاوزها دون أن تعلق عليها ، على عكس مؤرخينا " الأفاضل " الذين أحجموا عن التعليق. تقول

^{٣٦} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٨٧.

بيتي كيلين : استعطف الرجل النبي كي لا يقتله قائلا : من لأولادى يا محمد. وكان رد النبي: النار . وهذه القصة الشهيرة ماثرة جدل ، وليس من اليسير تصديقها ، ومن الصعب أيضا تفسير وجودها فى كتب التراث دون توثيق يعتد به .^{٣٧}

ويرى بعض المستشرقين أن قتل الأسيرين كان عملا بالغ القسوة ، إذ أظهر بوضوح ما يعتمل فى صدر محمد من رغبة فى إراقة الدماء . وبناءً عليه أسسوا نظرياتهم الخائبة التى حاولوا أن يثبتوا بها أن محمدا قد نشر نفوذه بحد السيف .

هؤلاء المستشرقون لم يستوعبوا الموقف ، ولم يدرسوا الخلفية التاريخية لما حدث. ولم يستطيعوا تصور الزمان والمكان حيث وقعت الأحداث ، وجهلوا جهلا فاضحا ما فعله القرشيان بالنبي وأصحابه فى مكة . حكموا على الظاهر ، وعجزوا عن الخوض فى الأعماق لاستجلاء الحقيقة . ولو كان النبي دمويا كما يزعمون ، لذبح الأسرى جميعا دون أدنى تردد أو تفكير ، لكنه لم يفعل كما سنشرح بالتفصيل .

رغم ذلك نجد من بين المستشرقين من يتفهم الموقف ويصدر حكما موضوعيا فى غير انحياز . يقول مونجمرى وت : لم يأمر محمد بقتل الأسرى ، على العكس ، كان يريد أن يكسب قلوب أهل مكة . لكنه استثنى من سياسته اللينة الرقيقة عقبة بن أبى معيط الذى أعدم بسبب عدائه السابق لمحمد ، وعلى الأخص بسبب القصائد التى ألفها فى هجاء " النبي " . ولقد أعدم كذلك النضر بن الحارث الذى أدعى أن قصصه عن بلاد فارس وما فيها لا تقل قدرا عن قصص القرآن .^{٣٨}

يناقش عباس محمود العقاد ما أخذه بعض المستشرقين على النبي من قتل بعض الأسرى بعد غزوة بدر وخروجه إلى ساحة القتال لرؤية صرعى المعركة بعد انتهائها ، بقوله : هو أمر لا يصح الحكم فيه إلا بالنظر إلى موضعه وموقعه وأشخاصه ، لأنه ليس بالحكم العام الذى اتبعه الإسلام فى جميع الأسرى وجميع الحروب ، وإنما هى حالة أفراد كانوا معروفين بتعذيب المسلمين والتكيل بهم فى غير مبالاة ولا نخوة .. فقتل الأسرى بعد بدر إن هو إلا قصاص كقصاص المتهمين بالتعذيب وقد وقعوا فى أيدي من يتولى عقابهم من الغالبيين .^{٣٩}

والذين يتباكون من كتبه اليهود والنصارى على مقتل اثنين فقط من المشركين فى أول معارك النبي ويتهمون به بأنه يميل إلى سفك الدماء ، نسوا ما جاء فى كتابهم "المقدس"

^{٣٧} Betty Kelen, p. 129.

^{٣٨} Montgomery Watt, Muhammad at Madina, p. 12 .

^{٣٩} عباس محمود العقاد ، محمد ، ص ٥١ .

الذى يضم " العهد القديم " ، وهو كتاب اليهود ، و " العهد الجديد " وهو كتاب المسيحيين الذين يؤمنون أيضا بما جاء فى " العهد القديم " .. نسى هؤلاء وهؤلاء قساعات اللا إنسانية التى زعموا أن الرب قد أمرهم باقترافها ، فأقدموا عليها فى وحشية لا بشرية . تنفيذاً - كما يقولون - لأوامر الرب .

فى سفر " التثنية " يقول الرب : " فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتُحرّمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف . تجمع كل أمتعتها إلى وسط ستأخذها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بغداد " (تثنية ١٣ : ١٥-١٦) .

وفى سفر يشوع يأمر " الرب " جميع إسرائيل بالرجوع إلى "عاي" وبضربها بحد السيف: " فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفا جميعهم أهل عاي.. لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذى أمر به يشوع . وأحرق يشوع عاي وجعلها تلا أبديا خربا إلى هذا اليوم . ومالك عاي علقه على الخشبة إلى وقت المساء " (يشوع ٨ : ٢٥-٢٩) .

الذين قام بنو إسرائيل بقتلهم حسب أمر الرب - كما يدعون - بلغوا اثني عشر ألفا فى يوم واحد . هذا إلى جانب حرق المدينة بأكملها ، وتعليق ملكها - أى ضلّبه - على الخشبة حتى المساء ، ثم طرح جثته عند باب المدينة .. كل هذا بأمر " الرب " .

هذا ما جاء فى "الكتاب المقدس" الذى يؤمن به اليهود والمسيحيون سواء ، ولم يجروا كاتب واحد من كتبهم على مناقشة هذه الوحشية الكاسرة . إثنا عشر ألفا تم قتلهم فى يوم واحد . ورغم ذلك يتباكى عبدة " الكتاب المقدس " لأن محمداً أمر بقتل اثنين فقط ممن أذوه ، وأهانوا المسلمين . وأسأعوا للإسلام . اثنان فقط أضدر النبى حكماً عادلاً عقاباً لهم . لكن هذا السلوك أغضب " الرحماء " من عبدة رب " الكتاب المقدس " وهم بالطبع يتخيلون أن لا أحد غيرهم يقرأ كتابهم المغموس فى البساعات الدموية لـ " رب الجنود " .

ومن غرائب الأشياء أن سلالة هؤلاء القتل باسم الرب ، يغيدون الآن نفس ما قام به أجدادهم ، منذ قرون طويلة ، بنفس الوحشية الهمجية ، باسم الرب تحت راية الصليب القائم على نجمة داود . ويعلن طاغوت القرن الحادى والعشرين أن الرب أوحى إليه بما أوحى فأقدم على فعل ما فعل : دمر المدن وحرقها ، كما فعل يشوع بن نون فى " العهد القديم " وإن كان يشوع قد قتل إثنا عشر ألفا من الرجال والنساء ، فإن يشوع العصر

الحديث قد قتل أكثر من ستمائة ألف من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ في أقل من عام . واقتُرف جنوده في بلاد ما بين النهرين تحت راية الصليب جرائم تعتبر سبة وعارا في جبين البشرية . وسائل تعذيب الأسرى وازدراهم وإذلالهم ما تزال ماثلة في الأذهان : الصعق بالكهرباء ، تقطيع الأوصال ، اغتصاب الرجال والنساء والصبية ، سحب الرجال من رقابهم بسلاسل كما الكلاب ، ممارسة الشذوذ الجنسي بكل أنواعه حسب ما تعلموه في بلدهم المسيحي المتصهين .. كل هذا حدث ، ويحدث ، كما يقول رئيسهم ، تحت راية الصليب ، لقد أعلن " اليسوع الجديد " صراحة أنه يقوم بحرب صليبية تحت راية الرب . هل هناك فساد وانحطاط في العقيدة والفكر والسلوك أكثر من هذا الفساد والانحطاط؟ ويتبارى معه ، بل ويبيزه في الإبادة والقتل والحرق والتدمير، سفاحو إسرائيل في أرض فلسطين . ثم يتباكي كتبتهم لأن النبي أمر بقتل اثنين فقط جزاء لما اقترفوه من جرائم تستحق القتل .

لن نلعنهم ، كما أمرهم " رب الجنود " بلعن أعدائهم وإبائهم بإبادة كاملة بالسيف والنار ، لكننا نقول : إن تلك الإمبراطورية التي بغى سادتها لن تعمر طويلا ذلك لأن بذور سقوطها مغروسة في أعماقها .

وصل الأسرى إلى المدينة . أمر النبي بحسن معاملتهم : استوصوا بالأسارى خيرا . وبالغ أصحاب النبي في إكرامهم لدرجة أن فضلهم البعض على نفسه في المأكل والمشرب ، خصوصهم بأفضل ما عندهم ، واكتفوا هم عند الضرورة بالتمر ، اتبعوا وصية النبي على أمل أن تلين قلوب الذين كفروا فيؤمنوا ويصبحوا قوة فاعلة في نصرته الإسلام بدلا من أن يستمروا في عداوتهم له .

حزن النبي عندما رأى عمه العباس بن عبد المطلب ، وزوج ابنته أبا العاص بن الربيع ، مكبلين بالأغلال ، لكنه لم يتخذ بشأنهما قرارا حتى يرجع إلى ما يقره المسلمون في أمر الأسرى جميعا ، ولم يكن قد نزل فيما يخصهم وحي بعد .

لكن حزن سودة ، زوج النبي ، على أسير من ذوى قرابتها أثار فيها موجة مفاجئة من موجات الغضب ، فعبرت باندفاع عما جال بخاطرهما وسمعا النبي . كانت عند آل عفراء تواسيهم وتشترك في مناقحتهم على عوف ومعوز ابني عفراء . وقد استشهدوا في بدر . وعندما وصلت بيتها ، فوجئت بأبي يزيد سهيل بن عمرو ، ابن عمها ، في ركن الغرفة وقد قيدت يداها وجمعتا إلى عنقه بحبل . ما ملكت نفسها حين رأت سيد قومها في

هذه الحالة المزريّة ، صاحبت : يا أبا يزيد ، أعطيتم بلديكم ، ألا
متم كراما !!

كان النبي داخل البيت ، وفوجئ برنين الكلمات ، قال : يا سودة أعلى الله وعلى
رسوله ؟ اعتبر أن في كلماتها تحريضا . قالت وقد أرعدتها المفاجأة : يا رسول الله .
والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بحبل أن
قلت ما قلت .^{٤٠}

تدعي بيتي كليلين أن الخوف سيطر على سودة فبكت ، وبكت معها عائشة وهي
ترجو النبي أن يصفح عنها فقد كانت تعتمد عليها في الكثير من أمورها . وربما كان هذا
هو الوقت الذي أتفق فيه على أن تكون سودة مجرد راعية لشئون البيت أكثر
منها زوجة .^{٤١}

استشار النبي أصحابه في أمر الأسرى : القتل : أو الفداء ، أو العفو . كان يريد أن
يستمع إلى آرائهم قبل أن يتخذ قراره . قال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك ،
استبقهم ، علّ الله يتوب عليهم . أما عمر فاشتد وطلب قتلهم ، قال : يا رسول الله ؛
أخرجوك وكذبوك ، فاضرب أعناقهم . ثم زاد عبد الله بن رواحة على ما قاله عمر في
شدة عنفه ، قال : يا رسول الله ، انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم ثم أضرم عليهم نارا .

استمع النبي إلى رأيين متناقضين : رأى أبي بكر وهو يطالب بالسماحة والرحمة
والعفو ، فأصبح مثله - كما قال النبي - كمثّل إبراهيم الذي قال : " فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (إبراهيم : ٣٦) ، وكمثّل عيسى الذي قال : " إِنْ
تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيَّابٌ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (المائدة : ١١٨) : الرحمة
والمغفرة وترك الأمر لمن خلق العباد ، يغفر لهم أو يعذبهم ، كما تشاء قدرته .

أما الرأي الآخر ، وهو لعمر بن الخطاب ، فيحض على العنف ، بل وتصل درجة
القسوة بآبن رواحة ، في تأييده لرأى عمر ، إلى المطالبة بحرقهم . وفي هذا يقول النبي :
إِنْ مِثْلَ عَمْرِو كَمِثْلِ نُوحٍ ، قَالَ : " رَبِّ لَا تُذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا " (نوح : ٢٦) ،
وكمثّل موسى . قال : " رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرْوُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ " (يونس : ٨٨) .

^{٤٠} الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

^{٤١} Betty Kelen, p. 130.

ما كان النبي ليأخذ برأى عمر ، ما كان متعطشا لسفك الدماء وتسمير البشر ، ما لهذا جاء . لقد جاء رحمة للعالمين ، لا نذير دمار أو سوط عذاب . إنه الرحمة المهداة .

اختار النبي الفداء لمن يستطيع وكان أغلب الأسرى على قدر من ثراء ، كما اختار المنّ على من لا يملك مالا أو من كان يظن أن في المن عليه كسب للمسلمين . وكان بين من منّ عليهم النبي أبي عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح ، وكان محتاجا ذا بنات ، قال : يا رسول الله ، لقد عرفت مالى من مال ، وإنني لذو حاجة وذو عيال ، فامنن عليّ . فمنّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عليه أن لا يظهر عليه أحد (أى لا يعاديه ولا يعين عليه أحدا) ، فأمنه النبي وأطلق سراحه دون فداء . وكتب أبو عزة شعرا يمدح النبي اعترافا بفضلّه .^{٤٢} لكنه بعد أن أطلق سراحه نكث بعهده ، لم يوف بما وعد ، اشترك مع قريش فى معركة أحد ، وعاد لمحاربة النبي وقتال المسلمين ، وتم أسره . عندها أمر النبي بقتله جزاء خيانتّه وغدره .

ومنّ النبي أيضا على بعض الأسرى مقابل أن يقوم كل واحد منهم بتعليم عشرة من أهل المدينة القراءة والكتابة ، هذا معناه أن النبي كان يعد لقيام دولة قوامها الإيمان ، والقوة والعلم .

من أشهر الشخصيات التى منّ عليها النبي : أبو العاص بن الربيع ، زوج زينب ابنة النبي . وابن أخت السيدة خديجة . كانت السيدة خديجة هى التى سألت النبي أن يزوجه زينب ، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي ، فزوّجه لمكانته فى قريش ، إذ كان من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، هذا إلى جانب أن النبي - حبّا - كان يحاول قدر المستطاع إرضاء زوجته . لكن بعد الوحي ، أمنت زينب ، ولم يؤمن أبو العاص ، ظل على دين آبائه . وسعت إليه قريش تطلب منه أن يطلق ابنة محمد ، على أن يزوجه أفضل نساء مكة ، كما سعوا إلى ابن أبي لهب وكان قد ارتبط بإحدى بنات النبي ، يقال رقية ويقال أم كلثوم . استجاب ابن أبي لهب لإغراء قريش ، أما أبو العاص فرفض فى إباء وشمم ، قال : لا هاشم إذا ، لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

موقف يتسم بالنبل ، ما كان لينساه النبي . تمسك أبو العاص بزوجه فى حب فاق كل إغراءات قريش ، احتفظ بزوجه التى وجد فيها من الصفاء والنقاء والحب ما يندر أن يوجد فى امرأة أخرى . اصطفاها وتمسك بها ، فاصطفته وتمسكت به ، كانا مثلا نادرًا

^{٤٢} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

فى الصدق والوفاء لدرجة أن النبى رأى أن لا يفرق بينهما : هو على شركة ، وهى على إسلامها ، لم تكن آية التفريق قد نزلت بعد : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تُرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَنْ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ " (الممتحنة : ١٠) .

علمت زينب بأسر زوجها ، وما كان لها أن تتركه ، وهو المحب الوفى . أرسلت المال ، لكنها لم تكف بالمال فقط . بل أرسلت قلادة ثمينة كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها . فوجئ النبى بقلادة خديجة أمام عينيه . رق لها رقة شديدة .

لكن النبى لم يشأ أن يطلق صراح أبى العاص ، وقد فعل ذلك مع غيره ، كى لا تتار الأقاويل فيما يختص بزواج ابنته . كان الذى أسر أبا العاص خراش بن الصمة وكان له الحق فى الفداء . أخذ النبى رأى من حوله ، ترك لهم الخيار ، قال : إن شئتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا . فقالوا : نعم يا رسول الله فأطلقوه وردوا عليها الذى لها .^{٤٣}

إلا أن النبى أخذ على ابن العاص عهدا : أن يخلى سبيل زينب كى تهاجر إلى المدينة . لقد كان أمل النبى أن يعلن أبو العاص إسلامه فى التو واللحظة بعد أن من عليه النبى وصحبه ، ولكنه لم يفعل . ورأى النبى أنه من غير المستحب أن تعيش ابنته المسلمة مع زوج وثني مهما كان قدر رفعة ونبله . وافق أبو العاص وهو يعلم أن فراقه وزينب سيدميها معا ويحزن ابنتهما " أمامه " ، لكنه وعد ووفى .

أرسل النبى زيد بن حارثة كى يأتيه بزينب ، وذلك بعد " بدر " بحوالى شهر . كان أبو العاص قد أمرها أن تعد نفسها للرحيل . جاء بها زيد إلى المدينة ، بعد أن روعها أحد المشركين ، وهو هبار بن الأسود الفهرى ، بسهم وهى فى هودجها ، ويقال إنها كانت حاملا فطرحها ما فى بطنها .

ويقال إن النبى بعث سرية قال لمن خرج فيها : إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الذى سبق معه إلى زينب (هو نافع بن قيس ، حسب قول ابن إسحق) فحرقوهما بالنار . فلما كان الغد بعث إليهم يقول : إني كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما ، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا الله فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما .^{٤٤}

^{٤٣} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

^{٤٤} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

أقام أبو العاص بمكة بعد أن فرق الإسلام بينه وبين زوجته ، لكن رويهما لم تفترقا ، ما نسي أى منهما الآخر . وقبيل الفتح خرج أبو العاص في تجارة له إلى الشام ومعه رجال وأموال لقريش أبضعوها معه . في طريق العودة ، اعترضته سرية من سرايا المسلمين فأصابوا ما معه ، لكنه نجح في الفرار . وتحت جناح الظلام ، نجح في الوصول إلى حيث زوجته ، فاستجارها . أجارته وأعلنت ذلك على الملأ ، صرخت من صفة النساء بعد أن كُبر لصلاة الصبح أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

إنه يجبر على المسلمين أذناهم ، فما بال المسلمين بآبنة النبي وهي تعلن بأعلى صوتها أنها قد أجارته من يعلمون جيدا مكانته عندها وقدره عند قومه . بعث النبي إلى الذين أصابوا مال أبي العاص . يستسمحهم . إنه لن يرغمهم على فعل شئ : عليهم أن يردوا ما أخذوا بسماحة ورضاء نفس ، أو أن يحتفظوا بما غنموا فهو حق لهم . قال النبي : " إن هذا الرجل منا حيث علمتم وقد أصبتم له مالا . فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو في الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به " . استجابوا لكلمات النبي وردوا على أبي العاص ماله ، فرحل به إلى مكة وأعطى كل ذى حق حقه ، ثم أعلن إسلامه وعاد إلى المدينة . ورد عليه النبي زوجته بعد فراق ست سنين .

بدأت قريش تغدى أسراها . وكان الفداء أربعة آلاف درهم للقادرين ، وقد يقل عن ذلك إلى الألف في حالة من لا يملكون الكثير . وفي قبول الفداء الذى ارتضاه المسلمون ، نزلت الآية : " مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْرَى حَتَّى يَتُخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (الأنفال : ٦٧) ، وفيها ، كما هو واضح ، تأييد للرأي الذي أبداه سعد بن معاذ أثناء المعركة عندما بدت على وجهه علامات عدم الرضا لانشغال المسلمين بجمع الغنائم وأسر المشركين . كان الإثنان في القتل أحب إليه من أسر الرجال .

يعلق الإمام محمد أبو زهرة على هذا الموقف بقوله : إذن كان الخطأ ، لا في أنهم فдохم ، ولا في أنهم منوا عليهم ، ولكن في أنهم أخذوا الأسرى قبل الإثنان ، أى قبل أن يقتلوهم بالجراح ، حتى لا يستطيعوا أن يثيروا عليهم معركة أخرى ، أو تكون صعبة عليهم لكثرة القتلى ، ومن بعد ذلك يكون الأسر ، ويكون المن أو الفداء ، كما قال الله سبحانه وتعالى : " فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْنُمُوهُمْ فَشَدُّوا الوَثَاقَ فَمَا مَثَا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا " (محمد: ٤) .^{٥٥}

^{٥٥} أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ .

من سادة قريش بين الأسرى ، كان العباس بن عبد المطلب عم النبي . كان النبي قد نهى عن قتله أثناء المعركة لأنه كما شاع بين القوم ، خرج مكرها . ولقد ناقشنا هذه النقطة من قبل . وما هو ذا بين الأسرى موثوق اليمين . عز على النبي أن يكبل عمه ويلقى به في أحد الأركان . سيطر عليه أرق ممض ، لم يستطع أن ينام وهو يستمع إلى تضور العباس في وثاقه . سأله أصحابه : يا رسول الله مالك لا تتنا؟ أخبرهم أن قد أحزنه ما آل إليه حال عمه العباس . وإكراما للنبي قاموا إلى العباس فكفوا وثاقه .

كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو ، وكان بالنسبة للعباس ، من ناحية الحجم يعتبر ضئيلا إذ كان العباس ضخما جسيما . سأله النبي : كيف أسرت العباس يا أبا اليسر؟ أجاب أبو اليسر : أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده . قال النبي : لقد أعانك عليه ملك كريم^{٤٦} . وفي هذا الكلام إشارة إلى موضوع الملائكة وما يقال عن الدور الذي قاموا به في معركة بدر . وسنناقش هذه النقطة بعد قليل بالتفصيل .

طلب النبي من العباس أن يقدي نفسه فهو ذو مال ، لكن العباس حاول التملص والتخلص مدعيا أنه على دين الإسلام لكن القوم استكروه فخرج . صمم النبي على أن يدفع العباس الفدية ، رغم أن بعض المسلمين عرضوا على النبي أن يطلقه دون فداء ، لكن النبي رفض .

قال النبي للعباس في كلمات قاطعة : يا عباس أقد نفسك وابني أخيك : عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث ، وحليفك عتبة بن عمرو .. فإنك ذو مال . فقال : يا رسول الله إني كنت مسلما ، ولكن القوم استكروني . قال النبي : الله أعلم بإسلامك . إن يكن ما تذكر حقا فالله يجزيك به فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك .

كان النبي قد أخذ منه عشرين أوقية ذهباً ، طلب العباس أن تحسب في فدائه ومرة ثانية رفض النبي . لم يكن أمام العباس من خيار ، فدي نفسه وأبني أخيه وحليفه . ويروى ابن سعد أن الفدية كانت ثمانين أوقية ذهب ، ويقال ألف دينار . ويقال إن العباس بعد أن وصل مكة رفض أن يدفع فداء حليفه^{٤٧} .

ومن الأخبار ذات الدلالات الموحية خبر يقول : كان العباس بن عبد المطلب حين قدم به في الأسارى طُلب له قميص ، فما وجدوا له قميصا بيثرب يقدر عليه إلا قميص

^{٤٦} الطبري ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ .

^{٤٧} ابن سعد ، ج ٤ ، ص ١٤ .

عبد الله بن أبي ألبسه إياه فكان عليه .^{٤٨} وكان عبد الله بن أبي ، رأس النفاق في المدينة ، قد أعلن إسلامه بعد نصر بدر خشيّة ونفاقاً ، لا تبصرا وإيماناً .

ورد في مختصر تفسير ابن كثير أن رسول الله عندما نزل المدينة دعا أهلها إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن ، فقال له عبد الله بن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه .. فلما غزا رسول الله بدرًا فقتل الله به صناديد قريش ، قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدؤ الأوثان : هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول على الإسلام ، فبايعوا وأسلموا .^{٤٩}

وظل ابن أبي طوال حياته يثير القلاقل بين المسلمين والمسلمين ، وبين المسلمين واليهود ، وينشر الشائعات التي تؤذى النبي ، لكنه طوال الوقت ظل ينافق النبي حتى مات .

ولم يجدوا في المدينة كلها قميصاً يناسب العباس بن عبد المطلب ، عم النبي ، إلا قميص عبد الله بن أبي !!

رغم أن قريشاً أعلنت أنها لن تتدفع في فداء أسراها حتى لا يشتد عليهم محمد ويغالى في طلب الفداء ، إلا أن البعض لم يكثرث بما قرّره قريش وسارع بالدفع . كان من بين هؤلاء المطلب بن أبي وداعة الذي أنسل في جوف الليل حتى قدم المدينة ، وكان أبوه بين الأسرى . دفع أربعة آلاف درهم وكر عائداً في صحبه أبيه . كما قدم ميكز بن حفص بن الأخيف في فداء سهيل بن عمرو .

كان بين الأسرى عمرو بن أبي سفيان بن حرب ، أسره على بن أبي طالب . وكان من المستحيل أن يطلقه النبي متاً دون فداء مهما طال وقت احتجازه . طلب بعض أصحاب أبي سفيان منه أن يفدى ولده ، فرفض . وكانت حجتة : أجمع على دمي ومالي؟ قتلوا حنظلة وأفدى عمرا ؟ دعوه في أيديهم ، يمسكوه ما بدا لهم .

ترك أبو سفيان ولده محبوساً بالمدينة إلى أن حانت له فرصة العدو على شيخ مسلم - سعد بن النعمان أخو بني عمرو بن عوف - فحبسه بابه . ولم يفك أسره إلا بعد أن تم فك أسر ابنه وعودته إليه .

^{٤٨} نفس المرجع ، ص ١٣ .

^{٤٩} مختصر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٤٤ .

١٢- قتال الملائكة :

لم يتبق لنا فيما يختص بالقتال والمقاتلين يوم بدر إلا نقطة واحدة ، نرى أنه لا مناص من مناقشتها ، رغم صعوبتها وخطورة تحليلها بمنطق عقلائي واع ، وإيداء الرأي فيها باستتارة وصراحة لا مواربة فيها .. نقصد ما قيل عن اشتراك ثلاثة آلاف من الملائكة في القتال ضد قريش .

الأصل فيما قيل بخصوص الملائكة يوم بدر ، هو ما أنزله الله سبحانه وتعالى من آيات لشد أزر المؤمنين ، ومنها قوله تعالى : " وَلَقَدْ تَصَرَّكُمُ اللَّهُ بَيْدَرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ . إِذْ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّنْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَّكُمْ وَلَيُطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ " (آل عمران : ١٢٣-١٢٦) .

اختلفت الأقاويل ، وتعددت التفاسير ، منها ما لا يتقبله العقل ولا يستسيغه إذ يقوم على التفسير الحرفي المبالغ فيه للكلمات ، ومنها ما هو عقلائي روحاني نوراني يبين تأثير فعل الكلمة الربانية في نفوس المؤمنين وكيف تتحول في أعماقهم إلى طاقة وقدرة فاعلة تبدو وكأنها فوق طاقة البشر . وهذه هي معجزة القدرة الإيمانية : يصبح الرجل ربانيا يقول للشئ كن فيكون .

قال ابن إسحق : وحدثني من لا أتهم .. قال : كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيضا قد أرسلوها على ظهورهم . وقال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم أن علي ابن أبي طالب رضى الله عنه قال : العمائم تيجان العرب ، وكانت سيماء ، الملائكة يوم بدر عمائم بيضا قد أرخوها على ظهورهم ، إلا جبريل فإنه كانت عليه عمامة صفراء .⁵⁰

ونحن لا نعرف من هم " بعض أهل العلم " هؤلاء ، وابن هشام نفسه لا يعرف ، ولو عرف لذكر أسماءهم . الحديث إذن مأخوذ عن مجهول ، ومع ذلك يتوقع أن نصدقهم هو وبعض " أهل العلم " الذين أخذ عنهم عندما يدعون أن عليا قد رأى جبريل وعليه عمامة صفراء . لم يذكر على نفسه أنه قد رأى جبريل يوما ، وحتى أهل بيته الملازمين له طوال حياته لم يُرو عن أى منهم أن عليا قد رأى جبريل وعليه عمامة صفراء .

وحتى ابن إسحق عندما يقول : وحدثني من لا أتهم ، لا يذكر لنا اسما واحدا من أسماء هؤلاء الذين لا يهتم .

هذا كلام مرسل ، وغير موثق ولا تدعمه أسانيد . لذا فهو غير موثوق به .

⁵⁰ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

يضيف ابن إسحق إلى ما سبق قوله عن الملائكة ، ينقل عن رجل من بنى غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصغنا فى جبل يشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ، ننتظر الوقعة على ما تكون الدبرة فنذهب ما ينذهب ، قال : فبينما نحن فى الجبل إذ دنت منا سحابة ، فسمعنا حممة الخيل ، فسمعت قائلا يقول أقدم حيزوم ، فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه فمات مكانة ، وأما أنا فكدت أهلك ، ثم تماسكت .

هنا أيضا يتم النقل عن مجهول : رجل من بنى غفار . أى رجل من بنى غفار ؟ لا أحد يعرف ، حتى ابن إسحق نفسه . وهذا المجهول يحكى عن الخيل القادمة من فوق السحاب ، وصوت ذلك الذى يقول: أقدم حيزوم!! من هذا الحيزوم ؟ أهو ملك اسمه حيزوم ؟ إن كان ملكا حقا ، فهذه أول مرة نسمع أن بين الملائكة يوجد ملك اسمه "حيزوم". هذه معلومة لم ترد مطلقا إلا على لسان ذلك المجهول من بنى غفار . وهذا "الحيزوم الملك" الذى لم يذكر من قبل ولا من بعد ، يعتبر إضافة تهويمية لأنه من تخاريف بعض الأدعياء من الرواة . كل ما نأخذه على هذا الحيزوم هو أنه تسبب فى موت رجل لا صلة له - كما يقولون - بالخير أو النكير . سامح الله هذا الحيزوم المفترى أو المفترى عليه . والله أعلم ، كما يقول " السادة " .

ويحكى عن أبى أسيد بن مالك بن ربيعة ، وكان شهد بدرا ، قال بعد أن ذهب بصره : لو كنت اليوم ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب (ما انفرج بين جبلين) الذى خرجت منه الملائكة ، لا أشك فيه ولا أتمارى .

ويحكى أيضا عن أبى داود المازني ، وكان بين من شهدوا بدرا ، قال : إنى لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى فعرفت أنه قد قتله غيرى .^{٥١}

وفى تاريخ الطبرى ، نجد من يقول : لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف . ومن يقول : كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضا قد أرسلوها فى ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمرا ، ولم تقايل الملائكة فى يوم من الأيام سوى يوم بدر .

ونجد فى الطبرى أيضا من يعزى هزيمة المشركين إلى تدخل الملائكة وهى تقايل على خيلها البلق . والهزيمة فى هذه الحالة أمر طبيعى ولا لوم على الناس ، فالناس فى

^{٥١} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

هذه المعركة ما كانوا يقاتلون الناس ، إنما كان يقاتلون الله متمثلاً في جيش ملائكة . وبالطبع هم لا قبل لهم بقتال الله . وما كان باستطاعتهم أن ينتصروا عليه .

يحكي أحد المشركين الذين اشتركوا في المعركة ، يقول : والله إن كان إلا أن لقيناهم ، فمئناهم أكتافنا ، يقتلوننا ويأسرون كيف شاءوا . وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء . قال أبو رافع : ... تلك الملائكة .⁵²

أما ابن سعد فيحكي بطريقة مشوقة عن الملائكة الذين كانوا في ميمنة الجيش ، والملائكة الذين هاجموا من الميسرة ، والملائكة الذين كانوا في القلب أمام النبي وحوله ، يقول : وجاءت ريح لم ير مثلاً شدة ، ثم ذهب فجاءت ريح أخرى ، ثم ذهب فجاءت ريح أخرى . فكانت الأولى جبريل عليه السلام في ألف من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثانية ميكائيل عليه السلام في ألف من ميمنة رسول الله (ص) ، والثالثة إسرافيل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله (ص) .

وكان سيماء الملائكة عمائم قد أرخواها بين أكتافهم خضر وصفر وحمرة . والصوف في نواحي خيلهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : إن الملائكة قد سوّمت فسوّموا ، فأعلموا بالصوف في مغفرهم وقلانسهم . وكانت الملائكة يوم بدر على خيل بلق .⁵³

وينقل الدكتور شوقي ضيف ما قاله السابقون عن الملائكة ، ويكتفى بذلك دون شرح أو تحليل أو تعليق . يقول : وأمدّهم بألف من الملائكة مرّدين أي متبعين بألفين آخرين حتى بلغوا خمسة آلاف كما في صورة آل عمران .. ويكثر حديث المسلمين عن نصرة الملائكة لهم ، فقائل يقول إنه سمع همهمة الخيل في السحاب ، وقائل يشهد بأنه كان يتبع كافراً ليضربه بسيفه ، فإذا برأسه يسقط قبل أن يصل إليه السيف . وعن ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يوم بدر يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط ، وخر المشرك مستلقياً ، يقول : ووصلت إليه ونظرت فإذا هو قد حُطم أنفه وشق وجهه كمن يضرب بالسيف . ولم تقا تل الملائكة إلا يوم بدر .⁵⁴

هذا ما ذكره الدكتور ضيف نقلاً عن الأقدمين ، أما ما هو رأي الدكتور ضيف نفسه فيما نقل ، فلا نعرفه ، وكأنه كأستاذ ناقد لا رأى له . إذ ما جدوي ما نقل . وهو معروف

⁵² انظر الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٦ - ٤٠ .

⁵³ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٦ .

⁵⁴ شوقي ضيف ، محمد ، ص ٢٢١ .

جيدا وقد نقله من قبله المئات ، وأصبح من الكلام المكرر المعاد إلى درجة أن تشبع الناس به ؟ ما هي إضافة الدكتور ضيف بعد أن نقل ما نقل ؟ ما رأيه في آلاف الملائكة على ظهور الخيل وعلى رؤوسها العمائم وبأيديها السيوف تقطع بها رقاب أهل الشرك ؟ لا رأى له . لم يناقش لم يحلل ، لم يُقِّم ، لم يصدر حكما موضوعيا . وهذه أبسط مبادئ النقد .

ربما خشى الدكتور ضيف أن يقترب من أرض خيل إليه أنه محرم عليه الاقتراب منها. ربما خاف ثورة بعض المتعالمين المتنتعين الذين يتخذون من الدين تجارة يكسبون من ورائها الآلاف وربما الملايين. وربما خشى أن يتهمه بعض من نصبوا أنفسهم - أو تم تنصيبهم بالأمر - سدنة وحراسا على كل ما يخص الدين ، وهم أبعد ما يكونون عنه بسلوكهم الدنيوي المتكني والمغرق - إلى حد الغثيان - في ماديات الكسب الدنيوي .. ربما خشى أن يتهمه هؤلاء بالزندقة والكفر ، أو أن يصدروا قرارا بالتفريق بينه وبين زوجته ، أو أن يستحلوا دمه ، أو أن " يجعروا " بأعلى أصواتهم : يُنفَى من الأرض .

هؤلاء " السدنة " الذين يخشاهم الكثيرون ، رغم العلم بأنهم على درجة هائلة من الخواء المعرفي والقحط العلمي والتخلف الإدراكي ، لا يجرؤ أحد أن يمسهم بكلمة سوء جहर ، ذلك لأنهم يخدمون في بلاط السلطان ، ولهم كامل حمايته ما داموا يصدرون كل ما هو مطلوب منهم من فتاوى وتشريعات وأحكام تأييدا للسلطان الملهم الذي لا يخطئ أبدا ، والفتوى في هذا المجال مربحة .

وطوبى للمساكين الذين ارتفعت هاماتهم فوق هامة السلطان فرفضوا الملايين من فتوى الحرام .

نعود إلى جيش الملائكة المقاتلة الثلاثة آلاف ، وعلى رؤوسهم العمائم : حمر وخضر وصفر ، أرخواها بين أكتافهم ، وقد امتطوا الخيل البلق ، وبأيديهم شرعت السيوف .

لا ندري بالطبع لماذا وضعت الملائكة على رؤوسها عمائم . هل فعلوا ذلك كي يثبتوا أنهم ملائكة عرب مسلمون ؟ لكن ، ألم يكن على رؤوس المشركين أيضا عمائم ، وبذلك قد يختلط الأمر بين عمائم الملائكة وعمائم المشركين ؟ قد يقول قائل من المتعالمين: كانت عمائم الملائكة حمرا وخضرا وصفرا ، وهي ألوان حرم استخدامها علي المشركين . بالطبع لا نعرف من الذي حلَّ ومن الذي حرَّم ، ولكن عندما يفتي

المتعالَم ، فى حالة صدور مثل هذه الفتوى ، لابد وأن يصمت الجميع. لكل عصر رجال .

غامض الهدف الكامن وراء استخدام هذه الألوان ، ولا نعرف الحكمة فى استخدامها. هل أريد بها مثلا أن تكون - بعد النصر- ألوان الراية التى يجب أن يستخدمها المسلمون ؟ لم يحدث هذا قبل أو بعد بدر. كانت راية المسلمين أما بيضاء وإما سوداء . هنا وقد ينتفض أحد المتعالمين ، صارخا بأعلى صوته ، وهو يتخيل أنه يبهزنا بفتح علمي نادر : الأبيض والأسود .. هذا لون الخيل البلق التى كانت تمتطيها الملائكة !!

ونحن نتساءل : هل كانت الملائكة فى حاجة إلى الهبوط ما بين السحاب - كما يدعي البعض - على ظهور الخيل ؟ هل هذا النوع من الملائكة يختلف عن الملائكة التى وصفت بأنها ذوى أجنحة مثني وثلاث ورباع ؟

هل كان جبريل ، عليه السلام ، الذى وصفه بعض كتبه التراث بأن له ستمائة جناح، فى حاجة إلى أن يأتي إلى النبي بعد المعركة على : فرس أنثى حمراء ومعه رمحه قد عصم ثنيته الغبار .^{٥٥}

كيف عرف ذلك الإخبارى " اللوذعي " أن الفرس التى امتطاهها جبريل كانت أنثى؟ ما هو مصدره ؟ القرآن ؟ الحديث ؟ لن يجرو أحد على التناول وادعاء ذلك . إذن ، لماذا سوّد ابن سعد صفحات " طبقاته الكبرى " بمثل هذه الأخيطة ، دون أن يتحقق من صدق قائلها أو من سلطة مصادرها ؟

ولماذا غير جبريل الفرس ؟ لقد جاء فى بداية المعركة - كما يذكر ابن سعد نفسه - على فرس أبلق ، الآن هو على فرس أنثى حمراء . من أين أتى بها جبريل ؟ هل هبطت له خصيصا من ما فوق السحاب ، أم أن جبريل أخذها غنيمة من جيش الكفار؟

هذه " هلوسة " ، لا نقول هلوسة دينية . فالدين الإسلامى حق لا باطل فيه ، إنما هى هلوسة أصحاب العقول السقيمة ومن جاء بعدهم ممن ابتلع هذا الكلام فى عماء وجهل، دون أن يستخدم العقل الذى هو أعلى ما وهبه الله للإنسان .

لم يجسر المتعالمون على مناقشة ما جاء فى كتب التراث ، لم يحاولوا تنقيتها مما جاء فيها ، ولا صلة له بجوهر الدين ، على العكس رفعوها إلى مصاف الكتب "المقدسة" وجعلوا من أنفسهم سدنة وحراسا ، لأنها بضاعتهم التى يجنون من ورائها الربح الوفير.

^{٥٥} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

ونُذَكِّر هؤلاء جميعاً - إن كانوا لا يتذكرون - أن القرآن الكريم ، فى سورة التوبة، يشير إلى الملائكة على أنهم جنود لا يمكن للعين البشرية رؤيتها : " ثُمَّ أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَلْفُ مَلَائِكَةٍ عَلَى رُسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا " (التوبة : ٢٦). وهذا يثبت بالدليل القاطع الذي لا يرقى إليك شك ، خطأ الذين ادعوا أنهم رأوا الملائكة الثلاثة آلاف رأى العين وهم يحاربون فى صفوف المسلمين .

على أية حالة ، طبقاً لما جاء فى كتب التراث ، أصبح عدد جيش المسلمين - ملائكة وبشرا - ثلاثة آلاف وثلاثمائة يزيدون قليلاً ، مقابل سبعمائة أو ثمانمائة فى جيش المشركين . هذا معناه أن المعركة قد أصبحت غير متكافئة ، ولا لوم على القريشيين المشركين إذا ما هزموا ، بل إن هزيمتهم قد غدت حتمية حتى قبل أن تبدأ المعركة : إن الله قد بعث بجنده السماويين ، على خيل سماوية ، وبأيديهم سيوف سماوية ، كي يقاتلوا بشرا على الأرض . وهذا معناه أن " الله " قد اشترك فى المعركة عن طريق ملائكته ، ولا قيل لقريش أو غير قريش بحرب يخوضها " الله " .

هذه الخرافات التراثية أخذت ، دون ريب ، من الهلوسات الإسرائيلية التى كتبنا عنها باستفاضة فى كتابنا موسى فى الأساطير الإسرائيلية . كان " رب الجنود " يحارب دوماً وسط شعبه المختار ، حسبما تروى الأساطير الإسرائيلية .

يقول إله العبرانيين فى سفر الخروج " ولكنى أعلم أن ملك مصر لا يدعمكم تمضون ولا بيد قوية . فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التى أصنع بها . وبعد ذلك يظلمكم " (خروج ٣ : ١٩-٢٠) والرب هنا- كما هو واضح - يضرب نيابة عن شعبه .

وفى الأصحاح الثالث والعشرين من نفس السفر ، يرسل الرب لموسى ومن معه ملاكاً نيابة عنه : " ها أنا مرسل ملاكاً أمام وجهك ليحفظك فى الطريق وليجئ بك إلى المكان الذى أعدته .. فإن ملاكى يسير أمامك ويجئ إلى الأموريين والحثثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين . فأبيدهم " (خروج ٢٣ : ٢٠-٢٣) . الملك يقدو ويحفظ، والرب يضرب ويدمر من أجل الشعب " المختار " .

وفى سفر " العدد " يرسل بالاق بن صيفور ، ملك موآب ، إلى بلعام بن بعور ، وقد كانت له نبوءات ، أن يحضر ويلعن له شعب إسرائيل ، لكن الرب يرسل ملاكاً وفى يده سيف مسلول كي يعترض طريق بلعام : " ثم كشف الرب عن عيني بلعام فأبصر ملاك الرب واقفاً فى الطريق وسيفه مسلول فى يده فخر ساجداً على وجهه " (عدد ٢٣ : ٣١) .

وفى سفر " التثنية " يقود الرب شعبه وهو يعبر الأردن ويكون هو نفسه أمامهم نارا آكلة : " اسمع يا إسرائيل . أنت اليوم عابر الأردن لكن تدخل وتمتلك شعوبا أكبر وأعظم منك ومذنا عظيمة ومحصنة إلى السماء .. فأعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك نارا آكلة .. هو يبددهم ويذلهم " (تثنية ٩ : ١-٣).

وفى إحدى معارك يشوع يشارك الرب فى القتال ، يضرب الأعداء ضربة مدمرة، ولا يكتفى بذلك ، بل يرميهم بحجارة عظيمة من السماء : " فأزعجهم الرب أمام إسرائيل وضربهم ضربة عظيمة فى جبعون وطردهم .. وبينما هم هاربون من أمام إسرائيل .. رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء .. فماتوا " (يشوع ١٠ : ١٠-١١).

من هذا النبع " التوراتي " تدفقت الأساطير الإسرائيلية متسرلة بجبروت " رب الأرباب " تتألفتها الألسنة وترسبت فى عقول الرجال ، جيلا بعد جيل . ولم تسلم من لفحاتها بعض كتب التراث ، إذ بدا لبعض العقول السقيمة أنه إذا كانت الملائكة قد قاتلت من أجل بنى إسرائيل ، فلماذا لا تقاى أيضا من أجل المسلمين ، حتى يتساوى أولئك وهؤلاء فى ميزان الإعجاز الرباني المجسد فى ملائكة الله الهابطة بعمايمها وخيلها وسيوفها من بين السحاب !!!

خلاصة الواقعة : انتصر جيش الملائكة الثلاثة آلاف المضاف إليه جيش المسلمين الثلاثمائة ، على جيش المشركين السبعمائة أو الثمانمائة. وليس فى هذا النصر ما يدعو إلى الدهشة أو الإنبهار أو حتى مجرد الزهو والإعجاب .

ونوجه بعض التساؤلات لهؤلاء الذين كتبوا عن معركة " الملائكة " وهم فى حالة " دروشة " جماعية :

- لقد تم قتل سبعين من المشركين ، فكم عدد الذين قتلهم المسلمون وكم عدد الذين قتلهم الملائكة ؟

- إذا كان عدد المقاتلين من الملائكة ثلاثة آلاف - ولا داعي لأن نقول خمسة آلاف- فهذا معناه أنه كان فى مواجهة كل مشرك ملاكان أو أكثر. فكيف لا ينجح هذا الجيش الجرار فى قتل أكثر من سبعين مشركا ؟ كيف لم ينجح هذا الجيش الهابط بسيوفه السماوية - حسب رواية كتب التراث - فى القضاء على جيش قريش بأكمله ؟ هل ملائكة الإخباريين أولئك - ولا نقول ملائكة الله . حاشا لله - كانوا غير مدربين على القتال ؟

- وإذا كانت تلك الملائكة التي اخترعتها أخيلة المتدروشين من كتبه التراث ، قد هبطت في صورة رجال ، وهم كما يدل حصاد المعركة غير مهرة في فنون القتال - بدليل عجز الثلاثة آلاف عن إبادة سبعمائة - فكم قتل من هؤلاء الملائكة ومن جرح ؟

- إذا كانت قد وقعت إصابات في جيش ملائكة الإخباريين أى قتل بعضهم وهم فى صورة رجال فكيف تم دفنهم ؟ أم أن بقية ملائكة " الدراويش " قد حملوا قتلاهم وعادوا بهم إلى ما فوق السحاب ؟

- إذا كانت الملائكة قد هبطت من السماء لقتال قريش ، ألا يعني هذا إكبارا وإجلالا ، ولا نقول تقديسا ، لقدر قريش ، إذ أنها المرة الأولى في تاريخ البشرية الذى يهبط فيها جيش من ملائكة سماوية كى يقاتل جيشا من البشر . هذا تشريف من الناصر أن يحدث . بل من المستحيل . لكن الإخباريين أحدثوه ، وفى غباء وجہل لم يدركوا أن هذا أكبر إجلال وتشريف لقريش .

- ثم ، ما هو دور وفضل أصحاب النبى فى هذه المعركة كما صورتها عقول بعض الحمقى من كتبه التراث ؟

لا دور ولا فضل . ودون أن يدري " الكتبة " وجهوا أكبر إهانة لجيش النبى فى يوم الفرقان . وقد انتصر رجاله بسيف تحركها سواعدهم الفتية وقد امتلأت قلوبهم بنور الله فقاتلوا فى بطولة إيمانية نادرة أذهلت المشركين ودفعت بعضهم إلى الاعتقاد بأنهم يقاتلون قوى فوق بشرية يستحيل الصمود أمامها ، فقتل منهم من قتل ولاذ الآخرون بالفرار .

لقد كانت قوة الصمود الإيماني هائلة ، لدرجة فاقت كل تصورات قريش فانهزموا . وبعدها حكيت الحكايات ، ورويت الأساطير وتفنن القصاصون فى الإبداع ، وانهمر سيل " الغيبيات " أو " المغيبيات " الذى ما زال يفيض حتى اليوم .

لقد أمد الله المسلمين الثلاثمائة بقوة إيمانية ثبتت بها قلوبهم ، وامتلت بها جوانحهم ، وتشبع بها يقينهم ، فتضاعفت قوتهم مرات ومرات ، وكأن الواحد منهم قد حلت فيه قوة عشر من الملائكة ، فغدا الواحد منهم يملك من المقدرة ما يمكنه من أن يغلب عشرا أو عشرين من المشركين : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ " (الأنفال : ٦٥) .

النبي هو الذى يحرض المؤمنين على القتال ، والمؤمنون هم الذين يقاتلون ، والمائتان بفضل الله وصدق إيمانهم به يغلبون ألفين — أي أن الثلاثمائة مسلم ، فى جيش النبي، كان بإمكانهم هزيمة جيش المشركين حتى لو كان تعداده ثلاثة آلاف . لا سبعمائة أو ثمانمائة . الذى حارب وانتصر، إذن ، هو جيش من رجال النبي ، لا من الملائكة ، كما يقول الإخباريون .

لهذا كان لنصر هؤلاء القلة من المؤمنين معني ومغزي وثوي . كان يوم الفرقان . وكان بداية انتشار راية الإسلام خفاقة ، لا فى شبه جزيرة العرب وحدها ، ولكن فى كل مكان وصلت إليه دعوة الإسلام القائمة على التقوى والمحبة والعدل والسلام .

نختتم هذه النقطة بتعليق للعالم الجليل . المفكر المستنير . الشيخ أحمد حسن الباقوري الذى يقول عن قتال الملائكة يوم بدر : ونروى لك حول نزول الملائكة فى بدر وقتالهم مع المسلمين ما يكاد بعض أهل العلم ينسبه إلى الأستاذ محمد عبده .. حيث قال : إن وحي الله إلى الملائكة بأن يثبتوا المؤمنين ، إنما هو بدء كلام خوطب به النبي والمؤمنون ، تنمة للبشرى فى قوله " وما جعله الله إلا بشري " فيكون الأمر بالضرب فى الآية موجها إلى المؤمنين لا إلى الملائكة . وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاثل فى يوم بدر .. وقد وردت روايات ضعيفة تدل على قتال الملائكة ، لم يعبأ الإمام الجليل ابن جرير بشئ منها ولم يجعلها خليفة بأن تذكر ولو لترجيح غيرها عليها .

قال السيد رشيد : وما أدري أين يضع بعض العلماء عقولهم عندما يغترون ببعض الظواهر وبعض الروايات الغريبة التى يردها العقل ولا يثبتها ماله قيمة من النقل .

إنهم مبتعدون عن الصواب فى إدعائهم أن الآية ظاهرة فى قتال الملائكة ، بدليل أن الإمام ابن جرير لم يعبأ بشئ من الروايات الضعيفة التى وردت فى هذا المجال دالة على قتال الملائكة . ولو أن الملائكة قد قاتلوا قتالا حسيا مع المؤمنين فراحوا .. يقطعون من الكفار كل بنان ، لم تكن لأهل بدر من أصحاب النبي فرية يفضلون بها سائر المؤمنين ، حتى يستحقوا قول رسول الله (ص) لعمر رضى الله عنه : وما يدريك يا عمر لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

نسأل الله أن يكفيننا شر هذه الروايات الباطلة التى شوهت التفسير وقلبت الحقائق ، وخالفت نص القرآن نفسه ، إذا كان الله تعالى يقول فى إمداد الملائكة : " وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم " ، وهذه الروايات تقول بل جعل الله الملائكة مقاتلين ، وإن

هؤلاء السبعين الذين قتلوا في معركة بدر لم يمكن قتلهم إلا باجتماع ألف أو ألفوف من الملائكة .

إلا أن في هذا من شأن تعظيم المشركين ورفع شأنهم والإشادة بشجاعتهم ، مالا يصدر عن عاقل إلا إذا سلب بعض عقله لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ولم يرفع منها إلى رسول الله حديث ، وإنما ورد فيها حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الألويسي وغيره بغير سند .

وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيرا فرواياته عنها حتى في الصحيح مرسلة ، وقد روى عن غير الصحابة حتى روى عن كعب الأحبار وأمثال كعب الأحبار ممن لا يوثق برواياتهم^{٥٦} .

هذا ما قاله عالم دارس وفقه متمكن وشيخ جليل ، ألا يكفي هذا كي يخرس السنة المتفقيهي والمتعالمين والمتشجنين الذين نصبوا أنفسهم - أو نصبهم السلطان - سدة وحراسا على بوابات الفتوى وشرح أمور الدين ؟

١٣- آثار بدر :

انتشر خبر انتصار المسلمين في غزوة بدر انتشار العاصفة في كل ربوع شبه جزيرة العرب . أصاب الجميع بالوجوم والذهول البالغ حد الخوف والرغبة . محمد بن عبد الله ، اليتيم الطريد ، المتهم من قريش بالإدعاء والجنون ، وأتباعه المستضعفون المهانون الذين نكلت بهم قريش وأهانتهم وأذلتهم ، هؤلاء المستضعفون في مكة أبادوا خيرة سادة قريش في أول مواجهة بال سلاح في بدر . كانت المعركة فاصلة وقاصمة ، أصابت مكة كلها وما حولها بذهول يكاد يصل إلى حد الخيال . كان المستحيل بالنسبة لهم أن يحدث ما حدث ولكنه قد حدث . وما حدث أثار الذعر والرعب في قلوب المشركين .

صُعِقَت مكة بالخبر النكبة . كان أول من قدم وتكلم الحيسمان بن عبد الله الخزاعي . وبتقة من شهد بعينه . أعلن وقوع الكارثة ، قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمّية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، ونُبَيْه ومُنْبَه ابنا الحجاج ، وأبو البختری بن هشام .

^{٥٦} أحمد حسن الباقوري ، ص ٨١-٧٩ .

سمعه صفوان بن أمية ، وكان جالسا بالججر طلب من بعض من هم حوله أن يسألوا ذلك الذي جاء بالخبر إن كان صفوان بن أمية هو أيضا قد قتل . السؤال بالطبع ينم عن عدم التصديق المغلف بالسخرية . لكن الحيسمان تغاضي عن سخرية الزدراء التي يتضمنها السؤال . أشار إلى صفوان وأقسم أن قد رأى أباه وأخاه حين قتل .

بعد أن تأكد صفوان من حقيقة ما حدث ، أقسم أن لا بد وأن يأخذ بثأر أبيه وأخيه ، وأن يسرع بالفعل منفردا قبل أن تجمع قريش أمرها ، ولتجمع بعد ذلك على ما تجمع . دم أبيه وأخيه يستصرخانه وعليه أن يقدم على ما تمليه عليه غضبته الجاهلية في الأخذ بالثأر . الدم بالدم ، ودم بلال لن يكون أبدا بدم أبيه . قتل بلال في هذه الحالة فيه تشريف "العبد" ، لا بد من قتل محمد . نعم ، لا بد من قتل محمد نفسه . وبذلك يريح صفوان ويستريح : يريح قريشا وينقذها من خطر قادم في بلاء قد لا يبقى ولا يذر ، ويستريح هو وقد فعل ما لم يجرؤ على فعله أحد ، أو جرؤ وما استطاع .

تحدث صفوان بن أمية إلى عمير بن وهب الجُمحي ، بعد حلول المصاب بوقت قصير . وكان عمير - كما يصفه ابن إسحق - شيطانا من شياطين قريش وممن كان يؤذي النبي وأصحابه ويلقون منه عناء وهو بمكة . هذا إلى جانب أن ابنه وهب كان بين الأسرى في المدينة ، لم يطلق سراحه ، على أمل أن يأتي من يدفع الفدية ويحل وثاق الأسير . ولم يتقدم أحد .

اتفق صفوان وعمير على أن يذهب عمير إلى المدينة ، ويستخدم كل ما يتفق عنه ذهنه من حيلة ودهاء حتى يتمكن من قتل محمد وفك أسار ولده . مقابل ذلك يقوم صفوان بسداد كل ديون عمير ، بالإضافة إلى أن يرعى عياله ما بقوا ، وكانهم أولاده ، لا يبخل عليهم بشئ .

تم الاتفاق في طي الكتمان . ما علم به أحد . شحذ عمير سيفه وغمسه في السم . مجرد خدش مهما كان بسيطا وينتهي الأمر . مكروا وأجادوا المكر . ما دار بخلدهم أن مكروهم ضئيل هزيل إذا ما قورن بمكر "خير الماكرين" .

قدم عمير المدينة . أتاخ على باب المسجد متوشحا سيفه . لمح الفاروق عمر . فسى لمح البصر أدرك : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر . أمر رجالا من الأنصار كانوا حول النبي أن يكونوا على يقظه تامة ويحذروا شر ذلك القادم من قريش .

لكن النبي ، بطمأنينة الواثق بقدر الله ، قال : أدخله علي . دخل وعمر أخذ بحمالة سيفه والمسلمون يحيطون به . ما كان باستطاعته فعل شئ . سأله النبي عن سبب مقدمه .

أجاب بأنه ما جاء إلا من أجل ولده الأسير. كان يكذب وكان النبي يعرف أنه يكذب ، لسبب واحد بسيط ، وهو أن النبي كان على علم بكل ما دار بينه وبين صفوان بن أمية. كان للنبي عيون في مكة ترصد كل شيء ، مسلمون يكتُمون إسلامهم ومسلمون أعلنوا إسلامهم وتحملوا كل بذاءات قريش ، ولا يجب أن ننسى العباس بن عبد المطلب الذي اتهمه بعض كتاب السيرة أنه كان يتجسس لحساب النبي .

افتضح أمر عمير. وبكل تأكيد تخيل دمه مراقبا عند قدميه ، فقد أساء في الماضي وبالغ في الإساءة ، ثم أضاف إلى ما سبق من جرائم شوهاء محاولة الإقدام على قتل النبي، وسيفه المسموم معلق في عنقه ، شاهد صدق على جرم حامله .

لم يكن أمام عمير من سبيل سوي الاعتراف . اعترف . أعلن إسلامه . أطلقوا له أسيره . أخذ ولده ورحل . ويقال إنه صدق في إسلامه وجهر به في مكة ، ثم أخذ يسدعو إلى الإسلام . ويقول ابن إسحق إن عميرا آذى من خالفه " أذى شديدا فأسلم على يديه ناس كثيرون " .^{٥٧}

ولا نعرف بالطبع كيف يدعو إلى الإسلام ويؤذى من خالفه أذى شديدا ، وهذا ليس من جوهر الدين . إن ما قام بفعله كان لا يختلف كثيرا عما كانت تفعله قريش . لكن هذا ما يقوله ابن إسحق . ولا نضيف . فقد مللنا كثرة التعليق .

بلغت الهزيمة أبا لهب ، عم النبي وسيد بنى هاشم بعد موت أبي طالب . طلب من أبي سفيان بن الحارث أن يقص عليه كيف حدث ما حدث ، فالكرب هائل ووقوعه مذل مهين . قال أبو سفيان ، وقد بدا مسحوقا بذهول الصدمة : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمئناهم أكتفنا يقتلوننا كيف شاعوا ويأسروننا كيف شاعوا ، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس .^{٥٨}

اهتز أبو لهب وارتعد ، وكأن الأرض قد زلزلت زلزالها. خلال أسبوع واحد قتلته الحمي .

وعن موت أبي لهب ، تقول بيتي كيلين : سقط عدد كبير من قريش قتلى في معركة بدر ، أما عن أبي لهب ، عم محمد ، الذي لم يشترك في المعركة ومكث في مكة ، فقد مات بالطاعون ، كما لو كانت يد الله قد أودت بحياته كي تخلص محمدا منه .^{٥٩}

^{٥٧} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

^{٥٨} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

^{٥٩} Betty Kelen, p. 134 .

ناحت قريش على قتلها ، ثم كفوا . نواحيهم يجب ألا يبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بهم . هكذا خيل لهم ، لأنهم عجزوا عن فهم حقيقة الإسلام وجوهر رسالة النبي .

تجبرت الدموع في عيني هند بنت عتبة . لقد قتل أبوها وعمها وأخوها ، عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة بن ربيعة . أقسمت أن لا يقربها زوجها ، وأن لا يمس جسدها طيب ، حتى تأخذ بثأرها وتنتقم لقتلها . خالفت في ذلك نساء مكة اللاتي غلبهن النواح على القتلى . ولقد ذهب بعضهن إلى هند يسألنها : ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ قالت : أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء الخزرج !! لا والله حتى أثار من محمد وأصحابه . والدهن على حرام حتى نغزوا محمداً .

والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبكيت ، ولكن لا يذهب حتى أرى ثاري بعيني من قتلة الأحبة . ومكثت لا تقرب الدهن ولا تقرب فرش أبي سفيان وتحرض الناس حتى كانت وقعة أحد .

أما أبو سفيان ، الذي أصبح زعيم قريش بعد أن قتل كبارها ومات أبو لهب محموماً ، فقد نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة وألا يطعم دهناً ، حتى يغزو محمداً ويأخذ بالثأر . ولكنه لم يستطع أن يصبر طويلاً . أراد أن يبر بقسمة سريعاً ، فخرج في ذي الحجة في مائتي راكب من قريش حتى اقترب من المدينة . ذهب تحت جناح الليل وحده إلى يهود بنى النضير ، وهو يعرف مقدار عدائهم الكامن لمحمد رغم سكوتهم عليه . طرق باب حنيفة بن أخطب فأبى أن يفتح له ، خاف مغبة ما قد يحدث . انصرف أبو سفيان إلى سلم بن مشكم ، سيد بنى النضير آنذاك ، فاستقبله واحتفى به وأحاطه بخبر محمد وأصحابه .

عندما عاد أبو سفيان إلى رفاقه ، بعث رجالاً منهم إلى ناحية من المدينة يقال لها "العريض" ، فحرقوا نخيلها وقتلوا رجلاً من الأنصار وصاحباً له كانا في حرث لهما . ثم انصرف أبو سفيان ومن معه .

وصل الخبر النبي فأسرع في طلب أبي سفيان . لكن أبا سفيان أسرع بالفرار . ما أراد ، وما كان باستطاعته ، في هذه الغزوة السريعة الضئيلة في حصادها ، أن يواجه النبي وأصحابه . لذا تخلص من الأرواد التي تزود بها هو ومن معه ، طرحوها كي يتخففوا منها طلباً للنجاة . وكان أكثر ما طرحوه من أزوادهم "السويق" ، وهو عبارة

عن حنطة أو شعير مطحون يخلط باللبن والعسل والسمن ، وبذلك يصبح زادا مشبعا لسد رمق المسافرين .

جمع المسلمون ما طرحه المشركون وهم يفرون ، لذا سميت هذه الغزوة الخائبة : غزوة السويق .

ما سبق وقدمناه ، كان بعض ما لمس من آثار لمعركة بدر في مكة . أما عن آثارها في المدينة ، وموقف اليهود والمنافقين والكارهين ، من النبي قبل المعركة وبعدها ، فنرى أن نفرد له فصلا كاملا .

الفصل الثالث

ما بين بَذْر وأُحْد

الفصل الثالث

ما بين بدر وأحد

١- أفراح بعد بدر :

بلغت فاطمة العشرين . كانت صغرى بنات النبي . حان وقت تزويجها . من يا سأتري يختاره النبي كي يكون زوجا لهذه الدرة الغالية ؟ تقدم لخطبتها عمر بن الخطاب . ومن بعده طلب يدها أبو بكر ، كما تقدم لها عدد من شباب المهاجرين وبعض الأنصار ، كل يمني نفسه بالزواج من الزاهرة الجميلة ، وبالإنتماء إلي بيت النبي .

لم يبد النبي موافقته على أى ممن تقدموا لها ، وكان حانيا في رفضه : ربما لم يحن الوقت بعد . الوقت المناسب - كما يقول لينجز Ling - سوف تحده السماء .^١

ربما كان يفكر في ابن عمه ، على بن أبي طالب ، الذى تربى منذ صغره فى بيت خديجة ، ونشأ مع فاطمة فألفها وألفته حتى بلغت مرحلة الشباب ، وأصبحت فاطمة زهرة متفتحة عطرة ، وغدا على فارسا جبورا يخشاه العدو وتتجنب الكثرة مواجهته فى ميدان القتال .

على بالتأكيد يود أن يتزوج ابنة النبي ، لكنه يتردد . إنه لا يستطيع ، لا يملك مقدرة أن يتقدم ، يطلب يدها ، يتزوج . السبب واضح وماكان بخاف على النبي : لم يكن على يملك شيئا . كان يعاني من حالة فقر مادي شديد . هذه ليست مبالغة فى القول ، لكنها الحقيقة : لم يرث على شيئا من تركة أبيه ، لم يكن مسموحا له . المسلم لا يرث من مات على الشرك .

شجعه النبي . أعطاه ناقتين من غنائم بدر . وخرج على يعمل عله يتكسب ما يعينه على نفقات وليمة عرسه . لكنه عاد يوما فإذا به يفاجأ بما لم يتوقع : لقد فجع فى ناقتيه . حمزة بن عبد المطلب قام بقطع سنم كل منهما وبقر الخاصر وأخذ الكبد . ارتاع على ، صدمة ما رأى ، سأل من فعل هذا . قالوا : حمزة بن عبد المطلب .

أسرع على إلى النبي وأخبره ، كان حمزة فى بيت لهو وطرب ، يشرب الخمر ويستمتع إلى غناء إحدى القيان ، غير مكترث بما فعل . انطلق النبي ، يتبعه على وزيد

^١ Lings, p. 163 .

ابن حارثة ، حتى جاء البيت الذى به حمزة . ويصف البخارى الموقف الحرج بقوله :
استأذن النبى ، فأذن له ، فطفق يلوم حمزة فيما فعل ، فإذا حمزة ثمل محمرة عينه .
فنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر إلى ركبتيه ، ثم صعد النظر
إلى وجهه ، ثم قال : وهل أنتم إلا عبيد لأبى ، فعرف النبى صلى الله عليه وسلم أنه
ثمل ، فنكص على عقبيه القهقرى ، فخرج وخرجنا معه .^٢

بعدها كان لابد من تحريم الخمر تحريما مطلقا . ولم تكن قد حرمت من قبل
بصورة قاطعة.

ثم زواج على وفاطمة بعد أسابيع قليلة من طلب على يدها . ساعدها النبى قدر
المستطاع . كان على أن يعمل بكل طاقته كي يخرج من حالة الاحتياج التى
فرضتها عليه ظروف الهجرة . يقول لينجز : ولكي يتغلبا على فقرهما كان على يتكسب
بسحب الماء من الآبار وحمله إلى الناس ، أما فاطمة فقد عملت بطحن الغلال ، وكانت
تعمل حتى يبلغ منها الكلال مبلغا .^٣

ورغم حزن النبى على ابنته رقية التى فارقت الحياة أثناء غيابه فى غزوة بدر ،
إلا أنه وجد شيئا من العزاء عندما عرض عليه عثمان أن يتزوج ابنته أم كلثوم ، وسر
عثمان بموافقة النبى سرورا بالغا إذ وجد فى ذلك تقديرا له من النبى ، وقد كان حريصا
على أن تستمر صلة نسبه ببيت النبوة .

قبل أن يشيع خبر خطبة عثمان لأم كلثوم ، ذهب عمر بن الخطاب إلى عثمان
عارضاً عليه أن يزوجه ابنته حفصة . كانت حفصة فى الثامنة عشرة من عمرها على
قدر متميز من الجمال . وقد أخذت عن أبيها بعض صفاته كالكياسة والحزم والذكاء .
وأيضا سرعة الانفعال . كان زوجها خنيس بن حذافة قد تزوجها بعد عودته من
الحبشة ، ثم أصيب فى بدر وتوفى بعدها .

لم يظفر عمر من عثمان على الموافقة المرجوة ، فتوجه مباشرة إلى أبى بكر
وعرض أن يتزوج حفصة ، لكنه ووجه بنفس الموقف ، مما دفعه إلى الذهاب إلى النبى
مباشرة يشكو إليه سلوك صاحبيه . وفوجئ عمر فى حضرة النبى بما لم يكن يتوقعه ،
عرض عليه النبى ما لم يخطر له على بال : أن تكون حفصة زوجه له ، أى أمّا من

٢ : أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٥٩٥ .

٣ : Lings, p. 163 .

أمهات المؤمنين . هكذا تتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة . وأخبر أبو بكر عمر ، فيما بعد . أن إغراضه عن حفصة كان لسابق علمه أن النبي قد اخترها لنفسه . وبذلك تبدد ما بدا من جفاء وقد كان عارضا ، بين عمر وأبي بكر وعثمان .

هكذا ارتبط صفوة الصفوة من الصحابة - أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - ببيت النبوة ، وكانوا أعلام الخلافة في فترة ما بعد النبي .

٢- سرية زيد :

بعد انتصار بدر . ذاع صيت المسلمين كمقاتلين أشداء ، يبعث بأسهم الرهبة في قلوب المشركين . لذا فقد قررت قريش أن تغير طريق تجارتها إلى الشام ، تجنباً لخسائر ومعارك قد تفرض عليها دون أن تكون قادرة على التصدي لها. تركوا طريق البحر الأحمر، واختاروا طريق نجد إلى العراق مروراً بشرق المدينة . كان الطريق طويلاً وشاقاً ويحتاج إلى الكثير من الزاد والماء ، ولوعورته وخطورته كان لا بد لمن يسلكه أن يستعين بدليل خبير على دراية بكل المسالك والدروب .

خرجت إحدى قوافل قريش تحت إمرة صفوان بن أمية ، وقد اتخذوا من فرات بن حيان من بني بكر بن وائل مرشداً لهم . كانت الغير ، وعددها كبير ، تحمل من البضائع والفضة ما يقدر بمائة ألف درهم .

وصل خبر القافلة إلى النبي عن طريق أحد عيونه من المسلمين . لم يكذب النبي الخبر، فعير قريش لم تمر في طريقها إلى الشام في ميعادها المعلوم . وكان النبي يعرف جيداً - بحكم النشأة والبيئة - متى تخرج تجارة قريش إلى الشام ومتى تخرج إلى اليمن . وبما أنها لم تمر في ميعادها المعلوم ، فهذا معناه أنها بالفعل قد غيرت الطريق .

أمر النبي زيد بن حارثة أن يسرع بالخروج كي يعترض القافلة ، فخرج في مائة رجل . وهي أول قافلة يخرج فيها زيد بن حارثة أميراً . كان ذلك في بداية جمادي الأولى في السنة الثالثة من الهجرة .

فاجأ زيد القافلة عند ماء من نجد يقال له ماء القرنة . وما أن رآهم المشركون حتى تركوا العير وما عليها ولانوا بالفرار دون قتال . لم يفكر أي منهم في الدفاع عن عير قريش وأموالها ، فالتصدي للمسلمين بعد بدر كان يشكل لهم نوعاً من الخشية تصل إلى حد الرعب . وأضيف إلي خزي قريش في بدر خزي جديد .

ظفر زيد بالعبير وأجمالها ، وأفلت أعيان القوم باستثناء فرات بن حيان الذي أخذ أسيرا. كان الخمس حوالي عشرين ألف درهم أخذه النبي ، ووزع ما تبقى على رجال السرية . أما الأسير فقد أعلن إسلامه وبعدها أطلقه النبي .

٣- صغائر بعض الكارهين:

يقول ابن إسحق إنه عندما قدم النبي للمدينة ، كان سيد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول العوفي .. ما اختلف على شرفه اثنان ، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام ... ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع . أبو عامر عبد عمرو بن صيقي بن النعمان .. وكان قد تهرب في الجاهلية ولبس المُسُوح. وكان يقال له الراهب .^٤

لم يتجاوب أبو عامر مع ما دعا إليه النبي ، لم يؤمن بما جاء به ، أظهر عداؤه واضحا وأنكر أن محمدا يأتيه الوحي من السماء. ورأى النبي أنه لا يستحق لقب الراهب ، فسماه الفاسق .

ويقال إن أبا عامر أتى النبي حين قدم المدينة ، سأله : ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال النبي : جئت بالحنيفية دين إبراهيم . قال أبو عامر : فأنا عليها . قال النبي : إنك لست عليها . قال : بلى ، إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها. أجاب النبي : ما فعلت ولكني جئت بها ببيضاء نقية . قال أبو عامر يعرض بالنبي: إنك ما جئت بها كذلك .^٥

خرج أبو عامر إلى مكة مباعدا النبي ، ومعه من الأتباع خمسة عشر رجلا ، ويقال خمسون. حارب في صفوف قريش ضد النبي في معركة أحد . ويبدو أنه مكث في خيبر بعض الوقت . وبعد فتح مكة رحل إلى الطائف ، وعندما خضعت هي أيضا رحل إلى سوريا ، وعاش بها غريبا وحيدا طريدا حتى مات .

كان سلوك أبي عامر مختلف تمام الاختلاف عن سلوك قريبة من ناحية الأم: عبد الله بن أبي الخزرجي الذي رفض ترك المدينة منهزما كما فعل أبو عامر. كان ابن أبي في قومه صاحب مكانة عالية ، لا تطاول هامته هامة أي رجل من رجال المدينة. ولقد نظم له قومه الخرز كي يتوجوه عليهم ملكا ، لولا قدوم النبي. توقف كل شيء . لم

^٤ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

^٥ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

يعودوا في حاجة إليه ملكا ، أو غير ملك ، انصرفوا عنه إلى الإسلام والتفوا حول النبي .

هكذا خيل لابن أبي أن النبي قد استلبه ملكا ، وهو الغريب الدخيل .. أخذ مالا يستحق أن يأخذ ، واحتل مكانة كان ابن أبي على وشك أن يحتلها ، رغم أن النبي لم يدع يوما أنه ملك أو أمير ، أنكر ذلك صراحة وبكل وضوح : لست بملك ولا جبار . إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد^٦ .

ضغن ابن أبي على النبي ، لكنه عندما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها . أعلن إسلامه بعد بدر مباشرة ، لكنه لم يؤمن ، أسلم عن نفاق وضيغن والحقد يملأ قلبه .

دخل ابن أبي الإسلام ، إذن ، كارها منافقا . أصبح رأس النفاق في المدينة . بدرت منه تصرفات تسي إلى النبي وإلى المسلمين وتثير غضبهم ، لكن النبي تحمله في صبر الحليم ، يصفح عنه ويعفو ، ولو كان غير النبي لعاقب وبطش . وتمادي ابن أبي في غيه لدرجة أن ابنه عبد الله عرض على النبي أن يقوم هو بنفسه بقتل أبيه لكن النبي رفض .. ظل يحسن معاملته حتى مات فصلى عليه قبل دفنه . وبذلك أحسن النبي وبالع في الإحسان لمن نفاق وأساء وبالع في الإساءة والنفاق .

نكتفى في هذا المجال بمثل أو مثلين لوقاحات ابن أبي وتكبره المتعطرس وهو يعامل النبي ، وقد خدعه هدوء صاحب الدعوة ، الذي لا يتخذ من الغضب ملجأ ، وهو يدعو إلى الله :

قيل للنبي لو أتيت عبد الله بن أبي ، فانطلق إليه ، وركب حمارا ، وانطلق معه المسلمون يمشون . فلما أتاه النبي ، قال ابن أبي في صفاقة ووقاحة : إليك عني ، أي ترح وابتعد عني ، فوالله لقد أذاني نتن حمارك . فقال له رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله أطيب منك ريحا . فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب للأنصارى آخرون من قومه ، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال^٧ .

وعندما خرج النبي يوما كي يعود سعد بن عبادة وقد ألم به المرض ، مر في طريقه بعبد الله بن أبي وهو جالس في ظل أطمه (حصنه) . نزل النبي عن حمار كان

^٦ مختصر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ١٢١ .

^٧ الصابوني ، تفسير آيات الأحكام ، ج ٢ ، ص ٤٧٧ .

يركبه. فسلم ثم جلس . أخذ يتلو القرآن ، يدعو إلى الله ، مبشرا ونذيرا . استمع عبد الله بن أبي في صمت ، لم ينطق ، حتى إذا ما فرغ النبي من كلامه ، قال عبد الله : يا هذا !!

وللقارئ أن يتصور ما في عبارة " يا هذا " من سوء أدب وقلة حياء عندما توجه إلى نبي. ولا يكتفى رأس النفاق المتغطرس بهذه العبارة ، بل يغلظ في القول : يا هذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا ، إن كان حقا فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ومن لم يأتك فلا تَعَثَّ به .

قام النبي في صمت ، دخل على سعد بن عبادَةَ وعلي وجهه آثار كلمات عبد الله ابن أبي . ورأى ابن عبادَةَ تغيرا في وجه النبي ، قال : والله يا رسول الله إنني لأرى في وجهك شيئا لكأنك سمعت شيئا تكرهه ، قال النبي : أجل ، ثم أخبره بما قال ابن أبي. فقال سعد : يا رسول الله ، أرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لننوجه وإنه ليرى أنك قد سلبتَه ملكا .^٨

كان ذلك المنافق المتكبر يكره النبي ويشير إليه دوما بعبارة : ابن أبي كبشة . ولا نعرف لماذا كان ابن أبي يشير إلى النبي بهذا القول ، في استخفاف محاولا الاستهانة به والتقليل من قدره . يرى مونتجمري وت أن " كبشة " كان اسما نسائيا معروفا في المدينة . لكن لم يحدث أن وجد هذا الاسم في مكة .. وليس هناك ما يدل على أنه صلة بين هذا الاسم وأبي كبشة مولى محمد ، الذي حارب كمسلم في معركة بدر. وإطلاق هذا الاسم على محمد ربما يعني أن أبا محمد أو أحد أجداده لأمه كانت كنيته " أبا كبشة " .^٩

لم يكن عبد الله بن أبي هو أول من أطلق هذه العبارة على النبي ، إذ استخدمها من قبله أبو سفيان بن حرب . عندما قال ، بعد مقابلة له مع هرقل عظيم الروم سألته فيها عن النبي : لقد أمّر أمر ابن أبي كبشة . ويقرر الإمام الشيخ محمد أبو زهرة أن أبا كبشة هو زوج المرضع التي أرضعت النبي ، أي زوج حليلة السعدية^{١٠}. وهذا أقرب تفسير لإطلاق هذه العبارة على النبي ، سواء في مكة أو في المدينة .

^٨ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

^٩ Montgomery Watt, Muhammad at Madina, p. 374 .

^{١٠} أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ٨٥٩ .

كان ابن أبي ، كما سبق وأوضحنا ، يكره النبي ويحاول فى أية لحظة موافقة أن يظهر زرعته به ، كما كان يكره المهاجرين ويغافلهم فى غرور وصلف ، مشيراً إليهم ، عند الحديث عنهم ، بـ " الجلابيب " استخفاً بهم وتحقيراً لشأنهم . ولقد استمر فى هذا السلوك المشين ، يكره وينافق وينشر الشائعات ويحاول الوقعة بين المسلمين ، حتى آخر أيام حياته .

ربما كان ابن أبى بمقاييس عصره ، وفى جاهليته ، على درجة كبيرة من الرفعة والشرف ، لكنه بمقاييس الإسلام لم يكن كذلك . إذ أنه من المستحيل أن يوصف بالشرف رجل امتلك داراً للبغاء تدر عليه ربحاً وفيراً ، يطعم منه ويطعم من هم حوله ، والشريف - وهذا عرض سائد حتى بين الغوام - لا يأكل من عرق الغواني ولا يتاجر بأبداء النساء .

وفى ست جوارٍ لعبد الله بن أبى ، أكرههم على البغاء ، نزلت الآية الكريمة : " ولا تکرهوا فتیاتکم على البغاء ، إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحیاة الدنیا ومن یکرههن فإن الله من بعد إکراههن غفور رحیم " (النور : ٣٣) . ويقال إن الجوارى الست هن : مغادة ، ومسيكة ، وأميمة ، وقتيلة ، وعمرة ، وأروى . كان ابن أبى يكرههم على الزنا ليستدر من ورائهن المال .

والبغاء الغام فى الجاهلية وحتى مقدم الإسلام وتحريمه له - كما يذكر الشيخ الصابوني - ينقسم إلى قسمين :

الأول : أن بغض السادة كانوا يفرضون على إمائهم مبلغاً كبيراً من المال يتقاضونه منهن فى كل شهر ، فكن يكسبن بالفجور ، لأنه لا يمكنهن أن يدفعن ما فرضه عليهن سادتهم بحرفة ظاهرة ، فكن يخترفن البغاء .

الثاني : أن بغض الغرب كانوا يجلسون الفتيات الشابات من إمائهن فى الغرفات ، وينتصبون على أبوابهن رايات ، تكون علماً لمن أراد أن يقضى منهن حاجته ، وكانت بيوتهن تسمى المواخير ، وكانوا يستدرون من ورائهن المال . فإذا أبت أحدهن أو تغففت عن ممارسة هذه الرذيلة ضربها سيدها وأكرهها على مزاوله الحرفة حتى لا ينقطع عنه ذلك المورد الخبيث الذى كان يكسبه المال الوفير.^{١١}

^{١١} الصابوني ، تفسير آيات الأحكام ، ج ٢ ، ص ١٩٦ .

معني هذا ، أنه في بداية عهد النبي بالمدينة كانت هناك دور للبغاء يديرها عبد الله ابن أبي ، وبالطبع كانت هناك دور أخرى . وما كان أهل المدينة يرون في ذلك ما يقلل من قدر ابن أبي أو ينال من مكانته ورياسته وزعامته . كان الأمر مألوقا ، حتى حرّمه القرآن . ونعتقد أن حمزة بن عبد المطلب - عندما تطاول على النبي ومن معه وهو سكران - كان في بيت ابن أبي يشرب الخمر ويستمتع إلى القيان . وبعدها حرم الإسلام الخمر تحريما قاطعا ، كما حظر وجرم البغاء .

ورغم نصر بدر الذي كان له دوى في كل أرجاء شبه جزيرة العرب . إلا أن الأقباط الأباطيل ظلت تلاحق النبي من المشركين والمنافقين وعلى رأسهم عبد الله ابن أبي ، وكذلك من اليهود الذين أفرغهم انتصار النبي وأخافهم تزايد قوته وتملكتهم الخشية أن يبسط نفوذه وسطوته على المدينة وما حولها ، وفي هذا تهديد لوجودهم في أرض اعتقدوا أنهم هم سادتها وسيظلون دون أن ينازعهم في سلطانهم أحد .

٤ - أحقاد اليهود :

أشرنا من قبل إلى يهود يثرب وإلى وضعهم في وثيقة العهد التي كتبها النبي بعد أن استقر به المقام في المدينة .

باختصار شديد ، نشير إلى أن اغلب المؤرخين يُرجعون قيام المستعمرات اليهودية إلى القرن الأول الميلادي . لكنه من غير الواضح وغير المحدد بصورة قاطعة كيفية وصول هؤلاء اليهود إلى يثرب ، وعما إذا كانوا من أصول عبرانية خالصة .

هذه النقطة الخاصة بأصل يهود يثرب كانت محل جدل كثير وطويل ، أثاره بعض المستشرقين ودارسو الأديان في بعض دول الغرب . ويرى مونتجمري وت أن نقاش الطرفين لم يصل إلى اتفاق عام ، خصوصا وأن هناك بعض العشائر العربية التي يشار إليها على أنها عشائر يهودية ولا تتأثر هذه الإشارة دهشة أحد ، فعلى سبيل المثال تتضمن العشائر اليهودية : بنى مرثد ، وبنى معاوية ، وبنى جذمع ، وبنى نغيصة ، وبنى زاعورة ، وبنى ثعلبة ، رغم أن أولى هذه العشائر جزء من قبيلة " بلى " العربية والثانية جزء من " سُلَيْم " والثالثة والرابعة جزئ من عرب اليمن ، والعشيرتين الأخيرتين من عرب غسان .^{١٢}

^{١٢} Montgomery Watt, Muhammad at Madina, p. 192 .

وعندما قدم الأوس والخزرج من الجنوب ، أى من اليمن إلى يثرب وجدوها تحت سيطرة اليهود ، رغم وجود قلة من العرب الذين لم يبلغ شأنهم شأن اليهود من حيث المكانة والعدد ، وقد اندمجوا بسهولة فى المجتمع اليهودي ، ومن المحتمل أنهم تزوجوا واعتنق بعضهم الديانة اليهودية . وبناء عليه ، فلا يوجد ما يثير الدهشة إذا ما تمت الإشارة إلى بعض العشائر العربية على أنها عشائر يهودية .

القبائل اليهودية ذات الصيت والنفوذ ، أيام النبی ، كانت : بنى قريظة ، وبنى النضير ، وبنى قينقاع . كان عدد البالغين فى القبائل الثلاث ، التى يقال إنها من أصل يهودى خالص ، يزيد قليلا عن الألفين : فى بنى قريظة ما بين سبعمائة وتسعمائة ، وفى بنى النضير حوالى سبعمائة ومثلهم تقريبا فى بنى قينقاع .

لم تكن هذه القبائل على وفاق مع بعضها البعض ، لم تربطها يوما وشائج قوية سواء كانت سياسية أو اجتماعية ، إذ انحاز بنو قينقاع إلى الخزرج فى معركة بعثت ضد الأوس الذين انحاز إليهم يهود بنى قريظة وبنى النضير ، وهى المعركة التى انتصر فيها الأوس على الخزرج. ولم يتردد اليهود ، أثناء المعركة ، فى قتل بعضهم البعض . ولقد ترسبت مرارة تلك المعركة فى نفوس اليهود من الطرفين ، فلم يتوحدوا بعدها ، حتى عندما دعتهم الحاجة إلى التوحد فى عدائهم للنبي .

كانت قبيلة بنى قينقاع لا تمتلك أرضا . لكنها كانت تسيطر على السوق التجارى بالمدينة وأبرز ما فيه صياغة الذهب . أما بنو قريظة وبنو النضير فقد كانوا يسيطرون على أخصب الأراضى الزراعية التى استثمروا مساحات كبيرة منها فى زراعة النخيل. ويبدو أنهم كانوا أصحاب خبرة كبيرة ، أى روادا ، فى هذا المجال .

قوة اليهود آنذاك . بالنسبة للعرب ، كانت تكمن فى وفرة ثرائهم وكثرة سلاحهم ، إذ كانوا من أمهر صنّاع السلاح . هذا إلى جانب عدد لا بأس به من الحصون المنيعـة (الأطم) التى كانوا يعيشون فيها ويستخدمونها كقلاع يصعب اختراقها فى حالة الحرب. وقد بلغت الأطم التى أقاموها ما يقرب من الستين ، بينما لم يكن للعرب سوى ثلاثة عشر أطما على أكثر تقدير .

كان يهود يثرب يتقنون العربية إلى جانب لغتهم الأصلية التى كانوا يستخدمونها فى الأغراض الدينية والتعليمية. ولقد أمر النبي زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود. وقد قيل للنبي عن زيد : هذا من بنى النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأت عليه

فأعجبه ذلك ، فقال تَعَلَّمْ كتابة يهود ، فإني ما آمنهم على كتابي ، ففعلت . فما مضى لى نصف شهر حتى حذفته ، فكنت اكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت . وفي حديث آخر عن زيد بن ثابت ، قال : قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : إني اكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا ، فتعلم السريانية ، فتعلمتها فى سبعة عشر يوما.^{١٢}

عندما وصل النبي المدينة ، كان يأمل أن يستقبله اليهود كنبي . وأن يتعاملوا معه كصاحب رسالة ، فما أنزل عليه - كما أخبره ورقة ابن نوفل - هو تنزيل كذلك الذى أنزل على موسى . كان النبي يدرك تمام الإدراك أنه ليس من السهل عليهم أن يتركوا "توراة" موسى كى يتبعوا ما أنزل عليه ، لكنه كان يأمل فى أن ينجح فى احتذابهم واستمالتهم ، فربما لانت قلوبهم وخشعت أفئدتهم واهتدوا إلى أن ما يقول به هو الحق من عند الله .

لا يستطيع أحد أن ينكر أن قلة قليلة من اليهود أعلنوا إسلامهم وكان على رأس هؤلاء عبد الله بن سلام من بنى قينقاع . لكن أغلب تلك القلة التى أسلمت تحولوا إلى منافقين بعد أن ساروا فى درب عبد الله بن أبى رأس النفاق فى المدينة ، ويبدو أنهم كانوا من أصدقائه .

كان عبد الله بن سلام بن الحرث ، واسمه الحصين ، حبرا من أعلم أخبار يهود ، فلما أسلم سماه النبي عبد الله . ويقال - كما يذكر ابن إسحق - إن الحصين آمن بنبوة محمد وكان ينتظر مقدمة وقد عرف صفته واسمه وزمانه من كتب اليهود التى كان متبحرا فى دراستها وعندما وصل النبي إلى المدينة أخبر الحصين أهل بيته أن قد وصل النبي الذى هو مكتوب عندهم فى التوراة ، ثم خرج إلى النبي فسلم وأسلم ، وعاد إلى أهل بيته فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا .

يروى الحصين قصة إسلامه وكيف كنمها عن يهود ، وكيف ذهب إلى النبي وطلب منه أن يدخله فى بعض بيوته ويغيبه عن يستدعيهم من أخبار اليهود كى يسألهم عن الحصين وكيف هو فيهم قبل أن يعلموا أمر إسلامه . فأدخله النبي بعض بيوته ، ودخل اليهود على النبي فكلموه وسألوه . وسألهم النبي : أى رجل الحصين بن سلام فيكم . قالوا : سيدنا وابن سيدنا وخبرنا وعالمنا . عندها خرج عليهم الحصين ، قال لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله ،

^{١٢} احمد أمين ، ص ٢٢٥-٢٢٦ .

تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراه باسمه وصفته .. فقالوا كذبت . قال الحصين للنبي: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت أهل غدر وكذب وفجور .^{١٤}

لم ينجح الحصين ، أو غير الحصين ، فى استمالة اليهود إلى دين محمد ، إذ لم يكن من المتوقع أن يعترف اليهود بنبي لا ينتمى إلى سلالة إسحق ويعقوب . من المستحيل فى رأيهم أن يخرج من بين الأمميين " gentiles " نبي .

رغم ذلك ، عاملهم النبي برفق ، وتودد إليهم محاولا استمالتهم على أمل أن تلين عقولهم ، وتهتدي نفوسهم ، وتطمئن أرواحهم إليه وإلى صحابته ، فيسيروا معهم على الدرب . بلا مشاكسة أو مناجزة أو عدا ، فرسالة محمد لا تتناقض مع رسالة موسى ، ولا تقوم على تقويض دعائمها أو هدمها . على العكس ، إنها تقوم على جلاء جوهرها ، وتقويم ما أفسده البشر فيها ، والوصول بها إلى مرحلة الكمال والتمام .

لم يختلف النبي مع اليهود فيما يختص بقبلتهم ، كان يصلى حتى وهو فى مكة وقبل أن يصل إلى يثرب ، ووجهه إلى بيت المقدس ، قبله له فى الصلاة . ولم يكن فى سلوكه هذا ما يدل على أنه متأثر بما يفعله اليهود أو مقلد لهم ، ذلك لأن الاتجاه فى الصلاة إلى بيت المقدس كان شائعا آنذاك بين المسيحيين أيضا ، ولم يكن مقصورا على اليهود . وكان المغزى من اتخاذ نفس القبلة هو الدلالة على أن الإسلام متوحد مع ما سبقه من دين سماوي .

قبل وصول النبي إلى المدينة ، كان مصعب بن عمير يقوم على أمر الدعوة فى المدينة ، وقد طلب من النبي أن يحدد له يوما جامعا للمسلمين يلقي عليهم موعظه أو درسا من دروس الدين قبل أن تقام الصلاة . حدد له النبي يوم الجمعة ، وهو اليوم الذى يتجهز فيه اليهود ليوم " السبت " الذى يعتبرونه من المقدسات . وهكذا بدأ ما يمكن تفسيره على أنه صلة تواصل بين الجمعة والسبت ، أى بين الإسلام واليهودية .

ولا يوجد دليل قاطع يثبت أن النبي قد أقام الجمعة فى مكة ، وألقى على المسلمين خطبة ثم صلى بهم ، كما فعل فى المدينة . ولقد ذكرنا فى فصل سابق مكان وزمان أول صلاة جمعة أقامها النبي بعد الهجرة ونقلنا أول خطبة له . ولم يذكر أى من كتاب السيرة أو المؤرخين أن النبي قد أقام صلاة الجمعة فى مكة . ولو قد فعل ، لنقلوا لنا نص الخطبة دليلا وإثباتا على صدق ما يقولون . لكن ذلك لم يحدث .

^{١٤} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

ويدعي البعض ، من أمثال كارين أرمسترونج ، أن المسلمين في مكة لم يكونوا يؤدون فريضة الصلاة إلا في الصباح والمساء فقط . ولكن بعد وصولهم إلى المدينة فرضت عليهم صلاة الظهر ، كما يفعل اليهود .^{١٥}

ويتفق مونتمجري وت مع كارين أرمسترونج في هذا الرأي عندما يقرر أنه ، طبقا لما يمارسه اليهود . فرضت صلاة الظهر على المسلمين . ومن الواضح أنه في مكة لم يكن هناك إلا صلاة في الصباح وصلاة في المساء . لكن في المدينة أمر القرآن بصلاة الظهر.^{١٦}

الرأي السابق واضح الخطأ ويدل على عدم إمام بما حدث قبل الهجرة ، وتجاهل أو جهل بما تم في رحلة العروج إلى السماء ، وفرض الصلوات الخمس فرضا واجبا لا يقوم بدونه الدين . كان ذلك في مكة وقبل الهجرة ، فكيف يقال أن صلاة الثالثة ، وهي صلاة الظهر ، قد أضيفت إلى صلاتي الصباح والمساء احتذاء بما يفعله اليهود ؟ كلام يخلو من المنطق ويكذبه صدق الوحي .

لكن ليس من الممكن أن ننكر أن النبي أمر المسلمين بصوم يوم عاشوراء ، وهو يوم الكفارة عند اليهود ، في العاشر من الشهر السابع : تشرين . وقد أطلق عليه المسلمون يوم " عاشوراء " أي اليوم العاشر ، والكلمة كما يبدو معربة عن الآرامية ، وكان بعض أهل المدينة يصومونه تماشيا مع ما يفعله اليهود ، وأمر النبي المسلمين بصومه تكريما للنبي موسى ، فكما قال : " نحن أحق بموسى منهم " ، أي من اليهود . وعندما فرض صيام رمضان ، لم يمنع صيام عاشوراء ، لكنه لم يعد فرضا واجبا .

وزيادة في التقارب مع اليهود ، وإظهارا لعدم النفور منهم أو العداء لهم ، سمح للمسلمين تناول طعام أهل الكتاب والزواج من نسائهم : " اليوم أجل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا ءاتيتوهن أجورهن محصنين غير مسفحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين" (المائدة: ٥) . وخرّم على المسلمين من الطعام بعض ما حرم على اليهود : الدم والميتة ولحم الخنزير وما خنق وما ذبح للأوثان (أنظر سورة المائدة : ٣-٤) .

^{١٥} كارين أرمسترونج ، ص ٢٢٤ .

^{١٦} Montgomery Watt, Muhammad at Medina, p. 199 .

هكذا حاول النبي أن يخلق نوعا من التجانس والألفة بين المسلمين واليهود ، وأن لا يثير أى نوع من أنواع الشقاق بين أصحاب العقيدتين السماويتين ، فإن آمن اليهود بما أنزل عليه وصدقوه ، فهذا ما يصبوا إليه ، وإن لم يؤمنوا فلا إكراه فى الدين .

لم يؤمن اليهود ، ولم يكتفوا بعدم الإيمان ، بل تمادوا فكذبوا النبي ، وزرعوا الأحقاد ، وأثاروا العداء ونقضوا العهد الذى وقعوا عليه والذى نص عليه " الدستور" الذى وضعه النبي كي يكون ميثاقا يلتزم به كل أهل المدينة .

وبدلا من أن يؤمنوا بما جاء به محمد ، كذبوا وتطاولوا وتعالوا وخانوا . وكما يقول الأستاذ محمود بن الشريف : نظر اليهود إلى أنفسهم والمجتمع الإسلامى وليد ، فوجدوا أنفسهم أكثر عددا وأوفر ثروة ، وأصحاب كتاب سماوي ، وعلى صلة بالأنبياء وبأخبار الأمم الغابرة ، لذا ظنوا أن يجعلهم النبي خارج نطاق دعوته ، معتبرين أنفسهم أهدي من أن تشملهم ، وأمنع من أن يأمل النبي دخولهم فى دينه وانضوائهم تحت رايته. بل لقد كانوا يرون أن من حقهم أن ينتظروا انضمام محمد إليهم ، ولا سيما حينما راوه يصلى إلى قبلتهم ويعلم إيمانه بأنبيائهم وكتبهم بلسان القرآن ، ويجعل ذلك جزءا لا يتجزأ من دعوته ، ويتلوا ذلك فيما يتلوه ^{١٧}.

استخف اليهود بالدين الذى جاء به محمد ، كما نظروا بحذر شديد إلى السلوك الحياتي لهؤلاء الذين جاءوا معه من مكة ، وعرفوا باسم المهاجرين . لقد كانوا على قدر هائل من الصدق فى المعاملة والاستقامة فى السلوك ، وكانوا تجارا حتى النخاع بحكم الطبيعة والتكوين .

لم يكن فى المدينة كلها غير سوق واحد كبير يسيطر عليه اليهود بنى قينقاع ، فإذا ما دخل أصحاب محمد تجارا فى نفس السوق فهذا معناه أن المصالح فى أمور التجارة والمال قد تتضارب ، وربما مال الميزان إلى الأصدق والأعدل والأكثر أمانة واستقامة ، فالمسلمون لا يرابون ولا يخدعون ولا يغترون ، هذه هى أبسط قواعد الإسلام .

دخل المكيون المهاجرون السوق ، باعوا واشتروا ، ووظفوا خبرتهم المكتسبة منذ نعومة أظفارهم ، فأقبل عليهم الناس ، وأصبح لهم فى السوق موقع خاص كاد أن يصبح سوقا مستقلة.

^{١٧}محمود بن الشريف ، ص ٤٧ .

هكذا بدأت المصالح تتضارب فى أمور التجارة والمال بين المسلمين واليهود. اتسعت الفجوة وازداد الشقاق. ولو اتجه المهاجرون إلى زراعة الأرض كأغلب أهل المدينة ، ما اكثر ث بهم يهود بنى قينقاع ، لكنهم زاحموهم فى مصدر ثرائهم ونافسهم فى منبع قوتهم ، وبذلك أصبحوا مصدر تهديد وخطر.

بدأ اليهود يتحركون ، دفاعا عن مصالحهم ، يعملون سرا وعلنا ضد محمد وأصحابه، يحرضون الذين أسلموا والذين تعاونوا مع النبي - طبقا لما تملّيه بنود دستور المدينة الذي ارتضوه - على ألا يسهموا من أموالهم فى تكاليف الإنفاق العام، مدعين أنهم لا يرغبون إلا الخير لهم . والتقت مصالح اليهود مع مصالح بعض التجار من المشركين . اتفقوا على أن يعملوا على تخريب هذا السوق الجديد وذلك بمحاصرته وصد الناس عنه .

لكن العنف اليهودي ، الفاجر فى كيد ، كان موجها بصورة مباشرة إلى النبي فى محاولة لثيمة مستميتة لإظهار عجزه وطعنه فى جوهر عقيدته . كانوا يعتقدون أنهم يقفون على أرض صلبة ، فهم أقوياء وأثرياء وأصحاب دين قديم لم ينكره محمد ، بل على العكس أعلن إيمانه به وتصديقه له فيما جاء به من قرآن كما أن المدينة - كما يعتقدون - كانت مدينتهم ، وما محمد - فى رأيهم - إلا دخيل .

بدأ اليهود يتآمرون على الإسلام ، يشوهون كلمات القرآن ويسخرون من آياته ، ويستعلون على المسلمين ويعاملونهم بازدراء. دخلوا مع النبي فى جدل وحوار ، محاولين بكل ما أوتوا من علم وبكل ما كمن فى أعماقهم من لؤم وخبث أن يثبتوا أنه لا صلة له بالنبوة ، وأنه أبعد ما يكون عن دائرة الأنبياء .

فى معالجته لهذا الموقف. يقول جورج مور George Moore : فى المدينة توقع محمد أن يعترف به اليهود وذلك بسبب التشابه الكبير بين تعاليمه وتعاليمهم . توقع أن يعترفوا به كنبي فى تراث النبوة الحق .. إنه لا يجد سببا مقنعا لعدم اعترافهم به وبقرآنه ما دام قد اعترف بموسى وتوراته .

لكن اليهود - هذا ما يؤكد "مور" - أثبتوا أنهم قساة القلوب ، مصرون على المعصية ، لا مكان فى عقيدتهم لنبي أو مسيح عربى . كانوا يشعرون بنوع من الاستمناع الخبيث كلما كشفوا عن " جهل " محمد بالتاريخ التوراتي ، عند تعرضه لقصص الشخصيات التوراتية ، داحضين دعوته بأن قصصه وحي سماوي . وكان رده

عليهم أن ما يقوله هو الجوهر الحقيقي ، وإذا ذكرت كتبهم خلاف ما يقول فهذا معناه أنهم قد زيفوا كتبهم " المقدسة " التي ما عادت مقدسة بعد ما قاموا بإعادة كتابتها طبقاً لأهوائهم .^{١٨}

ونحن نؤيد " مور " فيما قال به ، وإن دل كلامه علي شيء فإنما يدل على سعة في الإدراك وعمق في الفهم ، وعدم انحياز لكتاب " العهد القديم " ولقد شرحنا باستفاضة وعمق واتساع ، في كتابنا : موسى في الأساطير الإسرائيلية ، كيف زيف اليهود أحداث التوراه وكيف طمسوا معالمها وحوروا تعاليمها فلم تعد بالنقاء المطلق الذي يجب أن يتصف به أى كتاب سماوى ، وسرى التناقض بين ما جاء فيها من وقائع ، واختلفت لغة الكلام مما يثبت أنها كتبت بأقلام متعددة وفى عصور مختلفة ربما امتدت إلى ما يقرب من ألف عام . ويمكن لمن يريد الاستزاده فى هذا الموضوع أن يرجع إلى الفصل الأول من كتابنا : موسى فى الأساطير الإسرائيلية .

تشير بيتى كيلين إلى اتساع الشقاق بين محمد واليهود ، قائلة : إنه حتى أولئك الأحيار الذين أخذوه مأخذ الجد فى البداية . بدأوا يبتسمون وهم يستمعون إلى تفسيراته الغريبة لما جاء فى كتابهم المقدس .. وكان حزنه لرفضهم له بالغا ، يكاد يبلغ نفس القدر الذى اعتراه عندما رفضت قریش رسالته . قالوا له بوضوح فج : " لم تأت يا محمد بما يثبت أنك نبي مرسل .. ، وليس فيما تدعي أنه يوحى إليك ما يقنعنا بأن نتبعك " طلبوا منه فى تواضع مصطنع أن ينسى تلك الرسالة التى يبشر بها ، وأشاروا عليه أنه من الأفضل له ولأتباعه أن يعتنقوا اليهودية ، ويؤمنوا بما آمن به اليهود ، وكفى . قالوا لعرب المدينة : إننا بصراحة ووضوح لا نعترف بأى شيء مما يقول .^{١٩}

لم يظهروا له أى ود مع مرور الوقت . هذا ما يقول به مونجمرى وت : على العكس ، أظهروا عداؤهم ونشروا نقدهم وتكذيبهم لدعوة محمد . أنكروا تماماً أنه نبي . ربما كان دافعهم إلى ذلك دافع ديني إلى حد ما .. لكن هذا الأمر كانت له أيضا نزاعاته السياسية التى لا يشك المرء فى أهميتها بالنسبة لهم . لو نجح محمد فى نشر دعوته وترسيخ وجوده فى المدينة ، فهذا معناه أنه لن تسنح لهم الفرصة كي يكونوا هم القوة الأعظم .. وحتى قبيل معركة بدر ، كانت احتمالات نجاح محمد تقتقد إلى عنصر

¹⁸ George Moore, p. 402 .

¹⁹ Betty Kelen , p. 113 .

القوة.. لكن انتصار المسلمين فى معركة بدر كان له ثوى قلب موازين القوى ، وشعر اليهود أنه لم يعد أمامهم سوى مواجهة الخطر.²⁰

ويرى جونستون Johnstone أنه قد خاب أمل كل جانب من الجانبين فى الآخر. كان محمد يأمل أن يتقبله اليهود كنبي عظيم : المسيح المنتظر ، الذى تنبأت بمقدمة تعاليمهم ، وكان اليهود يأملون - بما أنه قد أعلن أن هدفه إنما هو إحياء شريعة إبراهيم- أن يعتنق دينهم ويخدم طموحاتهم . ولم يخضع أى من الطرفين للآخر. لن يؤمن اليهود بنبي ليس من نسل اسحق ، ولن يعتنق محمد أى دين آخر. وكان من الحتمي أن تبدأ حرب معلنة .²¹

بدأت المجاهدة العقلية والجدلية بين محمد واليهود ، تلك التى لم يوقف سعيها إلا سعي الحرب والقتال : كما سنورد فيما بعد بالتفصيل .

أخذ أحبار اليهود يسألون النبي ويتعنونه ، فى محاولة مستميتة لحصار دعوته والقضاء عليها . دفعهم إلى ذلك الحسد والضغْن والبغى والإحساس بالخطر. كان على رأس هؤلاء حَيُّ بن أخطب ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكعب بن الأشرف .

أعلن بعض أحبار اليهود إسلامهم ، نفاقا كى تتاح لهم فرصة الإندساس بين المسلمين وتجسس أخبارهم ومجادلتهم ، وكأنهم يستفسرون وهم فى الواقع يكيدون ويشككون ويضللون ، يحاولون أن يهزوا ثقة المسلمين فى أنفسهم وفى نبيهم وفى صدق الدين الذى اعتنقوه . من بين هؤلاء كان زيد بن اللُصَيْت الذى حاول أن يسخر علانية من النبي عندما ضلّت ناقته . قال منافق يهود : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته. وعندما وصل خبر مقولته إلى النبي ، كان رده عليه السلام : إن قائلا قال ، " يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدرى أين ناقته " وإنى والله ما أعلم إلا ما علمني الله .²²

كان منافقوا يهود ، وقد انضموا إلى منافقى الأوس والخزرج تحت زعامة عبد الله بن أبى - يحضرون إلى المسجد ، يستمعون . ويجادلون ثم يسخرون من المسلمين مستخفين بهم ومستهزئين بدينهم . رصدهم النبي يوما بالمسجد ، استرعى انتباهه أنهم

²⁰ Montgomery Watt, Muhammad at Madina, p. 201.

²¹ Johnstone, p. 96 .

²² ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

يَتَهَامِسُونَ وَقَدْ تَقَارَبَتْ رُؤُوسُهُمْ وَالتَّصَقُّ بِبَعْضِهِمْ بَعْضٌ ، طَالَ الْهَمْسُ ، وَسَرَتْ مِنْهُمْ كَالْفَحِيحِ هَمَهَمَاتٌ ، عِنْدَهَا أَمْرُ النَّبِيِّ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَقَدْ أَدْرَكَ بِفَطْرَتِهِ الزَّكَاةَ أَنَّهُمْ رَجَسٌ يَجِبُ أَلَا يَتَلَوَّثَ بِهِ طَهَرُ الْمَكَانِ .

أَخْرَجَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِخْرَاجًا عَنِيفًا : سَحَبَ أَحَدُهُمْ بِرِجْلِهِ وَلَطَمَ وَجْهَهُ ثُمَّ أَلْقَى بِهِ خَارِجَ الْمَسْجِدِ ، وَأَقْتَدَى أَحَدُهُمْ مِنْ لَحِيَّتِهِ قَوْدًا عَنِيفًا حَتَّى أَخْرَجَ ثُمَّ لُدِمَ فِي صَدْرِهِ لَذْمَةً أَذْنَتْهُ فَسَقَطَ عَلَى رِكْبَتَيْهِ ، وَأَخَذَ أَحَدُهُمْ مِنْ قَفَاهُ وَدَفَعَ فِي عِنْفٍ إِلَى خَارِجِ الْمَسْجِدِ ، وَسَحَبَ آخَرُ مِنْ شَعْرِ رَأْسِهِ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى أَلْقَى بَعِيدًا عَنْ سَاحَةِ الْمَسْجِدِ . وَفِي هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ نَزَلَتْ آيَاتُ فِي صَدْرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : " وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ ، ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ... وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ " (البقرة : ٨-١٤) .

قَرَّرَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ أَلَا يَتْرَكُوا مُحَمَّدًا وَشَأْنَهُ ، لِأَبَدٍ مِنْ إِخْرَاجِهِ وَتَحْجِيمِهِ وَتَصْغِيرِهِ وَإِعْلَانِ جَهْلِهِ وَإِظْهَارِ ادْعَائِهِ ، جَهَارًا نَهَارًا وَعَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ . لَقَدْ وَقَرَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِمْ أَنَّهُمْ هُمُ الْكَثَرُ عِلْمًا ، وَالْأَصْدَقُ قَوْلًا ، وَأَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ مَجَارَاتُهُمْ ، وَلَنْ يَتَحَمَلَ سَطْوَةُ مَنْطِقِهِمْ وَقُوَّةُ حُجَّتِهِمْ . فِيمَا أَنْ يَكْفَ عَمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ وَيَرْحَلُ ، وَإِمَّا أَنْ يَخْضَعَ لِقَوْلِهِمْ وَيَتَّبِعَهُمْ .

قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا عَنْ أَرْبَعِ نَسَائِكَ عَنْهُنَّ فَإِنْ فَعَلْتَ اتَّبَعْنَاكَ وَصَدَقْنَاكَ وَآمَنَّا بِكَ .. قَالَ : فَاسْأَلُوا عَمَّا بَدَا لَكُمْ . قَالُوا : أَخْبِرْنَا كَيْفَ يَشْبِهُ الْوَلَدُ أُمَّهُ وَإِنَّمَا النُّظْفَةُ مِنَ الرَّجُلِ . قَالَ : هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ نُظْفَةَ الرَّجُلِ بَيضَاءُ غَلِيظَةٌ وَنُظْفَةُ الْمَرْأَةِ صَفْرَاءُ رَقِيْقَةٌ فَأَيُّهُمَا غَلِبَتْ صَاحِبَتُهَا كَانَ لَهَا الشَّبِيهَ . قَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ . فَأَخْبِرْنَا كَيْفَ نَوْمُكَ . قَالَ : تَنَامُ عَيْنِي وَقَلْبِي يَقْظَانِ . قَالُوا : فَأَخْبِرْنَا عَمَّا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ . قَالَ : هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُ الْإِبِلِ وَلَحْمُهَا وَأَنَّهُ اشْتَكَى شَكْوَى فَعَاقَاهُ اللَّهُ مِنْهَا فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ شُكْرًا لِلَّهِ فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ لَحْمَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا .

أَظْهَرُوا تَصَدِيقَهُمْ لِمَا قَالَ وَلَمْ يَنْكُرُوهُ ، لَكِنْهُمْ كَانُوا يَحْتَفِظُونَ بِمَا يَعْتَبِرُونَهُ سَدًّا مَنِيعًا يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ بِهِ ، قَالُوا : أَخْبِرْنَا عَنِ الرُّوحِ .. قَالَ : هَلْ تَعْلَمُونَهُ

جبريل وهو الذى يأتيني . قالوا : اللهم نعم. ولكنه يا محمد هو لنا عدو. وهو ملك إنما يأتي بالشدة وبسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك .

أنكروا نبوته من أجل جبريل مدعين أن جبريل عدو لهم ، وهو عدو شديد البأس سافك دماء . ولم يذكروا كيف سفك جبريل دماءهم ومتى كان ذلك ؟ إن الذى كان يسفك دماء بنى إسرائيل لم يكن جبريل ، بل كان " يهوه " إلههم الدموي الذى لم يتورع عن إبادتهم بالآلاف - حسب قول كتابهم المقدس - ذلك لأنه رأى فيهم شعبا صُلِبَ الرقبة . وكان يهددهم دوما بالإفناء: " وكان الرب قد قال لموسى قل لبنى إسرائيل أنتم شعب صُلِبَ الرقبة . إن صعدت لحظة واحدة فى وسطكم أفنيكم " (خروج ٣٣ : ٥) .

ويرتفع صوت إله إسرائيل غاضبا ، ساخطا ، مهيدا ، لا حانيا ، كريما ، رحيفا ، رؤوفا ، أو ناصحا : " إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التى أنا أوصيك بها اليوم تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدرلك . ملعونا نكون فى المدينة وملعوننا نكون فى الحقل ... يضربك الرب بالسِّل والحمي والبُرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تغنيك .. أيضا كل مرض وكل ضربة لم تكتب فى سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك ... وكما فرح الرب لكم ليحسن إليكم ويكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم فتستأصلون من الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها ... ويردك الرب إلى مصر .. فتباعون هناك لأعدائكم عبيدا وإماء وليس من يشتري " (تثنية ٢٨-١٥-٦٨) .

الذى يتوعد ، ويهدد ، ويبيد ، ويفني فى تورا " لعهد القديم " هو إله إسرائيل ، هو الذى يفعل ذلك بنفسه دون مساعدة أو وسيط . وفى كل صفحات " التوراة " التى بين أيدينا، والتى يدعي اليهود أن موسى قد كتبها ، لا يوجد ذكر لذلك " الجبريل " المدمر الذى جاء ذكره على ألسنة اليهود فى جدلهم مع النبي - لم يكونوا أمناء - كانوا يكذبون .

ونزل رب العزة آيات تثبت بها قلب نبيه . كى لا يعبا بما ادعاه اليهود كذبا وافتراء : " من كان عدو لله وملائكته ورسله وجبريل وميكل فإن الله عدو للكافرين " (البقرة : ٩٨) .

ويقال إن مناظرة جرت بين عمر واليهود فيما يختص بجبريل . قال عمر : كنت أشهد اليهود فى مدراسهم ، فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف

يصدق التوراة ، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا بن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك . قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : لأنك تغشانا وتأتينا . وسألهم عمر عما يرون في شأن محمد : هل ترون أنه رسول الله ؟ ... أجاب كبيرهم وعالمهم : نعم ، إنا نعلم أنه رسول الله . قال عمر : ويحكم إذاً هلكتم . قالوا : إنا لم نهلك . قال عمر : كيف وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه . قالوا : إن لنا عدوا من الملائكة . قال عمر : ومن عدوكم ومن سلّمكم . قالوا : عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل .. إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا . سأل عمر : وما منزلتهما من ربهما عز وجل ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره . قال عمر : فوالذي لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما وسلّم لمن سالمهما .. وما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل ، وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدو جبريل .^{٢٢}

لم يتوقف اليهود عند مسألة عدائهم لجبريل واتخاذها سببا لعدم اتباع النبي ، بل زيادة في التشكيك في أمر نبوته سألوه عن الساعة متى تقوم : أخبرنا عن الساعة إن كنت نبيا ؟

يسألونه عن الساعة ، وتوراة بنى إسرائيل التي بين أيدينا لا ذكر فيها لبعث أو قيام أو ساعة . يسألونه من باب التعجيز . وينزل جبريل بالحق الذي لا جدال فيه : " يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفي عنها . قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (الأعراف : ١٨٧) .

وبنفس التعنت ومحاولة التعجيز يسألونه عما لا يمكن لبشر أن يعرفه : ما الروح يا محمد ؟ ومحمد لا يعرف ، وغير محمد لا يعرف ، ولا هم أيضا يعرفون . لقد سألوا عن ما هو خارج عن نطاق الإدراك البشري ، فالروح سر من أسرار الخلق ، ولا يعرف أسرار الخلق سوى الخالق : " ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " (الإسراء : ٨٥) .

أنكر أhabar اليهود أن النبي قد جاءهم بما يثبت نبوته . إنهم يريدون علامة ، يبتغون آية بيّنة ، يطلبون أن يأتيهم محمد بكتاب من السماء . ولقد جاءهم بالفعل بكتاب

^{٢٢} الصابوني ، مختصر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٩٢ .

من عند الله ، فقالوا ما هذا بكتاب نقرؤه . أنكروا الكتاب وكفروا بما فيه : " ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين " (البقرة : ٨٩) .

لم يكن سلوكهم هذا غريبا عن طبائعهم ، لقد ورثوه عن آبائهم الأولين الذين جادلوا نبيهم موسى وحاوروه وكنبوه ، رغم كل ما فعل من أجلهم وكل ما أظهره لهم من آيات : " فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهرون فى البرية . وقال لهما بنوا إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع . فإنكما أخرجتنا إلى هذا القفر كى تميّتا كل هذا الجمهور بالجوع " (خروج ١٦ : ٣) .

كان كل هذا الصراخ من أجل الطعام ، وعندما يتوفر لهم المن والسلوى لا يشكرون ، بل من جديد يتذمون ويصرخون : " فخاصم الشعب موسى وقالوا أعطونا ماء لنشرب فقال لهم موسى لماذا تخاصمونني . لماذا تجربون الرب . وتذمر الشعب على موسى وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش .. فصرخ موسى إلى الرب قائلا ماذا أفعل بهذا الشعب . بعد قليل يرحمونني " (خروج ١٧ : ٣-٤) .

كانوا على وشك أن يرحموا نبيهم موسى . بل لقد وصل الهوس ببعضهم أن طالبوا بتعيين رئيس لهم غير موسى . كي يعود بهم ثانية إلى أرض مصر ، بعد أن أخرجهم موسى منها : " وقال لهما كل الجماعة ليتنا متنا فى أرض مصر أو ليتنا متنا فى هذا القفر . ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف . تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة . أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر . فقال بعضهم لبعض نقيم رئيسا ونرجع إلى مصر . فسقط موسى وهرون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بنى إسرائيل " (عدد ١٤ : ٢-٥) .

هكذا تعامل بنو إسرائيل مع موسى وهارون . وهكذا أساءوا ، فماذا يتوقع ممن يدعون أنهم أحفاء هؤلاء وهم يتعاملون مع نبي لم يعترفوا به ولم يصدقوه . ونزلت آيات القرآن الكريم موضحة ، فى كلمات بيّنة كاشفة ، كيف عاند اليهود وكيف جحدوا وكيف كابروا وأنكروا وهم يعلمون أنه الحق : " ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتب كتب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ...

أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل " (البقرة : ٨٩ - ١٠٨) .

تمادي اليهود في ضلالهم وهم يجادلون النبي ، طالبين منه أن يظهر لهم آية قاطعة كي يؤمنوا ، ولم يتركوا للرسول خيارا ، بل حددوا هم نوع الآية التي يريدون : إن كان محمد نبيا حقا فليطلب من ربه أن يتحدث إليهم مباشرة دون وسيط . قال رافع بن خزيمة اليهودي للنبي بالحرف الواحد : يا محمد ، إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فليكلما حتى نسمع كلامه .

هكذا !!! يريدون من رب محمد ، الذي هو رب الخلق أجمعين ، أن يتحدث إليهم مباشرة وأن يسمعهم صوته . يريد السفهاء أن يستمعوا إلى صوت الرب وهو يتكلم . بدوا وكأنهم يمثلون جيلا جديدا من شعب إسرائيل الذي وصفه الرب بأنه شعب شرير متذمر ، وقضى أن تسقط في القفر جثث الذين تذرروا : " في هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدا. الذين تذرروا على " (عدد ١٤ : ٢٩) .

تجبروا وكابروا ، وانتفعت أوداجهم في ادعاء كاذب ، وهم يتحدثون محمدا أن يطلب من ربه أن يتحدث إليهم جهرا حتى يسمعوا كلامه . ونسوا أن بني إسرائيل ، أيام موسى ، كانوا قد طلبوا نفس الطلب ، ثمنا أن يستمعوا إلى صوت الرب . ثم أنه لما رأوا الرعود والبروق والجبل يدخن ودوى في آذانهم صوت البوق ، ارتعدوا وابتعدوا : " وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت " (خروج ٢٠-١٩) .

وأنزل سبحانه وتعالى في ذلك قوله : " وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم " (البقرة : ١١٨) .

وتحدث أحدهم - وهو عبد الله بن صوري الفطيوئي - إلى النبي في استعلاء الدعي ، يقول ناصحا : ما الهدي إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد نهتد .

أراد اليهودي أن يعتنق محمد اليهودية ، أن يؤمن بما يؤمنون ويفعل ما يفعلون ، ويخضع للتعاليم والطقوس التي يفرضها عليه الكهنة والأخبار ، وبذلك يصبح مجرد فرد وسط جموع قد لا تقيم له وزنا ولا تحسب له أى حساب . في لؤم وضع ، تجاهل اليهودي حقيقة أنه يتحدث إلي نبي محاط بمهاجرة وأنصار ، وينطق بوحي كلمات

القرآن الذى لا يقل ما جاء فى محتواها عن ما جاء فى التوراة ، بل يرجح ويزيد فهو ختام التنزيل .

أنهى القرآن الموقف ، وقضى على دعوة اليهود وغيرهم فى حسم قاطع : " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير " (البقرة : ١٢٠) ، " وقالوا كونوا هودا أو نصرى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين " (البقرة : ١٣٥) .

محمد ومن آمن معه لن يكونوا يهودا من أتباع موسى ولا نصارى من أتباع عيسى ، رغم تصديقهم لما جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ، إنهم على ملة أبيهم إبراهيم الذى لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، فقد أرسله الله إلى قومه قبل موسى وعيسى بمئات السنين . ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه كان ينتمي إلى دين هذا أو ذاك ، إلا إذا أقام ادعاءه على جهل بتاريخ الأمم وظهور الأنبياء وتسلسل الديانات .

هنا يجدر بنا الحديث عن نقطة بالغة الأهمية ، ألا وهى التركيز الواضح على ملة إبراهيم ودين إبراهيم فى السور المدنية ، رغم أن ذلك لم يكن بنفس الوضوح ونفس التركيز فى السور المكية ، إذ كان موسى فى السور المكية هو النبي الذى كثرا ما يشار إليه .

تؤكد كارين أرمسترونج هذه النقطة بقولها : كان المسلمون فى مكة يفضلون النبي موسى. لكن إبراهيم شغل المكانة التى كان يتمتع بها فى المدينة ، ووجد محمد الإجابة الكاملة على سخرية اليهود وتهكمهم . كان النبي ومن تبعه من المسلمين يرجعون إلى روح دين إبراهيم الحنيف (الخالص) الذى كان أول المسلمين .. ولا يتضمن القرآن الإشارة إلى إبراهيم قبل نزول السور المدنية .. ويبدو أن المسلمين كانوا يطلقون على دينهم فى تلك الفترة " الحنيفية " ، أى الدين النقي الخالص الذى كان يتبعه إبراهيم .^{٢٤}

فى الجدل المحتدم بين النبي واليهود ، احتل مفهوم ديانة إبراهيم مكانا على قدر كبير من الأهمية فى السور المدنية التى نزلت لتكذيب افتراءات اليهود . لقد أولت الفترة المكية اهتماما بالغا بموسى - كما يقول مونترجرى وت - وجعلته فى وضع أكثر أهمية من إبراهيم بين الأنبياء ... إبراهيم هو ببساطة مجرد نبي بين كثرة من أنبياء ، والقوم

^{٢٤} كارين أرمسترونج ، محمد ، ص ٢٤٢ .

الذين أرسل إليهم لم يحددوا تحديدا دقيقا. ولا تشير آية من آيات القرآن إلى أنه أرسل إلى العرب ، إذ يذكر بوضوح أن محمدا قد أرسل إلى قوم لم يرسل إليهم من قبل رسول : " أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتتذر قوما ما أتهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون " (السجدة : ٣) ، " وما ءاتينهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير " (سبا : ٤٤) .

وبالمثل ، فإن إسماعيل قد ذكر ، في السور المكية ، في قائمة الأنبياء ، وبخلاف ما ذكر عن اشتراكه مع أبيه في بناء الكعبة لا يذكر القرآن عن نبوته أية تفاصيل . يعتقد مونتجمري وت أنه عندما حدث الشقاق مع اليهود في المدينة ، أصبح إبراهيم ذا فائدة عظمي . لقد كان بالمعنى الجسدي هو أبو العرب ، كما هو أيضا أبو اليهود. ولقد عاش قبل أن تنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ، وعلى ذلك فهو ليس يهوديا ولا نصرانيا.

وبناء عليه فإن تعاليم القرآن إلى محمد والمؤمنين تنهي عن اتباع اليهود أو النصراني ، ذلك لأنهم أمة متميزة عن الأمتين السابقتين . إنهم اتباع ملة إبراهيم الذي يوصف دوما بأنه كان حنيفا مسلما - أى خاضعا خضوعا كاملا لله - وما كان من المشركين : " وقالوا كونوا هودا أو نصرى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين " (البقرة : ١٣٥) .

وأوضحت آيات السور المدنية أن إبراهيم هو الذي أقام " البيت المقدس " ، أى الكعبة ، في مكة ، بمساعدة إسماعيل ، وهو الذي دعا ربه أن يرسل إلى أهل مكة نبيا رسولا من سلالته. وبذلك تعمق إيمان المسلمين بأنهم ينتمون إلى " أبيهم إبراهيم " .

وبناء عليه ، فإن اتخاذ مكة قبله للصلاة - عندما تم تغيير القبلة - أصبح قائما على أساس من أيديولوجية فكرية هائلة .^{٢٥}

٥- تحويل القبلة :

كان من المنطقي ، طبقا لسير الأحداث، وطاعة لآيات القرآن الكريم أن يتحول المسلمون في قبلتهم إلى البيت الذي بناه أبوهم إبراهيم ، أى إلى الكعبة . ثم ذلك قبل " بدر " في منتصف رجب بعد سبعة عشر شهرا من وصول النبي إلى المدينة . ويقال إن تغيير القبلة حدث في بني سلمة ، قبيلة البراء بن معرور الذي طالب قبل الهجرة أن

²⁵ Montgomery Watt, Muhammad at Madina, pp. 204- 206 .

تكون الكعبة هي قبلة المسلمين ، وصلى بالفعل وهو متجه إلى الكعبة . ولقد شرحنا هذه النقطة بالتفصيل في كتابنا السابق : سنوات مكة .

ويروي ابن سعد أن النبي كان يود أن يصرف الله وجهه عن قبله يهود ، وكلمه صلى إلى بيت المقدس رفع وجهه إلى السماء ، فنزلت عليه : " قد نرى ثقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها " ، وتم توجيهه إلى المسجد الحرام .

ويقال : صلى الله عليه وسلم ، ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين ، ثم أمر أن يُوجه إلى المسجد الحرام . فاستدار إليه ودار معه المسلمون . ويقال : بل زار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم بشر بن البراء بن معرور في بنى سلمة فصنعت له طعاما ، وحانت الظهر فصلى رسول الله بأصحابه ركعتين ، ثم أمر أن يُوجه إلى الكعبة فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب ، فسمى المسجد مسجد القبلتين ، وذلك يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا .^{٢٦}

ويرى الشيخ الصابوني أن المسجد ذى القبلتين هو مسجد قباء ، إذ كان أهله في صلاة الصبح بالمدينة مستقبِلين لبيت المقدس ، مستدبرين الكعبة ، فقيل لهم : إن القبلة قد حولت إلى الكعبة ، فاستداروا في أثناء الصلاة من غير طلب دلالة ، ولم ينكر النبي عليهم ، وسمي مسجدهم بذى القبلتين .^{٢٧}

ورأى الشيخ الصابوني يختلف مع ما جاء في ابن سعد ، وكذلك ما ورد في مختصر تفسير ابن كثير الذي يؤكد أن : تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر في مسجد بنى سلمة ، فسمى مسجد القبلتين ، وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم التالي .

ونميل إلى الأخذ برأى ابن سعد ، وابن كثير ، وذلك تكريما للبراء بن معرور الذي طالب ، كما ذكرنا من قبل ، أن يتجه المسلمون في صلاتهم إلى الكعبة ، وكان ذلك قبل أن يصدر التوجيه السماوي .

عندما حدث هذا التحول ، تساءل اليهود ومعهم كثرة من أهل النفاق ، في خبث لئيم : ما ولاهم عن قبلتهم . وجاء الرد وحيا من عند الله : " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها . قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط

²⁶ ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

²⁷ الصابوني ، تفسير آيات الأحكام ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدي الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم " (البقرة : ١٤١-١٤٣) .

يورد الدكتور عبد الرحمن بدوي ، في دفاع عن القرآن ، زعم "جولد تسيهر" أن محمدا جعل بيت المقدس قبلة في الصلاة أولا ليكسب مودة اليهود لأنه في المدينة كان يعتمد على مساندة اليهود ذوى المكانة العالية .. ، ولما لم يحصل على تأييد اليهود غير القبلة متجها إلى البيت الحرام في مكة .^{٢٨}

الرأى السابق واضح الخطأ ، ويمكن أن يتوصل إلى ذلك القارئ العادي الملم بتاريخ السيرة النبوية ، حتى ولو كان من أبسط الناس فهما . لقد اتخذ النبي بيت المقدس قبلة ، وهو في مكة ، كي يبتعد بالدين الجديد عن مركز الأوثان الذى كانته الكعبة آنذاك ، فقد كانت الأصنام بداخلها وما حولها ، أكثر من ثلاثمائة صنم . وما كان له هو وأتباعه أن يركعوا ويسجدوا في ظلال الأصنام عند الكعبة التي حولها المشركون إلى معبد للوثنية العربية . ولقد كان معروفا آنذاك أن بيت المقدس كان قبله الأنبياء قبل محمد .

المسيح نفسه ، كما يؤمن أتباعه وكما تنص الأناجيل ، كان من المستحيل أن "يصلب" خارج أسوار أورشليم حيث بيت المقدس : ومن لحظة دخوله أورشليم ، اشتد تأثيره النفسى .. لقد ارتفع وحلق ، بعمق رؤاه وشجاعته وحبه ، فوق ما هو مألوف ما بين الأحياء ، وأصبحت أورشليم بالنسبة له مدينة الروح .. الوعاء الذى يحتوى دم الأنبياء ، الرمز والمحراب ، حيث يضحى " ابن الله الوحيد " بنفسه ، فداء عن آخرين ويسيل دمه .^{٢٩}

إن لم يتجه محمد إلى أورشليم ، وهو في مكة ، كي يكسب ود اليهود أو يطمع في تأييدهم له ، فلم يكن في مكة يهود يعتد بنفوذهم ، ولم يبدأ تعامله مع اليهود إلا بعد وصوله إلى المدينة حيث وجد أن اليهود يكوّنون جزءا بارزا في نسيج مجتمعا ، وكان

^{٢٨} عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن القرآن ، ص ٧٧ .

^{٢٩} انظر كتابنا ، لا تصلبوا المسيح ، ص ١٦٦ .

من المستحيل تجنبهم أو تهملهم ، كى لا يحدث تمزق ، وكى لا تثار فتن لا حاجة للمسلمين بها.

لقد وصف بعضهم تحويل القبلة - كما تقول كارين أرمسترونج - بأنه الخطوة الدينية التى تفوق كل ما عداها ابداعا وإلهاما ، فتحول المسلمين إلى القبلة المكية كان يعني أنهم يعلنون ضمنا أنهم لا ينتمون إلى أى مجتمع من المجتمعات الراسخة ، بل يولون وجوههم شطر الله ذاته فحسب. وكان معني ركوعهم وسجودهم فى اتجاه الكعبة ، وهى التى تتسم باستقلالها عن عقيدتي التوحيد القديمتين .. أنهم يعودون اليوم إلى العقيدة الخالصة النقية التى كان يتمتع بها الرجل الذى بنى الكعبة : " قل إنسى هدايتي ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين " (الأنعام: ٦٠) . ٢٠

فوجئ اليهود وأخذوا من حيث لا يتوقعون . لم يدر بخلدهم أبدا أن محمدا قد ينصرف عن قبلتهم ، وقد كان توجهه إليها - من وجهة نظرهم - اعترافا بأنهم هم الأهدى والأقوم ، وبأن محمدا وأتباعه إنما يترسمون خطاهم ويسيروا على منهجهم ، ولا يستطيعون إلى غير ذلك سبيلا. ثم حدث ما حدث دون مقدمات : النبى صلى وجهه إلى بيت المقدس ، وأثناء الصلاة يأتيه الأمر الرباني فيتحول فى نفس الصلاة إلى الكعبة المشرفة .

تحطم قيد الاستعلاء اليهودي . كان لسان حالهم يقول : يخالفنا فى ديننا لكنه يتبع قبلتنا ، ولولا قبلتنا ما عرف إلى أين يتجه وهو صلى . بيت المقدس هو قبلته ومحرا به ، وهو نفسه يؤكد ذلك فى تسابيح و صلواته فلم يطلب أن نتبعه نحن ، ولم لا يكون هو واحدا من التابعين !؟

اعتبر اليهود ما حدث ضربا من ضروب التحدي الذى لا يمكن السكوت عليه . أعلنوا فى غضب جامح إنكارهم لنبوة محمد ، طعنوا فى صدق رسالته ، واتخذوا من تحويل القبلة ذريعة لتشكيك الناس فى أمر الإسلام كدين سماوى . أعلنوا أن بيت المقدس لا يضارعه فى كل أرجاء الأرض بيت ، فحيث هو كانت النبوة والقداسة وستظل .. مهد الأنبياء كان من ذرية إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط ، الكل كان يعظم البيت ويصلى إليه ، ما خرج عن الجمع أحد .

^{١٠} كارين أرمسترونج ، محمد ، ص ٢٤٤

وحسم القرآن تشكك بعض المتسائلين : الكعبة أقدم من بيت المقدس ، إنها أول بيت وضع للناس : " إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين " (آل عمران : ٩٦) ، وهى أولى أن يتجه إليها الناس فى صلاتهم ، لاشك فى ذلك ولا جدال. الكعبة قبل بيت المقدس - بما يقرب من عشرة قرون - بناها إبراهيم واتخذها قبلته ، وجاء الإسلام فأحيا ملة إبراهيم . وكان لابد وأن يعود إلى قبلته " فَوَلَّ وجهك شطر المسجد الحرام " أى شطر الكعبة ، وقد اعتبرها النبي قبلة لأهل الأرض جميعا ، عندما قال : البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتي .^{٣١}

ذهب بعض أبحار اليهود - من بينهم كعب بن الأشرف ورافع بن أبى رافع - إلى النبي ، يتساءلون : يا محمد ، ما ولاك عن قبلك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك .

ما كانوا ينوون اتباعه أو تصديقه . كانوا ينصبون شركا معتقدين أنهم عن طريق الكذب والتضليل يستطيعون إيقاعه فى برائتهم فيترجع رغبة وطمعا أن يعترف به يهود ويعلموا إيمانهم بنبوته . وهنا لو صح ما يتوقعون ، تكون فرصتهم فى الإعلان عن عدم صدقة وادعائه . كانوا يريدون فتنته عن دينه ، وإثارة الشك فى قلوب المسلمين من حوله. ونزل القرآن مثبتا قلب النبي وصارفا عنه كيدهم : " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قبل الله المشرق والمغرب .."

كما كان فى قوله تعالى " وما كان الله ليضيع إيمانكم .. " (البقرة : ١٤٣) ردا على الترهات التى نشرها أبحار اليهود بين المسلمين ؛ عندما قالوا فى لؤم خبيث : أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس ، إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه ، وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة ، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة . قال المسلمون إنما الهدى فيما أمر الله به والضلالة فيما نهى عنه . قالوا : فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا^{٣٢} ؟ وكان رد الرسول عندما وجه إليه المسلمون السؤال هو ما جاء فى الآية الكريمة : " ما كان الله ليضيع إيمانكم " أى إيمان الذين آمنوا وهم يصلون إلى بيت المقدس .

^{٣١} الصابوني ، تفسير آيات الأحكام ، ص ١١١

^{٣٢} محمود بن الشريف ، ص ٤٣

خابت آمال اليهود فى نشر بذور التفرقة والفتنة بين المسلمين ، وبلغ الغضب أقصى مداه ، لدرجة أن صاح أحد اليهود فى ثورة محمومة : أتريد يا محمد أن نعبدك.. أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟

لقد حاولوا بأسلوب إيمائى غير مباشر أن يدفعوه إلى منزلق تأليه البشر . فإذا كانت النصارى قد عبدت عيسى بن مريم بعد أن جعلت منه إلها ، فلماذا لا تغرس نفس الفكرة فى رأس محمد ، وتكون عاملا من عوامل تدميره ؟ لكن رد النبي كان قاطعا ساطعا : " معاذ الله أن أعبد غير الله أو أمر بعبادة غيره، فما بذلك بعثني ولا أمرني". ونزل الوحي مؤكدا كلمات النبي: " ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربنيين بما كنتم تعلمون الكتب وبما كنتم تدرسون " (آل عمران : ٧٩) .

وبعد انتصار المسلمين فى معركة بدر . تحدث النبي إلى جمع من يهود فى سوق بنى قينقاع ، وقد فاض الكيل بما يدبرون ويمكرون ويكيدون ، قال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشا . قالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنت قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنتك لم تلق مثلنا .^{٣٣}

هكذا اتخذ الحوار الفكرى والعقائدى منحا جديدا ، فبدلا من اللجوء إلى العقل والمنطق والإقناع ، بدأ اليهود يهددون باستخدام السيف : إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس .

كان التحدي واضحا صريحا ، مثيرا بنبرته المتسمة بالسخرية والاستخفاف ، ولم يكن هناك مهرب من حتمية القتال .

٦- وقد نصارى نجران :

بيان احتدام الجدل بين النبي وأخبار يهود . قدم على النبي وقد نصارى نجران ، ستون رجلا فيهم أربعة عشر من أشrafهم ، دخلوا على النبي فى مسجده حين صلى العصر ويقول بعض من رآهم من أصحاب النبي: ما رأينا وفدا مثلهم ، كانت عليهم

^{٣٣} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .

ثياب الحَبَرَات : جُبَّبَ وأردية شديدة الأناقة ، لافتة لجمال منظرها الأنظار . وقد حانت صلاتهم ، فقاموا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . يصلون .^{٢٤} حاول بعض المسلمين منعهم من الصلاة في المسجد ، لكن النبي قال : دعوهم . فصلوا إلى المشرق .

هذا درس نتمني أن تعيه بعض العقول الخربة المتحجرة التي تعتقد في بلادة وتختلف يثير اشمزاز الدنيا بأسرها ، أن المسجد يجب ألا يقربه يهودي أو نصراني لأنهم رجس ونجس لابد وأن يبعد عن طهر المكان وقديسيته ونسوا أن اقتراب هؤلاء هؤلاء من المسجد ، وإيدائهم الرغبة في الدخول ، ربما تكون بداية هدايتهم إلى الصراط المستقيم . لقد أعطي النبي الدرس : فليُصَلَّ النصارى في مسجد النبي . وما أدراك ما مسجد النبي . إنه أحد مساجد ثلاث لا تشد الرحال إلا إليها ، فليصلوا وليتعبدوا في هذا المكان الطاهر ما شاء لهم أن يصلوا وأن يتعبدوا ، فالصلاة في هذا المسجد لن تكون إلا لله ، ودعوة النبي لهم لن تكون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما كان منهجه دوماً .

تجاوز وفد نصارى نجران مع النبي ، واشترك بعض يهود في الحوار . وبدا الأمر كما لو كان مجمعا للديانات السماوية الثلاث . تمسك اليهود بإنكارهم لأي دين آخر غير ما جاء به موسى ، فلا هم اعترفوا بعبسى بن مريم ، ولا هم اقتنعوا بما جاء به نبي الإسلام . انصرفوا في غضب ناقمين .

واختلف النصارى والمسلمون حول طبيعة المسيح ، إذ كان من المستحيل أن يقر النبي بالوهية عيسى أو ببنوته لله أو أنه ثالث ثلاثة كما يدعي أتباعه . تلا عليهم النبي ما جاءه من وحي : " قل يا أهل الكتب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " (آل عمران : ٦٤) .

رفض النصارى أن يؤمنوا بما تلا عليهم النبي . المسيح في رأيهم هو إله وابن إله ، نفوا بشريته ووحدانيه خالقه .

^{٢٤} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

دعاهم النبي إلى المباهلة ، أى الملاعنة ، وهى الدعاء بلعنة الله على الكاذبين :
" فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا
ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكذابين " (آل عمران: ٦١) .

رفض النصراني قبول المباهلة ، توجسا وخيفة ، وعدم تيقن من أنهم على حق ،
قالوا : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر فى أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه .
فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بـ " العاقب " أمير القوم وصاحب مشورتهم . قالوا : يا عبد
المسيح ، ماذا ترى ؟ قال : لقد علمتم أنه ما لا عن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ولا نبت
صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم . فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة
على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم . فأتوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ، وأن
نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا .^{٢٥}

تركهم النبي يرحلون فى سلام ، بل زاد على ذلك أن أرسل معهم أحد أصحابه -
أبا عبيدة بن الجراح - كى يعينهم على بعض أمورهم .

ولعل فى سلوك النبي هذا ما يخرس بعض الألسنة المتطاوله التى تدعى أن
الإسلام دين تعصب وبغضاء وعداء .

٧- غزوة بنى قينقاع :

تطاول اليهود فى سوق بنى قينقاع على النبي والذين معه . قالوا فى استعلاء
وازدراء : إنا نحن الناس . لقد اعتقدوا - كما صورت لهم الخرافات الإسرائيلية - أنهم
هم أبناء الله وأحباؤه وشعبه المختار ، إذ تنص كلمات كتابهم " المقدس " على أن الرب
اتخذهم لنفسه شعبا واختار أن يكون لهم إلها ، يقول إله إسرائيل : " وأسكن فى وسط
بنى إسرائيل وأكون لهم إلها . فيعلمون أنى أنا الرب إلههم الذى أخرجهم من أرض
مصر لأسكن فى وسطهم . أنا الرب إلههم " (خروج ٢٩ : ٤٥-٤٦) . وفى سفر التثنية
مكتوب أن الرب خاطب بنى إسرائيل بقوله : " أنت شعب مقدس للرب إلهك . إياك قد
اختار الرب لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض ... ،
مباركا تكون فوق جميع الشعوب " (تثنية ٧ : ٦-١٤) .

^{٢٥} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

العبارات السابقة فى كتاب " اليهود " هى التى جعلتهم يعتقدون أنهم بالفعل فوق جميع الشعوب ، لأن الرب هو الذى اختارهم لنفسه شعبا وقرر بفرمان إلهي أن يكونوا: هم الناس .

ونسوا أنه هو نفس الرب الذى هددهم ونكّل بهم وعذبهم عندما انحرفوا وعصوا ، عندما لم ينفذوا أوامره ولم يطيعوا تعاليمه : " لكن إن لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصايا . وإن رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكامي فما عملتم كل وصاياى بل نكتنم ميثاقي ، فأبى أعمل هذه بكم . أسلط عليكم رعبا وسلأ وحمي تفني العينين وتلف النفس .. وأجعل وجهي ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم " (لاويين ٢٦ : ١٤-١٧) .

لقد تمردوا . ليس على نبيهم فقط ، بل أيضا على الرب الذى اختارهم شعبا ، فما كان من ذلك الرب إلا أن ضربهم وبعنّف : " وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين لماذا أصعدتانا من مصر لنموت فى البرية .. فأرسل الرب على الشعب الحيات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل " (عدد ٢١ : ٥-٦) .

ويهددهم النبى موسى وينذرهم لأنه يعلم أنهم شعب عصى صلب الرقبة ، من السهل أن يفعلوا الشر : " ويبددكم الرب فى الشعوب فتنبقون عددا قليلا بين الأمم التى يسوقكم الرب إليها " (تثنية ٤ : ٢٧) .

كيف نتوقع ، إذن ، من سلالة بنى إسرائيل - كما يدعون - أن يستمعوا إلى محمد، وأن يعترفوا بنبوتّه ، أو أن يعاملوه بأمانة وشرف احتراما للعهد الذى قطعوه على أنفسهم والميثاق الذى وافقوا عليه بعد وصول النبى إلى المدينة ؟ وينزل جبريل بكلمات الوحي الكاشقة : "وقالت اليهود والنصرى نحن أبناؤا الله واحبوه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء" (المائدة : ١٨) .

تحرك اليهود عمليا على أرض الواقع . لم يكتفوا بالجدل الفكرى والحوار العقائدى . كادوا للمسلمين وحاولوا الوقعة بينهم ، كى تكون فتنة . ويرفع المسلم سيفه فى وجه المسلم . اندسوا بين الأوس والخزرج ، محاولين إثارة النعرة القبلية والخلاف الذى قد يؤدى إلى الحرب بينهم ، كى تراق الدماء وتُغرق أرض المدينة من جديد . لقد كَبُر على أحد شيوخ يهود ، وهو شاس بن قيس ، أن يرى الأوس والخزرج فى مجلس واحد يتحدثون فى محبة وود ، غاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم

على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية . قال : قد اجتمع ملأ بنى قَيْلَة (قَيْلَة هى أم الأنصار) بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار .

أمر شابا يهوديا أن يندس بينهم ، يذكرهم بيوم بعث ، أي باليوم الذى اشتعلت فيه الحرب بين الأوس والخزرج وانتهت بهزيمة الخزرج . نجح اليهودي فى إثارتهم فتفأخروا ، وتنازعوا ، وقواثبوا وغضب الفريقان جميعا لدرجة أن صاح أحدهم : السلاح : السلاح !!!

بلغ ذلك رسول الله فخرج إليهم ، حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أيدعوي الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستفتكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم .

عرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا .^{٣٦}

انطفأت نيران أول فتنة حاول اليهود إشعالها . لكنهم لم يتوقفوا ، استمروا فى كيدهم وعبثهم واستهتارهم بأقدار المسلمين ، اتصلوا بقريش يحرضونهم على النبى ، يذكرونه بالسوء ، يذمونه ويسينون إليه ، ثم تحول الكلام إلى الفعل .

توجهت امرأة من العرب إلى سوق بنى قينقاع ، جلست إلى صائغ بالسوق . حاول العبث بها وإجبارها على كشف وجهها . وعندما رفضت فى إباء ، عمد اليهود إلى حيلة تنم عن لؤم وصغار : عقد طرف ثوبها إلى ظهرها ، فلما قامت تعري جزء من جسدها ، انكشفت سوعتها ، وضحك اليهود ساخرين . صرخت المرأة مستجدة بالمسلمين الذين أسرعوا إلى نجدها حفاظا على كرامتها . وثب أحدهم على الصائغ اليهودي فقتله ، عندها شد اليهود على المسلم فقتلوه . وكان من الحتمي أن يقع الشر بين يهود بنى قينقاع وبين المسلمين .

وانزل الله على نبيه : " وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين " ويروى ابن سعد أن النبى قال : أنا أخاف بنى قينقاع ، فसार إليهم بهذه الآية^{٣٧} . كان يعلم أنهم أشجع يهود ، لذا حمل اللواء فى هذه الغزوة حمزة بن عبد المطلب ، أشجع من عرفت قریش والعرب آنذاك .

^{٣٦} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

^{٣٧} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

استخاف النبي على المدينة أبا ثبابة بن عبد المنذر العُمري ، وخرج إليهم في يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من مهاجره . حاصرهم خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة . لجأوا إلى أطعمهم وتحصنوا بها . حاربوا رميا بالنبل والسهام من خلف جدرانها . شدد النبي عليهم الحصار ، أحاط بهم المسلمون من كل جانب حتى امتلأت قلوبهم بالرعب ، وتبدى عجزهم ذليلا مهينا ، فنزلوا على حكم النبي .

أمر النبي بالرجال فكثفوا ، أى تم شد وثاقهم ، وأمر بالأموال أن يتم الاستيلاء عليها فهي لله ورسوله والمؤمنين ، أما النساء والذرية فقد أصدر عفوه فيما يختص بهم . تصور عبد الله بن أبي أن النبي سيأمر بقتل الرجال ، وقد كانوا حلفاء ابن أبي وخلصاء الذين ارتضوا ، مع أهل المدينة قبل وصول النبي إليها ، أن يتوجه ملكا . توجه ابن أبي في انفعال غاضب إلى النبي ، صاح في فظاظة أمام الجمع : يا محمد ، أحسن في موالى .

هكذا تطاول ابن أبي ، في وقاحة متناهية ، فنادى النبي باسمه مجردا وكأنه لا يعترف بنبوته . وتجاهل النبي رأس النفاق الغاضب ، فأعاد ابن أبي قوله : يا محمد أحسن في موالى . وأعرض عنه النبي ، عندها مد ابن أبي يده في جراحة متهورة ، أدخلها في جيب درع النبي ، قبض على ياقته وجذبه .

هنا غضب النبي ، وهو الحليم الذى لا يستثار بسهولة غضبه . اشتد غضبه حتى رأوا لوجهه ظللاً ، قال : ويحك !! أرسلني . ورد رأس النفاق : لا والله ، لا أرسلك حتى تحسن في موالى . أربعمائة حاسر (بلا درع) وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدكم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ يخشى الدوائر .^{٢٨}

أنهى النبي الموقف ، قال : هم لك . ثم أمر بإجلانهم عن المدينة . هنا حاول ابن أبي من جديد أن يثني النبي عن عزمه ويوقف تنفيذ الأمر ، لكن أحد المسلمين تعرض له وضربه فشجه .

خرج بنو قينقاع مصطحبين نساءهم وأولادهم ، تاركين أموالهم وسلاحهم وذهبيهم الذى كانوا يصوغون . ولّى إخراجهم من المدينة عبادة بن الصامت ، فلحقوا بأذرع

^{٢٨} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

على حدود الشام ، ولم يظل بقاءهم بها ، ورحلوا إلى ما تسمى بأرض " المعاد " التي يحلم بالعيش فيها سلالة من تصفهم كتب اليهود بـ " شعب الله المختار " .

وزَّع النبي الغنائم . لم يكن لبنى قينقاع أرض ، بل مال وسلاح كثير وآلة صياغة . أخذ النبي " صفية " اليهودية والخمس ، ووزع أربعة أخماس على أصحابه ، وكان مما أخذ من سلاحهم ثلاث قسي ، وثلاثة أسيف ، وثلاثة أرماح . فكان أول خمس خمس بعد بدر .

ويدعي بعض المستشرقين أن غزو بنى قينقاع والحصول علي ثرواتهم ثم إجلائهم عن المدينة ، لم يكن له ما يبرره ، فقد قتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل ، وكان من الواجب أن تتوقف الأمور عند هذا الحد ، لا أن تتطور إلى حرب تؤدي إلى اقتلاع أناس من أرض عاشوا فيها طويلا لدرجة أن اعتبروها مدينتهم هم ، لا مدينة النبي .

ونسى هؤلاء أن النبي لم يتحرش بهم ولم يبدأ بقتال ، هم الذين أساءوا الأدب وتحرشوا وكشفوا سواة امرأة عربية ، وهذا في عرف العرب عار . وليس من المستغرب أن تثار حرب بسبب فرد ، رجلا كان أو امرأة . ويجب ألا ننسى أن الحرب العالمية الأولى التي شملت أوروبا كلها قد اندلعت شراراتها بسبب مقتل فرد واحد هو ولي عهد النمسا عام ١٩١٤ .

٨- قتل بعض الذين خانوا بين بدر وأحد وبعد أحد :

١- عصماء بنت مروان : كانت - كما يصفها د. شوقي ضيف - من أقذع اليهود هجاء . هاجمت النبي وعابت رسالته ، وحرضت عليه في شعرها ، في لا مبالاة واستخفاف ، وكأنها لا تكثر بما قد يحدث لها من جراء جرأتها وتواقحها وهي تصف النبي بأوصاف إن دلت على شيء فلا تدل على ازدرائها له واحتقارها لما يدعو إليه .

ويروى ابن إسحق أن النبي ، عندما ضاق بهجائها . قال : ألا أخذ لي من ابنة مروان . فسمع ذلك عُمَيْرُ بن عدي الخطمي وهو عنده ، فقرر أن يخلص النبي والمسلمين من شرورها .^{٣٩}

جاءها عمير في ظلمة الليل وهدأته ، ويقال إنه كان ضرير البصر . دخل عليها بيئتها وحولها أولادها وقد ناموا ، باستثناء طفل كانت ترضعه من صدرها . جساها بيده ،

^{٣٩} ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٣١٣ .

نحي الطفل عنها ، ثم غرس سيفه فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها . حدث ذلك فى الخامس والعشرين من رمضان ، على رأس تسعة عشر شهرا من مهاجر رسول الله . يذكر ابن سعد أن عميرا ، بعد أن قتل عصماء ، صلى الصبح مع النبي بالمدينة ، فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أقتلت ابنة مروان ؟ قال : نعم ، فهل على فى ذلك من شئ ؟ فقال : لا ينتطح فيها عنزان . فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله .. وسماء رسول الله عميرا البصير .^{٤٠}

يرى " مولاى محمد " أن الأسانيد التى ساقها ابن هشام وابن سعد والواقدي للتدليل على صحة واقعة الاغتيل هذه ، أسانيد غير صحيحة ، أى أنها غير مدعومة ولا يمكن إثباتها . صحيح أن عصماء ، وهى شاعرة مرموقة من قبيلة الأوس ، قد نظمت قصيدة هجت فيها النبي ، وقالت إنه أهرق دماء كثير من السادة ، قاصدة ما نال سادة قريش فى بدر .. وقيل إنها قتلت بقسوة ، قتلها عمير .. وقيل إن النبي هناة على فعلته . هنا يؤكد " مولاى محمد " أن الرواية غير صادقة ، ودليله على ذلك أن النبي أصدر أوامر مشددة بعدم قتل النساء ، تحت أية ظروف ، حتى ولو اشتركن اشتركا فعليا فى القتال ضد المسلمين . كما يورد دليلا آخر يثبت صدق قوله وهو أنه عندما خرجت جماعة من المسلمين لقتل ابن أبى الحقيق تصدت لهم زوجته محاولة منعهم من قتله . كان بإمكانهم قتلها بمجرد طعنة لكنهم لم يفعلوا ، احتراما لأمر النبي بعدم قتل النساء .^{٤١}

٢- أبو عفك : كان أبو عفك ، من بنى مروان بن عوف ، شيخا كبيرا بلغ المائة والعشرين من العمر . كان يهوديا يكتب الشعر ضد النبي ويحرض عليه ، وللشعر على مستمعية فى تلك الآونة سطوة وسلطان . ضاق النبي بأمره ، فقال لمن حوله ، كما جاء فى رواية ابن إسحق : من لى بهذا الخبيث ؟ فقال سالم بن عمير ؟ على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه .^{٤٢}

ترصد سالم أبا عفك كى يأخذه على غرة . سنحت له الفرصة فى ليلة صائفة عندما وجد أبا عفك نائما بفناء بيته . أسرع إليه ، وضع السيف على كبده ، مال عليه بكل ثقله حتى خش فى الفراش ، قتله .

^{٤٠} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٣١٣ .

^{٤١} مولاى محمد ، ص ٢٣١ .

^{٤٢} ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٣١٣ .

لقد هاجم أبو عفك النبي في ضراوة ، لام مستمعيه لأنهم سمحوا لدخيل عليهم أن يسيطر على شئونهم وأن يسير أقدارهم ، اتهم النبي بالخلط بين الحق والباطل وبالسعي إلى السلطان والملك . لقد انكر أبو عفك نبوة محمد واتهمه بالاحتيال والادعاء . نظم في ذلك من القصائد ما يثير الغضب ويؤجج الثورة ، فاستحق الموت كعدو محارب ذلك لأنه أعلن عداؤه للنبي صراحة ومحاربته له . والحكم في هذه الحالة عادل ولقد تم قتله بعد بدر وقبل غزوة بني قنيقاع ، في شوال على رأس عشرين شهر من مهاجر النبي .

٣- كعب بن الأشرف : كان أحد أبناء العرب من قبيلة طيئ ، لكن أمه كانت من قبيلة بني النضير ، وبذلك أصبح انتماءه إلى قبيلة أمه اليهودية . كان يعتبر أحد قادة بني النضير ، ومن المتميزين أصحاب السطوة وذوى البأس الذين يخشى بطشهم ، سواء كان ذلك بالسيف فقد كان فارساً ، أو باللسان فقد كان شاعراً . ولقد هجا النبي بشعره هجاء مقدعاً ، ورد عليه حسان بن ثابت وكانت لهما مناقضات ومساجلات .

يروى ابن إسحق أنه لما أصيب أصحاب بدر وقدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية بشيرين ... بفتح الله عز وجل وقتل من قتل من المشركين .. قال كعب بن الأشرف حين بلغه الخبر : أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان ؟- يعني زيدا وعبد الله بن رواحة - هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس ، والله لأن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.^{٤٢}

وعندما تيقن من صدق الخبر ، رحل غاضباً إلى مكة ، فنزل على المطلب بن أبي وداعة وعنده عاتكة بنت أبي العيص ، فرحبت به وأكرمته . وحيث نزل وأينما ذهب أخذ يحرض على النبي وينشد الأشعار هاجباً وباكياً ، هاجباً النبي وباكياً أصحاب القلب من قريش الذين قتلوا في معركة بدر .. نجح في إثارة حزن القرشيين ، وأجج في قلوبهم رغبة الانتقام . ولم يمهل حسان بن ثابت فأطلق قصائده تهجو كعباً وتزدرى ما يقول ، وتسخر من هؤلاء الذين رحبوا به واستضافوه . وهكذا أرغم كعب على العودة إلى المدينة .

لكنه في المدينة لم يهدأ ولم يهادن ، بل استمر في إثارته وعدوانيته محاولاً تأليب الجموع وتحريضهم كي يتحركوا ضد محمد ومن معه . ولم يكتف بذلك ، بل بلغت به

^{٤٢} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٣١ .

سفاهته ووقاحته أن تناول على أم الفضل بنت الحارث فقال فيها شعرا فاحشا ، ثم شُبب بنساء المسلمين حتى آذاهم .

لم يكن كعب ، إذن ، يهوديا شريفا أمينا ، حافظا للعهد ، كان على عكس ذلك عدوانيا مستغزا يسوؤه انتشار الإسلام في المدينة . ويقال إنه حالف المشركين عند أستار الكعبة على قتال محمد . ومعني وقوفه في صفوف المشركين وتحالفه معهم أنه قد أصبح محاربا . يمثل خطرا يهدد أمن المسلمين . وكان من الطبيعي ، بل ومن الضروري أن يحارب المحارب وأن يقتل إلقاء لشره .

كان سلاح الشعر في شبه الجزيرة العربية من أشد الأسلحة فتكا وأكثرها تدميرا . لم يُخَفِ النبي استيائه ، قال : اللهم اكفني ابن الأشرف . ثم التفت إلى من حوله وقال : من لى بابن الأشرف فقد آذاني . فقال محمد بن مسلمة : أنا به يا رسول الله وأنا قاتله . فقال : افعل إن قدرت على ذلك .⁴⁴

وجاء في تاريخ الطبري أن محمدا بن مسلمة مكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يُعَلِّقُ به نفسه ، فذكر لرسول الله ، فدعاه فقال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ قال : يا رسول الله . قلت قولا لا أدرى أفي به أم لا . قال النبي : إنما عليك الجهد . قال : يا رسول الله ، إنه لا بد لنا من أن نقول . قال : قولوا ما بدا لكم . فأنتم في حل من ذلك .⁴⁵ لا بد لنا من أن نقول ، أى لا بد لهم من أن يقولوا كلاما ضد النبي يستطيعون به كسب ثقة اليهودي حتى يركن إليهم وتطمئن نفسه ، وهو نوع من أنواع الخداع المسموح به في التعامل مع العدو .

اجتمع محمد بن مسلمة ونفر من الأوس منهم عباد بن بشر وأبو نائلة سيلكان بن سلامة والحارث بن أوس بن معاذ ، وكان أبو نائلة أخا لكعب بن الأشرف من الرضاعة . حدث ذلك في الرابع عشر من شهر ربيع الأول بداية العام الثالث الهجري . أخبر أبو نائلة كعبا بأنه ضائق بأمر محمد ويتمني لو تخلصت منه المدينة . فقد جلب على أهلها البلاء : حاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ونحن نريد التلحي منه . وأضاف أبو نائلة ، وهو يتعامل مع اليهودي بنفس العملة اليهودية في الكذب والتضليل ، لقد تسبب وجود محمد في حالة قحط وجذب وفقر أصاب عرب المدينة ،

⁴⁴ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

⁴⁵ الطبري ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

مما دفعه هو وبعض صحبه للجوء إلى كعب كى يبتاعوا منه طعاما وتمرا على أن يرهنوه ما يشاء .

أثار أبو نائلة غريزة الجشع فى أعماق اليهودي ، صاح كعب بن الأشرف :
أبناءكم ؟!! ترهنوني أبناءكم ! وغريزة الجشع هذه كامنة فى أعماق بنى إسرائيل منذ يعقوب " التوراتي " الذى كان يتعامل مع كل من هم حوله - حسب الحكاية التوراتية - بخسة متدنية . ولم يستثنى من ذلك أخاه عيسو .

يعود عيسو من الحقل مرهقا جائعا فيجد أمام يعقوب طبيخ عدس ، فيطلب منه أن يعطيه ما يسد الرمق ، إلا أن يعقوب يرفض إلا أن يقبض الثمن . إما أن يدفع عيسو ثمن وجبة الطعام أو يغرب عن وجهة ، فلا شئ بلا ثمن بالنسبة ليعقوب . إنه يطلب من أخيه أن يبيعه حق بكوريته ، أى حقه فى الوراثة ، مقابل أن يطعمه : " وطبخ يعقوب طبيخا فأتي عيسو من الحقل وهو قد أعيا . فقال عيسو ليعقوب أطعمني من هذا الأحمر لأنى قد أعييت .. فقال يعقوب بعني اليوم بكوريتك .. فباع بكوريته ليعقوب .. فأعطي يعقوب عيسو خبزا وطعام عدس . فأكل وشرب وقام ومضى " (تكوين ٢٥ : ٢٩-٣٤) .

وإذا كان يعقوب " التوراتي " المسمى بإسرائيل - أبو الأسباط - على هذا القدر من التدنى ، فماذا نتوقع من كعب بن الأشرف وقد طالبة بعض " الجياح " العرب بقدر من تمر وطعام مقابل رهن يطلبه ؟ أبناءكم !! وجدها اليهودي فرصة كى يتخذ عددا من أبناء العرب عبيدا مقابل وجبة طعام .

كان أبو نائلة على مستوى الحدث . تعامل مع اليهودي فى ذكاء واقتدار ، قال :
لقد أردت أن تقضحنا ! إن معي أصحابا لى على مثل رأيي ، وقد أردت أن أتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ، ونرهنك من الحلقة (السلح) ما فيه لك وفاء . هكذا مهّد لوجود السلح معه ومع أصحابه .

عاد أبو نائلة إلى كعب فى الليل ، ناداه طالبا منه أن يخرج إليهم من حصنة وكان حديث عهد بعرس . حذرته امرأته من الخروج وقد أحست فى داخلها بنذر شر ، لكنه لم يكثر بتحذيرها وخرج إليهم . مشوا معه وحادثوه حتى أنس إليهم . فجأة حملوا عليه وقتلوه . لم يكتفوا بقتله . بل حزوا رأسه وحملوها معهم ، حتى بلغوا النبی وقد كان

قائما يصلى . رموا برأس كعب بين يديه بعد أن انتهى من الصلاة. قال النبى وقد بدت علامات الارتياح على وجهه : أثلحت الوجوه !

هكذا تم اغتيال كعب بن الأشرف . قُتل غدرا . هذا صحيح . لكن قتله غدرا كان أفضل من تركه كى يجلب الدمار على المدينة وأهلها .

محارب هو ، انضم إلى صفوف الأعداء وأثار حمية المشركين كى يقطعوا دابر المسلمين ، فأرسل النبى إليه سرية لقتله . محاربون خرجوا لقتل محارب ، وكان عليهم أن يختاروا الوسيلة التى تمكنهم من توجيه ضربتهم فى سرية وكتمان كى لا يثيروا ثورذ قبيلة بنى النضير بأكملها فتهب . لنصرته ويزاق دم كان المسلمون آنذاك فى غنى عن إزاقته . استدرجوه وقتلوه . واتخذوا من الوسائل ما كان مألوفا لديهم ومعترفا له فى عصرهم . لقد أثبت كعب بن الأشرف ، بالكلمة والفعل ، أنه عدو ، وعدو محارب . لذا وجب قتله دفاعا عن النفس .

٤- أبو رافع سلام بن أبى الحقيق :

اغتيال الأوس كعب بن الأشرف ، ورأت الخزرج ضرورة الإقدام على عمل مماثل لا يقل قوة وجراً ، كى لا تتميز الأوس وتذهب بها فضلا عليهم .

كان أبو رافع يؤذى النبى ويثير القبائل عليه . بعد طرده من المدينة مع بنى النضير ، استقر فى خيبر وأخذ يحرض غطفان وقبائل أخرى مجاورة على محاربة النبى ، وقد وعد بأن يمددهم بما هم فى حاجة إليه من مال وسلاح . لم يكن المسلمون ليأمنوا لؤمته وضراوة شره وغدره .

تطوع خمسة من الأنصار للخروج إليه وقتله . كان الرجال الخمسة من خزرج بنى سلمة ، وهم : عبد الله بن عتيك ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة ، والأسود بن خزاعي ، ومسعود بن سنان ، أمر النبى عليهم عبد الله عتيك .

يقول د. عبد الرحمن بدوى إن هذه السرية خرجت فى الرابع من ذى الحجة سنة أربع من الهجرة (٤-١٤ ذى الحجة سنة ٤) .^{٦٠} ونرى أن الدكتور بدوى قد أخطأ فى تحديد تاريخ خروج هذه السرية ، إذ أن مقتل أبى رافع فى العام الرابع الهجرى لا يتفق مع حقائق التاريخ التى تثبت أن أبى رافع كان فىمن حزب الأحزاب ضد النبى . لهذا نرى أن مقتله كان بعد غزوة الأحزاب فى السنة السادسة من الهجرة . ونأخذ بالرأى

^{٦٠} عبد الرحمن بدوى ، دفاع عن محمد ، ص ١٢١ .

الذى أورده ابن سعد فى الطبقات الكبرى عندما حدد خروج سرية عبد الله بن عتيك إلى
أبى رافع بن أبى الحقيق النضرى بخيبر فى شهر رمضان سنة ست من مهاجر رسول
الله .^{٤٧} ويبدو أن د. بدوى قد أخذ عن مونتجمرى وث الذى يحدد نفس التاريخ ٤/١٢ هـ .

كمن الخمسة من الأنصار فى خيبر حتى هدأت نفوسهم ، وفكروا مليا فيما هم
مقدمون عليه . تحينوا الفرصة المناسبة لدخول بيت أبى رافع . قابلتهم امرأته . طلبوا
منها أن تسمح لهم بالصعود إليه ليقدموا له بعض الهدايا . سمحت لهم بالدخول ، لكنها
فرعت . روعها منظر هؤلاء الخمسة المدججين بالسلاح . طعنوا أحدهم بخنجر ، ولم
يجز عليه ، ذلك لأن النبى نهاهم عن أن يقتلوا رضيعا أو امرأة . هاجموه وهو فى
فراشه . يقال إنه كان نائما غير مدرك لما يدور حوله . وحتى لو كان فى حالة وعي
ويقظة كاملة ما كان باستطاعته أن يفعل شيئا ، فقد كان طاعنا فى السن ولا طاقة له
بمواجهة خمسة رجال وهو فى سريره أعزل . ضربوه جميعا بأسيا فهم . غرز عبد الله
بن أنيس سيفه فى بطن أبى رافع حتى أنفذه . مات فى الحال . هرب الذين اغتالوه .
اختبأوا حتى كف اليهود عن البحث عنهم ، استغرقت هذه المهمة عشرة أيام .

٥- أسير بن زارم :^{٤٨}

قتل أبو رافع ، تشاور يهود خيبر فى أمر الزعامة ، اختاروا سلام بن مشكم ،
لكنه أبى ، رفض زعامة يهود لما فيها من مخاطر . عرضوا الأمر على أسير بن زرام
فقبل بالإمارة ، ثم سار فى غطفان وما جاورها من قبائل يحرضهم على النبى ويطلب
منهم الاستعداد لقتاله .

بلغ أمره النبى . وكعادته أسرع بواجهه الخطر قبل استفحاله . أرسل عبد الله بن
رواحه فى صحبه ثلاثة نفر إلى خيبر . كان ذلك فى رمضان من العام السادس الهجرى .
تقصى ابن رواحه أخبار أسير عرف كل ما يمكن معرفته عن تحركاته ، وما يفعله علنا
وما يدبره فى الخفاء . عاد وبلغ بذلك النبى .

^{٤٧} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٩١ .

^{٤٨} هكذا ذكر الاسم فى ابن سعد ، أما ابن هشام فيشير إليه تحت اسم : اليسير ابن زارم .

انتدب ثلاثون رجلا على رأسهم عبد الله بن رواحه ، للسير إلى أسير والتعامل معه . قدموا عليه . قالوا : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟ قال : نعم ، ولى منكم مثل ذلك . قالوا : نعم .^{٤٩}

طلب كل فريق الأمان من الآخر وحصل على وعد به . قدم عبد الله بن رواحه العطايا لأسير . حدثه عما جاء من أجله وكان في الحديث خدعة حتى يتمكن من الخروج به من خير . ادعى أن النبي يريد أن يخرج إليه كي يحسن إليه ويستعمله على خير . طمع أسير فيما عرض عليه ومال إلى تصديق ما قيل له . خرج معهم في ثلاثين رجلا من يهود ، حتى إذا ما وصلوا قرقرة ثيار . وهي مكان يبعد ستة أميال عن خير ، ساور الشك أسير وندم على خروجه معهم . حاول أن يستل سيفه كي تكون المبادرة ثم الغلبة والخلص ، لكى عبد الله بن أنيس عاجلة بضربة باثرة فقطع فخذه وساقه . سقط عن بعيره لكنه استطاع رغم ذلك أن يضرب عبد الله بفرع غليظ من شجر " الشوخط " فشجّة . هم المسلمون على أصحاب أسير فقتلهم جميعا ، باستثناء رجل واحد نجح في الفرار . لم يقتل أحد من المسلمين . عادوا سالمين بعد أن تخلصوا من أسير . وقد نجاهم الله - كما أخبرهم الرسول - من القوم الظالمين .

٦٠ - سفيان بن خالد بن نتيج الهذلي :

لم يكن سفيان يهوديا ، لكنه كان مشركا ، أصر على شركه وأضر العداء للنبي ، رغم أن النبي لم يمسه بسوء . كان ينزل في غرّة وما والاها في ناس من قومه . أخذ يجمع القبائل ويعدّها للحرب . علم النبي بتحركاته . رأى أن يتخلص منه قبل أن يستفحل خطره .

يقال إن النبي أحضر عبد الله بن أنيس ، وقد اشترك بنجاح في اغتالين سابقين ، وطلب منه أن يذهب إلى سفيان ويقتله . لم يكن عبد الله بن أنيس يعرف سفيان ، ما رآه أبدا من قبل . قال للنبي : يا رسول الله صفه لى حتى أعرفه ، وجاء في ابن سعد أن النبي قال له : إذا رأيته هبته وفرقت (ارتعدت) منه وذكر الشيطان .^{٥٠}

خرج عبد الله بن أنيس قاصدا سفيان حيث هو - كان ذلك في يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرا من مهاجر رسول الله - حتى إذا كان

^{٤٩} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

^{٥٠} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٥١ .

بيطن " عرنة " لقي سفيان يمشى ووراء الأحابيش وآخرون ممن انضوا تحت لوائه .
عندما اقترب منه وتأمله ، اهتز من هيئته وسرت في جسده رعدة ، وخيل إليه أنه
بالفعل في مواجهة الشيطان ، تماماً كما حدثه النبي من قبل .

لكن عبد الله بن أنيس - كما وصف هو نفسه - كان لا يهاب الرجال . قرر
استخدام الخديعة وقد تم استخدامها من قبل في اغتيالات سابقة . كما أنه كان قد استأذن
النبي في أن يقول . سأله سفيان عندما اقترب منه : من الرجل ؟ أجاب عبد الله : رجل
من خزاعة . سمعت منك وعن جمعك لمحمد فجننت لأكون معك . قال : أجل إني
لأجمع له .

تأكد عبد الله بن أنيس أن هدفه قد أصبح في متناول يده . كل ما عليه هو أن
يحسن اختيار الفرصة كي ينفذ ما خرج من أجله . مشى مع سفيان وكسب ثقته بحلو
الحديث ومعمول الكلمات . استحلى سفيان الحديث وأنس لوجود ابن أنيس معه ، اطمأن
إليه حتى انتهى إلى خبائه وتفرق عنه أصحابه وهدأ الناس وناموا . عندها عاجلة ابن
أنيس بضربة سيف . قتله . قطع رأسه . لاذ بالفرار . اختبأ في غار في جبل . عندما
شعر بأن البحث عنه قد هدأ ، شق طريقه إلى المدينة يسير ليلاً ويتوارى نهاراً حتى قدم
على النبي في مسجده بالمدينة . ويقال إن النبي استقبله بعبارة : أفلح الوجه . فرد قائلاً :
أفلح وجهك يا رسول الله . وكانت غيبته في تلك السرية ثمانى عشرة ليلة .

يروى ابن سعد أن ابن أنيس ألقى برأس سفيان بين يدي النبي وأخبره خبره ، فقام
النبي وأدخله بيته وأعطاه عصا . وقال : تحضر بهذه في الجنة^{٥١} . ويضيف الدكتور
عبد الرحمن بدوي ، نقلاً عن مصدر نسي أن يذكره كي نسترشد به ، أن النبي قال
لابن أنيس وهو يناوله العصا : هذه علامة بيني وبينك يوم القيامة وفي هذا اليوم لن
يحمل عصا إلا قليل من الناس^{٥٢} .

أوصى عبد الله بن أنيس أهله أن توضع تلك العصا في كنفه وتدفن معه عندما
يحين أجله .

وحكاية العصا هذه تبدو كحكايات " الحواديث " ونقول بصراحة واضحة إنه
يصعب تصديقها . وربما لا نبالغ إذا ما أعلننا أن المنطق العقلاني ينكرها إنكاراً كاملاً ،

⁵¹ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٥١ .

⁵² عبد الرحمن بدوي ، محمد ، ص ١٢٤ .

ولو صدقت لوزع النبي العصى على المختارين من أصحابه ، ولذا صيت فرقة من "أصحاب العصى" المميزين بعصيتهم يوم القيامة . كما أنه من غير المعقول منطقياً أن يحتاج أحد المؤمنين إلى عصا تكون له علامة يعرفه بها النبي .

هذا إلى جانب أنه لم يرد للعصى - كعلامات يوم القيامة - أى ذكر فى حديث نبوى مما ذكر واعتمد فى كتب أئمة الحديث ، بعيداً عن الإسرائيليات . ولو كانت العصى ، كعلامات يوم القيامة ، حقيقة مؤكدة لجاء ذكرها ولو فى آية واحدة من آيات القرآن . وربما تذكر من كتب هذه الأقصوصة عصا موسى أو عصا هارون ، فقال : ولم لا تكون لنا نحن أيضاً عصا ، ثم قام بتأليف الحكاية . هذا مجرد افتراض ، لا يؤكد دليل قاطع يمكن قبوله أو رفضه . وعلى من يرفضه أن يقدم دليلاً قاطعاً على صحة حكاية العصا التى سيجملها بعض الناس يوم القيامة كى تكون لهم علامة .

٧- محاولة اغتيال أبى سفيان :

طبقاً لما جاء فى بعض كتب التراث - الطبرى وابن سعد - قال أبو سفيان بن حرب لنفر من قريش : ألا أحد يغتال محمداً فإنه يمشى فى الأسواق . فجاءه رجل من الأعراب معلناً عن رغبته فى قتل محمد بشرط أن يعينه أبو سفيان على ذلك ويقويه . وجد أبو سفيان فى الرجل ضالته . أعطاه بعيراً ونفقه وأغراه بالكثير إن هو نجح فيما خرج إليه . خرج الرجل ليلاً وبعد ستة أيام وصل إلى المدينة . أقبل يسأل عن النبى فدلوه على مكانه ، وقد كان فى مسجد بنى عبد الأشهل .

عندما رأى النبى الأعرابى ارتاب فى أمره . قال لم حوله : إن هذا ليريد غدراً . أحاط به أصحاب النبى . جذبه أسيد بن حضير من إزاره ، فإذا به يجد الخنجر الذى أعدة الرجل كى يريق به دم النبى . أسقط فى يد الأعرابى . طلب الأمان من النبى على أن يصدق القول ، ثم أخبره بأمر أبى سفيان وما جعل له ، عفا النبى عنه وأمر بإطلاق سراحه . ويقال إن الرجل أعلن إسلامه .

وكرد فعل لما أقدم عليه أبو سفيان بعث النبى عمرو بن أمية وسلمة بن أسلم إلى أبى سفيان بن حرب . وروى ابن سعد أن النبى قال لهما : أن أصبتما منه غرة فاقتلاه .^{٥٢}

^{٥٢} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٩٤

خرج عمرو بن أمية مع صاحبه ومعه بعير له ، وليس مع صاحبه بعير ، كانت
برجل صاحبه هذا علة فكان عمر يحمله على بعيره . عندما وصلا مكة أراد عمرو -
كما تحكي روايته - أن ينطلق مباشرة إلى دار أبي سفيان ويفتك به ، لكن صاحبه طلب
منه أن يذهب أولا إلى الكعبة ، يطوفا ويصليا ركعتين . رفض عمرو اقتراح صاحبه
خشية أن يراه بعض أهل مكة فيشيع أمره . وقد كان في الجاهلية رجلا فانتكا متشيطنا
بخشى الناس بأسه . لكن صاحبه ألح وبالع في إلحاحه مما دفعه للموافقة على الذهاب
إلى الكعبة ليلا . طافا وصليا . وأثناء خروجهما لمحهما معاوية ابن أبي سفيان فعرفه .
أخبر قريشا بمكانه فخافوه وخرجوا في طلبه . أجمعوا على أنه من المستحيل أن يأتي
عمرو لخير . حشدوا له وتجمعوا . وهرب عمرو وسلمة .

فشلت مهمة عمرو ، كان من المستحيل عليه أن يصل إلى أبي سفيان بعد أن
افتضح أمره . نجح في الفرار والعودة إلى المدينة بعد أن قتل ثلاثة رجال وأسر رجلا
قاده معه إلى المدينة ، وقد شد إبهام الأسير بوتر قوسه . ويقال أن النبي عندما نظر إلى
الأسير وهو مشدود بوتر القوس ضحك حتى بدت نواجذه . ويقال أيضا إنه دعا لعمرو
ابن أمية بخير.⁵⁴

القصة كما تبدو ضعيفة في مصادرها ، لا سند لها ولا دليل عليها ، مما يدفع
القارئ إلى عدم تصديقها . هذا إلى جانب أنه من المستبعد أن يلجأ أبي سفيان - وهو
كبير مكة وقائدها - إلى إعرابي لا شأن له ولا ذكر ، كي يخلصه من محمد مقابل ناقة
ومؤونه ووعد ببعض مال . ولو افترضنا جدلا أن أبا سفيان قد اختل تفكيره فقاده إلى
مثل هذا السلوك الذي يحط من قدره ، فمن المستحيل أن يسلك النبي نفس السلوك :
يرسل إلى أبي سفيان رجلا بخنجر كي يقتله . كما أرسل أبو سفيان إليه رجلا بخنجر
كي يقتله .

هذا أمر مضحك ، والقصة كلها تتسم بالضحالة ، وتعتبر عن ملامح كاتبها
وسذاجته الفكرية واستخفافه بعقل القارئ معتقدا أنه يقدم تاريخا مجيدا للإسلام ، وهو
في الواقع يسئ وبطريقة مخزية . لقد استغل أعداء الإسلام أمثال هذه الحكايات لمهاجمة
النبي والنيل منه .

⁵⁴ الطبري ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

يقول جونستون ، على سبيل المثال ، كل هذه الاغتيالات القائمة على الخيانة باركها محمد . ليس هذا فقط ، بل لقد أرسل هو نفسه قاتلا محترفا ومعروفا كي يذبح عدوه القديم ، أبا سنيان ، فى مكة . ويدعي البعض ، دون أن يقدموا الدليل . أن ذلك كان رد فعل على محاولة مماثلة قام بها أبو سفيان لاغتيال محمد .^{٥٥}

هذه الاغتيالات - ومجرد الإقدام على إحداها كما تحكي كتب التراث - لم تقمع كلها فى الفترة ما بين بدر وأحد . ولقد ذكرنا تاريخ كل منها على حدة . لكننا رأينا أنه من الأفضل أن نضعها جميعا فى إطار واحد ونبين ملاساتها والدوافع التى دعت إليها ، كى يكون فى ذلك رد واضح على ادعاءات بعض المستشرقين وأعداء الإسلام الذين يتشدقون بفكرة أن الإسلام دين اغتيالات وسفك دماء. لكنهم فى نفس الوقت يغضون الطرف ، ويتعامون عما حدث ، ويحدث حتى الآن ، للمسلمين على أيدي اليهود والصليبيين من قتل واغتيال وحرق وتدمير بلغ حد الإبادة الكاملة لقرى وبلدان بأكملها.

وإذا افترضنا أنه قد تم بالفعل قتل أربعة أو خمسة من أعداء المسلمين ، حفاظا على أمن دولة ناشئة ، فهذا لا يقارن مطلقا بما فعله اليهود فى فلسطين - وما زالوا يفعلون - من قتل وذبح للآلاف . بعد أن هدموا المنازل على من فيها وأشعلوا فيها النيران ، وأبادوا مدنا وقرى بأكملها ، بعد أن حصلوا على مباركة العالم المسيحي الذى هناهم على " بطولاتهم " وهم يحرقون النساء والشيوخ والأطفال. طبقا لتعاليم " الرب " .

وحملة الصليب اليوم لا يقتلون شراسة وضراوة ووحشية عمن يدعون أنهم أحفاد " يهوذا " حملة الصليب يؤمنون بما جاء فى " العهد القديم " . وإله العهد القديم إله مدمر حارق متعطش دوما لسفك الدماء ، حتى ولو كان الدم هو دم الشعب الذى اختاره لنفسه واصطفاه : " أنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة " (خروج ١٩ : ٦). ورغم ذلك فإن ذلك الإله يدرك أنه قد اصطفى شعبا جاحدا متمردا صلب الرقبة ويهدد أن يفنيه : "فإني لا أصعد فى وسطك لأنك شعب صلب الرقبة. لنلا أفنيك فى الطريق " (خروج ٣١ : ٣) .

ويبلغ الأمر بهذا الإله المنتقم أن يهدد شعبه بما هو أسوأ : أن يدفعه إلى أكل لحم بنية وبناته إن لم يسمع ويطيع : " وإن كنتم بذلك لا تسمعون لى بل سلكتم معي بالخلاف

^{٥٥} Johnstone, p. 118 .

فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطا وأؤدّبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون لحم بنيكم . ولحم بناتكم تأكلون " (لاويين ٢٦ : ٢٧ - ٢٩) .

لا نتوقع من شعب كهذا ، مستوحش متوحش ، أن تأخذه رحمة أو شفقه بالشعوب الأخرى . إن " الرب " الذى يعبدون هو نفسه يحضهم على " أكل " كل الشعوب وتدميرها دون رحمة أو شفقه : " وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك لا تشفق عيناك عليهم " (تثنية ٧ : ١٦) .

وطبقا لتعاليم " الرب " يدمر اليهود كل ما يمكن تدميره فى بلاد " الشعوب " التى يدفعها الرب إليهم ، يحرقون ويقتلون ويغتالون باستخفاف شيطاني عابث ، ويحدد دوني ناقم ، واعتياليهم للشيخ ياسين ، وهو مجرد مثل واحد من آلاف الأمثلة ، يؤكد صدق ما نقول ، والشيخ ياسين ، لمن لا يعرف ، هو رجل مريض مصاب بالعمى والشلل ، لا يستطيع الوقوف على قدميه . ورغم ذلك وجد فيه اليهود خطرا داهما يهدد وجودهم . فأطلقوا عليه صواريخ طائراتهم . عدة صواريخ وهو فوق كرسيه المتحرك لا يقدر على شئ ولا يرى . ولم يكن الشيخ الضرير المريض فى حاجة إلى طائرات وصواريخ كى يموت . لكنها دموية شعب أصبح أكثر ضراوة من الثعالب والذئاب .

ويؤازر يهود " الشعب المختار " الصليبيون الجدد الذين يدعون أنهم أتباع المسيح . يتباكي بعض كتابهم من المستشرقين لأن ثلاثة أو أربعة من اليهود تم قتلهم دفاعا عن أمة ناشئة وحفظا لدين الله من آثامهم ومؤامرتهم التى ثبت بالفعل وقوعها ، فقد كانوا محاربين بالكلمة أو بالسيف ، أو بالكلمة والسيف معا ، وجاز عليهم ما يجوز على المقاتلين .

ونسى الجُدد من حملة الصليب ، أحفاد الصليبيين الأول الذين أبادوا عشرات الآلاف من المسلمين ، أن " القس " الق اند " رئيس الحرب " ، قد أباد ما يزيد عن ستمائة ألف من المسلمين فى بلاد ما بين النهرين لمجرد الشك فى أن الحاكم يملك أسلحة دمار شامل . ولم يكن الحاكم يملك شيئا . ولم يكتف الصليبي المتغترس بذلك ، بل صمم على إهانة وإذلال مئات الملايين من المسلمين وذلك بتعليق الحاكم نفسه فوق الخشبة فى يوم النحر ، وكأنه يقول لهم فى اشمزاز : أنت تتحرون الكباش ، أما نحن فبذل الكبش ننحر واحدا من أكبر زعمائكم .

أعلن الرئيس الصليبي المتصهين ، صراحة ، أنها حرب صليبية ، انتقاماً من أعداءه " الكفرة " وأباد أكثر من نصف مليون مسلم ، وهو يتباهي بأنه ينفذ تعاليم الرب وأن إلهه يباركه . إنه لا يتحرك من تلقاء نفسه . ولا يذبح مئات الآلاف من المسلمين رغبة في الذبح ، لكنه " الوحي " الذي هبط عليه بتعاليم الرب ، ومن المستحيل أن يعصى التعاليم عبد طائع . ولم يعلن " الرئيس القس " أن هدفه الرئيسي لم يكن فقط تنفيذ تعاليم الرب ومحاربة " الكفرة " أعداء الصليب ، بل كان الهدف الأساسي هو سرقة ونهب ثروات ما بين النهرين . الحاكم الصليبي لص وقاطع طريق . لقد دمر دولة بكاملها ونهبها ، وهو في الطريق إلى تدمير دول أخرى ونهبها، تحت راية الصليب .

ولا يجب أن ننسى أن الرئيس " القس " هو حفيد للكاهن " القس " الذي ألف كتاباً يهاجم فيه الإسلام ونبي الإسلام ، لا تدعمه حجة مقنعة ولا دليل قاطع ، إنما يغذيه الحقد وتدفعه الكراهية . ولا عجب أن يتحرك الصغير مدفوعاً بميراث الحقد والغضب .

الفصل الرابع

غزوة أحد

الفصل الرابع غزوة أحد

١ - قريش تعد جيشها وتخرج :

بكت قريش قتلها الذي أصيبوا يوم بدر . كان مصابها في أصحاب القليب ، وهم أكابرها وسادتها ، لا يعادله مصاب . ما نسي القريشيون هؤلاء الذين سالت دماؤهم وقطعت أوصالهم وأزهقت أرواحهم من آباء وإخوة وأبناء وأصدقاء . الرغبة في الثأر كانت تعمل في النفوس وتحرك ماكن فيها من كراهية وحقد .

كرامة أشرف مكة وسادتها التي أهينت وامتهنت لأبد وأن تعود لها هيبتها وشموخها بين قبائل العرب ، والعيول على الدم المراق لن يوقفه إلا دم مراق ، وثارات العرب عميقة دفيئة لا تحوها أيام أو سنون .

من لمكة بعد أن قتل الكبار في بدر ، وبعد أن سقط أبو لهب ضحية حمى الفجيعة ومات .

لم يعد هناك سوى أبي سفيان بن حرب ، هو الذي استطاع أن يراوغ المسلمين وينجو بالغير وما تحمله ، وهو المشهود له بسعة الأفق والذكاء والدهاء ، وهو السدي يستطيع أن يمكر ويخادع ويكرس ذهائه كله في قيادة معركة فاصلة إن لم تنتصر فيها قريش تضيق ، وضياعها هذه المرة هو نهايتها بلا أمل أو رجاء .

لتكن القيادة لأبي سفيان ، ولتتوحد عشائر قريش كلها وحلفاؤها تحت رايته ، وليعمل الجميع مهما علت هاماتهم تحت إمرته. ذهب إليه عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في صحبة جمع من قريش ممن كان لهم في بدر مصاب . طلبوا منه ، ومن كل من كان له في العير التي نجا بها تجارة ، أن توقف العير والأموال كي يستعان بها على حرب محمد . لم يعترض أحد .

بدأ إعداد الرجال : أبو سفيان للقيادة ، وتحت إمرته خيرة فرسان قريش وعلى رأسهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة وصفوان . وانضم إلى قريش من أطاعها من قبيلة عبد مناة من كنانة ، ومن ثقيف بالطائف انضم مائة من أشجع الرجال ، هذا بالإضافة إلى عدد لا يستهان به من الأحابيش .

هناك شيء غامض فيما يختص بأصل الأحابيش. ونرى أنه من المفيد أن نوضح هذا الغموض قدر ما نستطيع . لقد اختلفت آراء من كتبوا هذا المجال . يرى الدكتور شوقي

ضيف أن الأحابيش هم جماعة تحالفوا مع قريش في الجاهلية - أنهم يد معهم على من سواهم - عند جبل يسمى حبشى ، فسموا بالأحابيش^١ .

وتشير إليهم كارين ارمسترونج كمجموعة من ثقيف وقبيلة عبد مناة^٢ ، ويعتبرهم أبو حسن على مجموعة من عرب الصحراء الذين كانوا يعيشون حول مكة ، ويرجع أصل بعضهم إلى كنانة وخزيمة ولهم صلة قرابة بعيدة بقريش . وكان أهل مكة فى حروبهم يستعينون بخدمات الأحابيش .

ولكن هــ . لامينز H. Lammens له رأى آخر . يقول : إن المكيين الذين اختلفوا مع محمد وعارضوه ثم قاتلوه لم يكونوا محاربين من النوع المتحمس لخوض المعارك ، لذا فقد اعتمدوا فى شئونهم العسكرية على قوة " الأحابيش " ، وهى قوة تتكون فى مجملها من عبید الحبشة والزنوج . إلى جانب المرتزقة من البدو الذين كانوا لا يفضلون اللصوص وقطاع الطرق إلا فى القليل . وعلى ذلك فكلمة " أحابيش " هنا مرادفة لكلمة " العبيد " .

ونعتقد أن الرأى السابق قد جانبه الصواب ، ذلك لأن عبید مكة كانوا يعيشون مع أسيادهم داخل مكة ذاتها . أما الأحابيش فقد كانوا يعيشون فى حالة استقلال كامل خارج حدود مكة ، على مسافة تقارب مسيرة يومين . هذا إلى جانب أن الأحابيش كان لهم سادتهم ، وكان لهؤلاء السادة كلمة مسموعة ويحسب لها حساب فى أغلب الأحيان . ويجب ألا ننسى أن أبا بكر عندما ضاقت به السبل فى مكة وقرر الهجرة إلى الحبشة ، قابله ابن الدغنة وأعادة إلى مكة وأجاره^٣ . وابن الدغنة هو ابن الحارث بن عبد مناف بن كنانة . وكان فى تلك الأونة هو سيد الأحابيش . ومن المستحيل أن يجير عبد - لو كان الأحابيش عبيدا - سيذا من سادة تميم .

والأحابيش - كما يروى ابن هشام - هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة والهون بن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة . وسبب التسمية هو أنهم أقاموا تحالفا فى واد يسمى أحباش . من هنا جاءت تسميتهم بالأحابيش .

وفى نهاية هذه الغزوة (أحد) التى نكتب الآن عن كيفية إعداد قريش لها ، نجد الحُلَيْس سيد الأحابيش - وقد اشترك هو وأتباعه فى القتال - يؤنب أبا سفيان ، زعيم قريش وقائد جيشها ، عندما رآه وهو يمثل بجثة حمزة . وتوقف أبو سفيان فى الحال

^١ شرقى ضيف ، ص ٢٨٩ .

^٢ كارين ارمسترونج ، محمد ، ص ٢٧٩ .

^٣ انظر كتابنا ، سنوات مكة .

واعترف بخطئته ، ولو كان الحليس عبدا ما جرؤ على أن يواجه سيد قريش ويلومه على شناعة ما فعل .

وفى الحديبية نجد لسيد الأحابيش موقفا حاسما فى مواجهة قريش . لقد هدد بالانضمام هو وأتباعه إلى محمد إن قاتله أهل مكة ومنعوه من تأدية الفريضة (العمرة) التى ما قصد مكة إلا من أجلها وما جاء لقتال . لا يمكن أن يقال إن هذا هو سلوك العبيد . كان الحليس سيدا وتحدث كما يتحدث السادة فى شجاعة وقوة وتصميم .

لا يوجد هناك ما يدعو - كما يقول مونتجمرى وت - إلى الاعتقاد أن الأحابيش ليسوا عربيا . هناك من الأدلة الكثير مما يثبت عكس ذلك . إن لامينز Lammens يركز على اشتقاق الكلمة من " حبش " أى أهل الحبشة لكن هذا ليس هو الاحتمال الوحيد . إن أحابيش قد تكون جمع " أحبش " أو " أحبشة " ومعناها مجموعة من الرجال لا ينتمون إلى قبيلة واحدة . وحتى لو كانت الكلمة مشتقة من " حبش " فهذا ليس معناه بالضرورة أن تدل على أن هؤلاء الناس كانوا زنجيا . ربما كانوا من نسل عربى خالص من ناحية الأبوة ومن أمهات حبشيات أو زنجيات . ومن هنا كانت سمرة بشرتهم . وبناء عليه فليس هناك ما يضطرنا إلى الاعتقاد بأن الأحابيش كانوا عبيدا تم جلبهم من الحبشة .⁴

نعود إلى جيش قريش . بلغ عدد الجيش ثلاثة آلاف مقاتل مدججون بأفضل السلاح . أما المؤمن فقد حملتها ثلاثة آلاف بعير . ولم ينس أبو سفيان الفرسان ، جهز مائتي فارس على صهوات جياد فتية لا يخيفها صليل السيوف . وكانت قيادة الفرسان لاثنتين من المشهود لهما بالشجاعة والجرأة والإقدام : عكرمة بن أبى جهل وخالد بن الوليد .

مع الجيش خرج الشاعر أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي . وكان النبى قد منّ عليه يوم بدر ، فك أسره وأطلقه دون دية لأنه كان فقيرا وذو عيال ، شريطة ألا يظهر عليه ويقف فى صفوف أعدائه مرة أخرى . وقبل أبو عزة بالشرط وانصرف آمنا . والآن ها هو ذا يخرج مرة أخرى لمحاربة النبى غير عابئ بالعهد الذى قطعه على نفسه . أغراه صفوان بن أمية ، مناه - إذا ما انتصروا - أن يغنيه . ولم يستطع أبو عزة أن يقاوم الإغراء ، نسي ما وعد وخرج يسير فى تهامه ويدعو بنى كنانة ويثير القبائل بشعره ، يدعوهم لمحاربة محمد .⁵

⁴ Montgomery Watt, Muahmmad at Mecca, p. 165 .

⁵ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٥ .

فى بدر قُتل طُعَيْمَةُ بن عدي ، قُتله حمزة . لم ينس جبير بن مطعم ثأر عمه . ورغم أنه لم يخرج مع الجيش ، إلا أنه أرسل مع المقاتلين غلاما له حبشيا اسمه "وحشى" كان يجيد القذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها . وعده بالعقوب إن هو قُتل حمزة . قال له : أخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعني طعيمه فانت عتيق .

ما كان للعبد الحبشى شأن بمحمد ، وما كان يعنيه قتال المسلمين ، وما خرج مع جيش قريش من أجل ذلك . كان همه الأكبر أن يصبح حرا . وقد حدد سيده ثمن حريته وقبل هو بالثمن : أن يغتال حمزة .

وجدت هند بنت عتبة ، زوجة أبى سفيان ، هى أيضا بغيتها فى وحشى . إنها تريد الانتقام ، الثأر لمقتل أبيها عتبة بن ربيعة وأخيها الوليد بن عتبة وعمها شيبة بن ربيعة . لن يرضيها غير كيد حمزة تلوكه بأسنانها ، تشفى غليلها ، وتطفئ النار الملتهبة فى أحشائها . حربة وحشى هى أملها ، فالسيوف فى مواجهة حمزة لا قيمة لها . لن يصمد لسيف حمزة أحد ، فسيفه يطير الرقاب ويفلق الهامات ويخشاه العرب . حربة وحشى المختبئ وراء صخرة أو شجرة ، والبعيد تماما عن ذراع حمزة وسيفه ، هى بلسمها الشافى . حمزة لن يسقط أبدا فى الميدان إلا بالغدر ، والغدر الوحشى يتجسد ضعة ونذالة وقدرا فى حربة هذا العبد . هى لا تكثر بمبدأ أو خلق أو ضمير ، هى لا تعرف شيئا عن سلوك الفرسان فى الميدان ، هى فريسة حقد عاصف ، شهوة مدمرة ، رغبة مجنونة فى الانتقام .

وعدت هند وحشى بالكثير من الذهب والمال . وكانت كلما مرت به أو مر بها قالت :
ويها أبا دسمة اشف واشتف . وكان وحشى يكنى بأبى دسمة .^٦

كانت قريش قد أجمعت على إخراج الطعن ، أى النساء ، فى رفقة الجيش ، ذلك لإثارة حمية المقاتلين وتذكيرهم بقتلى بدر وحثم على الثبات والأخذ بالثأر . خمس عشرة امرأة خرجن مع الجيش على رأسهن هند بنت عتبة بن ربيعة قتيل حمزة بن عبد المطلب . خرج بها أبو سفيان وهو قائد الناس . وخرج عكرمة بن أبى جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمير الثقفية وهى أم عبد الله بن صفوان بن أمية ، وخرج عمرو بن العاص برينة بنت منبّه بن الحجاج وهى أم عبد الله بن

^٦ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦ .

عمرو ، وخرج طلحة بن أبي طلحة بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية ، وخرجت خناس بنت مالك مع ابنتها أبي عزيز بن عمير وهي أم مصعب بن عمير ، وخرجت عمرة بنت علقمة إحدى نساء بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة.^٧

صفوة الصفوة من نساء قريش . رأينا أن نذكر بعض أسمائهن لتبيان مقدار خطورة الوضع لو هزم جيش قريش وتم امتهان حرمة العقائل من ذوات المكانة والشرف .

وتحت لواء أبي سفيان انضم أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك الأوسي . كان قد اختلف مع النبي وناصبه العداء ، ثم خرج إلى مكة مباعدا ومعه خمسون من شباب الأوس . كان يُعرف في الجاهلية باسم الراهب ، وأطلق عليه المسلمون اسم "الفاسيق" . ولقد كتبنا عنه بالتفصيل في فصل سابق .

لم ينس أبو سفيان أن يأخذ معه من مجمع آلهة الحجارة تمثالين لـ "اللات والعزى" تبركا بهما وهو يخوض حربه ضد المسلمين وكأنه يستنصر بهما . إنه لن يخوض الحرب وحده . بل ستخوضها معه الآلهة . هذا يذكرنا بما كان يفعله بنو إسرائيل وهم يحملون معهم "تابوت العهد" إلى أرض المعارك ، استشعارا منهم أن الرب في وسطهم يقاتل معهم . ومن المستحيل بالطبع - هكذا اعتقدوا - أن يهزم جيش في وسطه إله مقاتل .

كان بنو إسرائيل يرتحلون ويقاتلون وتابوت عهد الرب راحل أمامهم : "وعند ارتحال التابوت كان موسى يقول قم يا رب فلتنبذ أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك . وعند حلوله كان يقول ارجع يا رب إلى ربوات ألوف إسرائيل" (عدد ١٠ : ٣٥) .

لم يكتف إله إسرائيل بقيادة شعبه المختار وهو على غطاء التابوت ، بل كان يرسل رئيس جنده أيضا كي يقاتل : " وحدث لما كان يشوع عند أريحا أنه رفع عينيه ونظر وإذا برجل واقف قبالة وسيفه مسلول بيده . فسار يشوع إليه وقال له هل لنا أنت أو لأعدائنا . فقال كلا بل أنا رئيس جند الرب . الآن أتيت . فسقط يشوع على وجهه إلى الأرض وسجد وقال بماذا يكلم سيدي عبده . فقال رئيس جند الرب ليشوع اخلع نعلك من رجلك لأن المكان الذي أنت واقف عليه هو مقدس . ففعل يشوع كذلك " (يشوع ٥ : ١٣-١٥) .

وكما فعل بنو إسرائيل ، فعل أبو سفيان ، حمل آلهته معه .

^٧ نفس المرجع ، نفس الصفحة .

فى الطريق من مكة إلى المدينة ، مر الجيش بقرية " الأبواء " حيث دفنت آمنه أم النبى . حاولت هند فى اندفاعه جاهلية أن تنبش قبر أمنة وأن تعبت بعظامها ، لكن أبى سفيان منعها من الإقدام على مثل هذه الشناعة التى لم يألّفها العرب . والتى قد تصبح فيما بعد عارا يوصم به بيت أبى سفيان ، كما أقنعها أن أمنة لا دخل لها بما حدث فى بدر وما قد يحدث فى أحد ، فقد ماتت على دين الآباء فى طفولة محمد ولا صلة لها بدينه أو بمسلكه .

وصل جيش قريش إلى مشارف المدينة فى أول شوال من السنة الثالثة للهجرة . وكانت الغزوة فى منتصف الشهر . ويقال إنها كانت فى الحادي عشر منه ^٨ .

ويحدد المستشرقون الحادي عشر من مارس عام ٦٢٥ ميلادية تاريخا لخروج القرشيين من مكة . كما يحددون الحادي والعشرين من نفس الشهر تاريخا لوصولهم إلى مشارف المدينة ، حيث تقدموا إلى وادي العقيق وعسكروا فى الشمال ، فى السهل المواجه لجبل " أحد " على بعد خمسة أميال من المدينة ^٩ .

وفى الطبرى : كانت الغزوة فى شوال يوم السبت لسبع خلون منه من سنة ثلاث من الهجرة ... نزلت قريش منزلها من " أحد " يوم الأربعاء فأقاموا به ذلك اليوم ويوم الخميس ويوم الجمعة . وراح رسول الله حين صلى الجمعة فأصبح بالشعب من أحد . فالتقوا يوم السبت للنصف من شعبان ^{١٠} .

وعن معنى كلمة " أحد " - وهو الجبل المعروف بالمدينة - يقول الشيخ أحمد حسن الباقورى : ربما سمي بهذا الاسم لتواجهه وانقطاعه عن جبال آخر هناك . وقد قال فيه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إنه جبل يحبنا ونحبه . والرسول يريد بهذا الحديث أهل الجبل وهم الأنصار ، فأطلق الجبل وأراد مجاوريه على سبيل التوسع فى لغة العرب ^{١١} .

تركت قريش إبلها وخيلها ترعى فى حقول المدينة ، ولم يكن أهل المدينة قد سمعوا عن تحرك قريش إلا قبل وصول جيشها بأيام . وهذا معناه أنه لم يكن لديهم متسع من الوقت كى يجمعوا محاصيلهم أو يقيموا دفاعات لتأمين زراعاتهم . كل ما استطاعوه هو جمع مالهم من ماشية وأغنام والتحصن داخل المدينة ترقبا لما يستجد من أحداث .

^٨ أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٦١٠ .

^٩ كارين ارسترونج ، محمد ، ص ٢٧٩ .

^{١٠} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

^{١١} الباقورى ، ص ٩٩ .

٢- موقف النبی والمسلمین فی المدينة:

علم النبی بخروج جيش قريش لغزو المدينة ، وتتفق أغلب الآراء على أن العباس ابن عبد المطلب . الذى لم يشترك فى هذه الغزوة ، هو الذى كتب بخبرهم إلى النبی . يذكر ابن سعد أن سعد بن الربيع هو الذى حمل كتاب العباس إلى النبی^{١٢} . ويذكر الدكتور هيكل أن العباس حين رأي قريشا وقد أجمعت المسير فى هذا العدد العظيم ، وجد نفسه مدفوعا إلى أن يكتب كتابا يصف فيه صنيعهم وجمعهم وعدتهم وعديدهم ، ويدفع به إلى رجل غفارى يسير به إلى النبی حتى يبلغ المدينة فى ثلاثة أيام فيدفع الكتاب إليه .^{١٣}

ويقول الدكتور شوقى ضيف إن الرسول لم يكن يعلم نبأ هذا الجيش الجرار الذى تعده مكة لحربه . وبينما هو فى قباء بأوائل شوال من السنة الثالثة للهجرة إذ برسول أرسله إليه عمه العباس الذى أكرمه حين أسير فى غزوة بدر ، وكان معه كتاب من عمه، ففضه ، فإذا هو ينبئ به فى كتابه بخبر الجيش المكى الذى تأهل لحربه وحرب المسلمين .^{١٤}

لكن الشرقاوى يزعم أن رسائل سرية كانت ترد دوما من العباس بن عبد المطلب إلى النبی ، تحمل أنباء استعدادات قريش للقتال ، وحرص قريش على أن تنظر برأس محمد ورأس حمزة جميعا ، وسعي تجار مكة لمحاربة يهود المدينة ومحاربة القبائل التى تضرب خيامها خارج المدينة .^{١٥}

ويميل أغلب المستشرقين إلى القول بعمالة العباس ، أى أن وجوده فى مكة كان الهدف منه هو خدمة أهداف محمد والتجسس لصالحه . تقول بيتى كيلين : إن محمدا عرف مقدما بخبر تحرك الجيش ، ذلك لأن جاسوسا كان يكمن هناك فى صفوف أهل مكة . ذلك الجاسوس كان عمه العباس .^{١٦}

ويذكر جونستون أنه فى العام التالى لمعركة بدر (الثالث الهجري) بعد اثني عشر شهرا من نصر بدر ، لقي محمد هزيمة منكرة فى معركة " أحد " رغم أن العباس ، عم محمد ، أرسل له فى الوقت المناسب تحذيرا من الهجوم المرتقب ، كى يأخذ حذره ويحاول مواجهته بكل ما يملك من قوى وإمكانيات .^{١٧}

^{١٢} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

^{١٣} هيكل ، محمد ، ص ٢٣٧ .

^{١٤} ضيف ، ص ٢٤٠ .

^{١٥} الشرقاوى ، ص ٢٠١ .

^{١٦} Betty Kelen , p. 172 .

^{١٧} Johnstone , p. 98 .

ويتحدث لينجز Lings عن الفارس الذى خرج من مكة وهو فى عجلة من أمره ، كى يقطع المسافة بين مكة والمدينة فى ثلاثة أيام فقط ، وهى مسافة يقطعها المسافرين فى عشرة أيام ، وهو يحمل خطابا مختوما للنبي . كان الخطاب من العباس يحذر ابن أخيه من جيش مكي قوامه ثلاثة آلاف رجل على وشك الخروج لغزو المدينة .^{١٨}

هذا معناه أن النبي لم يفاجأ بالغزو ، وهذا رأى نميل للأخذ به ، حتى ولو لم يكتب إليه العباس ، ذلك لأن النبي كانت له عيون ترصد تحركات أهل مكة وما يجرى فى قريش . كان من المستحيل أن يخفى خبر جيش كهذا ، لم تشهد مكة من قبل .

سأل رسول العباس عن النبي ، فعرف أنه بقاء . توجه إليه فوجده على باب المسجد . دفع إليه خطاب العباس قرأه عليه أبى بن كعب ، طلب منه النبي أن يكتّم الخبر ، خشية أن ينتشر الفرع فى أرجاء المدينة . قصد النبي دار سعد بن الربيع وأخبره بما كتب العباس واستكتمته ، لكن امرأة بالدار سمعت الحديث ، وكان من الطبيعي أن ينتشر الخبر وتجمع الناس وبدأوا يتساعلون .

بعث النبي اثنين من رجاله - أنسا ومؤنسا ابني فضالة الظفريين - يستطلعان أمر قريش ، وحقبة عدد جيشها وعدته . كان ذلك ليلة الخميس لخمس ليال مضين من شوال . عادا بخبر قريش وأنهم قد خلّوا إيلهم وخيلهم فى الزرع بالعريض حتى تركوه ليس به خضراء . استباح قريش حقول المدينة ولم ترع حرمتها ، وكأنها أرادت أن تظهر قوتها وتجسد سطوتها منذ البداية . لقد عقدت العزم على تدمير الأخضر واليابس ، وفرض جبروتها بقوة السلاح .

بعث النبي بثالث من رجاله ، وهو الحباب بن المنذر بن الجموح . عاد إلى النبي بخبرهم : طليعة جيش قريش على أبواب المدينة ، لو أراد اقتحامها لاقتحمها .

أمر النبي أن يحمل الناس السلاح ، وأن تحرس المدينة طوال الليل وحتى الصباح . وبات سعد بن عباد وسعد بن معاذ وأسيد بن خضير ، فى عدة ليلة الجمعة ، عليهم السلاح ، فى المسجد بباب رسول الله .

فى تلك الليلة رأى النبي رؤيا أزعجته : رأى كأنه فى درع حصينة وكان سيفه ذا الغفار قد انقصم من عند ظبئيه ، وكان بقرا تنبح .. وكأنه مرثف كبشا . فأخبر بها أصحابه ، وأولها لهم فقال : أما الدرع الحصينة فالمدينة ، وأما انفصام سيفي فمصيبة فى

¹⁸ Lings, p. 172 .

نفسى . وأما البقر المُذْبَحُ فقتلٌ فى أصحابى ، وأما مردف كبشا فكبش الكتيبة يقتله الله إن شاء الله .^{١٩}

تُشاور النبى مع أصحابه فى كيفية مواجهة الجيش المكى ، وقد عرفوا مقدار عدده وعدته . أدرك الجميع ، وخصوصا الكبار من ذوى التجربة والحكمة ، أنهم يواجهون موقفا خطرا ، إن لم يعالج بحكمة وقوة قد يودى إلى تدمير المدينة والقضاء على دولتها الناشئة .

رأى النبى أن يتحصنوا ، وألا يخرجوا للقاء قريش فى قتال ملتحم قد تكون كفة قريش فيه هى الراجحة بسبب الفرق الهائل فى عدد المقاتلين وعدة السلاح ، فإذا ما حاول المشركون اقتحام المدينة سهل قتالهم فيها فأهل المدينة أدرى بدروبها ومسالكها وقد يطول الحصار وينفذ الزاد فيرتدوا خائنين .

أيّد عبد الله بن أبى رأى النبى ، وكان حاضرا فيما يمكن اعتباره مجلس حرب ، قال : يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورامهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائنين كما جاؤوا .^{٢٠}

جنح الكبار إلى رأى ابن أبى ، وأيدوا رأى النبى فى عدم الخروج . قال سعد بن معاذ صراحة : إن خرجتم ، فإنكم خارجون إلى الموت . تسيرون إليه بأقدامكم .

لكن الأقل سنا والأكثر حماسا من رجال المهاجرين والأنصار رفضوا فكرة الخضوع للحصار وفيهم مقاتلون أشداء وأبطال . أخذتهم العزة ودفعهم شموخ البطولة إلى التحمس للخروج . لن يجبنوا أمام جماعة الشرك وهم جماعة الإيمان وفى وسطهم نبى يوحى إليه من السماء . وإذا كان الله قد أمدهم ونصرهم فى بدر ، فلم لا يُنَبِّت أقدامهم وينصرهم فى أحد . لقد صالوا وجالوا فى بدر وذاقوا حلاوة النصر ، فلم لا يتكرر النصر مرة أخرى ؟ وإذا كان العدو أكثر عددا ، فقد كان كذلك فى بدر ، وإذا كان أكثر عددا فقد كان كذلك أيضا عندما قُتل سادته وكبرأؤه وعظماؤه . وكيف يسمح لإبل قريش وخيلها أن ترعى فى حقول المدينة ومزارعها وتدمرها ، وكأنها فى نزهة للاستمتاع وملأ البطون ، ولا يردعها أحد ؟

^{١٩} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

^{٢٠} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

ما هكذا يهون شأن المدينة ، وما هكذا تهان ، تعالت الأصوات : أخرج بنا إلى أعدائنا يا رسول الله ، لا يرون أننا جبنًا عنهم وضعفنا !! وطلب فتیان أحداث لم يشهدوا بدرا ، من النبي أن يخرج بهم إلى عدوهم وقد رغبوا في الشهادة .

وفى تاريخ الطبرى : ذكرت رواية تختلف فى فحواها عما ذكرناه من قبل ، خصوصا فيما يتصل بعبد الله بن أبى ، وطبقا لما جاء فى هذه الرواية : قال النبى لأصحابه أشيروا على ما أصنع . فقالوا : يا رسول الله : أخرج بنا إلى هذه الأكلب . وقالت الأنصار : يا رسول الله ما غلبنا عدو قط أتنا فى ديارنا ، فكيف وأنت فينا . فدعا رسول الله عبد الله بن أبى ابن سلول - ولم يدعه قط قبلها - فاستشاره فقال : يا رسول الله ، أخرج بنا إلى هذه الأكلب . وكان رسول الله يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا فى الأزقة . فأتاه النعمان بن مالك الأنصارى قال : يا رسول الله لا تحرمنى الجنة ، فوالذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة ، فقال له : بم ؟ قال : بأنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، وأنى لا أفر من الزحف .^{٢١} وطلب الخروج للقتال وقتل يومئذ .

ولا نعتقد أن ما جاء فى تاريخ الطبرى صحيح فيما يختص بعبد الله بن أبى ونصحه للنبي بالخروج ، فلو كان ذلك كذلك ، أى لو كان هو الذى أشار على النبي بالخروج مع الذين أشاروا ، ما انهزم عنه وانسحب غاضبا قبل بدء المعركة برجاله الثلاثمائة ، قائلا : أطاعهم وعصاني .

ويجب أن نضع فى الحسبان أن الذين دعوا للخروج والقتال عن عقيدة وإيمان دفاعا عن شرف الدعوة وصونا لأمن المدينة ، قد ساندتهم وحفزهم ، بل وربما دفعهم ، بعض الذين أغرتهم غنائم بدر وقد اشتركوا فيها وجنوا ثمار مكاسبها ، وبعض الذين لم يشهدوا بدرا لكنهم سمعوا فطمعوا وما طلبوا الخروج إلا لذاك .

ولأن الذين طلبوا الخروج بدوا وكأنهم الكثرة ، إذ كانوا هم الأعلى صوتا والأكثر حماسا ، نزل النبي على رأيهم وقرر الخروج للقتال .

صلى النبى الجمعة بالناس ، ثم وعظهم ، وأمرهم بالجد والجهاد والصبر والمثابرة ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ثم صلى بهم العصر ، وبعدها دخل بيته فلبس لأمنه ويقال أن عمروأبا بكر دخلا معه فعمماه ولبساه .

^{٢١} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

فى انتظار خروج النبى ، كان الناس يتناقشون ، لم يهدأ الجدل . كرر سعد بن معاذ تحذيره القاطع الدلالة : أنتم خارجون إلى الموت . كان يتحدث بخبرة المقاتل المجرب ، المدرك لخطورة ما هم مقدمون عليه .

قال أسيد بن خضير : استكرهتم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على الخروج والأمر ينزل إليه من السماء فردوا إليه الأمر .

تردد الذين ارتفعت أصواتهم مطالبين بالخروج ، تملكهم شئ من الخوف . ليس المصير مصيرهم وحدهم ، إنه مصير نبى ورسالة ، وقد يحدث بسبب اندفاعهم ما لا تحمد عقباة ، وما لا يمكنهم دراه .

خرج النبى وقد لبس لأمته وأظهر الدرع ، واعتم وتقلد السيف . اندفعوا إليه وقد ندموا على ما صنعوا . قالوا : ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك . لقد تراجعوا بعد أن عقد النبى عزمه ، ولبس عده حربه ، وقرر بناء على مشورتهم الخروج وملاقاة العدو . وما كان له أن يتردد هو أيضا ، فتضيع الهيبة وتهتز المكانة وتفتقد الثقة وتكون فرصة للحاقدين والمتآمرين والساخطين كى يتاجروا بأحقادهم وينفثوا سمومهم . لكن النبى أنهى الموقف فى حسم ، قال : لا ينبغي لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

قضى الأمر . أصبح الخروج للقتال قدرا مقدورا . أنظروا ما أمرتكم به فافعلوه -أضاف النبى - وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم .

٣- جيش المسلمين :

عقد النبى ثلاثة ألوية : دفع لواء الأوس إلى أسيد بن خضير ، ولواء الخزرج إلى الخباب بن المنذر ، ويقال إلى سعد بن عباد ، ولواء المهاجرين إلى على بن أبى طالب ويقال إلى مصعب بن عمير . استخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم كى يصلى بالناس .

ركب النبى فرسه وتكب قوسه على رأس جيش قوامه ألف رجل ، فيهم مائة دارع ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان : فرس النبى وفرس لأبى بردة بن نيار الحارثي .

كان الفارق هائلا بين الجيشين في العدد والعتاد ، ولكن المسلمين كانوا يأملون في نصر الله ، كما نصرهم من قبل . وكان سعد بن معاذ وسعد بن عباد يسيران أمام النبي لحمايته وكل منهما دارع والناس عن اليمين وعن الشمال .

تقدم المسلمون في الطريق إلي أحد ، حتى إذا كانوا بالشيخين (اسم موضع) ، أبصر النبي بكتيبة لا يعرف أهلها ، سأل عنهم ، فقيل له : هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود ، رفض النبي أن يشترك اليهود معه في القتال . قال : " لا تستصروا بأهل الشرك على أهل الشرك " كان عليهم أن يؤمنوا أولا ثم يقاتلوا ، وفي هذه الحالة يكون قتالهم عن إيمان وعقيدة ، لا من أجل مأرب خاص أو غنيمة .

وفي رواية ابن اسحق رأى الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود لكن النبي رفض أن يشتركوا منذ البداية . قال : لا حاجة لنا فيهم ، مذكرا بقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُورُهُمْ أَكْبَرُ " (آل عمران : ١١٨) .

هنا انخرل عبد الله بن أبي بثلث الناس . كانت حجة التي أقسام عليها دعوى الانسحاب ، ووجه بها طعنة معنوية مؤثرة إلي جيش المسلمين : أطاعهم وعصاني .. عصاني وأطاع الولدان من ولا رأى له . والله ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس !!

طلب عبد الله بن عمرو بن حرام من ابن أبي وأصحابه ألا يخذلوا المسلمين وهم يواجهون العدو . وكان رد ابن أبي أنه لن يكون هناك قتال : لو نعلم أنكم تقتاتلون ما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أن يكون قتال . استعصوا على عبد الله بن عمرو وأبو إلا الإنصراف عنه . وما كان بوسعه إلا أن يعود مهموما وهو يتمتم : أبعدكم الله أعداء الله! فسيغني الله عنكم .^{٢٢}

موقف عبد الله بن أبي قد يدعو للتساؤل ، لكنه لا يدعو للاندحاش . لقد نضح بعدم الخروج هو وكبار أهل المدينة . بل إن سعد بن معاذ - كما سبق وأشرنا - أعلن صراحة أن الخروج من المدينة لا مقابل له سوى الموت : إنهم سائرون إلى الموت . ولقد اعتبر ابن أبي نفسه غير ملزم برأي جانبه الصواب ، وعلي الذين اتخذوه أن يتحملوا نتائجهم وحدهم . الوضع كارثي ، من وجهه نظره ، وعلي الذين صنعوا الموقف أن يتحملوا وحدهم نتائج الكارثة .

^{٢٢} الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

هذا إلى جانب أن ابن أبي لم يكن بينه وبين قریش عداً ، وموقف الحياد بالنسبة له شخصياً ربما يكون فيه كسب كبير . لقد اتخذ موقفاً حيادياً من قبل في معركة بعثت التي دارت بين الأوس والخزرج ، بعد أن نصح بعدم القتال ، وكان هو الشخصية البارزة الوحيدة تقريباً التي كسبت احترام الجميع ، لدرجة أن صنعوا الخرز وأجمعوا على أن يتوجوه ملكاً ، ولولا وجود النبي لتحقق له ذلك ، وربما كان ذلك سبباً من أسباب عدائه للنبي .

إن ، وقوف ابن أبي على الحياد بين النبي وأعدائه من المشركين ، قد يخدم أغراضه في حالة هزيمة المسلمين ، وهي في رؤية هزيمة مؤكدة لو بدأ القتال . عندها قد يزول نفوذ محمد ويستعيد ابن أبي مكانته وهيبته ، أما إذا فكرت قریش في غزو المدينة ، فإن ابن أبي في هذه الحالة يستطيع الدفاع عن أرضه بمساعدة حلفائه من اليهود ، بعد أن يكون قد أعد الرجال وأحكم التحصينات ، كي يواجه وهو بكامل قوته جيشاً أنهكه القتال . عندما انسحب ابن أبي ، سررت روح الضعف في طائفتين : بنى سلمية وبنى حارثة . هموا بالانسحاب والعودة من حيث أتوا . لكن شعاعاً من نور اليقين نفذ إلى قلوبهم فثبتوا . ونزل فيهم قوله تعالى : " وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . . . ذَهَبَتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ " (آل عمران : ١٢١ - ١٢٢) .

على أية حال ، واصل المسلمون المسير . طلب النبي من أصحابه أن يسلكوا طريقاً يجنبهم الصدام المتعجل مع قریش قبل أن يختاروا الموقع الذي يكون عوناً لهم في القتال ، فالأرض في أغلب الأحوال تقاتل مع أصحابها إذا ما حسن الاختيار .

نفذ بهم أبو خثيمة أخو بنى حارثة في حرّة بنى حارثة وبين أموالهم ، حتى نفذ في أرض لرجل منافق ضرير البصر يسمى مربع بن قيطي . وعندما أحس المنافق الضرير بالمسلمين في أرضه ، خرج إليهم غاضباً يحثي في وجوههم التراب . ويقول : إن كنت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي ، ثم أخذ حفنة من تراب في يده ، وقال : والله لو أني أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك .^{٢٢} حاول البعض قتله ، لكن الرسول نهاهم ، أمرهم بعدم إيذائه . وقد أسرع أحدهم - قبل صدور الأمر - فضربة بالقوس فشجه .

^{٢٢} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٩ .

لقد تم الاعتداء على ملكية خاصة ، وما كان ذلك ليحدث أو يسمح به النبي في ظروف عادية ، ذلك لأن المال الخاص له حرمة . لكن عندما أملت الضرورة ذلك ، ولم يكن للجيش من طريق آخر يسلكه حفاظا على أمنه وسلامته ، تمت استباحة المحظور ، حتى ولو اعترض صاحبه .

سار النبي حتى بلغ " أحدا " في ضوء الفجر . اجتاز مسالكه حتى نزل الشعب ، وجعل ظهره وعسكره إلى الجبل لحماية ظهورهم ، وأصبح مباشرة في مواجهة العدو . ردّ بعض الصبية ، لصغر السن ولم يسمح لهم بالاشتراك في القتال . كان بين من ردهم أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت أحد بنى مالك بن النجار والبراء بن عازب أحد بنى حارثة . لكنه أحاز رافع بن خديج وسمرّة بن جندب وهما ابنا خمس عشرة سنة ، ذلك لأن رافعا كان يجيد الرماية ، وكان سمرّة قوى الجسم يستطيع أن يصرع من هو في مثل سنه وربما من هو أكبر منه .

وفي أحد ، خرجت المرأة المسلمة لأول مرة إلى ميدان القتال . شعرت نسيبة بنت كعب المازنية ، وهي امرأة خزرجية أن مكانها لا بد وأن يكون في الميدان حيث زوجها وولداها . ولم يكن هذا هو السبب الرئيسي الذي دفعها للخروج . نساء أخريات كان لهن أزواج وأولاد في جيش النبي ، لكنهن راضين بالبقاء في بيوتهن . كانت نسيبة إحدى امرأتين خرجتا مع السبعين رجلا إلى بيعة العقبة الثانية ، ولم تجد في طبيعتها ما يجعلها تتخلف عن موقف شديد الخطر كذلك الذي يواجهه المسلمون .

استيقظت نسيبة مبكرة في الصباح ، ملأت قربة ماء وتوجهت إلى ميدان القتال ، قد تسقى عطشانا ، قد توقف نزف جرح ، قد تناول محاربا سيفاً أو رمحا . وإلى جانب قربة الماء أخذت معها سيفاً وقوساً وجعبة سهام . سألت عن الطريق الذي سلكه الجيش ، ولم تجد صعوبة في الوصول بعد أن بدأت المعركة بقليل .

امرأة أخرى ، هي أم سليم ، راودتها نفس الفكرة ، وصلت إلى ميدان المعركة - وهي تحمل قربة ماء - بعد وصول نسيبة ، وكانت خير عون لها .

سوّى النبي صفوف الرجال ، أكد لهم أنه لا بد لهم من الالتزام بتعليماته ، إذا أرادوا النصر على عدو يزيد عدد جنده عن أربعة أضعاف عددهم : لا يقاثلن أحدهم حتى نامره بقتال .

وضع على شعب في الجبل خمسين من الرماة . أَمَرَ عليهم عبد الله بن جُبَيْر . وهو مُعَلِّم يومئذ بثياب بيض . قال له النبي : انْضَحْ الخيل عنا . ادفعهم بالنبل . لا يأتونا من خلفنا . إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نُؤثِّين من قبلك .

أكد النبي على الرماة قوله ، وذلك لإدراكه أهمية الدور الذي كلفوا بأدائه في المعركة . لو استطاع جيش المشركين أن يلتف حولهم ويضربهم من الأمام ومن الخلف ، تكون الطامة التي ليس لها من دافع إلا الله ، وقد يمحى فيها المسلمون محققا مهينا . قال لهم النبي : " قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تتركونا . وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا " كان الأمر حاسما قاطعا يجسد حجم الخطر والمخاطرة . لكنهم للأسف استمعوا ولم يطيعوا ، وكانوا سببا من أسباب الكارثة .

سأل النبي عن حامل لواء المشركين ، فقيل له طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزي من بني عبد الدار بن قصي . قال النبي : نحن أحق بالوفاء منهم . وأمر بأن يعطي اللواء إلى مصعب بن عمير وهو أيضا من بني عبد الدار ، وكان اللواء مع علي بن أبي طالب . حمل مصعب اللواء وتقدم به بين يدي النبي .

أخذ النبي يحمس جنده ، يحضهم على الاستبسال في القتال : النصر أو الشهادة ، والشهداء لا يموتون ، إنما هو خلود في جنة الله . من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ قال النبي ، ويده سيف مشهر . هز السيف وثانية قال : من يأخذ هذا السيف بحقه . تسابق إليه الرجال كل يبغى شرف القتال بسيف رسول الله ، أمسكه عنهم . حتى تقدم إليه أبو دجانة سيماك بن خَرْشَة أخو بني ساعدة ، وقد كان بطلا من المغاوير المشهور لهم في ساحة الوغي ، سأل : وما حقه يا رسول الله ؟ أجاب النبي : أن تضرب به العدو حتى ينحني . قال أبو دجانة بصوت الواثق : أنا آخذه بحقه يا رسول الله . أعطاه النبي السيف ، كان يعلم أن قد أخذ السيف من يستطيع حمل أمانته وتحقيق وعده .

كان أبو دجانه - كما يحكي ابن إسحق - رجلا شجاعا يخالل عند الحرب ، إذا كانت ، وكان إذا أعلم بعصاة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل . فلما أخذ السيف من يد النبي ، أخرج عصا بته تلك فعصب بها رأسه ، ثم جعل يتبختر بين الصفيين . وحين رأى النبي أبا دجانة وهو يتبختر مختالا ، كما هي عادته ، قال : إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن " ٢٤ .

²⁴ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ١١ .

أصبح الجيشان في مواجهة ، وقد لمعت السيوف بعد أن نزعَت من أغمادها ، وصبغت خيل قريش ، وتحفز المسلمون للقتال . فريق يريد الثأر لقتلاه في بدر يبلغ عدده ثلاثة آلاف معهم مائتا فرس على ميمنتها خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة ابن أبي جهل ، وفريق لا يكاد يبلغ السبعمئة يدافعون عن دين الله وعن شرف الأرض التي يعيشون عليها .

٤- القتال :

التقى الناس . كان أول من بدأ القتال من صفوف قريش أبو عامر عبد عمرو بن صفيي، وكان - كما ذكرنا من قبل - قد خرج من المدينة مغاضبا ومباعدة للنبي ، بعد أن أعلن عدم إيمانه بدعوته . انضم إلى قريش ومعه خمسون غلاما من الأوس ، ويقال كانوا خمسة عشر . كان يعد قريشا أنه لو لقي قومه ما اختلف عليه منهم أحد ، سيأخذون جانبه ويتخلون عن محمد .

تقدم أبو عامر ما بين الجيشين ومعه أتباعه وعبدان أهل مكة والأحابيش . نادى بصوت يُسمع : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر!! تصور أن قومه سيجرون في لهفة إليه، ويقومون بما يأمرهم به وهم بين يديه ، لكنه فوجئ بأصوات تتعالى : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق!! دوت الكلمات كالرعد ، وانطلقت كالسهام ومعها سيل من الحجارة . وبدأ القتال الذي لم يتحمل " الفاسق " قسوته ، فدار على عقبه وهو يقول : " لقد أصاب قومي من بعدى شر " .^{٢٥}

اقترب أبو سفيان من حملة اللواء : قال موبخا ومحفزا : يا بني عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم . طلب منهم أن يتخلوا عن اللواء لمن يستطيع تحمل مسئولية قدره : إنما يؤتي الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا .

نجح تحريض وتوبيخ أبي سفيان ، رفض بنو عبد الدار تسليم اللواء . ازداد تمسكهم به ، قالوا في استتكار : نحن نسلم إليك لواءنا : ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع .

وبرئ بنو عبد الدار بالوعد . خرج طلحة بن عثمان ، صاحب اللواء ، صاح في المسلمين : يا معشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يجعلنا بسيوفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل أحد منكم يجعله الله بسيفي إلى الجنة أو يعجلني بسيفه إلى النار!؟

²⁵ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ١٢ .

قام إليه على بن أبي طالب . تبادلًا الضربات ، كان على لا يصمد له أحد . ضرب طلحة ضربة فاصلة أطارت أحد رجليه . سقط انكشفت عورته . صاح : أنشدك الله والرحم يا بن عم ! تركه على . لم يقتله . كثر النبي والمسلمون معه . سئل على فيما بعد: ما الذى منعك أن تجهز عليه . أجاب : إن ابن عمى ناشدني حين انكشفت عورته فاستحييت منه .

ظهر التحدي واضحا من شخصية لا يخطئها أحد . تقدم أحد الفرسان من بين صفوف العدو ، صاح : أنا ابن عتيق ، هل من مقاتل !! كان عبد الكعبة أكبر أبناء أبى بكر والأخ الشقيق لعائشة ، وهو الوحيد من أسرة أبى بكر الذى رفض اعتناق الإسلام .لقى أبو بكر قوسه واستل سيفه . استعد للخروج لملاقاة ولده . منعه النبي : ضع سيفك فى غمدك . عد إلى مكانك . نحن فى حاجة إليك²⁶ . ما كان باستطاعة أبى بكر أن يخالف أمر النبي .

التحم الناس . حمى الوطيس . خرجت نساء قريش ، وعلى رأسهن هند بنت عتبة، متزينات متعطرات ، يضربن بالدفوف وينشدن :

نحن بنات طارق
نقبلوا نعانق
ونبسط النمارق
أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

فى الكلمات ترغيب وإغراء ، فى حالة النصر نفرش النمارق ، أى نمد الوسائد فى انتظار لحظة الحب والعناق مكافأة لفحولة الرجال . أما فى حالة الفرار ، أى الهزيمة والانكسار ، فلن يكون هناك لقاء حب أو شوق . فلا عطاء من السنوات المتعطرات للمنهزمين ، ولا رغبة منهم فى الفرار المنكسرين .

هذا ما فعلته نساء قريش أثناء القتال : ضرب الدفوف ، وتشجيع وغناء وتحفيز وإغراء ، ودعوة للثأر والانتقام . كن يزحفن كالجنيات من مؤخرة الصفوف إلى مقدمة الصفوف . وكلما تناقل رجل كن يحطن به ويدفعنه دفعا إلى القتال .

أما النساء فى جيش المسلمين فقممن بدور أكثر جدية من دور هند وصويحيباتها فى جيش المشركين . لم يكن هناك غناء أو دفوف أو إغراء . كن يقمن فى صمت بمساعدة المقاتلين وبلغ بإحداهن الحماس مبلغه فاستلت سيفًا واشتركت فى القتال .. على رأس النساء ، كانت فاطمة ابنة النبي ، وعائشة أم المؤمنين ، وأم سليم بنت ملحان ، يحملن

²⁶ Lings, p. 184 .

الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ، ويدأوينهم ، وكذلك فعلت خمينة بنت جحش ، أما أم عماره ، نسيبة بنت كعب ، فهي التي استلقت سيفا وقاثلت مع المسلمين كالرجال عندما بدت علامات الإعياء على مقاتلة المسلمين . حُزرت نسيبة ثوبها على وسطها ، وأخذت تذب عن الرسول بسيفها ، ورمت المشركين بقوسها ، وأبليت يوم أحد بلاءً يندر بين نساء العرب ، وكان جهادها مفخرة من مفاخر الإسلام . وذكر البعض أنها جرحت اثني عشر جرحا ، ما بين طعنة برمج أو طعنة بسيف .^{٢٧}

قتل على - كما أسلفنا - طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين . حمل اللواء بعده عثمان بن أبي طلحة . تلقاه حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وبطل أبطال العرب ، ضربة بالسيف على كاهله فقطع يده وكنتفه ، ثم قضى عليه . أسرع بحمل اللواء أبو سعد بن أبي طلحة . فلم يمهله سعد بن أبي وقاص ، رماه بسهم أصاب حنجرته فأدلع لسانه - كما يقول ابن سعد - إدلاج الكلب ، فقتله ، ثم حمله مسافع بن طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله ، ثم حمله الحارث بن طلحة بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله ، ثم حمله كلاب بن طلحة بن أبي طلحة فقتله الزبير بن العوام ، ثم حمله الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة فقتله طلحة بن عبيد الله ، ثم حمله أوطاة بن شُرْحبِيل فقتله على بن أبي طالب^{٢٨} ، وتوالى قتل حملة اللواء حتى اضطر إلى حمله غلام من غلمانهم وتم قتله هو أيضا .

أقسمت سلافة بنت مُسافع بن طلحة ، بعد أن علمت أن قاتله هو عاصم بن ثابت ، أن لا تتسنى أبدا ثأر ولدها . نذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه خمرا .

انطلق حمزة وعلى وأبو دجانة والزبير إنطلاقا عاصفا ، يفرقون صفوف قريش ويحززون رقاب أبطالها . ما صمد لهم أحد . كاد أبو دجانة أن يقتل هند بنت عتبة . كانت تشجع الرجال على القتال ، وتثير حميتهم في هوس محموم . اتجه إليها أبو دجانة . حمل سيفه على مفرق رأسها . ولوكت . أدرك أنها امرأة . سحب سيفه دون أن يمسه . كان منطقته النبيل : أكرمت سيف رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن أضرب به امرأة .

هذا النبيل المتسامي يتناقض تناقضا مطلقا مع الخسة المتناهية في سلوك هند وزوجها بعد مقتل حمزة ، ولو أدرك أبو دجانة المسطور في قلب الغيب لقتلها وأراح المقاتلين والشهداء من آثامها وشرونها . نقول : لو . وما حدث عكس ما نتمني .

^{٢٧} د. السيد عبد العزيز سالم ، ص ٣٦٨ .

^{٢٨} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٤١ .

عملت سيوف المسلمين في رقاب مقاتلي قريش وفرسانها. تولاها الاضطراب ، لما لم يتوقعوه من شدة المقاومة وعنف القتال . سُمعت صرخات النساء وعويلهن وولولتهن مخافة المهانة والعار. سقط صنم قريش الذي حملوه معهم على بعير وجعلوه وسطهم ، وكأنه الإله المحارب لبني إسرائيل . بدا كان القلة المؤمنة على وشك أن توقع الهزيمة بالكثرة المشتركة .

ويصف لينجز Lings بطولة المسلمين في بداية المعركة بأسلوب المبدع : حمزة وريشة النعامة التي تميزه .. وأبو دجانة والزيبر وآخرون من المهاجرين والأنصار كانوا تجسيدا حيا لصيحة الحرب . أميت . أمت . وبدا كأنه ليس باستطاعه أحد مقاومتهم . كانت ريشة على البيضاء ، وعمامة أبي دجانة الحمراء ، وعمامة الزيبر الصفراء ، وعمامة حباب الخضراء ، تنتشر كأعلام نصر تمنح القوة للصفوف من خلفها ، وبالكاد استطاع أبو سفيان أن ينجو من سيف حنظلة الذي كان يقاتل في مقدمة الجيش وقلبه ، كان على وشك أن يشق هامة أبي سفيان بسيفه عندما اندفع رجل من " ليث " من أحد الأجناب ، وغرس حربته في جسد حنظلة فأسقطه أرضا ، ثم قتله بطعنة ثانية .²⁹

٥- مقتل حمزة وهزيمة المسلمين :

يجمع المؤرخون وكتاب السيرة ، أو بأسلوب أدق ما قرأناه من آرائهم ورواياتهم فيما بين أيدينا من كتب ومجلدات ، على أن المسلمين قد انتصروا في بداية المعركة انتصارا كاسحا وأن المشركين قد انهزموا وبدأوا بالفعل في الفرار .

ونرى أن الأمر لم يكن كذلك ، وأن ما بدا انهزاما وفرارا لم يكن إلا دهاء ومكرا وخديعة. نتصور أبا سفيان ، عندما اشتدت مقاومة المسلمين وبدا واضحا عنف استيصالهم، وقد تشاور في سرعة خاطفة مع دهاء قادته من أمثال عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ، ووضعوا خطة تتواءم مع مجريات الأمور في المعركة . تقوم الخطة في جوهرها على التفهق ، التظاهر بالهزيمة والانسحاب ، وبذلك يندفع المسلمون وراءهم دون روية فتتخلل صفوفهم ويبتعدوا عن الجبل وعن الرماة الذين يحمون ظهورهم ، وبذلك يمكن الالتفاف حولهم ومحاصرتهم .

وخدع المسلمون بالفعل ، اندفعوا في غير روية ، مكبرين مهللين ، وقد تعالت صيحاتهم : أميت ، أمت . كانت الصيحة شعار أحد .

²⁹ Lings, p. 182.

خلف إحدى الصخور ، كان يكمن عبد حبشى فى يده حربة . لم يشترك فى القتال فالمعركة لم تكن تهمة ، ولم يكن ليكثرث بمن يهزم أو بمن ينتصر . كانت له مهمة محددة ، يعرف ثمنها مقدما لو نجح فى الأداء . لا هدف له سوى حمزة .

ما فكر العبد أبدا أن يواجه حمزة بن عبد المطلب وينازله ، هو بالتأكيد ليس بمجنون . كان يدرك إدراكا واعيا أن حمزة لا يصمد له أحد ، ومن واجهه من سادات قريش وكبرائها ذاق على يديه الموت . نظرة إلى وجه حمزة وسيفه كانت تصيب من يواجهه بالانهيار ، قبل أن يهوى عليه السيف فى لمح خاطف ويحول وجوده إلى عدم .

كان العبد الحبشى خلف الصخرة يتابع حمزة بعينيه النافذتين . كامن هو ينتظر الفرصة . ما كان يستطيع الخروج والمواجهة . لا يتوقع من عبد أن يكون فارسا مقاتلا أو محاربا نبيلًا . هذا أبعد ما يكون عن خلق العبيد .

حانت الفرصة . رأى حمزة فى غرض الناس - كما وصفه فيما بعد - مثل الجمل الأورق (الذى لونه بين الغيرة والسواد) يهد الناس بسيفه هداً ما يقوم له شئ . كان العبد ينتظر كي يدنو حمزة من مكمنة ويكون فى مرمى حربته . اقترب من حمزة - وكأنه يسعى إلى قدره المحتوم - سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة صاح : هلم إلى يا ابن مقطعة البذور . ووجه إليه حمزة ضربة فصلت رأسه عن جسده .

تقدم حمزة ثائرا هادرا ، كل من يواجهه يفر من أمامه أو يموت . حانت لحظة أصبح فيها مكشوبا على مرمى بصر العبد وفى مجال حربته . هز العبد الحرية حتى إذا رضى عنها دفعها . كان يقذف قذف الحبشة ، قلما يخطئ . وقعت الحربة فى ثنية حمزة ، أى ما بين السرة والعانة ، حتى خرجت من بين رجله . لمح العبد . اتجه نحوه ، لكنه غلب فوقع . يقول العبد : وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي ثم تنحيت إلى العسكر ، ولم يكن لى بشئ حاجة غيره .^{٢٠}

سقط أسد الله شهيدا . لم يقدر على فعل ذلك أبطال قريش وفرسان العرب ، لكن عبدا تجرى الوضاعة فى دمه ، عندما حانت لحظة الغدر ، قدر .

ولا يشير المتعصبون من المستشرقين وأعداء الإسلام إلى قتل حمزة غدرا على يد عبد حبشى ، رغم أنهم يرفعون أصواتهم ويملاؤن الدنيا ضجيجا لأن النبى قتل أسيرين قاتلاه فى بدر وأنياه فى مكة ، إلى حد الامتهان ، قبل بدر . ولا يذكر المستشرقون ، أيضا ، جلال الإسلام وعظمة قدره وتسامى نفوس أتباعه من المؤمنين حقا ، ونبل الرسول

^{١٠} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

وصفحه عندما تم العفو عن قاتل حمزة ، رغم أنه كان قد نذر في ثورة حزنه أن يثأر لعمه ثارا يليق بمكانته وجلال قدره . لكنه عندما هدا صفح ، وعندما قدر عفا .

ولنستمع إلى كلمات العبد - الذى أعتقه الغدر - وهو يتحدث عن موقفه في مواجهة النبى . يقول وحشى : لما قدمت مكة أعتقت ، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مكة هربت إلى الطائف ، فمكثت بها ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ليسلموا تعيبت على المذاهب ، فقلت الحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد ، فوالله إنى لفى ذلك من همى إذ قال لى رجل : ويحك !! إنه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل فى دينه وتشهد شهادة الحق .

يواصل حبشى حكايته : فلم يرعه (أى النبى) إلا بى قائما على رأسه أتشهد بشهادة الحق . هكذا نجا وحشى . أنقذته شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ورغم بشاعة الجرم ، تم الصفح عنه . لكن العبد الغادر - رغم الصفح - لم ينج من بشاعة الإحساس بالغدر . ظل يعب الخمر عبا ، وكأنه يحاول أن ينسى ، حتى قتلته . ما كان الله ليدع قاتل حمزة ، هكذا قال الفاروق عمر .

نعود إلى ميدان القتال ، وقد أخذ المسلمون بتقهقر جيش قريش ، فظنوا أن المشركين قد انهزموا ، وأن نصرهم هم قد أصبح لاشك فيه . كانت فرصة لضعاف النفوس من المسلمين ولمن خرجوا أساسا من أجل الغنيمة والسلب ، لا من أجل الدفاع عن العقيدة والأرض . أغمدوا سيوفهم وأخذوا ينتهبون العسكر ويأخذون ما تصل إليه أيديهم من غنائم .. تركوا القتال لأبى دجانة وعلى والزبير وسعد بن أبى وقاص والأبطال من مقاتلة الأنصار .. لوى الطمع أعناق ضعاف النفوس فى جيش المسلمين وأحنى ظهورهم . فمالوا يجمعون وينتهبون ، وتركوا القتال .

سال لعاب الرماة . خمسون راميا أمرهم النبى - ألا يتركوا أماكنهم مهما حدث للمسلمين ، نصرنا كان أو هزيمة . رأوا الكل ينتهب وخيل إليهم أن المعركة قد انتهت ، فلم لا يشتركون فى النهب مع الناهبين ، وكيف يغنم من يرون ولا يكونون هم أنفسهم مع الغانمين ؟ تملكهم شيطان الطمع ووسوس لهم فاهتروا ، ثم تحركوا ، تركوا أماكنهم ، أسرعوا لجمع الحطام الدنيوى الذى لا تهواه إلا صغار النفوس . حاول أميرهم عبد الله بن جبير أن يسيطر على انفلاتهم ، فلم يستطع ، ما أطاعوه . عصوه وانطلقوا .

هنا حلت الكارثة . حانت اللحظة التى كان ينتظرها خالد بن الوليد . انكشف المسلمون من الخلف . لم يعد هناك من يحمي ظهورهم . شد بفرسانه على من تبقى من

الرماة فأجلاهم وقتل أميرهم عبد الله . تبعه في الهجوم عكرمة بن أبي جهل . صاح فرسان قريش صيحة المنتصر .. ومع الصيحة أدرك أبو سفيان أن حصار المسلمين قد أصبح في متناول يده . استدار هو ورجاله . كان العدد - كما ذكرنا من قبل - كبيرا ولم يكن قد قتل منهم ما يزيد عن العشرين .

حوصر المسلمون من كل جانب .: أذهلتهم صيحات النصر القرشية: ياللعزى ! يالهيل ! كانت الصدمة أكبر من أن يتحملها المسلمون . أصيب أغلبهم بما يشبه الخبال . حاول البعض الفرار . حاول البعض استئلال السيف والقتال من جديد . كانت سيوف قريش أسرع إلى رقابهم . سيطر العجز على المسلمين وساد الفرع . إلى حد فقدان الإدراك الواعي . قاتل بعضهم البعض . بدلا من قتال العدو . وحصدت سيوف بعض المسلمين أرواح بعض المسلمين . قُتل حامل اللواء مصعب بن عمير ، فحملة على ابن أبي طالب .

ويدعي كتبة الخرافات ، في كتب التراث ، أن الذي أخذ اللواء بعد مقتل مصعب كان ملكا في صورة مصعب ، ويضيفون أن الملائكة حضرت يومئذ ولم تقاتل .^{٢١} هل هناك هزل أكثر إثارة للاشمئزاز من هذا الهزل !؟

الملائكة حضرت يوم " أحد " ولم تقاتل . هذا ما يقوله ابن سعد نقلا عن مصادره . وتمر مئات السنين و" علماء " المسلمين يقرأون هذا الكلام الرخيص ويأخذون به وينقلون عنه . لم يجرؤ أى منهم أن يتساءل أو يسأل - ربما خوفا ، ربما جبنا ، ربما جهلا ، ربما هربا من تحمل مسئولية الكلمة - لماذا حضرت الملائكة ولم تقاتل ؟ وما أهمية الملائكة في هذه الحالة وهو حضور لا قيمة ولا خطر له ؟ هل حضرت لتتفرج على الهزيمة المهينة لجيش المسلمين ثم تتصرف في سلام وكأن الأمر لا يهمها في شيء ؟

ثم ماذا عن الملائكة التي هبطت يوم بدر بالآلاف - كما يدعي كتبة التراث - وعلى رؤوسها عمام من كل الألوان : بيض وحمرة وخضر ، وبأيديها سيوف تلمع كالبرق ، يقودها ثلاثة من كبار الملائكة : جبرائيل وإسرافيل وميكائيل ؟ هل ملائكة يوم أحد يختلفون اختلافا كبيرا عن ملائكة يوم بدر ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يوضح لنا جهاذة كتبة التراث الفرق بين النوعين ؟

^{٢١} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

ثم - ومعذرة لتكرار الكلمة - كيف عرف ابن سعد أو هؤلاء الذين أخذ عنهم ، أن الملائكة قد حضرت ؟ لننحي أمر اشتراكهم في القتال جانباً. ربما لم يكونوا في حالة مزاجية تسمح لهم بالقتال . أو ربما لم تصدر لهم الأوامر . أو ربما لم يتم تزويدهم بالعمائم والسيوف .

ما هو الدليل الذي يقدمه ابن سعد ، ومن نقل عنهم ، كي يثبتوا أن الملائكة حضرت، كي يتم إقناع القارئ بصدق ما يقولون ؟

لا إثبات ولا دليل ، لا حجة ولا برهان ، وكأنهم يكتبون أو يقصون على قطع من الخراف التي لا تفقه شيئاً. وربما تصوروا أن من سيقرأون كلامهم في مستقبل الأيام لن يجدوا في أنفسهم الجرأة على مناقشته .

الأدهي من ذلك ، أن يدعى ابن سعد أنه عندما قتل حامل لواء المسلمين ، حمل اللواء بدلا منه ملك في صورة مصعب !! هذا الملك الذي تكرم بحمل اللواء ، لماذا لم يتكرم بحمل النبي عندما سقط وهو مصاب في حفرة لم يستطع الخروج منها إلا على ظهر طلحة بن عبيد الله وبمساعدة على بن أبي طالب ؟ ألم يكن من الأشرف والأكرم والأنبل لهذا الملك أن يحمل النبي ويخرجه من الحفرة بدلا من أن يكتفي بحمل اللواء ؟

الأكثر كارثية في امتحان الفكر والاستهانة بالعقل ، الذي كرم الله به الإنسان ، أن يدعي الطبري - نقلا عن مصادره - أن جبريل هو أيضا كان هناك ، أي أن جبريل - حضر المعركة .

يقول الطبري إن رسول الله أبصر جماعة من مشركي قريش ، فقال لعلي : احملهم عليهم ، فحمل عليهم ففرق جماعتهم ، وقتل شيبه بن مالك أحد بنى عامر بن لؤي ، فقال جبريل : يا رسول الله ، إن هذه للمواساة ، فقال رسول الله : إنه مني وأنا منه ، فقال جبريل : وأنا منكما .^{٢٢}

جبريل ، إذن حضر المعركة وتحدث مع النبي ، ولم يزد على ذلك شيئاً . والسؤال: لماذا حضر؟ هل لمجرد أن يقول للنبي أنا منكما ، و يقف بعد ذلك كي يشاهد الهزيمة المهينة التي حلت بالمسلمين ؟ هل هذا هو جبريل الذي هبط يوم بدر - كما يقول الإخباريون - على رأس ألف من الملائكة ، وهو يمتطي جوادا وبيده سيف مشهر، وقاتل المشركين ؟ لن نشير إلى ميكائيل وإسرافيل وجنودهما السماوية وما فعلوه في بدر. فلا ذكر لهما في أحد . اكتفى الطبري بجبريل .

^{٢٢} الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

وإذا كان جبريل قد حضر ، فلماذا لم يأخذ بيد النبي ويجنبه الوقوع في الحفرة التي سقط فيها ، ولماذا لم يدفع عنه الضربات التي أصابت رأسه ووجهه وأسالت دمه ؟ لماذا لم ينشر ولو طرف جناح واحد من أجنحته الستمانية - التي يصفها لنا كتبة التراث - حول النبي كي يقيه أذى المشركين ؟

لم يفعل جبريل شيئا من هذا . لأنه في " أحد " لم يكن هناك جبريل ، كما " يهلوس " الإخباريون . التي فعلت كانت امرأة من الأنصار ، أمسكت سيفاً وقاثلت دفاعاً عن النبي ، وقد فر الجميع من حوله باستثناء القلة النارية . *

حتى عثمان بن عفان فر من المعركة لا يلوى على شيء ، ولا يهمل شيء سوى النجاة بنفسه . اختفى ثلاثة أيام كاملة ، وبعدها ظهر عندما تأكد أن القتال قد توقف ، وأنه لا خطورة على حياته ، أي أنه لن يقتل . ومن غرائب القدر أن يموت عثمان قتيلًا .

هذا الكلام ليس من عندنا نقول هذا بصراحة ووضوح كي لا يتشنج " المنبعجون " تعالياً وأصحاب الفتاوى التي تحكم بتكفير كل من يكتب كلمة غير " لائقة " عن أحد الصحابة المقربين أو غير المقربين . الذي قال بفرار عثمان واختفائه إلى أن زال الخطر ، هو " أبو جعفر " الذي أورد حديثه الطبري ، قال أبو جعفر : وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله .. وفر عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان ، وسعد بن عثمان (رجلان من الأنصار) حتى بلغوا الجعلب (جبلًا بناحية المدينة) ، فأقاموا به ثلاثاً ثم رجعوا إلى رسول الله .^{٢٢}

هذا كلام كتب التراث ، فإذا أراد المتعالمون المتفقهون أن يصرخوا ويتشنجوا ، فليصرخوا وليتشنجوا وليتظاهروا ضد ما جاء في كتب التراث ، لو كانوا يجروون !! انكشف المسلمون وانهزموا وفعل بهم المشركون الأفاعيل : قتل العشرات ، وجرح المئات ، وفر كل من استطاع الفرار .

وجد المشركون فرصتهم سانحة للهجوم المباشر على النبي .. وصل إليه ابن قميئة الحارثي أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فرماه بحجر فكسر أنفه ورباعيته (إحدى أسنانه الأربعة في مقدمة الفم) ، وشجه في وجهه ، وكلمت (جرحت) شفته .

يروى ابن هشام تفاصيل ما حدث للنبي في ذلك اليوم العصيب يقول : إن عتبة ابن أبي وقاص رمى رسول الله يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب الزهري شجه في جبهته ، وأن ابن قميئة جرح وجنته ، فدخلت حلقتان

^{٢٢} الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

من حلق المغفر^{٢٤} فى وجنته ، ووقع رسول الله فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون . فأخذ علي بن أبى طالب بيد النبى ، ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما . ومصّ مالك بن سنان الدم عن وجه النبى . ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجه النبى فسقطت ثنيته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين فى مقدمة أسنانه .^{٢٥}

عندما سال الدم على وجه النبى ، أخذ يمسحه وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ونزل قوله تعالى : " لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ " (آل عمران : ١٢٨) .

اشتد البلاء وزاد الخطر . صاح النبى وقد أحيط به وغشيه القوم : مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ . قام خمسة من الأنصار فقاتلوا دونه حتى قتلوا جميعا . وجعل أبو دجاجة من نفسه درعا يقي النبى وقع النبال . كان النبل يقع فى ظهره ودمه يسيل ، وهو لا يتزحزح عن موقعه دفاعا عن النبى . ورمى سعد بن أبى وقاص دون النبى ، والنبى يشجعه وهو يناوله النبل ، يقول : ارم فذاك أبى وأمي .

قامت أم عماره - نُسَيَّة بنت كعب المازنية - بالقتال دفاعا عن النبى . عندما وجدت نفسها فى قلب موقف خطر ومهين بعد أن تفرق أغلب الرجال ولادوا بالفرار . ألقت بما فى يديها من سقاء فيه ماء ، استلقت سيفا وبأشرت القتال ، تحمي النبى بحد السيف وبرمي النبل ، معرضة جسدها الأثنى لضربات العدو ، غير عابئة بما قد يصيبها . بدا أنه ما كان لها من هدف أكبر وأسمى فى هذا اللقاء الدموى الرهيب ، سوى أن تُشْهَد وتُشْهَد وتُسْتَشْهَد : تُشْهَد الدنيا كلها على أنها قاتلت كما الأبطال وواجهت صناديد الرجال دفاعا عن دينها وعن الرجل الذى نزل عليه الوحي بهذا الدين .. وتُشْهَد هزيمة بعض الكبار ، وهروبهم واختبائهم فى الجبل حرصا على الحياة .. أما أملها الأكبر وغاية مرادها وجائزتها فقد كانت الرغبة فى الاستشهاد وهى مرفوعة الهامة ، منصوبة العود ، تقاتل فى سبيل الله حتى الرمق الأخير .

لم يكن فى صفوف المشركين الثلاثة آلاف من هو فى نبل وفروسية أبى دجاجة ، الذى رفع السيف عن رأس هند بنت عتبة . رافضاً أن يلوث سيف النبى بدم امرأة ، رغم خطورة ما كانت تفعله . لم يكن بينهم أبو دجاجة ، أو حتى من يساوى شجع نعل أبى دجاجة ، لذلك لم يرحموا أم عماره ، لم يكثرثوا بكونها امرأة ، وجهوا إليها سيوفهم

^{٢٤} شبيه بالدرع ذو حلق يلقبه المحارب على وجهه .

^{٢٥} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٧-٢٨ .

وسهامهم وحرابهم ، حتى خلصت إليها الجراح وسال دمها ، وهى غير عابئة بما حل بها. ويعتبر قتال أم عماره وصمودها مفخرة من مفاخر الجهاد فى التاريخ الإسلامى .

واجهت أم عماره ابن قمينة اللبثى ، وقد اندفع كالعاصفة ، صارخا : أين محمد ؟ دلوني عليه ، فلا نجوت إن نجا . اعترضته أم عماره واجهته فى استبسال بطولى : نراع بنراع ، وسيف بسيف . كان ابن قمينة - أقماه الله ، كما قالت أم عماره - هو الأسرع فى توجيه الطعنه. أحدث فى عاتقها جرحا كبيرا عميقا كان من الممكن أن يهلكها. شق طريقه نحو النبى . اعترضه مصعب بن عمير . وكان لواء المسلمين حتى تلك اللحظة معه . فقتله ابن قمينة . ويبدو أن ملامح وجه مصعب كانت قريبة الشبه من ملاح وجه النبى ، ذلك لأن ابن قمينة بعد أن قتل مصعبا ، صاح بأعلى صوته : قتل محمد !!!

انتشرت الصيحة : تناقلتها الأصوات فى جيش المشركين ، وبين من تبقى من أتباع النبى : قتل محمد !!

جلس أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيدالله ، فى بعض رجال المهاجرين والأنصار ، فوق الصخور فى جانب الجبل ، بعيدا عن ضربات قریش ، وقد ألقوا ما بأيديهم من سلاح. صاح فيهم أنس بن النضر : ما يجلسكم ؟ أى لماذا أنتم جلوس هكذا فى عجز المنهزم ؟ أجابوه : قتل رسول الله . وكان رده القاطع : إذن ، قوموا فموتوا !! ماذا تصنعون بالحياة بعد . قوموا فموتوا على ما مات عليه.

ورمى أنس بنفسه على العدو وقاتل ، حتى قتل فى سبيل ما آمن به ، وقد وجدوا فى جسده يومئذ أكثر من سبعين ضربة ، وما استطاع أحد أن يتعرف عليه ، أخذه فقط عرفته ببنانه ^{٣٦}.

جاء فى مختصر تفسير ابن كثير أن ابن قمينة قد ضرب النبى بالفعل فشجّه فى رأسه ، ورجع ابن قمينة إلى المشركين فقال لهم : قتل محمد . وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجّه فى رأسه ، فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله قد قتل وجوزوا عليه ذلك .. فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ، ففى ذلك أنزل الله تعالى : " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ " (آل عمران : ١٤٤) .. قال ابن نجيب عن أبيه : إن رجلا من المهاجرين مر

³⁶ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣١

على رجل من الأنصار وهو يتسخط في دمه فقال له: يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل ؟
فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم .^{٢٧}

استمرت حالة اليأس بين المسلمين ، وسيطرت عليهم روح الهزيمة ، إلى أن رأى
كعب بن مالك النبي وتعرف عليه . عندها صاح بأعلى صوته أن النبي ما زال على قيد
الحياة . في الحال ، التف حوله بعض من ثبت من أبطال المسلمين من أمثال عليّ وأبو
بكر والزبير وطلحة وأبي دجانة وزيد . أشار النبي إلى كعب أن يصمت ، كي لا يُعرف
مكانة وتحاصره قريش وتحاول قتله من جديد . لكن التحذير جاء بعد فوات الأوان . سمع
الصبيحة أحد مقاتلي قريش ، وقد كمن في مكان قريب .

هذا المقاتل ، الذي سمع الصبيحة ، هو أبيّ بن خلف، وقد خرج يبحث عن جسد
النبي كي يؤكد خبر الموت . أمنية حياته كانت أن يقوم هو نفسه بقتل النبي . كان كثيرا
ما يلقي النبي في مكة ، قبل الهجرة ، فيهدده بالقتل ، وكان قتل النبي قد أصبح شغل
حياته الشاغل : يا محمد ، أن عندي " العوذ " فرسا أعلفه كل يوم .. أقتلك عليه ، ويرد
النبي في هدوء : بل أنا أقتلك إن شاء الله .

إنجّه أبيّ نحو الجمع الذي أحاط بالنبي ، صاح : أين محمد ، لا نجوت إن نجا !!
طلب عبيدة وعمر والزبير - كما يقول عبد الرحمن الشرقاوي - من النبي أن يأذن
لأحدهم فيبارز أبي بن خلف نيابة عنه ، لكن محمدا رفض ، وصمم على أن يبارزه هو
بنفسه على الرغم مما فيه من جراحات .. وانتفض محمد يبارز أبي بن خلف ، جمع كل
قوته في ضربة واحدة ألقت بأبي بن خلف من على ظهر فرسه. ولم يقم أبي بعد ذلك من
سقطته تلك .^{٢٨}

هكذا صور الشرقاوي الموقف بأسلوبه المسرحي الممتع : النبي وهو يتقدم من حوله
كي يبارز فارسا من الأعداء ، يقاتله ثم يصصره . وهذه حالة نادرة الحدوث في حياة
النبي . ولا نعتقد أن مبارزة بالمعني المعروف - كمبارزات حمزة وعليّ وأبي دجانة
على سبيل المثال - قد وقعت بالفعل .

كل ما في الأمر هو أن النبي عندما سمع تهديد أبيّ ووعيده ، قال لمن حوله :
دعوه. كان أبي على نفس الفرس الذي كان يعلفه كي يقتل النبي وهو عليه . اقترب أبي.
كان النبي ينتظر . وعندما دنا أبي من النبي بما فيه الكفاية ، تناول النبي حربا من

^{٢٧} مختصر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٢٢.

^{٢٨} الشرقاوي ، ص ٢٢٠.

الحرث بن الصُّمَّة ثم استقبله بها . طعنة واحدة كانت القاضية . مات أبى بسببها فى طريق العودة إلى مكة . كان تعليق القرشى المشرك قبل أن يموت : والله لو بصق على لقتلنى .^{٣٩}

فى هذه المعركة ، اشترك فى صفوف المسلمين أناس من أهل المدينة لا صلة لهم بالإسلام ، لم يخرجوا عن إيمان بما جاء به محمد ، كما أنهم لم يخرجوا طمعا فى سلب أو نهب أو غنيمة ، إنما خرجوا دفاعا عن الأرض التى ينتمون إليها وكذا عن أحساب قومهم ، أو - كما فى حالة مخيريق - التزاما بالعهد الذى تم بين محمد ويهود المدينة .

خرج مخيريق ، وهو أحد بنى ثعلبة ، يوم أخذ إلى قومه يذكرهم بالعهد الذى بينهم وبين محمد . جاء فى ابن هشام أن مخيريق قال لهم : يا معشر يهود ، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليوم سبت ، قال : لا سبت لكم ، فأخذ سيفه وعلقه ، وأوصى - إن قُتل - بكل ماله لمحمد يفعل به ما يشاء . لحق مخيريق بجيش المسلمين وقاتل حتى قتل . ويذكر بعض كتاب السيرة - من أمثال ابن سعد وابن هشام - أن النبى امتدحه عندما قال : مخيريق خير يهود .

ولا نتفق فى رأى مع بعض المؤرخين الذين يعتقدون أن مخيريق قد أسلم قبل أن يقتل فى معركة أحد . يكتب الإمام محمد أبو زهرة . على سبيل المثال ، عن اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عند حضور النبى إلى المدينة ، كعبد الله بن سلام وبعض من معه ثم يضيف : ومعهم عدد قليل أسلموا مخلصين فى شدة أحد ، ويذكر التاريخ منهم مخيريق .^{٤٠}

ونميل إلى القول أن الإمام ، رغم توقيرنا لعلمه وفضله ، قد جانبه التوفيق . لقد غدا مخيريق - كما يقول ابن هشام - إلى رسول الله فقاتل معه حتى قتل . هذا كلام لا اعتراض عليه ، عرضنا له من قبل . أما إعلان إسلامه فهذا ما لا يوجد عليه دليل . ولو قد أعلن إسلامه أمام النبى ، أو قد عرف به النبى لاعتبره من شهداء المسلمين المبشرين بالجنه . ولأخرجه من زمره اليهود ، ولما اكتفى بقوله : مخيريق خير يهود . والعبارة معناها بوضوح شديد أنه مات على يهوديته .

ومن المشركين الذين خرجوا للقتال كان قُرْمان ، وهو - كما يقول ابن إسحق - رجل أتبى ، أى غريب ، لا يدري ممن هو . خرج يوم أحد وتقدم الصفوف حتى كان فى أولها . كان قُرمان هذا مشهورا بالشجاعة والفروسية والثبات فى وجه الأعداء عند اللقاء .

^{٣٩} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٣ .

^{٤٠} أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ .

هاجم جيش قريش بضرارة شرسة وكأنه يريد أن يبيدهم جميعا بضربة سيف واحدة . قيل إنه قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين ، ثم غلبته الجراح . مر به أحد المسلمين قبل أن يسلم الروح ، فقال : لقد أبليت اليوم يا قزمان فابشر . قال : بماذا أبشّر؟ إننى والله ما قاتلت علي دين . إن قاتلت إلا على أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت . وعندما اشتد عليه ألم الجراح أخذ سهما من كنانته فقتل نفسه . وكان النبی إذا ذكر له قزمان ، يقول إنه لمن أهل النار .^{٤١}

كان قزمان مشركا ولم يعلن إسلامه . لذا تننقى عنه صفة النفاق التي ألصقتها به بعض الكتاب من أمثال محمد حسين هيكل الذي يدعي أن قزمان كان أحد المنافقين الذين أظهروا الإسلام .^{٤٢}

أما المنافق الذي ظهر نفاقه بجلاء يوم أحد ، فهو حاطب بن أمية بن رافع . كان ابنه يزيد قد اشترك في المعركة وأصيب إصابة قاتلة ، فحملة البعض إلى دار قومه وهو على وشك الموت . التف حوله من حضر من المسلمين يبشرونه بالجنة : أبشر يا ابن حاطب بالجنة . لم تعجب البشرى أباه وكان شيخا طاعنا في السن ألمه منظر ولده وهو يموت أمام عينيه . قال فى سخرية وضيق : بأى شئ تبشرونه ؟ أبجئة من حرمل؟ غررتم والله هذا الغلام من نفسه . لم يؤمن بأن ولده سقط شهيدا لقد تم - فى رؤية - خداع ولده والتغريب به.

٦ - التمثيل بالقتلى:

كانت هزيمة المسلمين فى أحد فرصة نادرة ، من المستحيل أن تتكرر ، بالنسبة لهند بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية ، كى تشفى غليلها من قاتل أحب أحبائها حمزة بن عبد المطلب . أرسلت من يبحث عن جسده بين القتلى . عندما وجد من أرسلته جسد حمزة ، شق بطنه بناء على أمرها . طلبت كبد حمزة . ناولها الرجل الكبد . فتحت فاهها كالضواري وبأسنانها مزقت الكبد ولاكتها أى مضغتها . لكنها لم تستطع أن تبتلعها فلفظتها . لعقت دم حمزة ، لأنها هكذا أقسمت بعد " بدر " أن تلوك كبده وتلعق دمه ، حتى تهدأ نفسها وتستريح . سيدة لعقة الدم هى ، أم معاوية خليفة المسلمين الذى كان العقل المدبر واليد الفاعلة والدافع الأول إلى مقتل الإمام على بن أبى طالب ، ابن عم النبی .

^{٤١} ابن هشام ، ج٣ ، ص ٣٧ .

^{٤٢} هيكل ، محمد ، ص ٤٤٢ .

هند بنت عتبة ، زوجة كبير قريش وأم من سيصبح " أمير المؤمنين معاوية " ، لا تتوقف عند هذا الحد . إنها تقوم بقطع عضو حمزة التناسلي .^{٢٠} سلوك يدعو للاستدهاش والاشمئزاز ويثير الكثير من التساؤلات : لماذا عضو حمزة التناسلي بالذات ؟ ماذا ستفعل به ؟ وما قيمة العضو التناسلي المقطوع بالنسبة لامرأة في مثل سنها ؟ وكيف سمح لها زوجها بذلك ؟ وإن لم يكن قد سمح ، وفعلت ذلك في غفلة منه ، فكيف سمح لها بذلك من هم حولها من رجالات قريش ؟ إن ما أقدمت عليه يخرج بكل المقاييس عن كل أعراف العرب ، وغير العرب .

لم تكتف زوجة سيد مكة ، وأم " أمير المؤمنين ، القادم " بالعبث بالعضو التناسلي لفارس فرسان العرب وسيد شهداء الجنة ، بل قامت أيضا بقطع أنفه وأذنيه ، وحثت من حضرن من نساء قريش أن يفعلن بجثث القتلى ما فعلت هي بجثة حمزة ، واتخذت هي ومن معها من آذان القتلى وأنوفهم قلاند وأقراطا .

كان سلوك النسوة القرشيات ، وعلى رأسهن لاعة الدم ، مثيرا لاشمئزاز بعض قبائل البدو الذين لم يألفوا مثل هذا السلوك المشين والمهين ، مما دفع أبا سفيان أن يعلن عدم مسؤوليته عما حدث ، وهو يخاطب بعض المسلمين - بعد المعركة - وعلى رأسهم عمر . قال أبو سفيان : إنه قد كان في قتلكم مثل ، والله ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت .

بهذه الكلمات حاول أبو سفيان أن يبرئ نفسه من عار ما حدث . لكنه - في رأينا - لم يكن صادقا ، ذلك لأن سلوكه هو نفسه تجاه جسد حمزة المقتول كان مثيرا للاحتقار . مر به الحليس بن زبآن ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، فوجده يركل جثة حمزة بقدمه ويطعن بالرمح في شذقه ، وهو يقول في شَفْ : ذُق عَقَق .

قائد قريش يركل جثة عم النبي بقدمه ، ويطعن بالرمح شذقه ويسبه ، واصفا إياه بالعاق ، ولو كان حمزة على قيد الحياة ما استطاع هذا الدني أن يواجهه أو أن يصمد أمامه ، ولقُطعت رجله قبل أن يمدها ، ولاقتحم الرمح قلبه قبل أن يصل إلى شذق حمزة . حمزة ما استطاع فارس في الميدان أن يواجهه . حمزة قتله الغدر ، ولم يقتله في ساحة الوغي أحد .

^{٢٠} كارين ارمسترونج ، محمد ، ص ٢٨٢ .

لم يخف الحليس استيائه واحتقاره لسلوك أبي سفيان ، قال : يا بني كنانة . هذا سيد قريش يصنع بآبى عمه ما ترون لحما ، أى وهو جثة لا روح فيه . فقال أبو سفيان ، خشية العار : ويحك ! اكتمها عني فإنها كانت زلة .“

٧- توقف القتال وانسحاب قريش :

أوقفت قريش القتال . لقد نجحت فيما خرجت من أجله . وصلت إلي هدفها ، وحقت غرضها ، وانتقمت وشفت غليلها . ما فعلوه بحمزة وبقية أبطال المسلمين يكفى ويزيد . يوم بيوم بدر والحرب سجال . هذا ما أعلنه أبو سفيان ، وهو على وشك الانصراف . لكنه أراد قبل الرحيل أن يتأكد من صحة إشاعة قتل النبي ، صاح بأعلى صوته ، وهو يحتل صخور الجبل : أعل هُبَل ، ورد عليه عمر بصوته الجهورى : الله أعلى وأجل . عرف أبو سفيان لمن الصوت ، نادى : هلم يا عمر . أمر النبي عمر أن يذهب إليه وينظر ما شأنه . سأل أبو سفيان عما إذا كان محمد قد قتل ، كما أعلن ابن قمنة . أكد له عمر أن النبي ما زال على قيد الحياة ولم يصبه سوء . ما كان أبو سفيان ليكذب عمر ، قال : أنت عندى أصدق من ابن قمنة وأبر .

وبما أن النبي لم يقتل ، والنصر لم يحسم ، صاح أبو سفيان لحظة انصرافه ومن معه : إن موعدكم بدر للعام القابل ، وكان الرد الذى أمر به الرسول : قل نعم هو بيننا وبينك موعد .

انسحب أبو سفيان وجنده ، بعد أن انتصر . لكن النصر لم يكن مدمرا ساحقا للقوة الإسلامية وقيادتها ، كما تخيل البعض . هنا قد يثار سؤال : إذا كان الهدف من خروج قريش هو تدمير المسلمين تدميرا كاملا ، فلماذا انسحبوا دون أن يحققوا هدفهم ؟

ربما تكون الإجابة ببساطة هى أن هدفا كهذا يصعب تحقيقه ، فتدمير المدينة بما فيها وعلى من فيها عمل لا تستطيعه قريش فهو أكبر من كل مقدراتها ، مهما جمعت من رجال وعدة وسلاح . ويجب ألا ننسى أن عبد الله بن أبى قد انسحب ومعه ثلث الجيش بكامل العدة والسلاح وما زالت قوتهم كاملة متحفزة . وإذا قاتل ابن أبى ، فلن يكون خصما سهلا ، خصوصا وأنه سيصبح قائد الدفاع عن المدينة التى كاد يوما أن يتوج عليها ملكا ، ولن يفرط فى شبر منها دون أن تراق دماء غالبا ما ستكون دماء قريش ، فأهل المدينة يعرفون جيدا كيف يحاربون فى أزقتها وبيوتها وأطمها .

وبجانب ابن أبي وجيشه ، كان هناك عدد من الأوس والخزرج الذين لم يخرجوا للقتال ، وهؤلاء لن يسمحوا لمدينتهم أن تسلب وتتهب وهم في موقف المتفرج .

كان من المستحيل أن يحدث هذا ، وكانت قريش تعلم أن الهجوم على المدينة مخاطرة قد تنتهي بالهزيمة ، وتضيع نشوة النصر ، وهم يريدون العودة إلى مكة ورؤوسهم مرفوعة في اعتزاز يتفاخرون ، ويقصون على من لم يغادر مكة حكايات البطولة في يوم أحد .

كما أن جيش قريش ، بعد المعركة ، لم يكن في أوج قوته وعنفوانه ك لحظة جاء . لقد قتل منهم ثلاثة وعشرون ، ويقال اثنان وعشرون^{٤٥} وأسر منهم رجل واحد وهو أبو عزة الجُمحي ، وكان قد أسر في بدر فمن عليه النبي وأطلق سراحه شريطة ألا يظاهر عليه أحدا ولا يشترك في قتال ضده. لكنه خرج يوم أحد وقاتل في صفوف المشركين . وتوسل الذي خان العهد ولم يحفظه وغدر بمن أحسن إليه ، قال : مَنْ على يا محمد قال النبي : لا والله ، لا ترجع إلى مكة تمسح عارضيك تقول : سخرت بمحمد مرتين . ثم أمر به عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح فضرب عنقه .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن عدد جرحي المشركين كان كبيرا ، وأن الخيل لم تعد في كامل لياقتها وحيوتها بعد أن أصابتها السهام وأنهكتها ، لم يكن أمام قريش من اختيار إلا أن تعود .

ورغم ما حل بالمسلمين من بلاء ، إلا أنهم لم يسلموا بالهزيمة ولم يعترفوا بها. لقد قتل منهم ما يقرب من السبعين ، وبقية السبعائة ما زالوا أحياء قادرين علي حمل السلاح، وقد ارتفعت معنوياتهم بعد أن تأكدوا أن النبي ما زال بينهم . كما أن انسحاب قريش كان علامة : قريش اكتفت بما فعلت ولا تستطيع معاودة الكرة ، ولو كانت تستطيع ما انسحب جيشها .

كانت المعركة يوم السبت ، الخامس عشر من شوال سنة ثلاث هجرية ، في يوم الأحد غداة المعركة خرج النبي بمن قاتلوا معه فقط ، ولم يسمح لآخرين بالانضمام ، يقتنى أثر الجيش المكي . لم يلتق الجيشان . لم يحدث قتال . عاد كل من حيث أتى . لكن كان لخروج النبي بمن قاتل معه من المسلمين دلالة : إنهم لم يهزموا ولو انهزموا لولوا الأدبار ولاذوا بالفرار . لكن هاهم يخرجون في تصميم القادر على الاستمرار في القتال . لكن العدو هو الذي أنهى الموقف وفضل الرحيل .

^{٤٥} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

وتدعي كارين أرمسترونج أن سير محمد ومن معه في أثر جيش قريش لمدة ثلاثة أيام ، كان مجرد مطاردة رمزية كنوع من العزاء . لكن ذلك العزاء كان غير مجد ، فقد كان معظم المسلمين في حالة كآبة شديدة بعد أحد ، وتساءلوا : إن كانت بدر آية للخلاص فهل تعني هزيمة أحد أن الله قد تخلى عن محمد ؟ ورد القرآن على ذلك التساؤل في سورة آل عمران ، موضحاً أنه ليس لدى المسلمين من يلومونه سوى أنفسهم ، فقد كانوا مشاكسين عصاة غير منظمين طوال الحملة . غير أن " أحد " كانت " آية " في حد ذاتها ، فقد ميزت بين المسلمين حقاً والجناء الذين فروا مع ابن أبي .^{٤٦}

ويتفق رأي كارين أرمسترونج مع رأي الشيخ الباقوري الذي يرى أن في هذه الهزيمة حكمة : لو انتصروا دائماً لدخل مع المسلمين غيرهم ممن لم يخلصوا في اعتناق الإسلام ، فلم يتميز الصادق مع غير الصادق ، ثم لو أن أعداءهم انتصروا عليهم دائماً لزال دعوتهم بهزيمتهم المستمرة .. الهزيمة حيناً والنصر حيناً آخر ليميز أتباعهم المخلصون من أتباعهم غير المخلصين .^{٤٧}

على أية حال ، عادت قريش منقوصة النصر ، فلا نصر بلا غنيمة ، وهم لم يغنموا شيئاً ، ولا نصر بلا أسرى ، وهم لم يستطيعوا أسر أحد . وهي ظاهرة تثير الإيمعان في التفكير والتأمل . لم يسمح الشتم والإبء لأى من المسلمين أن يستأسر . أما محمد الذى خرجت قريش لقتله فما زال على قيد الحياة ، بل إنه طاردهم - بعد المعركة - لمدة ثلاثة أيام متتالية ، وما زال يحكم سيطرته على المدينة . هذا معناه أن قوافلهم التجارية إلى امبراطوريات الشمال ما زالت ، وستظل ، عاجزة عن شق طريقها في سلام .

وبالمثل ، لم تكن هزيمة المسلمين ساحقة ماحقة . لقد قتل منهم ما يزيد عن السبعين بقليل ، عدد يقارب عدد قتلى المشركين في بدر ، تساوت الكفتان ، وما زال جيش المسلمين يلتف حول النبي في صمود ، ينتظر الجولة التالية ، التى يستحيل أن يحدث فيها ما حدث ، لن يلدغوا من ذبابة سيف قريش مرتين .

دفن القتلى :

تراوح عدد قتلى المسلمين بين السبعين والثمانين والسبعين - ولا يمكن تحديد العدد بصورة قاطعة فقد اختلف في ذلك الإخباريون وكتاب السيرة - ثمانية علي وجه التقريب

^{٤٦} كارين أرمسترونج ، محمد ، ص ٢٨٢ .

^{٤٧} الباقوري ، ص ١٠٠ .

من المهاجرين وسبعون من الأنصار. كان على رأس شهداء المهاجرين حمزة بن عبد المطلب . خرج النبي يلتمسه بين القتلى ، فوجده - كما يحكي ابن إسحق - ببطن الوادي وقد بقر بطنه عن كبده ، ومثل به فجدع أنفه وأذناه..

لم يكن أحد من المسلمين يتوقع أبدا أن يفعل هذا بحمزة ، عم النبي وسيد فرسان العرب . ولقد غضب النبي غضبا شديدا ، رغم أن سرعة الغضب ودفعته ليسا من صفاته ، ويقال إنه هدد بالانتقام من قريش انتقاما أبدا لن تنساه قبائل العرب .

كان حمزة أسن من النبي بأربع سنين ، وقد قتل يوم أحد وهو يومئذ ابن تسع وخمسين . كان هو والنبي وأبو سلمة بن عبد الأسد أخوة من الرضاعة ، أرضعتهم "توبة" مولاة أبي لهب .

وقف النبي على حمزة حيث استشهد ، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شيء قط أوجع لقلبه منه . ونظر إليه وقد مثل به ، فقال : رحمة الله عليك ، فإنك كنت ما علمت ، وصولا للرحم فعولا للخيرات ، ولولا حزن من بعدك عليك ، وتكون سنة من بعدى ، لسرني أن اتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى . أما والله على ذلك لأمتن بسبعين منهم مكانك .^{٤٨}

فنزّل جبريل بقوله تعالى : " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ " (النحل : ١٢٦-١٢٧) . وما كان على النبي ، بعد نزول الآية ، إلا أن يمسك عن الذى أراد ، ويصبر .

ويقال إن النبي قال : رأيت الملائكة تغسل حمزة لأنه كان جنبا ذلك اليوم . ويقال أيضا إنه قال : إن الله حرم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئا أبدا . وعندما علم أن هذا لاكت جزءا من كبد حمزة ، سأل : أكلت منها شيئا ؟ قالوا : لا ، قال : ما كان الله ليدخل شيئا من حمزة النار.^{٤٩}

أمر النبي بدفن الشهداء ، حيث قتلوا . وجاءت صفية بنت عبد المطلب تحمل كفن حمزة ، وكان أخاها لأبيها وأمها . وطلب النبي من ولدها الزبير بن العوام أن يرد أمه كي لا ترى بشاعة ما أحدثته أحقاد قريش بجثة حمزة ، لكنها أراحته عن طريقها وهى تقول : لقد بلغني أن قد مثل بأخي وذلك فى الله . ولقد رضيت واحتسبت وصبرت.. ثم صلت على أخيها واستغفرت له .

^{٤٨} ابن سعد ، ج ٣ ، ص ١٣-١٤ .

^{٤٩} ابن سعد ، ج ٣ ، ص ١٠ .

صلى النبي على حمزة . ويقال إنه صلى عليه سبعين صلاة .^{٥٠} ويقال إنه لم يصل على حمزة ولا على أى من شهداء أحد ، ولم يصل على شهيد مات فى المعركة فى أى غزوة من الغزوات ، لأن شهادته تغنيه عن دعاء الأحياء ، وصلاة الجنازة دعاء وتضرع واستغفار .^{٥١}

ولا نستطيع أن نفتى فى هذا الموضوع - ولسنا من أهل الفتيا - ذلك لأن الأئمة أنفسهم قد اختلفوا ، ولم يتفق لهم رأى فى هذا المجال ، مالك والشافعي وابن حنبل لا يجيزون الصلاة على من سقط شهيدا فى ميدان القتال فاستشهاده يغنيه ، أما أبو حنيفة ومن اتبعه من الفقهاء فيرون عكس ذلك . والله أعلم ... لو سمح لنا السادة : " الفقهاء " باستخدام واحد من تعبيراتهم التى يهتمون بها دوما أحاديثهم وفتاواهم .

تم دفن الشهداء . وعاد النبي إلى المدينة . سمع البكاء والنواح على القتلى ، فبكى . كل بكى فتيله ، لكن حمزة لا بواكى له . أمر بعض الأنصار نساءهم أن يذهبن إلى باب المسجد ويبكين حمزة . سمع النبي بكاءهن . فارتاحت نفسه بعض الشيء . دعا لهن وأمرهن بالعودة إلى بيوتهن ، فانصرفن راضيات .

فى حجراته ، كانت فاطمة تنتظر مع زوجاته ، ناولها سيفه ، غسلن جراحه وبدلن ثيابه استلقى على فراشه . نام . كان فى حاجة إلى أن يستريح .

^{٥٠} ابن سعد ، ج ٣ ، ص ١٦ .
^{٥١} أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٦٤٦ .

الفصل الخامس

من آثار أحد

الفصل الخامس من آثار أحد

١- استخفاف المشركين واليهود بالمسلمين :

رغم أن نصر المشركين لم يكن حاسماً في أحد ، إلا أنهم عادوا إلى مكة عودة الأبطال الذين استردوا لقريش كبرياءها وهيبتها ، وقد سبقتهم حالات فخر دبجتها وأذاعتها السنة المفوهين من الشعراء : لقد انتقموا لقتلاهم في بدر ، انتصروا على جيش محمد ودحروه ، ضربوا المسلمين ضربة لن يستطيعوا النهوض بعدها أبداً . هكذا تصوروا ، وهكذا صوروا ، وهكذا أذاعوا بين قبائل العرب عن قوة قريش وبطشها ، ونفوذها وسلطانها وشجاعة رجالها وبطولة فرسانها . والدليل ، إضافة إلى هزيمة المسلمين ، هو ما حدث لمحمد نفسه : لقد أصيب وجرح وسال دمه ، ولولا أنهم هم الذين أوقفوا القتال واكتفوا بما حققوه من نصر ، لأثوا به إلى مكة أسيراً أو قتيلاً . ألم يقتلوا حمزة ، سيد فرسان قريش ، ويمثلوا بجثته ويجدعوا أنفه ؟ ما كان باستطاعه أي من فرسان العرب أن يفعل هذا بحمزة ، لكنهم هم استطاعوا . وإن كان محمد قد فلت من أيديهم هذه المرة ، فهو لم يستطيع في كرة أخرى .

هكذا صورت لهم أخيلتهم المتضخمة بعجيج نصر غير مكتمل وتبارى الشعراء في تصوير بطولات قريش . والشعراء في تلك الآونة كانوا هم الخطباء والحكماء والصداء وأصحاب الكلمة المسموعة بين الجموع . الشعراء كانوا هم الناس . قال هبيرة ابن أبي وهب المخزومي في قصيدة له :

نحن الفوارس يوم الحرّ من أحد

هابت معدّ فقلنا نحن نأتيها

وأنشد عبد الله بن الزُّبَيْر :

ما جد الجدين مقدم بطل

كم قتلنا من كريم سيد

.....

.....

وعدلنا ميل بدر فاعتدل

فقتلنا الضّعف من أشراقهم

لو كررنا لفعلنا المفعّل

لا ألوم النفس إلا أننا

وترنم عمرو بن العاص مفاخرنا بنصر المشركين في أحد :

تمنت بنو النجار جهلاً لقاءنا لدى جنب سلع والأمانى تصدق^١
فما راعهم بالشر إلا فجاءة كراديس خيل في الأزقة تمرق

استخدمت قريش شعراءها كأبواق دعاية لها بين القبائل البدوية في كل أرض الحجاز ، يذكرون بأمجاد قريش وعظمتها وقوتها ، ويغرون كل من يوازرها بالرفعة وعلو الشأن . ولقد تم التأثير بالفعل في قبائل شرق وشمال المدينة . وكذا اقتنعت قبائل سليم وغطفان وبنى ضمرة بأن محمداً - بعد أحد - لن يقدر على فعل شيء .

نجحت قريش في دعايتها . استجاب البدو لادعاءاتها . استهانوا بأمر المسلمين ، بعد أن كانت قلوبهم تمتلئ بالرعب عند سماعهم بأن سرية من جيش المسلمين تقترب من أرضهم . تغير الحال . لم يعودوا يكتفون بتكذيب محمد ، بل أظهروا استخفافهم به واستهانتهم بأمره . ثم تجرأوا بعد ذلك على سفك دماء المسلمين . مستخدمين أسلوب الخديعة والغدر في جراءة وعلانية وقحة .

وفي المدينة استغل المشركون والمنافقون واليهود الموقف ونشروا من الشائعات ما يكفي - في رأيهم - لزلزلة الأرض تحت أقدام محمد . إذا كانت " بدر " هي العلامة الفارقة ، الدالة على أن الله قد أعز جنده ونصر عبده ، فماذا عن هزيمة " أحد " ؟

هل معناها أن " الرب " قد تخلى عن محمد ، وأنه وقف إلى جانب قريش وحارب بملائكته في صفوفها ؟ أليس معني هذا النصر - بمنطق الذين فسروا نصر بدر - أن الرب قد بارك قريشا ، كما بارك المسلمين من قبل ، ثم تخلى عنهم لأنهم لا يستحقون أن يكونوا شعبه ؟ ألا يدل نصر قريش بالمفهوم العقائدي أن محمداً ليس بنبي ، لأنه لو كان نبيا حقاً ما هزم ، وما تخلى عنه ربه ؟!!!

ورغم أن نفوذ النبي في المدينة كان ما يزال هو الأقوى ، إلا أن المشركين والمنافقين واليهود لم يخفوا شمائتهم واستهانتهم بأمر المسلمين الذين عادوا من أحد ونبههم نفسه تدمية الجراح . وبلغ من تواقع رأس النفاق ، عبد الله بن أبي ، أن قام يوم الجمعة التالية لأخذ يقدم للرسول قبل أن يلقي خطبته يقول : أيها الناس ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له واطيعوا .

لقد تعود ابن أبي أن يلقي بهذه الكلمات كل جمعة ، قبل أن يقوم النبي كي يخطب في الناس . وقد سُمح له بذلك لما كان له من قدر وشرف بين أهل المدينة .

^١ سلع : اسم جبل .

لكنه عندما قام بعد هزيمة أحد كي يقول ما تعود قوله ، جذبه المسلمون من ثيابه وأسكتوه ، فقد كان نفاقه جلياً وبصورة مموجة . كان استخفافه بأحزان النبي ومصيبة المسلمين في قتلهم شديد الوضوح . ورغم ذلك فهو يدعو المسلمين إلى أن يسمعوا للنبيهم ويطيعوه ، وينصروه ويعزروه ، وكأنه هو نفسه لم يكن عاملاً من عوامل الهزيمة عندما انسحب في انخزال بثلث الرجال ، معلناً في تواقع أن النبي قد عصاه : لقد أطاعهم وعصاني !!

خرج ابن أبي من المسجد ، يتخطى رقاب الناس ، وهو يتصنع الاندهاش . كان الغضب بيناً والاستياء واضحاً على قسّمات وجهه وهو يغادر المسجد . طلب منه رجل من الأنصار أن يرجع تائباً ويطلب من النبي أن يستغفر له ، لكنه رفض في غطرسة متعالية ، قال : والله ما ابتغي أن يستغفر لى .

كان ابن أبي يعامل المهاجرين من أهل مكة في استعلاء ويشير إليهم في ازدراء كلما ذكرهم بكلمة " الجلايب " تقيلاً من شأنهم وتهوينا من أمرهم ، وقد ازداد ذلك وضوحاً بعد هزيمة أحد . ولم يسلم النبي نفسه من عجرة ابن أبي وتطاوله وتعاليه . ولقد كتبنا عن سلوك ابن أبي هذا بالتفصيل في فصل سابق . وما كان ابن أبي لينسى أبداً أنه لولا وصول محمد لثم تتويجه ملكاً .

٢- سرية أبي سلمة :

كان على النبي أن يفعل شيئاً كي يستعيد المسلمون هيبته ومكانتهم بين قبائل العرب . وعلى ذلك فما أن بلغه أن بنى أسد يجمعون الجموع ويعدون العدة للسير إليه ومهاجمته في المدينة ، حتى دعا إليه أبا سلمة وعقد له لواء سرية بلغ عدد مقاتليها مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار ، كان من بينهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وأسيد بن خضير ، وأمرهم بشدة الحيلة والحذر حتى يفجئوا العدو ولا يفاجأوا هم به . ونفذ أبو سلمة الأمر فكان يسير ليلاً ويتخفى نهاراً ، ويسلك طرقاً غير مألوفة . وتحقق له ما أراد ، فإذا به يأخذ العدو على حين غرة ورجاله غير مستعدين للقتال .

خرجت هذه السرية بعد شهرين من أحد . في المحرم من السنة الرابعة من الهجرة . كانت الحكمة من اختيار أبي سلمة لقيادة هذه السرية ضد بنى أسد ، أن أبا سلمة نفسه كان ينتمى إلى بنى أسد ، فهو أبو سلمة بن عبد الأسد الأسدي ، وبذلك أرسل النبي إلى القوم

واحدا منهم يدعوهم إلى الإسلام والسلام ، فإن أطاعوا سلّموا ، وإن قاتلوا قُوتلوا حتى يقضى الله أمره .

فاجأ أبو سلمة بنى أسد فى عمّاية الصباح وهم غير مستعدين لقتال ، فاختراروا الفرار طلبا للنجاة . تفرقوا فى كل ناحية ، ونجوا جميعا . تركوا خلفهم كل ما يملكون من إبل وغنم ، استولى أبو سلمة عليها .

غنم المسلمون فى هذه السرية وعادوا إلى المدينة ورايتهم مرفوعة ، وهاماتهم منتصبه ، ووجوههم مستبشرة ، وقد ساقوا أمامهم الكثير من نَعَم بنى أسد . وقد أعادت إليهم هذه السرية الكثير من ثقتهم فى أنفسهم ، فما زالوا هم المقاتلين الأشداء الذين لا يخشون فى الله بطش مشرك أو منافق أو كافر .

إلا أن أبا سلمة لم يعيش طويلا بعد هذه السرية التى استمرت ما يقرب من عشرة أيام . كان قد جرح فى أحد ، والتأم الجرح التئاما ظاهريا ثم عاد فسال منه الدم بعد الجهد الكبير الذى بذله أبو سلمة وهو ينفذ أوامر النبى ، ظل الجرح ينزف دون توقف حتى قضى عليه .

ونعتقد أنه لو قد علم النبى بخطورة جرح أبى سلمة ما أرسله ، لكنه قضاء الله ، وكان قدره أن يموت شهيدا ، بعد أن حقق للمسلمين نصرا كانوا - من الناحية النفسية على الأقل - فى أشد الحاجة إليه .

٣- زواج النبى من زينب بنت خزيمة وأم سلمة وزينب بنت جحش:

تزوج النبى أم سلمة - هند بنت المغيرة - بعد أربعة أشهر من وفاة أبى سلمة . كانت مخزومية تنتمي إلى ما يمكن تسميته بالجماعة الارستقراطية بين القبائل العربية . كانت فى التاسعة والعشرين من عمرها ، أى فى قمة نضجها الأنثوى ، وعلى قدر من الجمال الذى لا تخطئه عين . ولقد تميزت بذكاء متوقد وعمق فى التفكير واتزان فى إبداء الرأى والمشورة ، مما جعل النبى يفضل اصطحابها معه كلما خرج فى غزوة ذات خطورة .

كان النبى ، بعد أحد وقبل زواجه من أم سلمة ، قد اتخذ لنفسه زوجة رابعة . وهى زينب بنت خزيمة المعروفة بأُم المساكين ، ويذكر الطبرى أنها كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها^٢ لكن يوجد بين المؤرخين من يؤكد أنها كانت أرملة عبيدة بن الحارث ،

^٢ الطبرى ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

شهيد بدر .^٣ لكنها توفيت بعد ثمانية شهور فقط من تاريخ زواجها من النبي ، وكانت الزوجة الوحيدة ، بعد خديجة التي ماتت في حياته .

يقول لينجز Lings فيما يختص بزواج النبي من زينب بنت خزيمة : عندما مات عبيدة بعد مبارزة مع عتبة ترك أرملة تصغره في السن بكثير ، هي زينب بنت خزيمة من قبيلة عامر . كانت تتمتع بقدر كبير من الطيبة والكرم وكانت تعرف ، ما قبل الإسلام بأُم المساكين . عندما عرض عليها النبي أن يتزوجها وافقت في رضى . وكان هذا النسب الجديد بلاشك هو الذى دفع أبا براء ، زعيم بنى عامر ، إلى أن يقوم بزيارة محمد .^٤

بعد زواج النبي بأُم سلمة ، بمدة ليست بالطويلة ، تزوج النبي زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، بعد أن طلقها زيد بن حارثة . وقصة هذا الزواج متشعبة ، كثرت فيها الأقاويل من بعض كتاب السيرة المسلمين الذين صوروها على أنها قصة حب جامح وغرام ملتهب . والنقطة المستشرقون ما كتبه بعض المسلمين فى هذا المجال ، وأضافوا إليه وحوروه ، فى محاولة ضارية للإساءة لسمعة النبي وتصويره على أنه رجل شهواني يحلل لنفسه ما يحرمه على غيره ، ولا يوقفه شئ إذا ما أراد أن ينال امرأة أعجبتة .

لقد ناقشنا هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابنا : سنوات مكة . ولن نطيل فى هذا الكتاب فى الكتابة عن أزواج النبي ، فهذا الموضوع يتطلب بحثا خاصا ، قد نقدم عليه بإذن الله لو اتسع الوقت وطال العمر .

نعتقد أن آية الزواج من أربع نزلت بعد " أحد " : " وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي النِّسَاءِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا " (النساء : ٣) . والمعروف - كما ذكرنا من قبل - أن ما يقرب من سبعين مسلما قُتلوا فى معركة " أحد " . هذا معناه أن عدد الأرامل كان كبيرا ، هذا بالإضافة إلى عدد البنات اللاتى فقدن آباءهن . ولمواجهة هذا الموقف ، أى هذه الزيادة غير المتوقعة فى عدد النساء غير المتزوجات ، كان لابد من الحض على الزواج بأكثر من واحدة ، مثنى وثلاث ورباع ، ولا يسمح للرجل أن يزيد ، بشرط أن يكون قادرا على إعالتهن وعادلا فى التعامل معهن ، فإن خاف عدم العدل بينهن فعليه فى هذه الحالة الاكتفاء بواحدة .

^٣ انظر هيكل ، ص ٢٦١ وكارين ارمسترونج ، ص ٢٨٧ .

^٤ Lings, p. 201.

وتضع الآية حدا لممارسات قديمة ، إذ كان بإمكان الرجل فى الجاهلية أن يتزوج بأكثر من عشر نساء ، ولم يكن هناك من الأعراف أو التقاليد المتوارثة ما يجعله يتوقف عن أن يضيف إلى عدد نسائه أى عدد آخر من النساء . حدد القرآن العدد بأربع ، مع العدل، ولا تجوز الزيادة ، لأنها فى هذه الحالة تكون خروجاً على الشرع .

يقول مونتجمرى وت إن الدارسين الغربيين وجدوا فى هذه الآية حضا لا قصراً، فهى تشجع الرجل الذى عنده امرأة واحدة أو اثنتين على أن يتزوج ثالثة ورابعة ، هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن فى المدينة حالات واضحة لتعدد الزوجات .⁵

إدعاء المستشرقين قاصر ويفتقر إلى معرفة الظروف التاريخية والبيئية والمجتمعية. لقد كان تعدد الزوجات موجوداً قبل الإسلام ، وبعد الإسلام . قبل الإسلام بقرون طويلة تزوج إبراهيم اثنتين وتزوج يعقوب أربعاً منهن اثنتين ، وتزوج داود عشرة ، أما سليمان فقد امتلك ألفاً من النساء . وفى حياة النبى احتفظ أحد رجال الطائف قبل إسلامه بثلاثين امرأة زوجات له . وفى المدينة ، بعد الإسلام ، كان هناك من يحتفظ بأكثر من زوجة ، بدليل أن أحد الأنصار عرض على أحد المهاجرين - وقد آخاه وعاش معه فى بيته - أن يُطلق إحدى زوجاته كي يتخذها المهاجرى زوجة له . كان العرض دليل حب ومودة من الأنصارى ، وكان الرفض دليل إكبار وامتنان من المهاجري .

بعد أحد - إذن - كان لابد من السماح بتعدد الزوجات ووضع شروط له ، حفظاً لعفاف المرأة وصونها لكرامتها ، كى لا تمتن وتجد نفسها مدفوعة إلى سوق الرذيلة ، خصوصاً وأن أماكن اللذة الجنسية المحرمة والخمر والميسر كانت منتشرة فى أحياء اليهود وبين بيوت المشركين والمنافقين . ولقد أشرنا من قبل إلى أن عبد الله بن أبى نفسه كان يمتلك بيتاً من هذه البيوت. ولا يجد فى ذلك ما يسئ . كان هذا السلوك مألوفاً فى الجاهلية حتى منعه الإسلام وحرمة تحريراً مطلقاً.

٤- - الغدر بالمسلمين :

شهداء الرجيع : رغم نجاح سرية أبى سلمة وعودته سالماً غانماً هو ورجاله ، إلا أن تحريض قريش للقبائل كان فاعلاً ومؤثراً. أغروا الأعراب بالهدايا والعطايا ، تحريضاً لهم على الغدر بالمسلمين قتلاً أو أسراً ، وقد وعدهم بعض أهل مكة بشراء الأسرى كى يقتلوهم بمن قتل لهم فى بدر. من هنا بدأت قصة الغدر المسماة بـ " يوم الرجيع " .

⁵ Montgomery Watt. Muhammad at Madina, p. 274 .

تذكر كتب التراث أن وفدا من عضل والقارة - وهما قبيلتان بدويتان نجديتان - قدم على النبي بعد أحد . أدعى الوافدون أن فيهم إسلاما . وطلبوا من النبي أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن ويفقههم في أمور الدين . استبشر النبي خيرا ، فهم الذين أتوا إليه طائعين لا مرغمين ، راغبين لا مكرهين ، وتمنى أن يكون مقدمهم بداية مبشرة بنشر الإسلام في ربوع نجد .

أرسل النبي معهم ستة رجال من خيرة أصحابه وهم : مرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وخالد بن اليكيز اللثي ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفتح ، وخبيب بن عدي ، وزيد بن الدثينة بن معاوية ، وعبد الله بن طارق ، وأمر النبي عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي .

كان ذلك في صفر على رأس ست وثلاثين شهرا من مهاجر النبي . ويذكر ابن سعد أن الذين خرجوا مع وفد عضل والقارة كانوا عشرة ولم يكونوا ستة ^٦.

خرج أصحاب النبي مع الوفد وهم آمنون ، مطمئنة قلوبهم ، راضية نفوسهم ، فهم حملة القرآن ومعلومه . ولم يدر بخلدهم أن غدرا يدبر لهم ، طمعا في مال قريش ، أو أخذا بثأر . ربما كان الثأر لمقتل زعيم بني لحيان من هذيل . كان النبي - كما يروى ابن سعد - قد أرسل عبد الله بن أنيس لقتل سفيان بن خالد بن ثبيح الهذلي بعد أن علم أن الهذلي قد جمع الجموع لمهاجمة المدينة . نجح عبد الله بن أنيس في اغتيال الزعيم الهذلي واجتز رأسه وحملها معه ، ويقال إنه عندما وضعها بين يدي النبي في المسجد ، قال النبي : أفلح الوجه ^٧.

ولا نميل إلى تصديق رواية ابن سعد ، فما كان النبي من دعاة الخيانة والغدر . وإذا كان عبد الله بن أنيس قد غدر بالهذلي وقتله غيلة فقد كان هذا سلوكا ذاتيا . ولا نعتقد أن هذا كان بأمر مباشر من النبي . ولا نصدق أيضا تلك الحكاية الخائبة ، التي أشرنا إليها من قبل ، والتي يدعي صاحبها أن النبي قد أرسل إلى مكة رجلا أو رجلين لاغتيال أبي سفيان في عقر داره . هذا كلام يخلو من الحكمة والتعقل ، ولا يقدم عليه صاحب رسالة سماوية يتبعها الآن مئات الملايين من البشر .

ولو كان النبي من دعاة الغدر والاغتيال ، لأمر باغتيال أبي سفيان وقد قدم إليه في المدينة بعد صلح الحديبية . كان من السهل إنهاء حياته بضربة سيف أو طعنه رمح أو انطلاقه سهم وهو في المدينة . ولم يكن حوله من الرجال من يستطيع حمايته . كما كان

^٦ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

^٧ انظر ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٥١ .

من السهل قتلة وهو فى طريق العودة إلى مكة والرحلة طويلة والطريق شاق . لكن النبى لم يفعل . وعاد أبو سفيان إلى مكة سالما .

على أية حال . وصل أصحاب النبى مع الوفد الذى اصطحبهم إلى ماء لهذيل بالقرب من مكة ، فى ناحية تعرف باسم " الرجيع " وهناك بدأ الغدر الذى لم يتوقعه أحد . استصرخ عليهم مصاحبوهم هذيلآ التى كانت تتحين الفرصة للثأر . خرج إليهم بنو لحيان ، فلم يرع القوم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم .

فوجئ أصحاب النبى ، وقد أحبط بهم استلوا سيوفهم . كان الموقف شديد الروع ، بالغ الخطورة . لم يكن أمامهم سوى القتال . لكن جماعة الغدر حاولت أن تأخذهم بالخدعة دون قتال ، خشية على أنفسهم من سيوف المسلمين . هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يريدونهم أحياء . طمعا فيما قد تدفعا قريش . قالوا لهم : إنا والله ما نريد قتالكم ، إنما نريد أن نصيب بكم ثمنا من أهل مكة .

وتمادي أهل الخيانة والغدر فى دنائتهم ، أضافوا : لكم منا العهد والميثاق ألا نقتلكم .

انقسم الستة الفقهاء إلى فريقين : فريق رفض أن يقبل عهدا من مشرك خان ، وفريق لآنت عزمته فمال إلى اختيار الحياة . عاصم ابن ثابت ، ومرثد بن أبى مرثد ، وخالد بن أبى الكير ، ومعتب بن عبيد ، استلوا سيوفهم ، قالوا : والله لا نقبل من مشرك عهدا وعقدا أبدا^٥ . قاتلوا فى شمم وإباء حتى سقطوا جميعا شهداء .

أما زيد بن الدثنة ، وخبيب بن عدى ، وعبد الله بن طارق فقد أعطوا بأيديهم ، استأسروا . ربط المشركون أيدي ثلاثتهم بالحبال . أرادوا رأس عاصم أيضا ليبيعه . كانت سلافة بنت سعد قد نذرت نذرا : لئن قدرت على رأس عاصم بعد قتله لتشربن فى فحقه الخمر كان عاصم بن ثابت قد قتل ابنا لها يوم أحد ، ويقال ابنين . رأس عاصم ، إذا ، نها ثمن . لهذا أراد خونة الأعراب قطعه وحمله معهم إلى مكة كى يبيعه . الأسرى . لكن قدرة الله القادر خيب رجاءهم وأفشلت تدبيرهم : حامت الذبذبة (جماعة النحل) حول جثة عاصم بأعداد هائلة فمنعته ، حالت بينه وبين المشركين فعجزوا عن تحقيق ما أرادوا .

فى الطريق إلى مكة شعر عبد الله بن طارق أنه أقدم على فعل ما كان يجب إلا يفعل . لقد سلم يده للقيد ، ونفسه للأسر ، وجسده للبيع ، كى تكون نهايته فى مكة القتل .

^٥ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

هذا ما كان يجب ألا يكون . لقد كان من الأشرف والأكرم أن يقاتل مع من قاتلوا ، ويقتل مع من قتلوا ، ولا يقال أعطى يده لأهل الشرك كي تقيد ، وهو صاغر مستسلم . ثارت نفسه وانفعل داخله فمزق قيده وانتزع سيفه ، وصاح : هيا ، قاتلوا !! وقد تبذرت أمامه ثمار الجنة وامتلأ صدره بعطرها ، لكنهم للأسف لم يقاتلوا . تأخروا عنه فزعا وجبنا ، رموه بالحجارة حتى قتلوه .

أما خبيب وزيد ، فقد وصل بهم خونة الأعراب إلى مكة ، وعرضاهما للبيع . زيد بن الدثنة ابتاعه صفوان بن أمية كي يقتله بأبيه أمية بن خلف ، وخبيب بن عدى ابتاعه حُجَيْر بن أبي إهاب لابن أخته عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليقتله بأبيه . حبسوهما حتى مرت الأشهر الحرم ، ثم أخرجوهما إلى التتعيم كي يقتلا .

بعث صفوان بن أمية زيد بن الدثنة مع مولى له إلى التتعيم كي يقتل هناك . ويقال إن جمعا من قريش اجتمع في التتعيم كي يشهد نهاية زيد ، والموقف فيه مفارقة وشئ من التشابه يسترعيان الانتباه . لقد قتل أمية بن خلف في معركة بدر وهو أسير ، أى بعد أن استسلم ، لكن بلالا ألب عليه جموع المسلمين بصيحته المروعة : هذا هو أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا !! وأحاط المسلمون به ويولده وهبروهما بالسيف . ولم يغن عنه أسره شيئا وقد كان صديقا له في مكة .

وها هو ذا زيد بن الدثنة بمكة ، بعد أن سلم نفسه واستأسر ، يساق إلى القتل . لكن المفارقة تكمن في أن أمية بن خلف ذهب إلى بدر مقاتلا . أما زيد فقد خرج مع من غدروا به معلما وهاديا ومرشدا .

ويقال إن أبا سفيان تقدم إلى زيد قبل أن يقتل . طلب منه أن يعلن تكذيبه لما يقول محمد وأن ينكر دعوته ويرتد إلى دين الآباء ، وعندها تُمنح له الحياة . أبى زيد أن يكذب أو ينكر . أعلن إيمانه المطلق بسلطان الوحي المطلق . قرر أن يواجه قدره .

تقدم منه أبو سفيان - كما يحكي ابن إسحق - قال : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ^٩ .

أنكر زيد تساؤل أبي سفيان واستعلى عليه . كان رده موجعا لأبى سفيان ومن معه . قال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذى فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس في أهلى .

^٩ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ١٦٤ .

هكذا انتهت حياة زيد . قتله نسطاس ، مولى صفوان بن أمية . وانضم إلى
موكب الشهداء .

أما خبيب بن عدى ، وكان قد حبس فى بيت ماوية مولاة حُجير بن أبى إهاب ،
فتحكى عنه حكايات نعتقد أن قد أبدعتها قرائح بعد المتورعين . مما يحكى عنه - على
سبيل المثال - أن ماوية اطلعت عليه يوما وهو فى محبسه لا يقربه أحد فإذا بيده قطفا
(عقودا) من عنب فى حجم رأس الرجل ، يأكل منه . وما كان فى أرض الله فى تلك
الأيام عنب يؤكل ^{١٠} .

كان فى مخيلة كتاب القصة السابقة ، بكل تأكيد ، صورة مريم ابنة عمران فى
محرابها . يدخل عليها زكريا ، يجد عندها رزقا ، يسألها من أين لك هذا ؟ تقول : هو
من عند الله . وتتعكس صورة مريم فى محرابها على خبيب فى محبسه . وبدلا من زكريا
تدخل ماوية فتجد عند خبيب رزقا ، فأكفه يأكل منها وما هو أوانها . أناه رزقه ، كما أتى
مريم ، من عند الله . ويقال أن ماوية أسلمت فيما بعد .

ومما يثبت عدم صحة الرواية السابقة ، وأنها مجرد عملية إبداع جمالى ، ما ذكره
ابن سعد من أن خبيبا لم يحبس فى بيت ماوية . وإنما حبس فى بيت موهب مولى
الحارث بن عامر . ويورد ابن سعد قول موهب : قال لى خبيب وقد جعلوه عندي : يا
موهب أطلب إليك ثلاثاً : أن تسقيني العذب وأن تجنبنى ما ذبح على النصب وأن تؤذنى
إذا أرادوا قتلى ^{١١} .

عندما حان وقت قتل خبيب ، خرجوا به إلى التنعيم . طلب منهم أن يبتعدوا عنه
قليلا ، سويحات قبل الموت . فعلوا . رفع يديه إلى السماء وكبّر . وحيدا . بين يدي الله .
بدأ يصلى . ركع ركعتين ، أتمهما وأحسنهما . فلما رفعوه وأوثقوه . قال : اللهم إنا قد بلغنا
رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا . وقبل أن توجه إليه الحربة القاتلة ، كانت
صيحته الأخيرة : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا .

زلزلت الصيحة الجمع الذى حضر من قريش ، ألحقوا بأنفسهم إلى الأرض فرقا ،
فزعا من دعوة خبيب . كانوا يعتقدون أن الرجل إذا دُعي عليه فارتمي على جنبه نجا
وزلّت عنه .

^{١٠} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

^{١١} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

مع الصبيحة الأخيرة ، اخترقت الحربة جسد خبيب ، انطلقت الروح إلى بارئها .
انضم خبيب هو أيضا إلى موكب الشهداء .

شهداء يثر معونة :

كان ذلك في صفر على رأس سته وثلاثين شهرا من الهجرة ، على بعد أربعة أشهر من " أحد " ، وتبدأ قصة هؤلاء الشهداء الأربعين ويقال السبعين^{١٢} ، عندما قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ، المعروف باسم ملاعب الأسنة ، إلى المدينة وقد ربطته بالنبي صلة نسب عندما تزوج النبي زينب بنت خزيمة أرملة عبيدة بن الحارث - كما سبق وذكرنا - وكانت ابنة كبير قبيلة عمير .

عرض النبي الإسلام على أبي براء ، فلم يستجب ، رفض الدخول في الإسلام لكنه - كما يقول ابن إسحق - لم يبد نفورا منه ، أى بدا كأنه فى موقف حياد بين الإسلام والشرك ، لا يظهر عداً لأى منهما .

لكن الغريب فى الأمر أنه طلب من النبي أن يرسل بعضا من أصحابه إلى أهل نجد مؤملا أن يستجيبوا له ويؤمنوا بما جاء به . هذا هو وجه الغرابة فى موقف أبى براء . هو نفسه لم يؤمن رغم صلته بالنبي وتعامله المباشر معه ، ومع ذلك يتوقع أن يؤمن من لا يعرفون النبي ولم يروه ، ومن هم خاضعون لتأثير قريش ودعايتها وإغراءاتها . لو آمن هو أولا ، لقلنا صدق الرجل ، وطلبه هذا دليل على حماسة للدين الجديد ، ورغبته فى أن ينتشر هذا الدين بين قبائل العرب . لكن هذا الأبى براء - الذى قال للنبي : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك - كان مشركا .

والمنطق العقلاني المتزن لابد وأن يدفع صاحبه إلى الاعتقاد بأنه من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يتحمس مشرك لنشر الإسلام ورفع رايته . وهذا ما عبر عنه النبي عندما قال : إني أخشى عليهم أهل نجد . وكان رد أبى براء : أنا جار لهم . فابعثهم فليدعوا الناس إلي أمرك^{١٣} .

رد أبى براء فى حاجة إلى وقفة . إن إجارتته لأصحاب النبي الأربعين ، أو السبعين ، معناها أنه مسئول مسئولية كاملة عن سلامتهم فى ذهابهم وأثناء قيامهم بنشر الدعوة ، وأثناء عودتهم أيضا عندما تحين . فهل كان أبو براء يستطيع ؟ هل كان يمتلك

^{١٢} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٨١ .

^{١٣} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

من القوة والمنعة ورفع الشان ما يمكنه من حماية هذا الجمع من الدعاة وهم يتحركون في ربوع نجد ؟ هل كان في وعده هذا ما يجعل النبي وأصحابه يشعرون في أعماقهم بالطمأنينة والأمان ؟ هل كان من الممكن أن يشعر الدعاة جميعا بالثقة في كلمات مشرك أجارهم ؟

قد يقول قائل : لقد أجار مشرك النبي عندما عاد محزوننا من الطائف ، ولم يجد بين المسلمين من يستطيع إجارته . كما لم يجد بين عشيرته - وقد مات أبو طالب - من يرغب في التصدي لقريش بالإعلان عن حمايته ، لم يفعلها العباس رغم تعاطفه ، ولم يقدم عليها حمزة رغم فتوته ، أما أبو لهب فقد كان من أشد المنكرين لرسالة ابن أخيه ومن أعنف الغاضبين عليه . هنا تقدم المطعم بن عدي وأعلن على الملأ أمام الكعبة أنه أجار محمدا . فعل ذلك ومحمد بيده ومن حولهما رجال المطعم بن عدي وسيفوفهم في أيديهم مشرعة . كان المطعم ابن عدي مشركا ، لكنه كان يملك من القوى والمنعة ما يمكنه من مقدرة الفعل . ولم ينس له النبي هذا الفضل أبدا . ولقد شرحنا ذلك بالتفصيل في كتابنا : سنوات مكة .

لكن أبو براء لم يكن المطعم بن عدي ، قوة ومكانة ورفع ، كما أن الذي أجاره المطعم كان فردا واحدا يعيش في جواره ويمكن بكل سهولة الدفاع عنه وحمايته ، أما الدعاة من أصحاب النبي فقد كانوا عددا كبيرا وكان عليهم أن يتحركوا في مساحات شاسعة ، فكيف لأبي براء بحماية كل هؤلاء وقد أجارهم ؟

نرى أن أبا براء كان يمتلك مقدرة الكلام ، لكنه كان لا يمتلك مقدرة الفعل . ويجدر بنا أن نذكر هنا المقولة الرائعة ، باللغة الصدوق ، لعاصم بن ثابت ، وقد غدر به وبأصحابه الأعراب يوم الرجيع ، ووعدوهم بعدم القتل إذا ما استسلموا ، قال عاصم : والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا .

هذه المقولة كان يجب أن تحفر في ذاكرة المسلمين حفرا كي لا تنسى ، وأن تغوص في أعماقهم غوصا كي لا تمحي ، بعد كارثة أصحاب الرجيع ، وما كان يوم الرجيع ببعيد .

لقد انتشر ذكر أصحاب الرجيع ، وذاعت قصة الغدر بهم ، وحزن المسلمون ، ليس فقط لمقتل أصحابهم ، ولكن أيضا لما آل إليه حالهم بعد هزيمة أحد من استخفاف الأعراب بهم وهوان أمرهم على الناس . كان يجب توخي الحذر ، وإطالة التفكير ،

واستشارة الصحابة ومعرفة رأيهم ، قبل التفكير فى إرسال بعث آخر - وبعدد ضخم - إلى أرض غير آمنة ، لا إسلام فيها ولا سلام .

لكن يبدو أن أبا براء ألح وزاد فى إلحاحه ، ووعد وبألف فى وعده ، وأكد الإجابة وتحمل مسئوليتها. ولا نعتقد - إن لم تكن مخطئين - أن هدف أبا براء من ذلك كله هو نشر الإسلام وإعلاء كلمته ، وإلا لأسلم هو نفسه أولاً ، قبل أن يطلب إرسال بعث لهداية غيره. ربما أراد أبو براء - ولم يعلن - أن يستعين بهؤلاء الأربعة ، أو السبعين ، فى صراعه ضد بعض المنشقين المناوئين له فى قبيلته .

لم يكن أبو براء قادراً على تنفيذ ما وعد . وهذا ما سيثبتته الحدث . بعث النبى المنذر بن عمر الساعدى على رأس جماعة من خيار المسلمين ، منهم الحارث بن الصنمّة ، وحرام بن ملحان أخو بنى عدى النجار ، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ، ونافع بن بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي ، وعامر بن فُهيرة مولى أبو بكر .

ساروا حتى بئر معونة وهى أرض بين مكة والمدينة ، بين أرض بنى عامر وحرّة بنى سُلَيْم . وإن كانت إلى بنى سُلَيْم أقرب . عندها أرسلوا رسولا لهم ، هو حرام بن ملحان ، بكتاب النبى إلى عامر بن الطفيل ، وفيه عهد الجوار الذى قطعه أبو براء على نفسه .

وكان عامر بن الطفيل ، فيما سبق ، وقد حسب النبوة ملكاً ، قد خيّر النبى بين ثلاث: أن يكون للنبى أهل السهل وله أهل المدر ، أو أن يكون خليفة للنبى ، أو أن يغزو النبى بغطفان . ولم يحصل عامر من النبى على شئ مما طمع . وبناء عليه ، فما أن قدم عليه الصحابى الجليل بكتاب النبى ، حتى أقدم على قتله فى الحال ، دون أن ينظر فى كتابه ، ثم استصرخ بنى عامر وطلب منهم محاصرة المسلمين والقضاء عليهم . لكنهم - فيما يروى ابن سعد - أبوا أن ينقضوا عهد أبى براء ، قالوا : لا يُخَفَّر جوار أبى براء . فاستصرخ عليهم قبائل من سُلَيْم عُصْنَة ورِعْلًا وَذَكَوَان فَأَجَابُوهُ . نفروا معه ورأسوه . واستبسط القوم حراماً فأقبلوا فى أثره ، فلقى القوم وأحاطوا بهم ، فكاثروهم ، فقتلوا ، فقتل أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفيهم سليم بن ملحان والحكم بن كيسان ، فى سبعين رجلاً . فلما أحيط بهم قالوا : اللهم إنا لا نجد من يبلغ رسولك منا السلام غيرك فأقرئه منا السلام ، فأخبره جبرائيل بذلك .^{١٤}

^{١٤} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

قتل أصحاب بئر معونة غدرا ، كما قتل أصحاب الرجيع ، ولم ينج منهم إلا كعب بن زيد ، فقد تركه أتباع عامر بن الطفيل وبه رمق ، فعاش حتى غزوة الخندق ، ويومها سقط شهيدا .

كان فى سرح أصحاب بئر معونة رجلان ، هما عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار من بنى عمرو بن عوف ، عادا بسرهما فوجدا أصحابهم جثتا هامة غارقة فى دمائها ، تحوم فوقها الطير ، ورجال بنى عامر بن الطفيل واقفون يشهدون ما خلفته المذبحة المروعة . عز على الأنصارى أن يعود إلى المدينة حيا دون صاحبه . فهاجم القوم وحده وقاتل حتى قتل . وهذا ضرب من ضروب الشجاعة النادرة التى قد يعتبرها البعض تهوراً ، إذ أنه من العبث العقيم أن يهاجم رجل بمفرده جيشا بأكمله . ويتوقع أن يهزم الجميع بسيفه . لكن الأنصارى لم يكن هذا منطقة . لقد فضل أن يروح شهيدا على أن يعود إلى المدينة منكسرا مهزوما .

أما عمرو بن أمية ، فقد أخذوه أسيرا ، وكانت طبيعة الموقف تملئ عليه ، ما دام قد رفض القتال إلى جانب صاحبه واستسلم ، أن يتوسل إليهم كي يبقوا على حياته . ويقال إنه لما أخبرهم أنه من مضر ، أطلقه عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت على أمه^{١٥} ، لكنه إمعانا فى تحقيره وإذلاله جز ناصيته .

فى طريقه إلى المدينة ، التقى عمرو بن أمية برجلين من بنى عامر ، فقتلها غدرا وهما نائمين ، معتقدا أنه بذلك قد أخذ بثأر بعض من قتلوا من أصحابه . ثم قدم على النبى فأخبره بمقتل أصحاب بئر معونة ، وبقتله هو للعامريين ، متصورا أن النبى سيمتدح فعلته ، لكنه فوجئ بالنبى يقول : بئس ما صنعت ! قد كان لهما منى أمان وجوار ، لأدينيهما . فبعث بديتهما إلى قومه^{١٦} .

حزن النبى لمقتل أصحابه حزنا دفعته حدته وعمقه إلى أن يظل قائتا لمدة شهر كامل ، يدعو كل صلاة صبح على رعل وذكوان وعصية وبنى لحيان . ويقال إنه قد نزل فى أصحاب بئر معونة قرآن ، ظل يقرأ زمنا ، ثم رفع أو نسى : بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا ، فرضي عنا ورضينا عنه^{١٧} .

^{١٥} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

^{١٦} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

^{١٧} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

ونورد هنا رأياً للإمام الشيخ محمد أبو زهرة يؤكد ما ذكرناه من قبل . يقول الإمام:
إن هذه ثاني غدره برسل النبي صلى الله عليه وسلم ، ليغدر بهم ، وكانت الأولى في يوم
الرجيع ، وهذه في بئر معونة .

فهل كان خداع النبي .. وهو قائد الأمة سهلاً بهذا الشكل ، فنقول لهم : لم يكن
الخدع بعيداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بشر كسائر البشر ، يحتاط وكفاه ،
وقد فرض الله سبحانه أن يخدع ، والكريم المخلص يخدع ^{١٨}.

٥ - إجلاء بني النضير:

تدهور موقف المسلمين في المدينة بعد هزيمة أحد . وبعد الغدر بالرجال في بئر
معونة وعند الرجيع . استهان بهم المنافقون واستخف بهم اليهود ، كما طمعت فيهم قبائل
البدو خارج المدينة ، وكأنهم قد أصبحوا لا شوكة لهم ولا بأس ، ولا قوة ولا نفوذ، كل ما
كسبه بعد نصر بدر خسروه بعد هزيمة أحد وما تلاها من انكسارات .

نظر النبي حوله وتدبر أمره . الخطر الخارجي الذي تشجعه قريش ، وتغري به
وتدفع إليه ، واضح ويجب الإعداد له وترقيبه ، وربما يكون من الأفضل السير إليه
والقضاء عليه قبل تحركه . هذا لن يتأتي إلا بتأمين الجبهة الداخلية وضمان سلامتها .

لقد غدر اليهود من قبل ولم يحفظوا العهد . بنو النضير بالذات نقضوا الميثاق الذي
تم بينهم وبين النبي ، وكان من أهم بنوده ألا يساعدوا قريشا ضد محمد . لقد تبذرت خيانة
بني النضير واضحة عندما استقبل زعيمهم ، سلام بن مشكم ، أبا سفيان بن حرب وقد
خرج على رأس ما يقرب من أربعمئة مقاتل كي يثأر لهزيمة بدر . كان ذلك في ذي
الحجة من السنة الثانية للهجرة . ولقد كتبنا بالتفصيل ، من قبل ، عن تلك الغزوة التي
أطلق عليها " غزوة السويق " .

ما يهمنا من الإشارة إلى تلك الغزوة ، هو التذكير بما فعله يهود بني النضير الذين
استباح سيدهم وقائدهم ، سلام بن مشكم أسرار المسلمين ، وأحاط أبا سفيان وقد جاء
غازياً بكل ما يعرفه عن محمد وصحبه . كان كشف أسرار المسلمين لأبي سفيان خيانه .
لقد سمح بني النضير لأنفسهم بالبوح بنقاط الضعف ومكامن القوة وتمركزها فيما يختص
بمقاتلي المسلمين ، وفي هذا إمداد للعدو بما خفى عنه ، وتمكين له بالبطش ، بعد الإعداد
له ، بناءً على ما حصل عليه من معلومات .

^{١٨} أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٦٥٦ .

هكذا تورط بنو النضير مع قريش ، أصبحوا شركاء لهم في العدوان ، بعد أن خانوا العهد . كان لابد من معاقبة بنى النضير على هذا الغدر . لم يتسرع النبي في رد الفعل . كان ينتظر اللحظة المناسبة .

توجه النبي إلى قباء - في شهر ربيع الأول على رأس سبعة وثلاثين شهرا من مهاجره - حيث كان بنو النضير يعيشون على مقربة منها ، وكانوا حلفاء لبني عامر . اصطحب معه بعض كبار المسلمين ، ويقال إن عددهم كان عشرة فيهم أبو بكر وعمر وعلى وأسيد بن حضير .

كان النبي على علم بخيانة بنى النضير وتعاونهم مع قريش واستجابتهم لإغراءات أبي سفيان ، وعدم رغبتهم في وجوده بالمدينة ، وتحفزهم للبطش به إذا ما سنحت الفرصة . لكنه زيادة في التأكد ذهب إليهم . طلب منهم مساعدته في دفع دية العامريين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري وهو لا يعرف أن النبي قد منحهما جواره . لقد نص دستور المدينة على أن يتعاون اليهود مع المسلمين في دفع الديات ، وعدم تنفيذ هذا البند معناه الخروج على ما اتفق عليه والتوصل من تبعته .

حدث ما توقعه النبي داهنوا ، وناققوا ، واستقبلوه بمعسول الكلمات وابتسامات الرياء التي تخفى وراءها الضيق والحقد والشر . قالوا : نفعل يا أبا القاسم ما أحببت . قالوا ولم يفعلوا . تلكأوا . خلا بعضهم ببعض . تهامسوا . طال اجتماعهم . تظاهروا بأنهم يعدون للنبي وجبة طعام ، ولم يقدموا شيئا . والنبي وأصحابه جلوس ينتظرون جنب جدار من بيوتهم .

تأكدت شكوك النبي . إنهم ينوون الغدر . لقد كذبوا رسالته ، وتآمروا مع عدوه . وهم يفكرون بالتأكد في الانتقام لمقتل سيدهم وشاعرهم كعب بن الأشرف ، ولو نجحوا في قتل النبي نفسه لعدى انتقامهم شافيا لضغينه نفوسهم .

تقول بيتي كيلين Betty Kelen إن محمدا كان يعلم أن اليهود يريدون انتهاز أية فرصة لقتله . ولقد عرضت قريش على هذه القبيلة نفسها فكرة قتل محمد بعدما وصل المدينة . ومنذ ذلك الحين والرغبة في اغتياله موضوع حديث متصل . زد على ذلك أنه كان لدى اليهود مبرر كاف لقتله : إن قتل كعب بن الأشرف ، الشاعر المشهور ذائع الصيت ، ما كان ليكفر عنه إلا قتل شخصية مهمة لا تقل عن شخصية محمد .^{١٩}

^{١٩} Betty Kelen . p. 148 .

فجأة ترك النبي أصحابه ، فى هدوء عاد إلى مسجده بالمدينة دون أن يشعر أصحابه أنه عاد من حيث أتى . ولما أبطأ عليهم وطالت غيبته ، انصرفوا هم أيضا . انتهوا إليه وهو جالس فى المسجد . وعندما سألوه عن سبب انصرافه ، وعدم عودته ، أخبرهم بما لاحظته بعينه وأدركه ببصيرته . الخطر محقق به وبهم . لابد من اتخاذ موقف حاسم من بنى النضير ، قبل أن تتفاقم خطورة الموقف ، ويجد المسلمون أنفسهم محاصرين بقبائل البدو من الخارج ، على حين تفتك بهم قبائل اليهود من الداخل . عندها قد يطلب المسلمون النجاة ولا نجاة ، ويسعون للخلاص ولا خلاص ، وتكون الطامة القاصمة .

فى تحليلنا للموقف ، وتبيان مدى خطورة بنى النضير ، تجنبنا أن نشير إلى حكاية أن جبريل قد جاء النبي بخبر من السماء يحذره من أن اليهود سوف يقتلونهم بإلقاء صخرة عليه ، وأنهم انتدبوا لذلك عمرو بن جحاش . فهذه القصة - المذكورة فى كتب التراث ، ولا يخلو منها كتاب قديم أو حديث ، وينقلها الجميع نقلا فى تسليم كامل لمنطقها دون نقاش - فيها ما يكفى لإقناع جموع الأنقياء الورعين . لكن من المستحيل أن يقتنع بها قارئ غير مسلم ، فاليهود ينكرونها ويطالبون بالدليل على صدقها ، فلا هم ألّفوا حجرا ولا أحد يستطيع أن يثبت عليهم بالدليل القاطع أنهم حاولوا قتل النبي . ويرى بعض المستشرقين أنها قصة مفتعلة .²⁰ وهذا ما دفعنا إلى الاعتماد فى تحليلنا على المنطق الموضوعي والأدلة التى لا يمكن أن ينكرها أى يهودي أو مستشرق .

لقد نقض يهود بنى النضير العهد ، وخانوا من قبل ، واضمروا الغدر فيما بعد ، ولم تعد حياة المسلمين فى وجودهم آمنة . وما كان النبي ليُسمح أن يظلوا مصدر خطر وتهديد .

أرسل النبي إليهم محمد بن مسلمة برسالة شديدة الوضوح ، شديدة الإيجاز : أخرجوا من هذه البلدة فلا تسكنوني بها ، وقد هممتهم بما هممت به من الغدر . وقد أجلتكم عشرا . فمن روى بعد ذلك ضربت عنقه .²¹

كان النبي ، كعادته ، حلما صبورا . لم يتسرع فى اتخاذ قرار بإعلان الحرب على بنى النضير ، لم يأمر أصحابه بحمل السلاح وخوض معركة ، أو معارك ، تراق فيها الدماء . على العكس من ذلك ، أرسل لهم رجلا من الأوس - وقد كان بين الأوس وبنى النضير تحالفا أيام حربهم ضد الخزرج - أى رجلا قريبا من أنفسهم لا يضرهم لهم شرا

²⁰ Montgomery Watt, Muhammad at Madina , p.211.

²¹ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

أو عداء . طالبهم بالخروج في سلام ، دون شرط . وكان بإمكانهم ، بالطبع ، لو جئوا إلى أى مكان قريب أن يعودوا لأخذ ثمار نخيلهم ، أو جزء منه على الأقل .

لم يكن هناك ما هو أكرم من هذا العرض . ومن النادر أن يتعامل إنسان مع عدوه، بعد إثبات خيانتته ، بكل هذا التسامح والصفاء . لكن المستشرقين الذين تناولوا سيرة النبي لا يشيرون إلي أمثال هذه المواقف الشامخة في الاستعلاء على العدا ، ربما جهلا ، ربما إنكارا ، ربما ميلا لعدم ذكر مآثر النبي ، ومنهما هذا الصفح الكريم عن تأمرؤا ضده وأسأوا إليه .

ظل يهود بنى النضير عدة أيام يتحاورون : هل من الأفضل لهم أن يرحلوا فى سلام ، كما أمرهم النبي ، حاملين معهم كل ما يملكون ، على أن يعودوا عندما تطيب الثمار فيأخذوا منها ما يسمح لهم به النبي ؟ .. أو أن يختاروا الأسلوب الأخطر والأعنف، ألا وهو شحذ السيوف والتحصن فى الأطم والتمسك بالأرض والإصرار على القتال ؟ وإن اختاروا القتال ، هل يمتلكون من الطاقة ما يمكنهم من مواجهة محمد وأصحابه ؟ هل عندهم من الماء والطعام ما يكفى لو حاصره المسلمون وطال الحصار ؟ هل يجدون عوناً من يهود قريظة أو من قبائل عربية داخل المدينة أو خارجها ؟

فأجأهم عبد الله بن أبى برسالة جعلتهم يحسمون أمرهم : لا تخرجوا من دياركم ، وأقيموا فى حصنكم فإن ألفين معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان .^{٢٢} هكذا وعد ابن أبى : إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم !!

وجد اليهود أنهم لن يكونوا وحدهم ، وأن محمداً لن يقدر عليهم إذا ما انضم إليهم حلفاؤهم : لن يغادر بنى النضير ديارهم ، وليفعل محمد ما بدا له ، إن كان يريد القتال قاتلناه . هكذا تم إعلان العدا . وكان تعليق النبي واضح الدلالة والمضمون : حاربت يهود !! بعدها كبر وكبر المسلمون .

استعمل النبي على المدينة ابن أم مكتوم ، وحمل على راية النبي وتقدم الصفوف . تحصن اليهود فى أطمهم ، وبدأ الحصار . لم يخرج اليهود ويقاتلوا فى التحام مباشر مع المسلمين ، فقد أجلوا ذلك إلى حين وصول المدد الذى تم وعدهم به . اكتفوا برمي المسلمين بالنبل والحجارة .

^{٢٢} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

طال الحصار خمسة عشر يوما ، لم تصلهم نجدة أو مدد . اعتزلتهم قريظة فلم تُعْنِهِمْ . ويقال إن كعب بن أسد صاحب عهد بنى قريظة قال : لا ينقض العهد رجل من بنى قريظة وأنا حي .^{٢٣} وخذلهم ابن أبى ، كما هى عادته ، ولم يستجب لهم حلفاؤهم من غطفان . عندها ينسوا من النصر .

وكى يزيد النبي من يأسهم ، ويقضى علي أي أمل لهم في البقاء حيث هم ، أمر المسلمين بتقطيع النخل وتحريقه ، ما توقعوا أن يحدث هذا أبدا . نادوا : أن يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها .^{٢٤}

ضاقبت بهم السبل ، ما كان لهم من خلاص . أعلنوا لإذعانهم لأمر النبي : الخروج بكل ما يملكون . رفض النبي . العرض قبل القتال لا يمكن أن يكون هو نفس العرض بعد القتال . عليهم أن يخرجوا ولهم دماؤهم وما تحمل الإبل ، على أن يكون لكل ثلاثة منهم بعير ، لا يزيدون وحرّم عليهم النبي حمل السلاح ، كان عليهم أن يتركوه .

خرج بنو النضير جميعا ، رجالا ونساء ، وشيوخا وأطفالا - لم يرق فيهم دم - على ستمائة بعير . ويروى ابن إسحق أنهم استقلوا بالنساء والأبناء والأموال معهم الدفوف والمزامير والقيان (الجوارى المغنيات) .^{٢٥}

خرجوا في زهو وخيلاء وكبرياء . ينظرون إلى من عداهم ومن عاداهم في ازدراء واستعلاء ، وكأنهم هم أصحاب الكلمة العليا ، المنتصرون . توجهوا إلى خيبر ، وسار بعضهم إلى الشام . وكان ممن استقر من أشرفهم في خيبر سلّام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع ، وحِيتى بن أخطب . هناك سادوا ، ودان لهم بقية اليهود .

ترك بنو النضير من الأموال الكثير ، ومن الحلقة (السلاح) ما كان المسلمون فى أشد الحاجة إليه : خمسين درعا ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً . وقد وهب النبي سعد بن معاذ سيف ابن أبى الحقيق ، وكان من السيوف النادرة التى يتمني حملها أى مقاتل . وكانت أراضي بنى النضير شديدة الخصوبة ، وقد كانوا مهرة فى زراعة الأرض والعناية بها . ولم تكن أرض نخيل فقط ، بل كانت أيضا أرض قمح وشعير . وهكذا أفاء الله على المسلمين .

لم تقسم الغنائم على المسلمين جميعا ، مهاجرين وأنصار ، إنما خص النبي بها المهاجرين ، بعد أن حدد قسما منها يخصص ريعه (عائده) للفقراء والمساكين وابن

^{٢٣} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

^{٢٤} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ١٩٢ .

^{٢٥} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ١٩٣ .

السبيل. استشار النبي الأنصار في ذلك فوافقوا جميعا دون تردد ، ذلك لأن المهاجرين بعد وصولهم المدينة كانوا يقاسمون الأنصار أموالهم وزروعهم ودورهم ، وكان عليهم بعد الحصول على أموال بني النضير أن يستقلوا ، وبذلك ترفع الموساة التي التزم بها الأنصار تجاه المهاجرين . لم يشذ عن إجماع الأنصار إلا رجلان هما : سهل بن حنيف وأبا دجانة سيماك بن خرشة . فقد ذكرا فقرهما ، وأعطاهما النبي . ويقال إن الحارث بن الصمة كان هو أيضا قد ذكر حاجته فأعطاه النبي .^{٢٦}

أسلم من بني النضير رجلان ، لم يسلم غيرهما ، هما : يامين بن عُمير بن كعب ، وأبو سعد بن وهب ، وبذلك ضمنا أموالهما وأرضهما .

تحريم الخمر : وبعد غزوة بني النضير ، تم تحريم الخمر تحريما قاطعا ، بحيث لا يمكن لمسلم ، آمن بالله والرسول وما أنزل إليه ، أن يقربهما : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ " (المائدة : ٩٠-٩١) .

٦- غزوات بلا قتال :

١- ذات الرقاع . اختلف في تحديد تاريخ هذه الغزوة . يقول ابن إسحق إن النبي أقام بالمدينة بعد غزوة بني النضير شهرى ربيع وبعض شهر جمادى ، ثم غزا نجدا . أما الواقدي فيقرر أنها كانت في المحرم سنة خمس من الهجرة^{٢٧} ، ويتفق معه ابن سعد في تحديد هذا التاريخ .

كان سبب هذه الغزوة وصول خبر إلى النبي يعلمه أن قبيلتي بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع ، وهم يعدون العدة لغزو المدينة . وبدلا من أن ينتظر المسلمون الغزاة ، سارعوا هم بالخروج إليهم . كان لابد من استرجاع الهيبة . وإظهار القوة ، خصوصا بعد أن نجح المسلمون في إخراج بني النضير . استخلف النبي على المدينة عثمان بن عفان ، ويقال أيضا ذر الغفاري ، وخرج في أربعمائة من أصحابه .

اختلف المفسرون في سبب تسمية الغزوة بذات الرقاع . يقول الواقدي : إنما سميت ذات الرقاع ، لأن الجبل الذي سميت به ذات الرقاع جبل به سواد وبياض وحمرة ،

^{٢٦} الباقوري ، ص ١١٢ .

^{٢٧} الطبري ، ج ٢ ، ص ٦١ .

فسميت الغزوة بذلك لجبل^{٢٨} . وفي سيرة ابن هشام عدة تفسيرات مختلفة : وأما تسميتها بذات الرقاع فلأنهم رفعوا فيها راياتهم ، وقيل : لشجرة في ذلك الموقع يقال لها ذات الرقاع .. لأن هذه الشجرة كانت الغرب تعبدها ، وكل من له حاجة منهم يربط فيها خرقة ، وأغرب الداودي فقال : سميت ذات الرقاع لوقوع صلاة الخوف فيها ، فسميت بذلك لترقيع الصلاة فيها . لكن أصح هذه الأقوال كلها - كما قال السهيلي - ما رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ستة نفر بيننا بغير نعتقه ، فنقبت أقدامنا ونقب قدمائنا وسقطت أظفارنا فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا^{٢٩} .

لقى النبي جمعا عظيما من غطفان . ما كان يتوقعه . ورقب القوم القوم ، وخاف الناس الناس ، ولم يكن بينهم قتال . هذا ما رواه ابن إسحق ، لكن ابن سعد يقول إن النبي بعد أن وصل محال بني محارب وبني ثعلبة لم يجد في محالهم إلا نسوة فأخذهن . وهربت الأعراب إلى رؤوس الجبال . وحضرت الصلاة فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم أثناء الصلاة . وصلى النبي بالمسلمين صلاة الخوف فكان ذلك أول ما صلاها^{٣٠} . صلي بطائفة ركعتين ثم سلم وطائفة مقبلون على العدو ، ثم جاء الذين كانوا في مواجهة العدو فصلى بهم ركعتين آخرين ثم سلم . ثم انصرف راجعا بالناس ، بعد أن غاب عن المدينة خمس عشرة ليلة .

ويقال إنه في هذه الغزوة حاول رجل من بني محارب قتل النبي . وجد النبي يستريح تحت شجرة وسيفه معلق بها فأخذه واستله ولوح به تجاه النبي ، وهو يقول : يا محمد ألا تخافني ؟ أجاب النبي في سكونة : لا ، وما أخاف منك ؟ قال الرجل وهو يقترب ملوحا ومهددا : فمن يمنعك مني ؟ وبنفس سكونة الروح وطمأنينة النفس ، قال النبي : الله يمنعني منك .

وجد الرجل نفسه محاصرا وقد أحاط به المسلمون وتهددوه . فأغمد السيف وعلقه حيث كان . ويقال إن السيف سقط من يد الرجل قبل أن يغمده . وخضع الرجل . ورغم أنه لم يعلن إسلامه إلا أنه عاهد النبي على ألا يقاتله ، فعفا النبي عنه وخلي سبيله .

عاد النبي وصحبه من هذه الغزوة دون قتال . لكن خروجهم كان له معني ومغزي . لقد استعادوا بعض مكانتهم وهيبتهم التي فقدت بعد أحد ، وفرضوا على قبائل غطفان

^{٢٨} الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

^{٢٩} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

^{٣٠} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٦١ .

إرادتهم ومنعواهم من الاقتراب غزاة من المدينة. وكان في هذا الحراك تحذيرا ونذيرا
لبقية القبائل المعادية .

٢- غزوة بدر الموعد :

لما قدم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المدينة من غزوة ذات الرقاع ، أقام بها
بقية جمادى الأول وجمادى الثاني ورجب ، ثم خرج في شعبان (سنة أربع) إلى بدر
لميعاد أبي سفيان حتى نزله .^{٣١}

كان أبو سفيان ، بعد نصره في أحد ، قد نادى قبل أن ينصرف عائدا إلى مكة :
الموعد بيننا وبينكم بدر رأس الحول (بعد عام) نلتقى بها فنقتل . وأعلن عمر موافقة
النبي . افترق المتحاربون وقد تأكدوا أن لهم في القتال جولة قادمة . كان أبو سفيان يريد
أن ينتقم في " بدر " لقتلى بدر ، أى في ذات المكان الذى قتلوا فيه ، ولم يكتف بقتلى
المسلمين فى أحد . وكان المسلمون يريدون رد اعتبارهم بالانتصار فى معركة تمحي من
الأذهان هزيمة أحد .

العام كان عام جذب ، اشتدت فيه حاجة الناس وبلغت معاناتهم درجة لا تشجع على
الخروج لقتال . أرسل أبو سفيان أحد المأجورين ، وقد وعده بعشرة فرائض إن نجح فى
تنشيط همم المسلمين وإيهامهم أن قريشا قد خرجت لهم فى جمع لا يقدرّون عليه ولا طاقة
لهم به . اندس بين الناس بالفعل وهم يتجهزون . حاول أن يحضهم على القعود ويبعث
فيهم روح الانهزام ، مدعيا أنهم سيهزمون لو خرجوا ، كما هزموا من قبل .

ويقال إن عبد الله بن أبى ، رأس النفاق فى المدينة ، قد قام هو أيضا بنفس الدور ،
محاولا إخافة المسلمين مما قد يحدث لهم لو خرجوا ثانية للقاء قريش . لقد نصحهم قبل
أحد ولم يأخذوا برأيه ، فهزموا وكانت خسارتهم فادحة . وعليهم أن يستمعوا إليه
الآن ويطيعوه .

تخاذل القوم . علم النبي بما حدث . أسرع إلى لقاء الناس . أعلن أمام الجميع فى
جسم قاطع : والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد .

تشجع الناس . سرى بينهم الحماس . أذهب الله عنهم الرعب . أحاطوا بالنبي .
أعلنوا أنهم لن يتخلوا عنه وأنهم ناصروه مهما بلغت قوة قريش ، ومهما بلغ وعيدها
وتهديدها . تجمع جيش المسلمين . بلغ عددهم ألفا وخمسمائة ، معهم من الخيل عشرة
أفرس ، ومن السلاح أفضله ، بعد ما غنموه من سلاح بنى النضير .

^{٣١} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

استخلف النبي على المدينة عبد الله بن رواحه . وفى هذا يتفق الطبرى مع ابن سعد^{٢٢} . لكن ابن إسحق يقول إنه استخدم على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى^{٢٣} . ويأخذ الكتاب المحدثون ، من أمثال هيكل وأبى زهرة ، عن ابن إسحق ويتبعون قوله ، على أساس أن كل كتاب السيرة عيال على ابن إسحق .

أقام المسلمون ببدر ثمانية أيام ولم يصل أبو سفيان : تاجر المسلمون ببضائع كانت معهم . وكانت بدر سوقا تقام كل عام لمدة ثمانية أيام ثم يتفرق الناس ، وقد حان وقتها^{٢٤} فباع المسلمون ما حملوا وربحت تجارتهم ، وعادوا إلى المدينة دون قتال .

أما أبو سفيان فقد خرج بالفعل من مكة على رأس ألفين من القريشيين ومعهم خمسون فرسا . خرج فقط حفظا لماء الوجه وتحقيقا لوعده قطعه على نفسه ، لكنه لم يكن ينوى القتال . وعلى ذلك ، فإنه بعد مسيرة يومين توقف ونادي فى الناس ، قال : ارجعوا ، فإنه لا يصلحنا إلا عام خصب غداق نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جذب فإني راجع فارجعوا^{٢٥} . ورجع أبو سفيان ، ورجع الناس .

كان خروج أبى سفيان وعودته هو ومن معه مثار تعليقات ساخرة من أهل مكة ، قالوا : خرجوا يشربون السوق ! وعاتب صفوان بن أمية أبا سفيان قائلا : قد نهيتك يومئذ أن تعد القوم وقد اجترؤوا علينا ورأوا أن قد أخلفناهم .

الغزوة ، إذن ، رغم عدم التقاء الجمعيين بسبب تخاؤل أبى سفيان ، كانت فى صالح المسلمين الذين استردوا الكثير من ثقتهم فى أنفسهم وفى مقدرتهم على السير إلى العدو بدلا من انتظاره ، لقد بدأوا يحون من الذاكرة آثار هزيمة أحد .

٣- دومة الجندل :

كانت فى شهر ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة . وقيل فى سببها أنه قد بلغ النبي أن بدومة الجندل جمعا كثيرا يقطعون الطريق على من يمر بهم ، يسلبونه وينتهبونه . هذا إلى جانب أنهم قد طمعوا فى الاقتراب من أطراف المدينة وترويعها .

لم تكن دومة الجندل ناحية مكة وما حولها ، أو نجد وما قاربها ، حيث اعتاد المسلمون القتال ، لكنها كانت ناحية الشام ، فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس ، على مسير خمس أو ست عشرة ليلة من المدينة . كانت فرصة للمسلمين كي

^{٢٢} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٥٩ . الطبرى ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

^{٢٣} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

^{٢٤} تقام السوق لهلال ذى القعدة إلى ثمان تخلو منه .

^{٢٥} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

يقتربوا من مناطق يحكمها قيصر الروم ، بذلك يكتسبون خبرة أوسع ومعرفة أكثر بمناطق لم يقربوها في القتال من قبل .

استخلف النبي على المدينة عرْقُطَةُ الغفاري ، وهذا معناه أنه لم يكن يخص بالاستخلاف على المدينة أحدا من أصفِيائه سواء كان قريشياً أو أوسياً أو خزرجياً . كان النبي يستخلف من كان يراه جديراً بالاستخلاف منحياً جانباً كل الاعتبارات الأسرية أو القبلية .

خرج النبي في ألف من المسلمين . كان يسير ليلاً ويكمن نهاراً . ربما بسبب حرارة الجو ، وربما لمفاجأة العدو . وكان مع المسلمين دليل من بنى عذرة ، خبير بالأرض ودروبها ومسالكها .

وعند اقتراب المسلمين من دومة الجندل ، رأوا آثار النعم والشاء فهاجموا الرعاة، وأصابوا منهم من أصابوا وهرب من هرب في كل وجه . وصل الخبر أهل دومة الجندل فتنفروا ، وعندما نزل النبي بساحتهم لم يجد أحداً ، فأقام بها أياماً ، ولم يكن هناك قتال . وعاد النبي إلى المدينة بعد شهر من خروجه للغزو .

اطمأنت أحوال المسلمين في المدينة ، واصل النبي رسالته ورعايته للدولة الإسلامية الناشئة ، لكنه في نفس الوقت كان يبتثري العيون ويستطلع الأخبار ، كي لا يفاجأ بغدر من قريش أو يهود .

الفصل السادس

من الخندق إلى الحديبية وخيبر

الفصل السادس من الخندق إلى الحديبية وخيبر

(١)

غزوة الخندق

دور اليهود :

يهود بنى قينقاع ويهود بنى النضير ، الذين طردوا من أرض عاشوا فيها سنين طويلة لدرجة أنهم اعتبروها أرضهم ووطنهم ولاحق لأحد غيرهم فيها ، ما كانت رؤوسهم الحاقدة لتهدأ أو تهجع دون أن تترك ثأرها . لقد جاءهم محمد شريدا طريدا ، مهانا من قومه ، هاربا من محاولة قتله ، فإذا به فى المدينة يجد من يستجيب لدعوته ويدافع عنها حتى الموت . يكثر عدد أتباعه وينتشر نفوذه فيسود ويصبح صاحب الكلمة العليا . ولا يكتفى بذلك ، بل يأخذ موقفا عدائيا من اليهود ويرغمهم على الخروج من المدينة . لم يتبق من يهود فى أرض الواحة الخضراء سوى بنى قريظة وهو بالتأكيد يتربص بهم ، وهم أيضا - وبالتأكيد - ينظرون إليه فى شك وارتياح . لحظتهم آتية لا ريب . وهم يعدون لذلك وينتظرون .

لكن قبل أن يضرب ضربته التالية فى معسكر يهود ، والهدف بالتأكيد لابلد وأن يكون بنى قريظة ، كان على اليهود أن يحرکوا ، أن يفعلوا شيئا كى يحافظوا على ما تبقى ، ويستردوا ما ضاع ، ويعيدوا مدينتهم إلى سابق عهدها .

أغلب الذين طردوا اتخذوا من خيبر مقرا لهم . ومنها بدأ تحركهم لإثارة القبائل ، والإعداد لمعركة لا قبل لمحمد بها قد تكون فيها نهايته .

وفى نهاية العام الخامس الهجري (٦٢٧ م) بدأ التحرك العلني الفاعل لليهود . التقت مجموعة من بنى النضير وبنى وائل ، تحت قيادة كبار من زعمائهم على رأسهم سَلَمُ بن أبى الحقيق النضرى ، وحيي بن أخطب النضرى ، وكنانة بن أبى الحقيق النضرى ، وهوذة بن قيس الوائلى . اتخذوا قرارا هم : لابلد وأن تحزب الأحزاب ضد محمد ، وتبدأ معركة لا تنتهي إلا بالقضاء عليه .

توجهوا إلى مكة . التقوا بقيادة قريش وعلى رأسهم أبى سفيان بن حرب الذى كان - رغم أحد - يريد أن يدرك ثأرا أكبر . تحدثوا فى شأن معركة ضد محمد ، هذا ما جاءوا من أجله . أكدوا لقريش أنهم قوة لا يستهان بها ، وأنهم يملكون من المال والسلاح ما

يمكنهم من هزيمة محمد لو خرجت قريش وغطفان وبقية القبائل التي لا تأمل خيرا من وجوده أو تبغي ثأرا لها عنده . وعدوا أن يقاتلوا دون هوادة ، وبنفس الضراوة والقسوة التي اشتهر بها اليهود السابقون في حروبهم ، حتى يتم تدمير محمد واجتثاث دعوته ، وبذلك يريحون ويستريحون : يريحون بلاد العرب ، ويستريحون بعد استرجاع الأرض التي أخرجوا منها.

كانت قريش حتى تلك اللحظة تفكر في أمر الدعوة التي جاء بها محمد ولا تكاد تجزم لها أمرا . إنه يدعو إلى عبادة إله واحد ، وهم يعبدون آلهة متعددة ، تراث وراثه عن الآباء وحافظوا عليه ، وتمسكوا به ، أليسوا على صواب ؟ كانوا يفكرون ويتساءلون . لم يكن حسم سؤال كبير كهذا بالأمر الهين . محمد ينتصر في جولة ، وهم ينتصرون في جولة . لكنه يكسب أنصارا ودعوته تنتشر . لو كان دعيًا لانكشف أمره وتخلي عنه الناس ، خصوصا بعد هزيمته في أحد . لكن تلك الهزيمة لم تزد اتباعه إلا إيمانا بما جاء به وتصميما على الموت في سبيل نصرته .

إذن ، فليسالوا أهل العلم من أهل الكتاب ، فهم أعرف منهم بالحقبة . قالت قريش لأخبار يهود : يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نخلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير أم دينه ؟

هنا نستطيع القول إن سادة قريش وقادتها قد تخلت عنهم فراستهم التي عرفوا بها وذكاؤهم الذي اشتهروا به ، وسقطوا بهذا السؤال سقطة تمتهن أقدارهم وتقل من شأن إدراكهم أمام دهاة يهود .

لقد أخبرهم اليهود صراحة أنهم يريدون تدمير محمد . هذا ما جاءوا من أجله ، فكيف يتوقع القرشيون من دعاة يهود أن يدلوا بشهادة في صالح محمد ؟ توجه أعداء محمد بالسؤال ، عن الدين الذي جاء به ، إلى أعداء محمد . هكذا سقطت قريش .

لكن سقطة أخبار يهود كانت أشد فظاعة وأكثر انحطاطا وأسوأ إثما . أجابوا على سؤال قريش . قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .^١

هذه الإجابة تعتبر وصمة عار في التاريخ العقائدي لبنى إسرائيل . لقد أعلنوا أن الشرك وعبادة الأوثان أفضل من دعوة التوحيد التي جاء بها محمد . ونصوص القرآن في هذا المجال ما كانت بخافية عليهم : " أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهَا

^١ الطبري ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (البقرة : ١٣٣) ، "وَالْهُكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" (البقرة : ١٦٣) ، "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ" (آل عمران : ٢) ، "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (آل عمران : ١٨) ، "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (آل عمران : ٦٤) ، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ" (المائدة : ٧٣) .

هذه مجرد أمثلة من كثير مما ذكر في القرآن الكريم وبشر به النبي في دعوته إلى عبادة الإله الواحد الذي لا إله إلا هو .

كان اليهود يعلمون كل العلم ، ويدركون تمام الإدراك ، أن جوهر دعوة محمد لا يختلف في قليل أو كثير عن جوهر دعوة موسى ، فما جاء موسى إلا ليدعو لنبذ عبادة الأوثان ، وليطالب أتباعه من بنى إسرائيل بألا يعبدوا إلا الله وألا يسجدوا لغيره . هذا ما تثبتته نصوص التوراه التي تناساها أحبار اليهود وتجاهلوها في ثورة كراهيتهم وحقدهم . ما جاء محمد إلا بما جاء به موسى ، وزاد في الحق عليه .

في توراة موسى في سفر خروج : "تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلا ، أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدن . لأنى أنا الرب إلهك إله غيور أفنقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى . وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبى وحافظى وصاياى . لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا . لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا" (خروج ٢٠ : ١-٧) .

هذه هى أولى الوصايا العشر التى تكلم بها إله موسى وأوصى بها بنى إسرائيل : لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، أى أنه لا عبادة ولا تقديس ولا إيمان إلا بإله واحد هو الله . ليس هذا هو جوهر دعوة محمد وتم ذكره فى الآيات القرآنية السابقة ؟ هل هناك أى اختلاف فيما تكلم به "الرب" فى توراة موسى وما نص عليه القرآن الذى أوحى به إلى محمد ؟ الجوهر واحد ، والدين واحد ، لأن رب موسى هو رب محمد .

إلى جانب وحدانيته وتفرد ، يصدر "الرب" أمرا : لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة .. لا تسجد لهن ولا تعبدن .

ألم يبعث محمد من أجل هذا ؟ ألم يطالب أهل الشرك فى مكة وما حولها بترك عبادة الأصنام والسجود لله الواحد القهار ؟ ولم تنزل آية " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي " إلا بعد أن هدم النبى الأصنام ، كل الأصنام ، داخل الكعبة وما حولها .

ورغم النص التوراتي الواضح . الذى يحرم الشرك بالله وعبادة الأصنام : " هكذا تقول لبنى إسرائيل . أنتم رأيتم أننى من السماء تكلمت معكم . لا تصنعوا معي آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب " (خروج ٢٠ : ٢٢-٢٣) .. رغم هذا النص الذى لا لبس فيه يقول أحبار اليهود وسادتهم لكبار قريش وسادتها : دينكم خير من دينه ، أى أن عبادة الأصنام خير من دين التوحيد الذى يدعو إليه محمد .

لقد كفر أحبار يهود بالنص التوراتي الصريح الذى لا اختلاف عليه ولا لبس فيه ، وأعلنوا كفرهم . هل هناك تفسير آخر؟

ربما . كان سادة يهود يكذبون . ولعلمهم لم يجدوا فى كذبهم ما يشين ، فمن أغرب الغرائب فى تاريخ الأديان ونصوصها ، هو ما وجدناه فى الوصايا العشر التى هى ميثاق بنى إسرائيل : هذه الوصايا العشر ليس من بينها: لا تكذب !! وهكذا أصبح الكذب حلالا ومباحا أيضا لبنى إسرائيل ، ومن جاء بعدهم من يهود .

كانت سقطة اليهود مشينة فاضحة ، ونزل القرآن موضعا التضليل اليهودي فى كشف مبهر: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا " (النساء : ٥١) .

فى هذا المجال يورد الدكتور هيكل رأيا لمفكر يهودي يدين موقف اليهود فيما أفتوا به أمام قريش . يقول دكتور إسرائيل ولفنسون فى كتابه تاريخ اليهود فى بلاد العرب : كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش ، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم ، لأن بنى إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد .. كان من واجبهم أن يضحو بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخلدوا المشركين . هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبادة الأصنام إنما

كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام وبالوقوف منهم موقف الخصومة^١.

وإذا كان الدكتور ولفسون يستنكر سلوك اليهود ويستغريه ، فنحن نستنكره ولا نستغريه ، ذلك لأنهم منذ البداية ، أي منذ أيام بنى إسرائيل وفي حياة نبيهم موسى ، كفروا بالآله الواحد وأنكروا ربوبيته . تمردوا على أول الوصايا وهي جوهرة العقيدة التوحيدية : لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة .. لا تسجد لهم ولا تعبدن . ضربوا بكلمات الرب عرض الحائط . لم يكثرثوا بأول وأهم وأخطر الوصايا .

صنعوا عجلا من ذهب وسجدوا له ، كان ذلك في حياة موسى ، وليس بعده بمئات أو حتى بعشرات السنين ، حتى يجد لهم البعض عذرا في ضلالتهم ويدعي أنه قد طسال الأمد وبعدت الشقة فنسوا تعاليم الرب .

أثناء وجود موسى في الجبل ، يناجي ربه ، ولم يكن غيابه قد زاد عن أربعين يوما أو ما يقاربها ، كفر بنو إسرائيل بما جاء به موسى وأشركوا . والغريب فسي الأمر ، والمثير للسخرية ، هو أن الذي صنع لهم العجل - حسب النص التوراتي - هو كبيرهم هارون ، أخو موسى النبي . صنع هارون العجل وجمع بنى إسرائيل من حوله وقال لهم اسجدوا ، فسجدوا !!

هذا الكلام ليس من عندنا ، ولم نقم بتأليفه أو تخيله وصبه إبداعا فوق الورق ، كما أنه لا ذكر له في القرآن الكريم ، فالقرآن حق مطلق لا باطل فيه . ونحن لا نناقش اليهود بالقرآن ، فهم لا يؤمنون به . ومنذ البداية أنكروه وحاربوه . إنما نناقشهم بكتابهم ونسديهم بما جاء في توراتهم . يقول النص التوراتي بالحرف الواحد : " ولما رأى الشعب أن موسى أيضا في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا له قم اصنع لنا الهة تسير أمامنا .. فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنائكم واتوني بها .. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا . فقالوا هذه الهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر .. ونادي هرون وقال غدا عيد للرب .. فقال الرب لموسى اذهب انزل . لأنه قد فسد شعبك .. زاغوا سريعا عن الطريق السذي أوصيتهم به . صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له " (خروج ٣٢ : ١-٨) .

وعاقب الرب بنى إسرائيل عقابا صارما لأنهم تمردوا على تعاليمه وأشركوا ، فسقط منهم في ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل ثم قتلهم بالسيف تنفيذا لأمر موسى الذي جمع

جميع بنى لاوى وقال لهم : ضعوا كل واحد سيفه على فخذيه .. واقتلوا كل واحد أخسائه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبيه . ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى (خروج ٣٢ : ٢٦-٢٨) .

الشرك ، إذن ، وعبادة الصنم ، ما كان أى منهما بمستغرب على بنى إسرائيل وبالتالي على سلاطنتهم من يهود . ولم يقتصر هذا على شعب موسى وزمن الخروج فقط . بل امتد عبر أزمنة مختلفة ، نكتفى بذكر مثل واحد منها وننهي هذا الموضوع .

سليمان بن داوود ، الملك ، أعطاه الله الملك والحكمة ، والجاه والسلطان ، فتعاظم على كل ملوك الأرض . سليمان هذا - كما يذكر كتاب اليهود " المقدس " - لم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه . أنعم الله عليه ومنحه ما لم يمنح إنسانا غيره ، فأصبح هو الأعظم حكمة ، والأكثر مالا ، والأعظم ملكا ، ورغم ذلك أشرك بربه ، ومال قلبه وراء آلهة أخرى ، فعمل الشر ولم يتبعه تماما كما كان يفعل داود .

كان لابد وأن يغضب الرب على من أشرك به وأن يعاقبه ، وهكذا غضب الرب على سليمان . رغم كل ما منحه . عاقبه ، يقول النص التوراتي فى ذكر معصية سليمان وعاقبه : " فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذى تراءى له مرتين وأوصاه فى هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى ، فلم يحفظ ما أوصى به الرب . فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك .. فإنني أمزق المملكة عنك تمزيقا وأعطيها لعبدك " (الملوك الأول ١١ : ٩-١١) .

هكذا أخطأ سليمان فى حق الرب - كما تذكر توراة يهود - وأشرك ، وهكذا عاقب الرب سليمان فمزق ملكه من بعده .

لهذا فنحن لا نستغرب ما قاله يهود خيبر لزعماء الشرك فى قريش : دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه . قالوها إما صدقا لأن بذور الشرك انخرست فى قلوبهم منذ أيام موسى أو قالوها كذبا كى يحققوا الهدف الذى سعوا إليه وهو القضاء على محمد ، والوصايا العشر - كما ذكرنا من قبل - ليس من بينها : لا تكذب ، وعلى ذلك فالكذب ، بالنسبة لليهود ، مباح .

هكذا استدرج دهاء يهود زعماء قريش واستمالوهم ، وربما أغروهم ببعض ثمار خيبر ، أو بكل ثمارها ، وربما بثمار المدينة أيضا لو نجحوا فى العودة وبسط سلطانهم على ما فقدوه من أرض وممتلكات .

والنساء .. لا يمكن أن ينسى اليهود الحديث مباشرة ، أو تلميحا ، عن سيكن سيايا من جميلات نساء المدينة وما سيحده فحول قريش من متعة ولذة وفخار .. كل هذا بالطبع بعد النصر .. الخمر والمال والنساء وعلو الشأن بعد هزيمة محمد .. هل يطمعون فيمسا هو أكثر؟ جميلات يهود ؟! أجمل جميلات يهود لن يكن بعيسدات المنسال ، لكن بعد استئصال محمد .

سعد سادة قريش بما قال أحبار يهود ، ولم يخفوا حماسهم . الضربة هذه المسرة ستكون قاصمة . ولن تكون قريش وحدها ، قبائل أخرى كثيرة سوف تسارع بالانضمام للقتال كي لا يفوتها اقتسام الغنائم . هذا بالإضافة إلى اليهود برجالهم وأموالهم وخسيلهم وسلاحهم . سيكون اليهود عوناً ومدداً من داخل المدينة وخارجها . معركة كهذه لا يمكن أن تخسرها قريش . لهذا نشطوا ، أعدوا عدتهم ، واستعدوا للحرب .

لم يكتف أحبار يهود بقريش وجيشها ، بل خرجوا إلى غطفان ودعواهم إلى حسرب محمد . أحاطوا بها بما تم بينهم وبين قريش ، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك . أكدوا لهم أنهم - أي اليهود - سيكونون عوناً ومدداً لكل القبائل المشتركة في القتال ضد محمد : من قيس عيلان ، ومن بنى مرة ، ومن بنى فزارة ، ومن أشجع ، ومن سُلَيم ، ومن بنى بنى سعد ، ومن أسد ، ومن كل من له ثار عند محمد ويريد ثاره . وخضعت غطفان للترغيب والغواية والإغراء ، كما خضعت قريش . ونجح مكر يهود .

الخنسديق :

استعدت الأحزاب وتأزرت . تجهزت قريش ، جمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب ، فكانوا - كما يروي ابن سعد - أربعة آلاف ، وعقدوا اللسواء فسي دار الندوة وحمله عثمان بن أبي طلحة وكان أبوه قد قتل وهو يحمل لواء قريش في " أحد " . فسادوا معهم ثلاثمائة فارس ، وكان معهم ألف وخمسمائة بعير ، وخرجوا يقودهم أبو سفيان بن حرب بن أمية ، وخرجت معهم بنو أسد يقودهم طلحة بن خويلد الأمدي ، وخرجت فزارة يقودهم غنينة بن حصن ، وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم مسعود بن ربيعة ، وخرجت بنو مرة وهم أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف ، وخرج معهم شبرهم . فكان جميع القسوم السدنين وافسوا الخنسديق مسن القبائسل عسشرة آلاف ، وهم الأحزاب .^٢

^٢ ابن سعد : ج ٢ ، ص ٦٦ .

القوة الغازية - كما ذكرنا - كان قوامها عشرة آلاف مقاتل مقسمة في ثلاثة جيوش: جيش القيادة فيه لقريش وهو الأكبر ، وجيش القيادة فيه لغطفان ، أما الجيش الثالث فكانت القيادة فيه لسليم .

علم النبي بالخبر ، يقال إن عمه العباس أرسل إليه مجموعة من فرسان بنى خزاعة ، يحذره من الخطر الداهم المتجه إليه ، ويطلب منه أن يأخذ أهله ويعد العدة سريعا للدفاع عن المدينة قبل أن يصل القوم . ويقال إن رسل العباس كانوا ينهبون الأرض بجيادهم نهباً ، لدرجة أن وصلوا المدينة فيما يقرب من ثلاثة أو أربعة أيام . هذا معناه أن النبي كان عليه أن يقيم دفاعاته ويشيد تحصيناته فيما لا يزيد عن ستة أو سبعة أيام .

كان من المستحيل أن يخرج الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، كما خرج يوم " أحد " فكل المقاتلين من حوله كان عددهم لا يزيد عن ثلاثة آلاف ، وهو لا يضمن ولاء الجميع ، فقد يتحرك النفاق ويشق الجمع ، كما تحرك من قبل في " أحد " . ما كان النبي ليضع نفسه ومن معه في نفس الموقف مرة أخرى ، خصوصاً وأنه يواجه عشرة آلاف ، وهو جيش لم يشهد مثله العرب من قبل .

قرر النبي أن يظل بالمدينة. ليس هذا فقط ، بل قرر أيضاً ألا يلتحم الجيشان ، جيش المسلمين وجيش المشركين ، لأن هذا الالتحام بمنطق الواقع ، أى العدد والعدة ، معناه القضاء على جيش المسلمين أو هزيمته على أقل تقدير . ولو دخل رجال الأحزاب المدينة لأعملوا فيها السيف ، ولحل بها الخراب ، وربما يكون من الصعب أن تقوم لها بعد ذلك قائمة .

لم تكن استراتيجية الدفاع عن المدينة أمراً بالغ الصعوبة ، ذلك لأنها كانت محصنة بصورة طبيعية من ثلاث جهات : الجنوب والشرق والغرب . كان يحيط بها من هذه الجهات الثلاث صخور ووديان من الأحجار البركانية ، وكان من السهل حراسة ما بينها من طرق . كانت المشكلة الرئيسية تقع في الشمال حيث يسهل الهجوم المباشر والاختراق .

اجتمع النبي بأصحابه وتشاوروا . كان الأمر يتطلب السرعة في اتخاذ القرار وتنفيذه ، فقريش وغطفان وسليم واتباعهم على وشك دق ، أو بأسلوب أدق ، دك حصون المدينة لو سنحت لهم الفرصة لفعل ذلك .

فى الشمال لآبد من حفر خندق يكون حاجزا بين الفريقين ، ويكون من الصعب على المهاجمين اختراقه . من وراء الخندق يتحصن المسلمون فى أمان ويرمون العدو بالنبل والحجارة وهو مكشوف أمامهم فى أرض شاسعة منبسطة ، لا حصون فيها ولا قلاع ، ولا ما يمكن الاحتما به والكمون خلفه .

وتنبه المسلمون إلى الخطأ الذى حدث قبيل معركة أحد عندما تركوا حقولهم وثمارهم ترعى فيها إبل قريش وخيلها ويستخدمها العدو مددا وزادا كما لو كانت من أملاكه الخاصة . تم جمع الثمار والمحاصيل وتجريد الأرض من خيراتها. وعلى الأحزاب عندما تصل جيوشها أن تبحث لها عما يقيم أودها ، بعد أن ينفد ما يحملون من زاد، ولن يجدوا ما يغنيهم أو من يغنيهم لو طال الحصار. لن يكون أمامهم إلا مواجهة الهلاك أو النجاة بأنفسهم دون قتال .

يقال إن الذى اقترح فكرة الخندق كان هو النبى بإلهام من ربه . لكن معظم الروايات تنص على أن الذى أشار بحفر الخندق هو سلمان الفارسى ، وأن النبى عمل بمشورته بعد أن أخذ رأى الصحابة . وكانت هذه أول غزوة يشارك فيها سلمان بعد إسلامه ونيله حريته. قال سلمان - كما يروى الطبرى - يا رسول الله . إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا .^٤

كان سلمان فارسيا من أهل أصبهان ، وكان هو وأهله مجوسا يعبدون النار . حبسه أبوه ، وهو دهقان أرضه ، كى يجتهد فى المجوسية ويتبحر فيها ، لكنه لم يقتنع بعبادة النار. فخرج عليها واتبع النصرانية وذهب إلى كنائسها ، ثم انطلق إلى الشام فى رحلة بحث عن الحقيقة وقد سمع الكثير عن نبى حان أوان بعثه . ومن الشام ارتحل إلى أم القرى حيث بيع عبدا لرجل من يهود . ثم اشتراه يهودي من بنى قريظة قدم به إلى المدينة . وظل سلمان يعمل فى نخله حتى وصل النبى إلى المدينة فأسلم ، ونجح بعدها فى أن يشتري حريته . كان ذلك بعد بدر وأحد ، ولذا فإنه لم يشترك فى أى من المعركتين لأنه شغل برقة عنهما . حانت له فرصة الاشتراك فى معركة الخندق بعد أن أسلم وحسن إسلامه ، لدرجة أن قال النبى : سلمان منا أهل البيت .

يقول عباس محمود العقاد فيما يختص بالخندق : قيل فى روايات كثيرة أنه عمل بمشورة سلمان الفارسى فى حفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة .. وقبول النبى مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة وسنة من سنن

^٤ الطبرى ، ج ٢ ، ص ٩١ .

القواد الكبار ، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليفاً أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسي من أهل المدينة في إبان الهجمة عليها ، لأنه عليه السلام كسان شديد الالتفات إلى سد الثغور وحماية الظهور في جميع وقعاته^٢.

عسكر النبي بصحابته من المهاجرين والأنصار في سفح جبل سلع . جعل الجبل خلفه ، وأمر بحفر الخندق من أمامه على طول الجبهة الشمالية ، بعد أن استخلف علسي المدينة عبد الله بن أم مكتوم وكان معه من المسلمين يومئذ ثلاثة آلاف .

ثم تقسيم العمل . كل مجموعة لها قسم معين تنتهي منه عمقا واتساعا ، وعمل النبي مع العاملين مما زاد من حماسهم . إنه النبي حقا ، لكن هذا لا يمنع من أن يمسك بالأس وبالمعول ، ويعرق ويشقى ويفتت الصخر كما يفعلون ، فهو القدوة والمثل الذي يجب أن يتبع . ولو فعل غير ذلك ما اطمأنت النفوس وقويت الهمم ، وما انتهى المسلمون من حفر الخندق في ما يقرب من ستة أيام .

لكن هذا لا يمنعنا من القول إنه بين القوم كان هناك أناس ضعفت نفوسهم ، ربما كان هذا الضعف يلزمهم منذ البدء ، عندما أسلموا نفاقا ورغبة في مكاسب قد يجلبها لها اتباع النبي . هؤلاء أبطأوا وتكاسلوا وجعلوا يستترون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم دون إذن النبي ، وأحيانا يتغلساهرون بسائهم ذاهبون لقضاء الحاجة ولا يعودون .

أخليت المساكن القريبة من الخندق والتي تقع في مرمى سهام وحسراب العدو . وداخل المدينة تم تحصين مجموعة من المنازل لنقل إليها الشيوخ ، غير القادرين علسي القتال ، والنساء والأطفال ، وفرضت عليها الحراسة . كان بنو قريظة فسي الجنسوب لا يؤمن جانبهم ، رغم الميثاق الذي عقدوه مع النبي والذي لم يخرجوا عن بند مسن بنسوده حتي تلك اللحظة . لكن الاحتياط كان ضرورة في مثل تلك الظروف . وقد يأتي الغد بما لا يتوقعه أحد .

يحكي كتبة التراث عن أحداث خارقة تكاد تصل إلى حد المعجزات ، أو هي بالفعل معجزات ، أثناء حفر الخندق . على سبيل المثال : تلك الثمرات التي أرسلتها عمرة بنت ربيعة مع ابنتها غداء لزوجها وأخيها . تصادف وجود النبي والفئة في الطريق إلى حيث أمرتها أمها . أخذ منها النبي الثمرات التي ما ملأت كفي يديه وطرحتها فوق ثوب بسيط

^٢ العقاد ، محمد ، ص ٢٤ .

له، ثم دعا أهل الخندق جميعا كي يتناولوا الغداء ، فاجتمع كل أهل الخندق وأخذوا يأكلون والتمر يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه وأنه ليسقط من أطراف الثوب .

حكاية أخرى من نفس النوع ، يروى صاحبها أنه كان يعمل في حفر الخندق مع النبي ، وكانت عنده شويهة ، أى شاة صغيرة غير سمينة ، أمر امرأته بذبحها وشيها ، وأن تصنع معها شيئا من خبز الشعير . وعند انتهاء العمل في الخندق آخر النهار، دعا النبي إلى بيته كي يتناول الطعام ، فإذا بالنبي يصدر أمره إلى كل أهل الخندق أن يتوجهوا إلى بيت مضيفة . وجد الرجل نفسه فى مأزق . من أين يطعم كل هؤلاء ، وما ذبح إلا شويهة غير سمينة قد لا تكفى أفرادا قلئل ؟ أمام الأمر الواقع ، فى عجز صاح: إنا لله وإنا إليه راجعون .

وتستمر الحكاية : أقبل النبي وأقبل معه الناس ، وجلس وجلسوا وأخرجوا الشويهة. وضعوها أمام النبي فبرك وسمي ، ثم أكل ، ومن بعده أكل الناس ، كل الناس، كلما فرغ قوم جاء قوم آخرون . أكل أهل الخندق كلهم أجمعون حتى شبعا . وبدأ أن الشويهة تكفى لمزيد .^٦

نحن لا نقيم وزنا كبيرا لهذه الحكايات وأمثالها ، ولا نعتمد عليها كمعجزات دالة على نبوة محمد وعظم شأنه ، فالنبي لم يعلن أبدا أنه صاحب معجزات من هذا النوع ، أو من أى نوع غيره : " ما أنا إلا بشر مثلكم يوحي إلى " . لم يدّع يوما أنه يملك قوة خارقة يستطيع أن يغير بها نواميس الكون . ما هو إلا ابن امرأة من مكة كانت تأكل القديد . لم يعلن يوما أنه ملك أو صاحب سلطان وجيروت : ما أنا بملك ولا جبار . من يذكر ذلك لا يمكن أن يدعي مقدرة الإتيان بمعجزة ، ولم يذكر القرآن من المعجزات ما يمكن أن ينسب للنبي . كانت معجزته الأولى والأخيرة هى القرآن الذى أوحى إليه . هذه هى الحقيقة المطلقة ، ولا داعي لتقليد ما جاء فى كتب النصارى عن معجزات عيسى عليه السلام ، فقد كان لعيسى عصره ، وكانت معجزاته بأمر الله هى برهانه. وما ينسب إلى النبي فى هذا المجال لا يزيد من قدره شيئا .

ينسج القصاصون هنا على نهج ما كان يفعله المسيح ، رغم اختلاف الزمن ومنهج تبليغ الرسالة وإثبات صدقها .

يذكر النص الإنجيلي أنه عندما تزايد أتباع يسوع ، " وجد نفسه يوما فى مواجهة خمسة آلاف رجل ، ما عدا النساء والأطفال ، تحنن عليهم وشفى مرضاهم ، بيد أن

^٥ انظر ابن هشام ، ج٣ ، ص ٢٢٢

تلاميذه واجهوا مشكلة إطعام كل هذا الجمع ، فمن أين لهم بالطعام والموضع خلاء ؟ حينئذ طلبوا منه أن يصرفهم ، كي يذهبوا إلى القرى المجاورة ويبتاعوا ما يقتاتون به ، لكنه قال لهم بسلطان : أعطوهم أنتم ليأكلوا ، ودش التلاميذ إذ أن كل ما عندهم لايزيد عن خمسة أرغفة وسمكتين ، إلا أن يسوع قال : اثنوني بها إلى هنا ، فأمر الجموع أن يتكثروا على العشب ، ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ والتلاميذ للجموع . فأكل الجميع وشبعوا ، ثم رفعوا مسا فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة ، والآكلون نحو خمسة آلاف ما عدا النساء والأولاد " (متى ١٤ : ١٨-٢١) .

كانت رسالة يسوع تعتمد على المعجزة ، وفي رأى معاصرى يسوع كان هناك أسلوبان للبرهان : المعجزات ، وتحقيق النبوءات ، وبهما يمكن إثبات الرسالة الدينية الموحاة من قوة فوقية ، أى فوق طبيعية . ولقد استخدم يسوع وتلاميذه هذين الأسلوبين فى الإبانة والإثبات بعقيدة عميقة راسخة .

كانت المعجزة ، إذن ، تعتبر علامة لا غنى عنها لإثبات قدسية الرسالة ، ودليلا من أدلة النبوة . وكان على يسوع أن يختار بين أمرين لا ثالث لهما : إما أن يتخلى عن رسالته ، أو أن يقوم ببعض المعجزات ، لكي يبرهن على صدقها وأصالتها .^٧

ما كان هذا بجوهر رسالة محمد التى كانت تقوم فى أساسها على الفكر والمنطق : أفلا يعقلون ، أفلا يتدبرون ، أفلا يعلمون ، أفلا يتذكرون - دعوة لإعمال العقل ، وسيلة للوصول إلى الحقيقة - وكما سبق وذكرنا . لا معجزة للنبي سوى ما نزل عليه من القرآن . وإن كنا لا نعارض ما خطته أقلام كتبة السيرة فى هذا المجال ، ولا نعترض به ، فقد ينتفع به بعض الأتقياء كدرس تعليمي فى مجال الخلق والفضيلة . لكننا نؤكد ثانوية ونعيد التأكيد أن محمدا عليه السلام لا يجب أن يشار إليه مطلقا على أنه صانع معجزات خارقة لقوى الطبيعة . ما كانت هذه رسالته .

فى مواجهة الخندق :

خرج النبي يوم الاثنين الثامن من ذى القعدة ، سنة خمس هجرية ، فى ثلاثة آلاف من المسلمين . حمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة ، وحمل لواء الأنصار سعد بن عبادة . جعلوا جبل سلع خلف ظهورهم ، واستخدموا الأتربة الهائلة التى أخرجوها من الخندق ليقيموا منحدرًا ضخما يمكن الاحتماء به عند تصويبهم للسهام والحرايب وقذفهم الحجارة .

⁷ انظر كتابنا لا تصلبوا المسيح ، الفصل السادس ، جوهر الرسالة .

أقام النبي موقع قيادته فوق الجبل ، ومن موقعه هذا كان باستطاعته أن يحتوى بناظره الجبهة الشمالية بأكملها .

وصل القريشيون وحلفاؤهم وهم يعتقدون أن المعركة لن تستغرق أكثر من يوم أو بعض يوم ، لكنهم أصيبوا بصدمة مروعة عندما وجدوا أنفسهم لا يواجهون محمدا وجنده ، بل يواجهون خندقا ما ألفوه في تاريخ حروبهم من قبل . اعترتهم الدهشة التي كادت تشل تفكيرهم . وفجأة انهالت عليهم السهام ، فترجعوا . كانوا في حاجة إلى مهلة من الوقت كي يفكروا في كيفية مواجهة الموقف .

نزلت قريش بمجتمع الأسيال من دومة (اسم مكان) ، ونزلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد عند أحد . لم يكونوا قد أعدوا خطة واضحة للقتال ، ولم تكن لهم قيادة موحدة . تبخرت آمالهم في مواجهة الخندق . بدلا من الهجوم الساحق - كما تخيلوا - بكل هذه الأعداد الهائلة ، وجدوا أنفسهم في موقف دفاع ، وقد انهمرت عليهم السهام والحجارة . بدأ تبادل الرمي بالسهام . ثم ماذا !!؟

هذا موقف عجيب غريب . ولن نذل به قريش . خرج مشاهير فوارسهم وعلى رأسهم عمرو بن عبد ود بن أبي قيس ، وكان قد جرح يوم بدر وأثبتته الجراح فلم يشترك في يوم أحد . فلما كان يوم الخندق خرج معلما ، أى جعل لنفسه علامة يعرف بها . ورغم أنه كان قد بلغ التسعين من عمره - كما يحكي بعض الرواة - إلا أنه لم يهزم في مبارزة قط . وخرج معه عكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ، وضرار بن الخطاب بن مرداس ، خرجوا على خيلهم ، في كامل سلاحهم . مروا على منازل بنى كنانة - كما يروى ابن إسحق - فقالوا : تهيأوا يا بنى كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم . وأسرعت بهم الخيل إلى الخندق حتى وقفوا عليه ، قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

أثار فيهم الخندق إحساسا بالاشمئزاز والاستعلاء ، اعتبروا حفره ضربا من ضروب الجبن والفرع من اللقاء وجها لوجه وسيفا لسيف . كانت عواطفهم ونزعاتهم القبليّة ، ورغبة الثأر والانتقام هي التي تسيطر عليهم . أخذتهم العزة بعهجية الجاهلية فافتحموا الخندق بخيولهم في مكان ضيق منه ، كانت ثغرة وكان لابد من سدها .

خرج على بن أبي طالب - فارس الإسلام وابن عم نبيه - في نفر معه . سدوا عليهم الطريق . ومن باستطاعته أن يخترق بالسيف طريقا سده على ؟ توقفوا . صاح

عمرو بن عبد ود ، فارسهم الذى لم يهزم فى مبارزة قط : هل من مبارز ؟ كررها ثلاثا
وعندما لم يخرج إليه أحد . أخذ يتبخر وينشد :

ولقد بُحِثَ من النداء لجمعهم هل من مبارز

وفى رواية ابن سعد ، استأذن على بن أبى طالب النبى فى أن يبارزه ، قال : أنا
أبارزه يا رسول الله . فأعطاه النبى سيفه وعممه ، وقال : اللهم أعنه عليه ، ثم برز له
ودنا أحدهما من صاحبه وثارث بينهما غيرة ، وضربه على فقتله وكبر . فعلمنا أنه قتله
وولى أصحابه هاربين وظفرت بهم خيولهم . وحمل الزبير بن العوام على نوفل بن عبد
الله بالسيف فضربة فشقه باثنين ^٨.

أما الطبرى فيذكر حوارا دار بين على وعمرو بن عبد ود ، قبل أن يلتقى سيفهما .
قال على : يا عمرو إنك كنت تعاهد الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت
منه إحداهما ، قال : أجل . قال على : فإني أدعوك إلي الله عز وجل وإلى رسوله وإلى
الإسلام . قال عمرو : لا حاجة لى بذلك ، وكان رد على : فإني أدعوك إلى النزال . قال :
ولم يا ابن اخي ، فوالله ما أحب أن أقتلك . قال على : ولكنى والله أحب أن أقتلك ^٩.

أثارت كلمات على غضب عمرو ، وكان صاحب عصبية ونخوة وكبرياء ، إلى
جانب شهرته كفارس لا يشق له غبار . نزل عن فرسه ، وعقره وضرب وجهه . أبى
عمرو بن عبد ود أن يقاتل عليا وهو فوق ظهر فرسه وعلى راجل ، سلوك فارس نبيل
يعرف جيدا قدر الخصم الذى يواجهه ، وهو سلوك يحسب له رغم شركه ومجاربته
للإسلام . ونحن نقيم الأحداث بأسلوب موضوعي دون ميل أو انحياز .

نتازلا وتجاولا . وكان المشهد رائعا ومروعا لبطلين من أشهر رجال عصرهما
وأمجدهما فى قومهما ، رغم أن أحدهما كان فى عنفوان الشباب والآخر كان يحمل على
كتفيه أثقال تسعين من السنين ، لكنه كان يتحرك فى خفه وقوة وعنفوان ، وكأنه فى مثل
شباب على أو أكثر منه شبابا . وحانت لعمرو بن عبد ود فرصة كاللحم وجه فيها ضربة
بارقة إلى رأس على ، تلقاها على بدرقته فاخترقتها وجرحت الرأس ، لكنها لم تكن قاتلة .
واندفع على كالأسد الجريح ووجهه ضربته . وكما يقول الإمام الشيخ محمد أبو زهرة ،
كانت ضربات على أبكارا . اخترق سيف على ترقة خصمه . سقط عمرو قتيلًا وكبير
المسلمون .

^٨ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

^٩ الطبرى ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

عاد على إلى النبي وقد نهال وجهه . سأله عمر بن الخطاب : هل استلبته درعه فإنه ليس للعرب درع خير منه . قال على : ضربته فألقاني بسوءته ، فاستحييت ابن عمي أن أسلبه .

هل هناك نبل في السلوك أكثر تساميا من هذا النبل ؟ استعلى على ورفض أن ينحني كي يلتقط درع ابن عمه ، رغم علمه أنه درع يندر وجود مثله بين العرب . ليس هذا فقط ، بل إن عليا كان لا يود قتل عمرو ، لهذا دعاه أولا إلى الإسلام قبل أن يشهر سيفه ويبارزه . ولم يستجب عمرو ، تمسك بشركه وضلالته ، ولم يكن أمام على من خيار . ومن لا تقنعه الكلمة يرغمه السيف ، ما دام هو الذى اختار العدوان وابتدأ به .

طلب المشركون جثة عمرو بن عبد ود مقابل أى ثمن يحدده المسلمون ، لكن النبي رفض العرض وتم تسليم الجثمان دون مقابل .

وكان مقتل عمرو بن عبد ود مختلفا عن مقتل نوفل بن عبد الله بن المغيرة الذى اقتحم الخندق فتورط فيه ، فرموه بالحجارة ، فقال : يا معشر العرب قتلة أحسن من هذه . فنزل إليه على فقتله . فغلب المسلمون على جسده . وسأل المشركون النبى أن يبيعهم جسده . نفس العرض الذى عرضوه فى حالة عمرو بن عبد ود ، ووصلهم نفس الرد : قال النبي لا حاجة لنا بجسده ولا ثمنه فشأنكم به . ويقال إن أبا سفيان كان قد عرض مائة من الإبل ، ثم رفضها رغم شدة احتياج المسلمين نتيجة الحصار المضروب عليهم .

الخيانة فى بنى قريظة :

اقتحام الخندق صعب المنال ، والحصار قد يطول شهورا ، دون أن يحدث التّحام فى قتال ، الطبيعة قاسية فى بردها وعصفها والمؤن على وشك النفاد وليس هناك خطوط إمداد لهذا العدد الهائل من المقاتلين ، حتى طعام الإبل والخيول أصبح شحيحا ، هزيمة الأحزاب - لو حدثت - أو انسحابها دون قتال ستكون كارثة تلوكها السنة الركبان .

كان على اليهود أن يتحركوا . فهم الذين أثاروا القبائل ودفعوها إلى قتال محمد . وهامهم أولاء عشرة آلاف مقاتل فى موقف العجز لا يستطيعون اقتحام المدينة . الاقتحام الفاعل ، الذى قد ينهي مثل هذا الموقف المأساوى ، لابد وأن يكون من الجنوب . هذا هو المنفذ الوحيد ، وفى الجنوب يهود بنى قريظة ، ويهود بنى قريظة على عهد مع النبى ، بل إنهم هم الذين أمدوا المسلمين بما يحتاجونه من أدوات لحفر الخندق ، زيادة على ما هو موجود عندهم . وهم أيضا الذين كانوا يمدون المسلمين بالضرورى من الطعام ، بعد

بدء الحصار وبعد أن انشغل المسلمون بحفر الخندق ثم بأمور القتال ، بدلا من السعي لكسب ما يقيم أودهم وأود عوائلهم .

بنو قريظة هم نقطة الضعف التي يسكن النفاذ منها إلى المسلمين وتدمير مقاومتهم ، بل والقضاء عليهم قضاء كاملا . أوكل هذا الدور إلى شيخ من شيوخ يهود هو أعمقهم دهاء وأكثرهم مكرًا : حَيَّي بن أخطب النَّضْرِي ، لم يتحرك حَيَّي بدافع الحقد والكراهية فقط . ولكن لأنه كان يعلم علم اليقين أن خروج محمد من هذه المعركة سالما معناه القضاء المبرم على اليهود ، بعد أن تم اكتشاف الدور الذي لعبوه .

خرج حَيَّي بن أخطب حتى وصل أطم كعب بن أسد القرظي سيد بنى قريظة ، حاول حيي دخول الحصن فلم يسمح له ، أغلقوا من دونه الأبواب . كانوا يعتبرونه نذير شؤم وتقدمة خراب . استخدم حيي كل أساليب اللؤم وتوسل بها حتى سُمح له بالدخول . صاح وهو يأخذ كعبا بين ذراعيه : ويحك يا كعب ! جئتك بعز الدهر ، وبحر طام (أي جند يصعب حصر أعدادها) . جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسياال من دومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسياال جانب أحد ، قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه .. قال له كعب : جئتني والله بذل الدهر .. ويحك يا حَيَّي فدعني وما أنا عليه .^{١٠}

فلم يزل حَيَّي بكعب يحاوره ويداوره ويخادعه ويمنيه حتى لانت عريكته ، وقد أعطاه حَيَّي عهدا وميثاقا لن رجعت قریش وغطفان ولم يصيبوا محمدا ، أن يدخل معه في حصنه ويشاركه مصيره . عندها نقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين النبي .

وصل الخبر النبي . كانت له عيون ترقب وترصد ، تحصي على العدو تحركاته واتصالاته ، فالوضع جد خطير ، وأقل تهاون قد تكون نتيجته تدمير الأمة الإسلامية الناشئة واجتثاثها ، كما خطط لذلك اليهود وتقدمت من اجله الأحزاب .

أراد النبي أن يستوثق من صحة الخبر ، قد يكون مجرد إشاعة الغرض منها نشر الرعب وما قد ينتج عنه من تخايل وياس وفوضى في صفوف المسلمين ، وقد يكون الخبر صحيحا وعندها لا بد وأن يعد النبي نفسه ومن معه لمواجهة الخطر الكامن في الجنوب .

^{١٠} ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

أرسل السعدين : سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير . طلب منهم أن ينطلقوا إلى بنى قريظة كي يتيقنوا من حقيقة الخبر ، فإن وجدوا أن بنى قريظة قد نقضوا العهد وخانوا فعليهم ألا يذيعوا ذلك بين الناس كي لا يفتنوا في أعضادهم ويثبطوا من همهم ويضعفوا من عزيمتهم . أما إذا وجدوهم على وفاء للعهد فعليهم في هذه الحالة أن يجهروا بالقول بين الناس كي تشتد العزائم وتقوى الهمم .

وصل رسل النبي إلي بنى قريظة فهاهم ما سمعوه من كلام وما رأوه من فعال . قالوا إنهم جاءوا من عند رسول الله يستفسرون ، وضحك أحبار بنى قريظة في سخرية : رسول الله ؟ من رسول الله ؟!!

لقد كشروا عن أنيابهم وأظهروا الحقد الكامن في أعماق أعماقهم . إنهم لا يعترفون بمحمد كنبى أو صاحب رسالة : من رسول الله ؟ محمد ؟ هذا الوافد الطريد ؟ أعلنوا بوضوح وقح أنه لا عهد بينهم وبينه ولا عقد .

دُهِش سعد بن معاذ ، لم يصدق ما سمع حتى أكدوه ، وكان رجلاً معروفاً بحدة الطبع وشدة الغيرة فيما يختص بأمر العقيدة . لم يتحمل مفاجأة الموقف ، شاتمهم في غضب ، لم يسكتوا عليه ، شاتموه ، أنهى سعد بن معاذ المشاتمة ، لا فائدة ، ما أقدم عليه بنو قريظة أخطر من ذلك بكثير .

تأكد الغدر . اشتد البلاء . ساد الخوف وانتشر . جيوش الأحزاب في الشمال ، ويهود بنى قريظة في الجنوب ، أصبح العدو من فوقهم ومن أسفل منهم . زأغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر .

رفع النفاق رأسه وتطاول . تجرأ أحد المنافقين - معتب بن قشير - قال : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقیصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط (أى لقضاء حاجته) . والسخرية واضحة في كلمات المنافق الكذوب المكذب . وقال آخر - أوس بن قبيظي أحد بنى حارثة - وقد بيئت الغدر والانسحاب من ساحة القتال : إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا أن نخرج فنرجع . قال ذلك علناً أمام ملا من قومه ، غير مكترث بما قد تثيره كلماته من تخاذل وما قد تغرسه في قلوب بعض ضعاف النفوس من يأس وإحباط . كان المنافق يدعو بأسلوب غير مباشر إلى الفرار من ساحة القتال .

وَيَصُورُ الْقُرْآنُ : فِي بَلَاغَةِ رِبَانِيَّةٍ ، مَا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ :

" إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الذُّلُومَ . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنَ النَّبِيِّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْنُوءًا . قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا " (الأحزاب : ١٠-٢٤) .

كان من المستحيل أن يظل أمر خيانة بنى قريظة سرا . في مثل هذه الأجواء يسهل تناقل الأخبار وانتشارها والمبالغة فيها .

وجد المسلمون أنفسهم بين دفتي الرحي : الأحزاب من فوقهم وبنو قريظة من تحتهم ، وما زاد الطين بله كان وجود المنافقين في وسطهم ، وعدد المقاتلين قليل إذا ما قورن بعدد الأعداء في الشمال والجنوب ، وقد ينجح المنافقون في إثارة الفتنة والانقسام بين صفوف المسلمين . هذا إلى جانب نقص الطعام الذي بدأ المسلمون يحسون بوقعه مع مضى الوقت . وكان من المتوقع ، بكل تأكيد ، أن تزداد الأحوال سوءا إذا ما طال الحصار .

لم يكتف المشركون بمحاولة عبور الخندق ، وهى المحاولة الفاشلة التى تصدى لها على بن أبى طالب وجمع من أصحابه على رأسهم الزبير بن العوام . كانت هناك محاولة أخرى لاقتحام منازل النبی من الجنوب ، أى من جهة بنى قريظة . ولا يُعرف على وجه التحديد من الذى قام بالهجوم ، هل هم جماعة من جند الأحزاب نجحوا فى اختراق المدينة من جهة بنى قريظة ، أم قام به بنو قريظة أنفسهم وقد خيل إليهم أن الفرصة قد سُنحت لهم لإحراز نصر خاطف ، وقد انشغل النبی والمسلمون فى مواجهة مع المشركين عند الخندق ؟ ربما أراد القريظيون الانتقام لما حل ببني النضير وبني قينقاع . وربما أرادوا درأ الخطر القادم داهما إذا ما فشلت الأحزاب فى الحرب ضد محمد .

على أية حال ، فشل الهجوم على منازل النبی والمسلمين ، ذلك لأن الذين كانوا يقومون بالحراسة قاتلوا باستبسال طوال اليوم وحتى المساء إلى أن جاءهم النبی بمدد من بعض مقاتلي الخندق ، وقد ترك الدفاع عن الخندق لرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ،

وعلى رأسهم على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن معاذ وسعد بن عباد .

كان الموقف شديد التعقيد ، شديد الصعوبة . ولقد رأى النبي ببصيرة الملهم وبحنكة القائد أنه لا بد من استخدام الحيلة . وكما هو معروف ومألوف : الحرب خدعة . وقد تفعل الخدعة ما لا يقدر علي فعله السلاح . وبناءً على هذا الاتجاه الذى قرر النبي أن يسلكه في محاولة للخلاص ، أرسل إلى قائد غطفان : عبيدة بن حصن بن حذيفة والحارث بن عوف بن أبى حارثة المزنى ، يعرض عليهما ثلث ثمار المدينة إن هما انسحبا بجنودهما وعادا إلى أرضهما تاركين قريشا وحدهما في مواجهة الخندق . عندهما قد تتساوى الكفتان ، فعدد مقاتلى قريش لا يزيد إلا ألفا عن عدد مقاتلي المسلمين ، ووضع المسلمين من ناحية التحصينات والموقع أفضل وأقوى .

إغراء غطفان بثلث ثمار المدينة كان حركة بارعة من قائد ملهم يعرف جيدا كيف يسير أعماق النفس البشرية ويضغط على نقاط ضعفها . لقد أثار فيهم أطماعا ما كانوا يحلمون بتحقيقها حتى ولو حاربوا المعركة وانتصروا فيها ، فمعهم قريش وأهل تهامة وبنو كنانة وبنو مرة ، هذا إلى جانب يهود بنى قريظة وجماعات أخرى جاءت من أجل الغنيمة في حالة النصر . فما هو نصيب غطفان إذا ما تم توزيع الغنائم ؟ لن يصل بأية حال من الأحوال إلى ثلث ثمار المدينة . وقد لا يكون هناك نصر على وجه الإطلاق وتعود غطفان خالية الوفاض .

ثلث ثمار المدينة !! هذا مقابل يثير التطلعات ويرضى الغرور ويجنبهم المزيد من العناء فقد بدأت المؤن تنفذ ، والأغنام والخيل والإبل تصاب بالهزال ، فلا مراعي حولهم والأرض جرداء جدياء .

ثلث ثمار المدينة ، وربما النصف ، ثمنا للانسحاب وفك الحصار ، دون قتال !! عرض شديد الإغراء ، ولا يرفضه إلا قوم بلة أغبياء . هكذا ثارت في غطفان غريزة الطمع والكسب السهل دون عناء ، بل هو الكسب الذى يجنبهم العناء . وافقوا . أرسلوا كتابا بالصلح . لم يكن النبي قد أرسل لهم كتابا ، كان العرض شفاهه ينقله رسول .

كما ذكرنا من قبل ، استخدم النبي الحيلة كي يفرق بين صفوف أعدائه ، لم يكن يملك ثمار المدينة كي يهب غطفان نصفها أو ثلثها أو مجرد ثمرة واحدة من ثمارها ، لكنه بعرضه هذا هدء غريزة القتال فيهم ، وأثار غريزة الطمع .

وعند تسلم النبي كتاب غطفان اطمأنت نفسه . لقد بدأت خطته تثمر . لن ترفع غطفان السيف ولن ترمي بسهم بعد أن وصلها هذا العرض السخي غير المتوقع .

أرسل النبي إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، عرض عليهما كتاب غطفان . هما سيدا الأوس والخزرج ، أصحاب الأرض ، وما عليهما من ثمر وزرع . كان يود أن يعرف ما يدور في أعماقهما وقد طال الحصار . هل وهنت العزيمة ؟ هل تملل الأنصار ؟ هل ضاقوا بضيق العيش وصعوبة الحياة ؟ هل فزَعهم الفزع المنتشر في أنحاء المدينة ؟ هل أثرت في نفوسهم كلمات أهل النفاق ؟

قال السعدان ؟ وهما السيدان والقائدان : يا رسول الله ، أمرنا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لئلا نعمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟

إنهما بطرحان تساؤلها في أدب جم ، وسيطرة كاملة على النفس ، رغم إدراكهما لشدة البلاء الذي حل بالناس ، وما كان لسلوكهما أن يكون غير ذلك ، فهما في حضرة النبي . إن كان الأمر وحيا ، فلا بد في هذه الحالة من التسليم به . وأوضح النبي أن ما دار بين مبعوثه وغطفان أمر لا يتعلق بوحي من السماء ، قال : بل شئ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم (اشتدوا عليكم) من كل جانب فاردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

عندها قال سعد بن معاذ ، وهو يحاول السيطرة على انفعاله : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرَى (أى إذا نزلوا ضيوفا) أوبيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال النبي : فأنت وذاك .¹¹

هكذا تأكد النبي أن عزيمة أصحابه لم تهن ، وأن إيمانهم بنصر الله لم يضعف ، وأنهم على الاستعداد للقتال حتى النصر أو الاستشهاد دفاعا عن عقيدتهم وديارهم وثمارهم ، وأنهم لن يلبثوا ولن تقل إرادتهم مهما طال الحصار .

من جهة أخرى أوعز النبي إلى أحد الذين أسلموا من غطفان ، ولم يشع إسلامه بعد ، أن يُخَدِّل بين القوم ، أى أن يسعى بينهم بالوقية ، إن استطاع . وهذا مسموح به ومباح زمن الحرب ، وأثره لو نجح شديد التدمير .

¹¹ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ .

ويقال إن هذا الغطفاني ، المسمي نعيم بن مسعود بن عامر ، قد نجح بالفعل فى تنفيذ ما كلفه به النبى . ذهب إلى بنى قريظة ، وكانوا يعرفونه حق المعرفة ، وبدأ يغرس بذور الشك فى نفوسهم تجاه قريش و غطفان . إن قريشا و غطفان - هكذا بدأ حديثه - ليسوا كأنتم : البلد بلدكم فيه أمواكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تحوّلوا منه إلى غيره . إن قريشا و غطفان قد جاعوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم وبغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة (فرصة) أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشrafهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تتأجزوه .^{١٢}

لم يجد سادة بنى قريظة فى كلام نعيم ما لا يتفق مع المنطق ومع الأخذ بمبدأ الحيطة والحذر والشك حتى فى أقرب الحلفاء . هذا جزء من التركيبة النفسية للشخصية اليهودية . قالوا له : لقد أشرت بالرأى .

انسل نعيم ، وقد نجح فى خطوته الأولى ، حتى وصل - دون أن تدرى قريظة - إلى أبى سفيان وهو جالس بين قومه من سادة قريش . جاءهم جميعا فى صورة الناصح الأمين الذى يحمل سرا خطيرا ويرجو أن يكتموه عنه . أثار فضولهم ، وقد كانوا فى حالة نفسية متدنية بسبب طول الحصار الذى بدا وكأن لا طائل من ورائه ، بل إن نتيجته الحتمية لو استمر هى الخسران الذى ما بعده خسران . وعدوا أن يكتموا عنه ، واشترأت الأعناق ، وتعلقت الأذان بشفتي نعيم ، الكل يبغى سماع ما خفى من مكنون الأسرار .

قال نعيم ، وهو يحاول قدر طاقته أن يبدو متماسكا واثقا : تعلّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ، من قريش و غطفان ، رجالا من أشrafهم فنعطيك فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ، فأرسل إليهم : أن نعم .

فى صدور سادة قريش غرس نعيم بذور الشك ، وفعل مثل ذلك مع غطفان . لكن أبى سفيان ، بدهائه المعروف ، أراد أن يتأكد من صحة ما قال به نعيم ، لذا فقد أرسل إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل على رأس وفد من قريش و غطفان يحددون لهم موعدا لبدء القتال ، فقد طالبت المدة وهلك الخف والحافر ، أى الإبل والخيول ، والإطالة أكثر من

^{١٢} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ .

ذلك فيها هلاك . فوجئ عكرمة ومن معه ببني قريظة يطلبون سبعين من أشرف قريش وغطفان رُحنا ، يكونوا ثقة بأيديهم وضمانا بأن قريش وغطفان لن يسرعوا بالعودة إلى بلادهم إذا ما نالت منهم الحرب ، وبذلك يجد بنو قريظة أنفسهم وحدهم فى مواجهة محمد، وهم لا طاقة لهم على مواجهته .

هكذا اختلف الحلفاء الشركاء ، دمر الشك فيهم إرادة الانتقام . أصبح الهمُ الشاغل لكل فريق منهم هو أن يحافظ على وجوده ويخرج بأقل خسائر ممكنة ، أما وحدة الرأي، ووحدة القيادة ، ووحدة القرار ، فقد ذهبت كلها أدراج الرياح التى لم تمهلهم على أرض الواقع .

هبّت عاصفة شديدة فى قسوتها استمرت طوال ليلال ، برت السماء وأرعدت ، وطارأت الخيام وقد اقتلعت أوتادها ، وانكفأت القُدور ، وفقد الجميع المقدرة على مواجهة الطبيعة الثائرة .

صاح أبو سفيان وهو يجالد غضبة الطبيعة : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة .. ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما نطمئن لنا قدر ولا نقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فساني مرتحل !!!^{١٣}

وسمعت غطفان بما انتوته قريش فحذوا حذوهم ، وعادوا بخفى حنين ، لا شجر ولا ثمر .

هكذا تفرقت الأحزاب دون قتال ، وكُشفت الغمة عن المسلمين وزال البلاء .
ويُفسر بعض الأتقياء هذه الظاهرة الطبيعية - هبوب العاصفة المبرقة المرعدة - على أنها تجسيد لجنود السماء وقد هبطت لنصرة المؤمنين من جنود الأرض . وهكذا انهزم جمع الأحزاب !!

تفسير كهذا قد يريح النفوس ويرفع الروح المعنوية بعض الوقت . لكن يجب على المسلمين ألا يتواكلوا متوقعين هبوط جند من السماء لنصرتهم كل حين فى صراعهم مع أعدائهم ، فقد تخيب آمالهم : إن الله لا ينصر إلا من يسعى لامتلاك القوة ، ويعد نفسه ، ويقاثل فى سبيل النصر. لن ينتصر قوم تواكلوا وتدرشوا واكتفوا بالتطوح فى حلقات الذكر، معتقدين أن الله سيحارب نيابة عنهم .

^{١٣} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

فى هذه الغزوة التى استمرت ما يقرب من شهر، قُتل من المشركين ثلاثة ، أعظمهم عمرو بن عبد ود الذى كان يعد من أبطال العرب الأفذاذ ، وقتل من المسلمين ستة رميا بالنبل ، خمسة أصيبوا واستشهدوا بعد الإصابة مباشرة ، أما السادس فقد كان سعد بن معاذ سيد الأوس وفارس الأنصار ، وكان قد خرج إلى الميدان بدرع غير سابعة لا تكفى لحمايته ، فذراعة كلها كانت عارية ، مما سهل من إصابته . رماه من يدعي حَبَّان بن العَرِقة ، الذى صاح وهو يوجه سهمه : خذها منى وأنا ابن العرقة . أصابه السهم فى ذراعه فقطع منه الأكحل (عرق فى الذراع إذا أصيب يظل ينزف حتى يموت صاحبه) . قال سعد وهو ينتزع السهم : عرّق الله وجهك فى النار . ثم دعا دعاءه الأخير : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها .. اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعل لى شهادة ، ولا تمتني حتى تُقرَّ عينى من بنى قريظة .^{١٤}

ويبدو أن دعاء سعد وجد من الاستجابة ما يستحقها دعاء مؤمن مقاتل فى سبيل الله ، فقد امتدت أيام حياته حتى أصدر هو نفسه الحكم فى بنى قريظة . وبعدها مات .

(٢)

غزوة بنى قريظة

أسباب الغزو :

انتهت غزوة الخندق بخيبة الأحزاب وتفرقها وعودتها من حيث جاءت ، وهلل المسلمون - رغم ما عانوه من خوف وجوع وبرد - فرحين بنصر الله : " ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا " (الأحزاب: ٢٥) .

عاد كل إلى داره وأهله وقد وضعوا السلاح ، ومنوا أنفسهم بأيام تهدأ فيها النفس ويرتاح الجسد ، وتطيب الحياة ، جوار الزوجة والولد وأحباب الناس . لكن ما حان وقت ظهر نفس اليوم الذى عادوا فيه حتى سمعوا النداء ، مؤذن للنبي يؤذن فى الناس : من كان سامعا ومطيعا فلا يُصلِّين العصر إلا فى بنى قريظة . وخرج الناس ثانية وقد حملوا السلاح . كان ذلك - كما يروى ابن سعد - يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى الحجة ، سنة خمس من الهجرة .

ماذا حدث ؟ ولماذا هذه العجلة المتعجلة ؟

^{١٤} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ .

خيانة بنى قريظة كانت واضحة ، وقد أثبتتها أكثر من دليل ملموس على أرض الواقع . لقد تحالفوا مع الأحزاب ، ونقضوا العهد مع النبي ، وتناولوا على شخصه ، وأنكروا نبوته ، وأظهروا سخريتهم واستهزاءهم بدعوته . ولو لم يحدث ما حدث - كما أسلفنا - وينتهي الأمر بانسحاب الأحزاب ، لوجد المسلمون أنفسهم فى مأزق خطر ، ولربما تم القضاء عليهم كما خطط أحبار اليهود .

بنو قريظة ، إذن ، خطر جاسم ، وتجسيد للخيانة والغدر ، ولو تم السكوت عليهم لزاد خطرهم ، وعقابهم - جزاء ما أقدموا عليه - كان مسألة حتمية لا نقاش فيها ولا جدل . كان لابد استئصالهم . لقد اشتركوا فى الحرب . والحرب ما زالت قائمة لم تنته بعد . وإذا كانت جيوش الأحزاب قد انسحبت من خيبة ، فجمع بنى قريظة ما زال خطرا جاسما يهدد الوجود الإسلامى وينذر بمحوه . لهذا كان النداء : من كان سامعا ومطيعا فلا يصلىن العصر إلا فى بنى قريظة . وخرج المسلمون ، وقد حملوا السلاح .

مسألة جبريل :

ويورد كتبه التراث سببا ، لا يتضمنه ما ذكرنا من أسباب ، يعتبرونه عاملا رئيسيا فى الخروج المفاجئ لغزو بنى قريظة .

يقول ابن إسحق : ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون ، ووضعوا السلاح . فلما كانت الظهر أتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .. مُعْتَجِرَا (أى متعمما دون أن يضع شيئا من عمامته تحت لحيته) بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة (سرج) عليها قطيفة من ديباج ، فقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك يا محمد بالسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمززل بهم .^{١٥}

أما الطبرى فيذكر ما قاله ابن إسحق ويزيد عليه ، محددا لون البغلة والصورة التى ظهر عليها جبريل : مر رسول الله على أصحابه بالصوريين قبل أن يصل إلى بنى قريظة ، فقال : هل مر بكم أحد ، فقالوا : نعم ، يا رسول الله ، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي ، على بغلة بيضاء ، عليها رحالة عليها قطيفة ديباج ، فقال رسول الله : ذلك جبريل ، بعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ، ويقذف الرعب فى قلوبهم .^{١٦}

^{١٥} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ .

^{١٦} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

فإذا ما قلبنا صفحات ابن سعد نجده يختلف مع ابن إسحق والطبري اختلافا لا نستطيع تحديد قدر أهميته - فهو بالنسبة لنا عديم الأهمية - لكنه بالنسبة للفقهاء ، من حرس التراث ، قد يثير معارك ربما تهتز لها المنابر وتمتلئ بما يدور في رعاها آلاف الصفحات .

جبريل لم يأت على بغلة ، إنما أتى على فرس . هذه واحدة . أما الإضافة الثانية التي قد تعتبر نصرا لابن سعد - في رأي سدة كتب التراث - فهي أنه نجح في تحديد لون عمامة جبريل : إنها سوداء . فهل هناك من تبحر في العلم عمقا واتساعا أكثر من " الماجشون " ، و الماجشون هذا - كما يحكي ابن سعد - هو الذي رأى جبريل ووصف لنا عمامته السوداء ، وأضاف إلى وصفه للعمامة ما لا يفوقه وصف في الأهمية : لقد أرخى جبريل عمامته السوداء بين كتفيه !!

يروى ابن سعد : أخبرنا الفضل بن ذكّين ، أخبرنا عبد العزيز بن أبي سلمة ، أخبرني عمي الماجشون قال : جاء جبريل عليه السلام إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب على فرس عليه عمامة سوداء قد أرخاها بين كتفيه ..

ويضيف ابن سعد إضافة أخرى غير مسبقة ، وهي أن جبريل لم يكن وحده ، بل كان مصحوبا بجمع من الملائكة . يقول جبريل مخاطبا النبي : ما وضعنا السلاح بعد .. انهض إلى بني قريظة .. فقال النبي : إن في أصحابي جهدا فلو أنظرتهم أياما .. قال جبريل : انهض إليهم . لأدخلن فرسى هذا عليهم في حصونهم ثم لأضعضيعنها ، فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار^{١٧} .

ومسألة جبريل - كما يحكيها الرواة - وما كان يركب ، سواء كان بغلة أو فرسة ، وعمامته سواء كانت سوداء أو حمراء ، وسواء أرخاها بين كتفيه أو لم يرخها ، وشكله سواء كان في صورة دحية الكلبي - ولا نعرف لماذا دحية الكلبي بالذات - أو أية صورة أخرى ، مسألة لا نميل إلى الأخذ بها ، ولا تعنينا في قليل أو كثير .

هذا ما يمنعنا من خوض جدل عقيم رخيص عن لون العمامة أو نوع الركوبة أو الشكل الذي ظهر عليه . نترك هذا لمن يحب الخوض فيه من السادة المتعالمين ، فقد تشغل هذه المسائل حيزا كبيرا من فارغ عقولهم ، وربما وجودها فرصة سانحة لإصدار الفتاوى والأحكام وتكفير من لا يؤمن بلون عمامة جبريل أو فرسه أو بغلته . وعلى كل

^{١٧} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

من تطأ قدماه هذه الأرض المحظورة أن يتوخي الحيلة والحذر ، ومن الأفضل أن يبتعد طلبا للنجاة .

لكن مسألة جبريل هذه ، وعمامته وفرسه أو بغلته ، وجمع الملائكة الذين تبعوه ، قد تثير فى نفس القارئ عدة أسئلة ، إذا ما استخدم عقله وفكر وتدبر ، كما تأمر بذلك كلمات القرآن الكريم .

جبريل والملائكة ، الذين لم يضعوا السلاح ، ذاهبون إلى بنى قريظة كن يزلزلوا حصونهم . هذه صورة إبداعية جميلة تثير الخيال ، لكنها فى نفس الوقت تثير أكثر من سؤال :

لماذا حمل الملائكة السلاح ولم يضعوه ؟ هل كانوا فى معركة يقاتلون عندما حملوه ؟ أية معركة ؟ معركة الخندق ؟ ما دور الملائكة فيها وهم يحملون السلاح ؟ قاتلوا المشركين ؟ لو صح هذا : متى بدأوا القتال وكم قتلوا من المشركين ، أى كم عدد الذين الذين قتلتهم الملائكة من قريش وغطفان وأنصارهما ؟ لم يقتل من المشركين سوى ثلاثة ، معروف من قتلهم من المسلمين ، ولقد ذكرنا ذلك من قبل . إذن ، فماذا فعلت الملائكة وهى تحمل السلاح الذى لم تضعه بعد وعلى رأسهم جبريل على فرسه " وعلى ثناياه الغبار " كما يحكى ابن سعد ؟

هل جاعوا فى صورة العاصفة المبرقة ، كى ترعب المشركين وتشتت جموعهم ، فينهزموا خائبين إلى ديارهم ؟ هل هذا هو المقصود بالسلاح الذى لم تضعه الملائكة بعد ؟ وما قيمة البغلة بالنسبة لجبريل وسط العاصفة ، وكيف استوت عمامته التى أرخاها بين كتفيه ؟

هنا قد يضاف سؤال جديد : مادامت الملائكة قد كلفت بذلك وعلى رأسها جبريل ، فلماذا انتظرت شهرا كاملا عانى فيه المسلمون كل أهوال الحصار من رعب وقحط وبرد وجوع ، حتى ليربط الواحد منهم حجرا على بطنه من شدة الجوع ، ولا يجرؤ على الذهاب لقضاء حاجته من شدة الخوف ؟

جبريل ذاهب إلى بنى قريظة كى يزلزل حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم ، كما يدعى كتبه التراث ، لماذا لم يزلزل هو ومن معه جيوش الشرك منذ البداية ويقذف فى قلوبهم الرعب ، بدلا من تركهم شهرا كاملا كاد المسلمون فيه أن يصلوا إلى هاوية اليأس لولا شدة إيمانهم بالله ؟

يجب ألا نقم ، جبريل ، عليه السلام في كل كبيرة أو صغيرة ، فهو الملك المكلف بالوحي ، ويجب أن نكون على قدر كبير من الوعي والحذر عند الحديث عنه أو حتى مجرد الإشارة إليه .

الحصار والاستسلام :

استعمل النبي على المدينة ابن أم مكتوم ، وقدم على بن أبي طالب براءته إلى بنى قريظة . تقدم على بالناس . اقترب من الحصون . صكت أذنيه أصوات اليهود وقد تعالت نسب النبي وتطعن شرف أزواجه بأخبث ما يكون الحديث ، يفعلون ذلك في جراءة ووقاحة متناهية وكأنهم لا يباليون بجيش المسلمين ، ولا بنبي المسلمين ، ولا بما قد يحل بهم إذا انهزموا ووقعوا جميعا أسرى وسبائا .

هنا نعود إلى إثارة التساؤلات : كيف وانتهت هذه الجراءة المتناهية ، والوقاحة المتحرشة ، وقد سبق جبريل والملائكة الذين ما وضعوا السلاح بعد - كما يقول كتبة التراث - كي يدك حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم ؟ هل زلزل جبريل حصونهم - حسب وعده للنبي - فلم تنزلزل ؟ هل قذف في قلوبهم الرعب - وقد أكد ذلك - فلم يرتعبوا ؟ هل عندما وصلهم في صورة دحية الكلبي - كما يحكي كتبة التراث - لم يكثرثوا به فبطل عمله ؟

هذه أسئلة بلاغية افتراضية لا يستطيع أحد أن يقدم لها إجابات . ونحن نطرحها فقط كي نبين عبثية ما يقدمه أحيانا بعض كتبة التراث . ونقول البعض ، ولا نجمع فنقول "الكل" ، ولو قلنا ذلك لبعدنا كل البعد عن مبدأ العدالة المنصفة ، والموضوعية العادلة غير المتحيزة ، ففي بعض كتب التراث الكثير والكثير مما هو جاد ومفيد . أما تلك التي أشرنا إليها فيجب مراجعتها - كما سبق وقلنا في كتابنا السابق : سنوات مكة - وتفتيتها وإعادة صياغتها بحيث تظهر في صورة لائقة بتاريخ النبي وسيرته . على أن يقوم بذلك جمع من العلماء أنقياء القلوب ، أنقياء النفوس ، وعلى " فقهاء السلطة " المتاجرين بالدين ، المتسولين بالفتوى ، الساعين إلى جمع الآلاف وربما الملايين لبناء العمارات وشراء "الأطيان" ، أن يبتعدوا عن هذا المجال .

أقول ثانية لفقهاء " كشف البركة " ، ومحترفي إصدار الفتاوى وتفسير الأحلام ، ووعاظ حفلات النساء ، الذين أصبحوا وجوها كريهة ممجوجة ، على شاشات المحليات والفضائيات ، تطالعنا صباح مساء ، وكأنهم لا يفارقون أبواب التلفزيون وبيبتون على عباته ، يدبجون قصباء الغزل في عطايا " شباك الصراف " .. أقول لهؤلاء جميعا ابتعدوا

عن العمل العلمي الجاد الذى لا يبتغي أصحابه إلا وجه الله ، مدفوعين بقوة إيمانهم ، وارتقاء علمهم ، واستعلائهم على فتات موائد السلطان .

أما عن جبريل عليه السلام - الذى أساء إليه بعض كتبة التراث بما خطوه من ترهات - فهو - كما سبق وقلنا - حامل الوحي المنزه عن ما فاه به كل هؤلاء .

نعود إلى على بن أبى طالب وما سمعه من سفاهات بنى قريظة . عندما صكت أذنيه شتائمهم وسبابهم وتناولهم على النبى وأهل بيته ، أسرع بالعودة حتىلقى النبى بالطريق . كان هدفه أن يتوقف النبى ، وأن لا يواصل سيره حتى لا يتأذى بما تأذى هو منه ، وأن يترك الأمر لجند المسلمين كي يتعاملوا مع بنى قريظة ويوقعوا بهم ما يستحقونه من عقاب .

بدأ الخوف يتسلل إلى قلوب اليهود ، عندما رأوا جيش المسلمين ، يقوده فارس الإسلام على بن أبى طالب . تحصنوا فى قلاعهم ، وتوقعوا فى حصونهم ، ولم يجرؤوا على الخروج لملاقاة المسلمين . وكان حنّى بن أخطب قد دخل مع بنى قريظة فى حصن من حصونهم ، وفاء لكعب بن أسد بما كان قد عاهده عليه ، وهو أن يلقى معه نفس المصير إذا انسحبت قريش وغطفان ولم تنجح قوتها فى استئصال محمد . وها قد حانت اللحظة الفارقة : أن يواجه قدره ويلقى جزاء ما اقترفته يده من إثم .

وبما أن بنى قريظة لم يخرجوا من حصونهم لمواجهة المسلمين فى معركة فاصلة، قرر النبى حصارهم . وربما كان بنو قريظة على صواب عندما أحجموا عن الخروج بسيفوفهم لملاقاة المسلمين ، فقد كان عددهم ما بين السبعمئة والتسمئة ، وعدد المسلمين يقرب من ثلاثة آلاف ، وربما يزيد . هذا معناه أن اليهود قد فطنوا إلى أن المعركة لن تكون متكافئة . إلى جانب ذلك ، لا بد وأن يؤخذ فى الحسبان الحالة النفسية لكل فريق : كان المسلمون يشعرون بقوة هائلة بعد أن اندحرت جيوش الأحزاب وعادت إلى بلادها تكللها خيبة عدم القدرة وعار العجز عن الاقتحام ، أما اليهود فقد كانوا فى أخط حالاتهم النفسية ذلك لإحساسهم بأنهم قد خانوا وغدروا بمن قدم لهم العهد والميثاق بأن يعيشوا فى أمان وسلام ، وكانوا عوناً لأعدائه بعد أن انقلبوا عليه وهو يواجه عشرة آلاف مشرك .

طال على بنى قريظة الحصار ، ضعفت إرادتهم وتسرب الوهن إلى نفوسهم ، وبدأت قلوبهم تتماوج بأحاسيس الخوف التى تراكمت حتى وصلت إلى حد الرعب .

هنا عرض عليهم سيدهم كعب بن أسد واحدة من ثلاث : أن يؤمنوا بمحمد وما جاء به من قرآن ويتبعوه على أنه هو النبى ، وبذلك يأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم

ونسأئهم. ورفض هذا العرض بشدة وفي تعصب مقيت . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره .

أمام هذا الرفض القاطع ، عرض عليهم كعب أن يخرجوا بكل ما يملكون من عدة حرب وقتال ، وفي حوزتهم أجود السلاح ، ويواجهوا محمداً وأصحابه ، وليكن الحكم للسيف ، تساءلوا : فإن قتلنا فمن للأطفال والنساء . أشار عليهم بقتل النساء والأطفال قبل الخروج للقتال ، فإن هلكوا لن يكون وراءهم نسل يخشى عليه ، وإن انتصروا يمكنهم اتخاذ نساء وإنجاب أطفال . ورفضوا هذا العرض أيضاً : لن يقتلوا أحبائهم فلا خير في الحياة من بعدهم .

قدم كعب عرضه الثالث والأخير ، وكان - في رأينا - هو العرض المستحيل . اقترح عليهم ، وكانت الليلة ليلة السبت ، أن يفاجئوا المسلمين بهجوم مباغت من الصعب أن يتوقعه أحد ، فلكل يعلم أن السبت بالنسبة لليهود يوم مقدس يستحيل فيه القتال . ورفض العرض بالإجماع : من يُفسد السبت يحل به غضب إله إسرائيل ، وهو غضب مدمر لا يقدرّون على تحمله أو الثبات له .

يقول النص التوراتي : " وجمع موسى كل جماعة بنى إسرائيل وقال لهم هذه هي الكلمات التي أمر الرب أن تصنع ، سنة أيام يعمل عمل . وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبت عطلة مقدس للرب . كل من يعمل فيه عملاً يُقتل " (خروج ٣٥ : ١-٢) .

ولقد تم تنفيذ هذا الحكم بالفعل أيام موسى ، حسب ما جاء في التوراه : " ولما كان بنو إسرائيل في البرية وجدوا رجلاً يحتطب حطباً في يوم السبت . فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطباً إلى موسى وهرون وكل الجماعة .. فقال الرب لموسى قتل الرجل . يرميه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة . فأخرج كل الجماعة إلى خارج المحلة ورموه بحجارة فمات كما أمر الرب " (عدد ١٥ : ٣٢-٣٣) .

لم يكن أمام بنى قريظة من خيار إلا خيار الإذعان والاستسلام والنزول على حكم النبي . طلبوا من النبي أن يتركوا له أموالهم وسلاحهم وكل ما يخصهم في المدينة على أن يتركهم كي يرحلوا في سلام . لكن النبي رفض العرض ، وقد قدمه له واحد من كبار بنى قريظة وهو نباش بن قيس . لقد فاقت خيانة بنى قريظة كل خيانات اليهود من قبل ، وكان من الممكن أن تكون سبباً في القضاء على المسلمين . كان الجرم فادحاً ، وكان لابد من العقاب الذي يعادل ثقل الجرم .

في محاولة للخروج من المأزق الكارثة ، طلب اليهود من النبي أن يبعث إليهم أبيا لبابة بن المنذر ، حليفهم من الأوس ، كي يستشيروهم في أمرهم . وافق النبي وأرسله إليهم . كان المنظر كئيبا محزنا ، تعالت أصوات بكاء النساء والأطفال ، وحاول الرجال التماسك وإظهار شيء من الجأء لكن الفرع الذي امتلأت به قلوبهم ما كان ليخفى على أبي لبابة . طلبوا رأيهم : ننزل على حكم محمد ؟ قال أبو لبابة : نعم . لكنه في نفس الوقت مر بسيف يده على حلقه ، وفهم اليهود معنى الحركة التي ناقضتها الكلمة : إنه الذبح .

وفيما يختص بأبي لبابة وحركة يده تقول بيتي كيلين : سأل الزعيم اليهودي مبعوث محمد : هل نخرج ونخضع لمحمد ؟ قال المبعوث بصوت مرتفع : نعم . لكن في صمت ، ربما بعيدا عن مرأى النساء والأطفال ، أشار بيده إلى رقبته . ومعنى حركته هذه لا يشرحها كتاب التراث . وينكر المؤرخون المسلمون أن القرار بذبح بني قريظة قد تم اتخاذه ، لكن هذا الاستنتاج لا يمكن تجنبه ^{١٨}.

تخطى بيتي كيلين ، بكل تأكيد ، عندما تدعي أن معنى حركة أبي لبابة لا يشرحها كتاب التراث ، فقد أوردها ابن هشام وبين معناها بوضوح صريح : "إنه الذبح" ^{١٩}. وذكرها الطبري بنفس الدلالة : وأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه : إنه الذبح ^{٢٠}. ويفسرها ابن سعد بقوله : فلما اشتد عليهم الحصار ، أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر فأرسله إليهم فشاؤروه في أمرهم فأشار إليهم بيده إنه الذبح ^{٢١}.

هذا معناه أن بيتي كيلين لم تتحر الحقيقة وهي تكتب عن وقائع غزوة بني قريظة ، وأنها لم تقرأ كتب التراث ، أو قرأتها ولم تشر إلى حقيقة ما قرأت ، تجنبنا منها على الكتاب المسلمين ، وانحياز لما يكتبه المستشرقون يهودا كانوا أو مسيحيين . وهذا الانحياز غير الموضوعي ، القائم على الجهل أو تعمد إخفاء الحقيقة ، يقلل من قيمة الكاتب والكتاب ، ويفقد الباحث المدقق ثقته فيما يقرأ من كلمات .

هنا - فيما يختص بأبي لبابة - قد يثار سؤال أو أكثر من سؤال : كيف عرف أبو لبابة أن نزول يهود بني قريظة على حكم النبي معناه الذبح ؟ هل صدر الحكم مسبقا بذبح اليهود ، عقابا لهم على خيانتهم ، وعرف أبو لبابة بالحكم فقام بإبلاغه لليهود تعاطفا معهم

^{١٨} Betty kelen, p. 172 .

^{١٩} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ .

^{٢٠} الطبري ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

^{٢١} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

وحفظا لما كان بين الأوس وقريظة من حلف وود قديم ؟ أم أن أبا لبابة قد أوضح لهم ذلك من عندياته كي لا يستسلموا ويستمرروا في المقاومة مهما طال الحصار ؟ .. ذلك لأنه إذا كان الذبح هو مصيرهم ، فمن الأفضل أن يسقطوا في الميدان أبطالا وسيوفهم بأيديهم بدلا من أن يساقوا إلى الذبح كما تساق النعاج .

عبارة أبي لبابة التي تلت الإشارة ، عبارة كاشفة تسلط الضوء قويا على ما اعترى أبا لبابة من ندم كاد أن يصل به - أن لم يكن قد وصل به فعلا - إلى مرحلة الانهيار النفسي . قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدمائى من مكانها حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله .. وأعاهد الله أن لا أطأ بنى قريظة أبدا ، ولا أرى فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا .^{٢٢}

هكذا صرح أبو لبابة بعبارة مباشرة ، لا لبس فيها ولا شك ، أنه قد خان النبى ، والمعنى واضح ولا يحتاج إلى إفاضة فى الشرح أو التعليق .

وبناء على هذه الخيانة التى أكدها أبو لبابة مرتين ، لم يجرؤ ذلك الذى خان - نتيجة إحساسه بالإثم ، وفداحة ما أقدم عليه وربما خوفا من عقاب قد يكون فيه نهايته - أن يواجه النبى أو أن ينطق أمامه بكلمة . كبَّله الإحساس بالإثم والخوف ، وبدلا من التوجه إلى النبى انطلق إلى المسجد وربط نفسه فى أحد أعمدته . لقد حاكم نفسه وأصدر الحكم ونفذ العقوبة القاسية على النفس والتى قد تؤدى إلى ازدياد المسلمين له وهم يرونه مربوطا كما الأنعام ، فى انتظار مصير لا يعرفه . وربما كان عقاب أبي لبابة لنفسه ضربا من ضروب الذكاء المتوقد ، تجنب به عقابا صور له خياله أنه سيكون أعنف وأقسى .

لكن النبى بسماحته المعهودة ، عندما بلغه خبر أبي لبابة ، قال : " أما إنه لو جاء لاستغفرت له " . ولقد تم العفو عنه فيما بعد ، وقام النبى نفسه بفك وثاقه .

طالت مدة الحصار . بلغت ما يقرب من خمس وعشرين يوما ، لا مخرج لبنى قريظة سوى الاستسلام والنزول على حكم النبى ، هذا معناه أنهم تركوا مصيرهم للنبى يحدده كما يشاء ، فمن المستحيل أن يفرض الخائن المنهزم شرطا أو أن يناقش بندا من بنود الاستسلام . لكن بنى قريظة فى نفس الوقت كانوا يأملون أن يتدخل حلفاؤهم من الأوس ، كما تدخل عبد الله بن أبي ومعه جماعة من الخزرج ونجحوا فى إخراج حلفائهم من يهود بنى قينقاع من المدينة أحياء وقد حملوا من متاعهم قدر المستطاع .

^{٢٢} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ .

لم يتردد بعض كبار الأوس في الحديث إلى النبي ، إنهم لا يقلون عن الخزرج شأنًا ومكانة ، وهم جميعا - جماعة الأنصار - الذين أعانوه ونصروه . وكما فعل في حالة الخزرج فسمح بخروج حلفائهم من يهود بنى قينقاع أحياء ، فإنهم يأملون أن يحكم بالمثل في حالة حلفائهم من يهود بنى قريظة ، فهذا في رأيهم حق وعدل ، كي تتساوى الكفتان .

سعد بن معاذ يصدر الحكم :

في مواجهة هذا الموقف ، وأمام الرغبة القوية - في العفو - التي لم تخفها جماعة الأوس ، اقترح النبي أن يكون مصير بنى قريظة بين يدي الأوس أنفسهم ، بمعنى أن يختاروا واحدا منهم كي يصدر حكمه على بنى قريظة ، ولا يكون من حق أى فرد سواء كان مسلما أو يهوديا أن يعترض ، أى أن الحكم بعد صدوره يصبح غير قابل للمناقشة أو الجدل . وافقوا .

تم اختيار سعد بن معاذ ، سيد الأوس ، كي يصدر حكم القضاء في بنى قريظة . فرح الأوس بهذا الاختيار ، ووافق يهود بنى قريظة ، رغم أن موافقتهم أو عدم موافقتهم لم تكن لتغير شيئا من واقع الأحداث . خيل للبعض أن حكم سعد بن معاذ قد يكون هو طوق النجاة ، ونسوا موقف يهود بنى قريظة من سعد بن معاذ ، ومشائهم له وسبهم النبي ، عندما أرسله النبي كي يتأكد من ولائهم وعدم نقضهم للعهد .

كان سعد بن معاذ في خيمة في مسجد النبي يعالج من الجرح الذي أصابه أثناء غزوة الخندق . كانت إصابته بالغة وقد أوهن نزيف الدم قواه . أتاه بعض قومه فحملوه على حمار وتوجهوا إلى حيث كان النبي . ظلوا طوال الطريق يذكرونه بما كان بينهم وبين قريظة من تآلف ومودة ومؤازرة لهم في صراعهم الطويل مع الخزرج ، وما قد حانت لحظة أن يرد لهم الجميل ، وليفعل كما فعل عبد الله بن أبي ، وهو لا يقل عنه مكانة ومنزلة . يا أبا عمرو . قالوا في رجاء : أحسن في مواليك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاءك ذلك لتحسن فيهم . ولما أكثروا عليه اكتفي بأن قال : قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومه لائم^{٢٣} .

كان من الواضح أن سعد بن معاذ قد اتخذ قراره .

وعلى مرأى ومسمع من الناس ، أى على رؤوس الأشهاد : قال : فإنى أحكم فيهم أن نُقتل الرجال ، ونُقَسَم الأموال ، ونُسبى الذرارى والنساء .

^{٢٣} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ .

كان تعليق النبي على الحكم : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق
سبعة أرقعة (سماوات) ٢٤.

لم يكن حكم سعد بن معاذ صائرا عن غضب انتابه بسبب سوء معاملة بنى قريظة
ومشائمتهم له ، كما ذكرنا من قبل ، لقد كان حكما مبنيا على دراسة وعلم بمفهوم الفكر
اليهودي وميزان العدالة التوراتية . كان سعد ، نتيجة معاشته لليهود ومجادلاته معهم ،
على علم بقانون اليهود وشريعتهم . ولقد استخدم نفس القانون ، دون أن يحيد عنه قيد
أنملة ، فى إصدار الحكم . هذا معناه أنه حاكمهم بما جاء فى توراتهم .

يقول النص التوراتي الذى يشرح تعاليم الرب لبنى إسرائيل : " حين تقرب مدينة
لكى تحاربها استدعها إلى الصلح . فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب
الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا
فحاصرها . وإذا دفعها الرب إليك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما
النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها
لنفسك " (تثنية ٢٠ : ١٠-١٤) .

وبعد أن أصدر سعد حكمه ، انفجر جرحه فما رقا حتى مات .

باختيار سعد بن معاذ قاضيا وحكما فى مصير بنى قريظة ، يمكن القول إن النبي قد
اختار الأسلوب الأمثل لمعالجة الموقف ، كي لا يحدث شقاق أو تسود فرقة بين الأوس
وبقية المسلمين . كان الاختيار صائبا وبموافقة كل الأطراف .

ولا يمكن القول - أو حتى مجرد الافتراض - إن سعد بن معاذ ، عندما أصدر
حكمه ، كان خاضعا لأى ضغط من النبي . لقد رصد موقف بنى قريظة من الخيانة
وحتى السقوط . كان قائدا مشاركا فى الأحداث . وكان ولاؤه - بكل تأكيد - للدين الذى
آمن به وللنبي الذى بشر بهذا الدين . كان من المستحيل أن يعود بالولاء للعشيرة فتتمزق
وحدة المسلمين ويعود الاقتتال الذى كان أيام الجاهلية والذى تخلصوا منه بمقدم الإسلام .
الحكم ، إذن ، أصدره بإرادته الخالصة وطبقا لأحكام الشريعة اليهودية كما جاءت فى
نص " التوراة " .

نزل اليهود من صياصيحهم ، سلموا أيديهم ، وشدّ الوثاق . تم حبسهم فى بيت امرأة
من بنى النجار . حفرت عدة خنادق فى سوق المدينة ، كي تضرب فيها أعناقهم وتكون

٢٤ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

لهم المثنوى الأخير . كان النبي قد أمر ، عند تنفيذ حكم سعد بن معاذ ، أن يقتل كل من "أنبت" من اليهود ، أى كل من بلغ مرحلة الرجولة ونبت شعر ذقنه أو عانته.

جلس النبي مع كبار الصحابة يرقبون آخر اللحظات فى حياة بنى قريظة . أسندت عملية التنفيذ إلى على بن أبى طالب والزبير بن العوام . جئى باليهود أرسالا ، أى طائفة بعد طائفة . تضرب أعناقهم ويلقون فيما تم حفره من خنادق . يقال إن عددهم كان بين الستمائة والسبعمائة ، وهناك من يزيد العدد إلى ما بين الثمانمائة والتسعمائة . سأل بعضهم كعب بن أسد : يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟ قال كعب : فى كل موطن لا تعقلون . ألا ترون أنه من ذهب به منكم لا يرجع ، هو والله القتل^{٢٥}.

لم يقتل من نساء بنى قريظة سوى امرأة واحدة ، قيل إنها ألفت رحا على أحد المسلمين فقتلته .

هنا يجب أن يقال بإنصاف وموضوعية ضافية ، اتخذناها أسلوبا ومنهاجا فى كل ما نكتب ، إن يهود بنى قريظة قد واجهوا الموت بجلد بالغ وشجاعة فائقة . لم يرتد منهم أحد أو ينهار ، لم يكن هناك رجاء أو توسل طلبا للحياة . على العكس من ذلك ، واجهوا النهاية فى إباء وشموخ يسترعى الانتباه ويلفت الأنظار ، وربما استدر إعجاب وتعاطف من لا علم له بفداحة ما سبق وأقدموا عليه من جرم .

عندما أتى بحَيِّ بن أخطب ويداه مجموعتان إلى عنقه ، نظر إليه النبي وقال : ألم يخزك الله يا حَيِّ ؟ توقف حى أمام النبي لحظات . أجاب فى صلابه وعناد : أما والله ما لمت نفسى فى عدواتك . كل نفس ذائقة الموت ولى أجل لا أعده . ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب الله وقدره ، وملحمة قد كتبت على بنى إسرائيل^{٢٦} . وبنفس الثبات تقدم نحو الخندق فضربت عنقه .

مثل آخر للثبات والزهد فى الحياة وعدم التمسك بها ، ما أظهره سلوك الزبير بن باطا القرظي ، وقد سئدت له فرصة النجاة فرفضها واستعلى عليها . وحكاية الزبير - رغم عدائه - تستحق أن تروى ، وقد أوضحنا فى أكثر من موضع التزامنا بالحياد الموضوعي المنصف . وهذا لا يعيب منهجنا فى البحث ، رغم أنه قد يثير غضب بعض المتشججين من المتعالمين .

^{٢٥} الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

^{٢٦} الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

كان الزبير بن باطا يكتي أبا عبد الرحمن ، وكان في الجاهلية يوم معركة " بعاث" ، بين الأوس والخزرج ، قد منَّ على ثابت بن قيس بن شماس عندما أخذ أسيرا . لم يقم الزبير بقتل ثابت أو استرقاقه ، اكتفى بجز ناصيته ثم خلى سبيله . وحانت الفرصة لثابت كي يرد الجميل ، أن يجزيه بيده عنده ، كما يجزى الكريمُ الكريمَ .

ونفضل أن ننقل القصة كما رواها ابن إسحق ، فالحوار فيها يعتبر قمة من قمم الإبداع الأدبي الذي لا يرقى إلى مستواها أسلوب الكثير من المبدعين الأدباء :

أتى ثابت بن قيس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنه قد كانت للزبير على منةٌ قد أحببت أن أجزيه بها فهب لى دمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو لك . فأتاه فقال : إن رسول الله قد وهب لى دمك فهو لك .

قال : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فماذا يصنع بالحياة ؟ فأتى ثابت رسول الله فقال : بأبى أنت وأمي يا رسول الله ، هب لى امرأته وولده . قال : هم لك . فأتاه فقال : قد وهب لى رسول الله أهلك وولدك . فهم لك . فقال الزبير : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم ، فما بقاؤهم على ذلك . فأتى ثابت رسول الله فقال : يا رسول الله ، ماله ، قال : هو لك . فأتاه ثابت فقال : قد أعطاني رسول الله مالك فهو لك .

نخرج عن سياق ابن إسحق لحظات ، كى نعلق بكلمات قلائل على سلوك الشيخ اليهودي . لقد ضمن له ثابت الحياة ، لكنه فى حقيقة الأمر ما كان يرمي إلى ذلك ، كان هدفه الأساسى هو أن يضمن سلامة أهله وولده ، ويسترجع ممتلكاته وماله ، وبذلك يضمن لهم البقاء والعيش الكريم لا يسألون الناس إحسانا ولا يعيشون على الكفاف .

لم يكن الزبير يتوسل إلى ثابت أو يرجوه ، بل إن ثابت هو الذى سعى إليه كى يجزيه : إن الكريم يجزى الكريم . كان يسترد فضلا كان فى الأصل هو السابق إليه . وبعد أن استرده دون أن يريق ماء وجهه ، ظهر ما كان يعتمل فى أعماق نفسه ، فى صلابة وحزم لم تتل منهما الشيخوخة ولم تؤثر فيهما مأساوية الحدث . ونعود إلى حوار ابن إسحق لنرى أى قرار اتخذته الشيخ القرظي .

قال الزبير : أى ثابت ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحي كعب بن أسد ؟ قال : قُتل .. قال : فما فعل سيد الحاضر والبادى حُيَّ بن أخطب ؟ قال : قُتل .. قال : فما فعل المجلسان ؟ يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بنى قريظة . قال : ذهبوا ، قتلوا .

هنا يصل ابن إسحق بقصة الزبير إلى ذروتها ، ويضع الشيخ القرظي نهايتها بأسلوب قاطع وقرار حاسم . قال بصوت أمضى من حد السيف : فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم ، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير . فقدمه ثابت فضرب عنقه .^{٢٧}

مثل ثالث لصمود اليهود وجلدهم في مواجهة مأساوية الحدث ، جسده هذه المرة امرأة حكم عليها بالقتل ، وهى المرأة الوحيدة التى قتلت لأنها ألقت رحاً على أحد المسلمين فقتلته . نترك وصف الموقف لأم المؤمنين عائشة ، قالت : لم يقتل من نساءهم إلا امرأة واحدة .. والله إنها لعندي تَحْدُثُ معي ، وتضحك ظهرا وبطنا ، ورسول الله يقتل رجالهم بالسوق ، إذ هتف هاتف باسمها : أين فلانة ؟ قالت : أنا والله . قلت : وبلك مالك ؟ قالت : أقتل . قلت : ولم ؟ قالت : حدث أحدثته . قالت : فانطلق بها فضربت عنقها .

فكانت أم المؤمنين عائشة تقول : ما أنسى عجبنا منها ، طيب نفس وكثرة ضحك ، وقد عرفت أنها تُقتل .^{٢٨}

هكذا ذهبت اليهودية القريظية إلى حيث تقطع رقبتها وهى تضحك ظهرا لبطن ، وكأنها قد استخفت بالحياة واستعلت في فرح على الموت .

نختتم هذه النقطة فيما يختص بجلد يهود بنى قريظة واستعلائهم بما أقدمت عليه ريحانة بنت عمرو وقد اصطفاها النبي لنفسه من بين كل نساء بنى قريظة . ربما يدفع موقف كهذا أى امرأة إلى الزهو بنفسها ذلك لأن النبي اصطفاها وفضلها على كثير من النساء ، عارضا عليها الإسلام والزواج . لكنها ترفض في حزم : ترفض الزواج من النبي ، وترفض الإسلام .

قالت : - كما يذكر ابن إسحق - يا رسول الله ، بل تتركني في ملكك فهو أخف على وعليك ، فتركها ، وقد كانت حين سبها قد تَعَصَّتْ بالإسلام وأبت إلا اليهودية .^{٢٩} فكانت عند رسول الله حتى توفى عنها وهى فى ملكه ،^{٣٠} أى أنها لم تعتق الإسلام ولم تصبح من أمهات المؤمنين ، كما يدعي بعض الكتبة .

^{٢٧} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٦٢-٢٦٣ .

^{٢٨} الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

^{٢٩} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ .

^{٣٠} الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

الغنائم :

كانت الغنائم هذه المرة وفيرة . المال الذى وُجد فى حصون بنى قريظة فاق كل توقعات المسلمين ، هذا إلى جانب الطعام والأثاث والثياب والسلاح . وقسم النبى أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين الذين اشتركوا فى الغزو - بعد أن أخرج منها الخمس .

وتجمع كتب التراث - التى بين أيدينا - على أن النبى قد بعث سعد بن زيد الأنصارى بنساء من سبايا بنى قريظة إلى نجد فابتاع له بهن خيلا وسلاحا .^{٣١} وينقل هذا الكلام حرفيا كل من أرخ لسيرة النبى ، دون فحص أو تمحيص ، ودون بحث أو تدقيق . الكتاب المعاصرون ، وعلى رأسهم الدكتور محمد هيكل والدكتور شوقى ضيف ، هم أيضا اكتفوا بالنقل ، دون مناقشة أو تحليل أو تعليق ، لم يشغلوا أنفسهم بمجرد سؤال : هل أباح النبى الاتجار بالنساء ، وهل سمح الإسلام بتجارة الرقيق ؟

حتى الإمام الشيخ محمد أبو زهرة لا يعترض على رأى كتاب السيرة - فى موضوع بيع النساء - بل يتبناه ويدافع عنه ، يقول : إن قصة سبي نساء بنى قريظة تدل على أن النبى قد أنشأ الرق على أعدائه فى ميدان القتال ، لتكون المعاملة بالمثل ، إذ لو أسروا من المسلمين لاسترقوا ، والله تعالى يقول : " فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ " (البقرة : ١٩٤) . إن المشركين كانوا يسترقون من غير قتال ، فقد ذكرنا أنهم أخذوا بعض المسلمين غدرا وباعوهم فى مكة المكرمة ، وسامهم أهل مكة سوء العذاب ، فلا تثريب على النبى إذا أخذ من بنى قريظة سبايا ، وباعهن بخيل من نجد .^{٣٢}

لا نقبل هذا الرأى ، ولا نتفق مع هذا المنطق . حتى لو أجمع عليه كل من تناولوا سيرة النبى ، سواء كانوا قدامى أو محدثين . لقد بعث النبى لتحرير العبيد وفك إسار الإماء ، لا لبيع النساء فى سوق النخاسة ، حتى ولو كن يهوديات ، من أجل فرس أو قطعة سلاح . لقد وجد فى قلاع بنى قريظة من السلاح الكثير : ألفا وخمسمائة سيف ، وثلاثمائة درع ، وألفى رمح ، وخمسمائة ترس .

^{٣١} انظر على سبيل المثال ، ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ .

^{٣٢} أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٧١ .

هذا معناه أن النبي لم يكن فى موقف احتياج ملح يضطره إلى المتاجرة فى نساء قبيلة منهزمة ، كي يحصل على مزيد من السلاح ، ما كانت أمامه قوة أكبر أو أخطر ، تهدده بخطر داهم ، كي يضطر إلى فعل ما يدعى البعض أنه قد فعل .

ما كان هذا بسلوك نبي الرحمة ، وما لهذا بعث . أما القول بأنه عامل اليهود بما كانوا سيفعلونه فى حالة انتصارهم ، فهو قول لا يعتد به ، وأخلاق النبي تختلف كلية عن أخلاق اليهود . وما كان ليتساوى معهم فى الخلق والسلوك ، وإلا ما تميزت الدعوة التى جاء بها وما انتصر الدين الذى بشر به . لقد كان يمثل كل ما هو أفضل وأنبل وأسمى ، مُحلِّقاً فوق صفائر أعدائه وأحقادهم .

إن نبي الإسلام ، بكل شموخ الدعوة ، وجلال الرسالة ، وهيبه النبوة ، ما كان أبداً - كما أكدنا - ليتاجر بالنساء . هذا إسفاف نرفضه ونسقطه ، حتى ولو أجمع عليه القدامى والمعاصرون ودافع عنه الشيخ محمد أبو زهرة .

تبكي المستشرقين :

نقطة أخيرة نختم بها موضوع بنى قريظة : تبكي كتاب كثيرون ، فى الشرق والغرب ، يهود ومسيحيون ، على مصير بنى قريظة وقسوة الحكم الذى صدر عليهم ، ويتخذون من ذلك علامة يدللون بها على قسوة نبي الإسلام ودمويته فى معاملة الأعداء .

وينسى هؤلاء - أو يتناسون - فظائع بنى إسرائيل وسلالتهم من يهود ، ودمويتهم فى معاملة أعدائهم منذ أيام موسى وحتى أيام شارون . لا يذكرون ولا يشيرون أبداً إلى تعاليم الرب ، إله إسرائيل ، التى تأمر بذبح الرجال وحرق البلدان بما فيها من شيوخ ونساء وأطفال وحيوان . لقد أشرنا إلى بعض هذه الجرائم الوحشية ، والتى يكفى أقلها لتجريد أصحابها من صفة الإنسانية . ونضيف هنا مثالا آخر ، تأكيداً لما ذكرناه من قبل ، ولكى نوضح أن ما حدث لبنى قريظة يعتبر رحمة بالنسبة لما فعله داود الملك بمن سقط أمامه من أعداء . يقول النص التوراتي بالحرف الواحد :

" فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربّة وحاربها وأخذها . وأخذ تاج ملكهم عن رأسه .. وكان على رأس داود .. وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً . وأخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرهم فى أثون الآجر . وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون . ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم " (صموئيل الثانى ١٢ : ٢٩-٣١) .

هكذا ما فعله داود الملك بأعدائه : قطعهم بالمناشير وهم أحياء وبنسوارج الحديد والفؤوس ، وألقى بهم في نار أتون الأجر . ولقد صنع داود ذلك - وكأنه قد انقلب إلى شخصية شيطانية مدمرة - بجميع مدن بنى عمون ، لم تقلت من بين يديه مدينة واحدة ، غير مكتثرت بأنهار الدماء أو بصراخ المحترقين في جحيم النار .

ما أصدره سعد بن معاذ من حكم ، يعتبر عملاً نبيلًا من أعمال الرحمة إذا ما قورن بما أقدم عليه داود في النص التوراتي .

ثم ، لماذا يولول هؤلاء الصارخون من يهود ومسيحيين الغرب والشرق على الستمانة قتل من بنى قريظة ، ولا ينطقون بكلمة واحدة عندما تقوم سلالة السفاح "التوراتي" داود الملك . بقتل عشرات الآلاف من العرب المسلمين وتدمير ممتلكاتهم واقتلاع زروعهم ونهب كل ما يمكن نهبه ، ثم حرق المدن والقرى بأكملها وبكل ما فيها ومن فيها ، اتباعا لسنة داود الملك ، وطبقا لتعاليم "يهوه" إله إسرائيل الدموي !!؟

لماذا لا يكتب هؤلاء عن أكثر من ستمانة ألف قتل في بلاد ما بين النهرين أبسأدهم "الرئيس القس" - الذى يحكم أمريكا - بمساعدة يهود إسرائيل ؟ إنه يؤمن بكتاب اليهود "المقدس" المسمى بالعهد القديم ، وكل المسيحيين كذلك يؤمنون ، على أساس أن المسيح ما جاء لينقصر الناموس بل ليكمّله . إذا ، فالسفاح الأمريكي الكنسى المتعصب ، الذى أعلن فى تبجح أنه يشن حربا صليبية ، يطبق فى العصر الحديث تعاليم "يهوه" الإله الدموى فى "العهد القديم" ، ويحاول فى شناعاته وبشاعاته أن يتفوق على "داود الملك" ، ويزيد عليه .

لماذا لا يقول هؤلاء الحاقديون الصارخون ، تحيزا لكسب رضاء سادتهم من اليهود ، كلمة إنصاف واحدة دفاعا عن مئات الآلاف من المسلمين الذين ذُبحوا وأُحرقوا وتسم اغتصاب بعضهم وربط البعض الآخر بالحبال وسحبهم كالكلاب ، والتبول عليهم علنًا وأمام الكاميرات ، تباها وتفاخرا بإبادة وإهانة وازدراء المسلمين على يد اليهود وعبيدهم الجدد من متعصبى المسيحيين ؟

إن موقفهم جميعا مثير للاشمئزاز والاحتقار .

غزوة بنى المصطلق

هذه الغزوة تعتبر ذات أهمية كبيرة ، وذلك لما ذخرت به من أحداث وما كان لها من آثار ، كان من أفضلها زواج النبي من جوهرية وإسلام بنى المصطلق ، ومن أسوأها حديث الإفك عن السيدة عائشة زوج النبي ، وكذا لما أظهرته من عصبية جاهلية كانت بقاياها ما تزال كامنة في نفوس بعض المهاجرين والأنصار .

بنو المصطلق فرع من خزاعة ، كانوا يعيشون حول بئر لهم يسمى المرثيسيع ، على مقربة من شاطئ البحر الأحمر ، شمال غربي المدينة ، وكان بينهم وبين المدينة مسيرة يوم ونصف أو يومين .

علم النبي أنهم يجمعون الناس ويعدون العدة لغزو المدينة تحت قيادة سيدهم الحارث بن أبي ضرار . أرسل النبي بريدة بن الحصينب كي يأتيه بأخبارهم . التقى بريدة بالحارث بن أبي ضرار وكلمه دون أن يدري الحارث أن الذي يتحدث إليه موفد من قبل النبي . وعاد بريدة مؤكدا مسندق مما علمه به النبي ، وقد رأى بنفسه العدو والعدة والعتاد .

استخدم النبي على المدينة أبا ذر الغفاري ، كما يروى ابن هشام (ج ٣، ص ٣٣٣) . لكن ابن سعد يقول إنه استخلف زيد بن حارثة (ج ٢، ص ٦٣) . وتحديد من استخلفه النبي على المدينة ، وإضاعة الوقت والجهد في البحث والاستقصاء ليس من الأهمية بمكان ، ذلك لأنه لم يكن لأى منهما دور فاعل في تسيير الأحداث ، داخل المدينة أو خارجها .

في شعبان سنة خمس من الهجرة ، خرج النبي ومعه عدد كبير من المهاجرين والأنصار ، وجميع غفير من المنافقين ، الذين لم يخرجوا قط في غزاة مثلها ، طمعا في الغنيمة والأسلاب . وذاخر الجيش بعدد من الفرسان على خيل بلغت الثلاثين ، عشرة منها للمهاجرين وعشرين للأنصار ، إلى جانب فرسين كانا للنبي . وبلغ عدد من خرجوا مسا بين السبعمائة والثمانمائة .

كان الحارث بن أبي ضرار قد بعث أحد رجاله كي يتجسس ويأتيه بخبر النبي ، لكن ذلك الذي ذهب ليتجسس تم رمسه وقتله ، بلغ ذلك الحارث فاعتراه الخوف وسيطر عليه ، وانتشر الخبر فأصيب أكثر من هم حوله بالفرع ، تخلى عنه أكثر من تجمعوا

حوله من القبائل الأخرى وتفرقوا ، تركوه وقومه وحدهم كي يواجهوا النبي ويتصدوا لجيش المسلمين .

وصل النبي إلى المريسيع ، وهو البئر الذي يمد بنى المصطلق بما يحتاجونه من ماء . ضرب عليه قبته . كانت معه عائشة وأم سلمة . صف النبي أصحابه وقد تهيأوا للقتال . دفع راية المهاجرين إلى أبي بكر ، وراية الأنصار إلى سعد بن عباد . وكان الحارث هو أيضا قد صف رجاله ، مواجهها الموقف رغم صعوبة ، واستعد للقتال .

نادي منادي النبي قبل بدء القتال ، داعيا الحارث ومن معه إلى الإسلام : اسلموا تسلموا ، قولوا لا إله إلا الله تمنعوا أنفسكم وأموالكم . لم يستجب أحد للدعاء . لم يكن هناك خيار . بدأت المعركة . ترامي الفريقان بالنبل بعض الوقت . ما كان النبل ليحسم المعركة . أمر النبي أصحابه أن يحملوا فحملوا .

كانت ضربات جيش المسلمين قاطعة . قتل من بنى المصطلق عشرة رجال . وفر من استطاع الفرار . ومن لم يستطع تم أسره . كتف الأسرى من الرجال وسبقوا مع السبي من النساء اللاتي بلغ عددهن ما يقرب من مائتي امرأة بينهن برة (جويرية) بنت سيد القوم ، هذا إلى جانب الذرية والنعم والشاء . كانت الإبل ألفى بعير والشاء خمسة آلاف .

لم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد ، هو هشام بن صباب ، قتله أحد الأنصار عن طريق الخطأ وقد ظن أنه من جيش العدو . هذا النوع من القتل يستحق الدية ولا يستحق القصاص لأنه لا تعمد فيه ولا قصد ، ولم تكن هناك نية القتل ، إذ أنه من المستبعد ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يقتل مسلم مسلما مثله عمدا في ميدان القتال وفي مواجهة العدو .

قدم مقيس بن صباب من مكة مطالبا بدية أخيه هشام . أظهر أنه اعتنق الإسلام . قال : يا رسول الله ، جئتكم مسلما ، وجئت أطلب دية أخى .

كان ما طالب به حق له ، لم يجادله فيه أحد . أمر النبي أن يسلم له ما استحقه من دية ، وهو بالطبع لا يعلم ما يبطنه شقى مكة ، فأسرار القلوب بيد خالقها ، لا يعلمها بشر .

أقام مقيس بين المسلمين يتربص ، وفي قلبه تتماوج مشاعر الكراهية والغدر ، حتى حانت له اللحظة التي كانت ينتظرها . تمكن من قاتل أخيه فقتله ، ثم فر إلى مكة وقد ارتد عن الإسلام . هكذا أصبح الجرم مضاعفا : قبل الدية وأخذها ، ثم قتل قاتل أخيه ولا حق له في القصاص ، وكان من الأكرم والأشرف له - لو كان كريما وذا شرف - ألا يقبل

الدية ما دام قد انتوى الانتقام ، لكنه أخذ وقتل . أما جريمته الثانية ، فهي إعلان اعتناق الإسلام طوعية غير مرغ ، ثم ارتداده عنه . وعقاب الجريمتين ، كل على حدة ، هو إهدار دمه . بذلك أصبح دمه مباحا . وكان من بين الذين أعلن النبي إهدار دمهم بعد فتح مكة ، حتى ولو تعلقوا بأستار الكعبة . لقد كذب وخادع وغدر ، وما كان ليؤجر على ما فعل إلا بالموت . والحكم حق وعدل .

عصبيات جاهلية :

فى هذه الغزوة ، وبعد انتهاء المعركة مباشرة ، طفت على السطح عصبيات جاهلية ، دعا الإسلام إلى التخلص منها والقضاء عليها ، لكنها كانت كامنة فى الأعماق لم تُستأصل ، وقد أثارته وحركتها نفثات من سموم بعض أهل النفاق ، الذين قالوا أسلمنا ولم تؤمن قلوبهم .

نذكر هنا ما حدث على ماء بنى المصطلق ، حيث تزاحم رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار : تراحما ، فاحتكا ، فانفعلا ، فتلاكما ، فتقاتلا ، وعلا الصياح . صرخ الأنصاري : يا للأنصار ، وصاح المهاجري : يا لقريش ، يا لكاننة . ومع الصرختين أطلت الفتنة برأسها . " أقبلت قريش سراعا وقد حملوا السلاح ، وأقبلت الأوس والخزرج سراعا وقد حملوا السلاح " .^{٣٣}

فى لحظة طائشة نسي هؤلاء وهؤلاء أنهم مسلمون . بزغ من أعماقهم ما كان كامنا من جهل عصبى وعصبية جاهلية ، ودون رؤية أو تفكير انتزعوا السيوف من أعماقها ، المهاجرون ضد الأنصار والأنصار ضد المهاجرين ، وقد تحفز كل فريق لإراقة الدماء . ونسوا فى سوية مارقة ما كان بينهم من إخاء ، نسوا ما جاء به محمد وما بشر به الإسلام .

وعن نزعات الجاهلية بعد الإسلام ، يتساءل الأستاذ أحمد أمين فى كتابه فجر الإسلام : إلى أى حد تأثر العرب بالإسلام ؟ وهل أمحت تعاليم الجاهلية ونزعات الجاهلية بمجرد دخولهم إلى الإسلام ؟ الحق أن ليس كذلك ، وتاريخ الأديان والآراء يأبى ذلك كل الإباء ، فالنزاع بين القديم والجديد ، وقل أن يتلاشي بتاتا ، وهذا ما كان بين الجاهلية والإسلام ، فقد كانت النزعات الجاهلية تظهر من حين إلى حين وتحارب نزعات الإسلام ، وظل الشأن كذلك أمدا بعيدا .^{٣٤}

^{٣٣} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

^{٣٤} أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ١٢٢ .

لم تمت النزعة القبلية ، إذن ، رغم كل تعاليم الإسلام . أطلقت برأسها وبعنف وكادت أن تقتك بمن خرجوا متوحدين لقتال أعداء الإسلام . نسوا بعد معركتهم مع العدو ما يجب أن يكون ، وما يجب أن يسود ، وتنافزوا وبأيديهم السيوف كى يقتل بعضهم بعضا .

وتعليقا على هذا الموقف تقول كارين أرمسترونج : فى لحظة استجاب المهاجرون والأنصار لذلك التحدي القبلى وأمسكوا برقاب بعضهم البعض فى دقائق ، مما يدل على قوة الولاء القبلى القديم وكيف أنه فى لحظة انتصر على الأيديولوجية الإسلامية فى غفلة من المسلمين .^{٢٥}

تدخل بعض العقلاء من الجانبين ، بذلوا من الجهد ما مكنهم من تهدئة الموقف حتى هدأ الناس . وبم تصلح بين المهاجري والأنصارى . لكن التفاف أطل برأسه من جديد فى محاولة لاستغلال الموقف .

موقف عبدالله بن أبى :

علم عبد الله بن أبى بما حدث ، وهو معروف بشدة كبريائه وتعالیه على من حوله وخاصة المهاجرين . كان قد خرج ، رغم نفاقه ، ورهط من قومه يقاتلون فى جيش النبی طمعا فى الغنائم والأسلاب ، وربما أيضا فى الأسارى والسبأ .

غضب عبد الله بن أبى ولم يخف غضبه . اعتبر أن ما حدث فيه إهانة ليس للأنصار فقط ، ولكن لأهل المدينة كلها . لقد طفح الكيل - فى رأيه - واختلت كفتا الميزان ، وأصبح أهل الأرض وأصحابها وكأنهم هم المهانون الغرباء .

صاح عبد الله بن أبى فيمن حوله : أوقد فعلوها ؟ لقد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلاليب قریش إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم أقبل ابن أبى على من حضره من قومه . فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم . أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم .^{٢٦}

كان من بين استمعوا إلى كلمات ابن أبى ، زيد بن أرقم ولم يكن منافقا . أسرع إلى النبی ، وكان قد انتهى من أمر عدوه ، فقص عليه ما سمع . كان ذلك فى وجود عمر بن

^{٢٥} كارين أرمسترونج ، محمد ، ص ٢٩٧ .

^{٢٦} الطبري ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

الخطاب ، وهو المعروف بالصلابة والشدة وسرعة رد الفعل . فى الحال قال عمر مخاطبا النبى : مَرُّ به عباد بن أبى بشر فليقتله .

ما كان النبى ليأخذ برأى عمر، رغم ماله من مكانة ، لم يكن قتل ابن أبى ، لمجرد كلمات قالها - مهما كانت خطورتها - وبلغت عنه ، بالأمر الهين ، فقد كان للرجل بسين أهل المدينة عامة ، والخزرج خاصة ، احتراما وهيبة ، ولقد كانوا على وشك أن يتوجوه عليهم ملكا ، لولا أن قدم النبى . هذا إلى جانب أن العبارات التى نقلها زيد بن أرقم كان من السهل إنكارها وتكذيب قائلها على أساس أنه مجرد حدث لا مقدرة له على استيعاب مدلول الكلمات . قال النبى لعمر : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، لا !! ولكن أذن بالرحيل .^{٣٧}

وحدث ما كان متوقعا : أنكر ابن أبى ما فىل أنه قال . حلف بالله : ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به . وساند من حضر من الأنصار سيدهم وعظيمهم ، بدعوى أن الذى نقل الكلام لا يزيد عن كونه مجرد غلام لم يحفظ ما قال الرجل . هكذا دفعوا عنه وبرأوه .

أذن بالرحيل . ارتحل الناس فى وقت ما تعود المسلمون فيه الارتحال . أراد النبى أن ينشغل الناس بأمر الرحيل والتعجيل به فى وقت لم يألفوه . مشى بالناس يومهم حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، ثم فى عز الظهيرة حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فما مست أجسادهم الأرض حتى وقعوا نياما . أضناهم السير الطويل وهدهم التعب ، وانشغلوا بما هم فيه عن أمر الفتنة التى كادت أن تحدث ما لا تحمد عواقبه .

استرعى هذا الرحيل ، المفاجئ فى غير ميقاته ، انتباه أسيد بن حضير ، مما جعله يتوجه إلى النبى بحديثه ، مستفسرا : يا رسول الله ، والله لقد رحلت فى ساعة منكرا ما كنت تروح فى مثلها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبى ... زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ... قال : يا رسول الله : أرفق به ؟ فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا .^{٣٨}

علم عبد الله بن عبد الله بن أبى بما صدر عن أبيه ، ونقل إليه البعض اقتراح عمر بقتله . ذهب عبد الله إلى النبى ، وقد بيت فى نفسه أمرا يضع حدا لما أثير من فتنة وفى نفس الوقت يحفظ له كرامته وطمأنينة نفسه . اقترح أن يقوم هو بقتل أبيه " أنا أحمل إليك

^{٣٧} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .
^{٣٨} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٢٦-٣٢٥ .

رأسه " ، خشية أن تميل يوما نفسه فيقتل - أخذا بالثأر - قاتل أبيه .. ورفض النبي . لن يقتل أحد عبد الله بن أبي : بل نرفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا .

ولقد ضيق بعض الأنصار الخناق على ابن أبي ، طلبوا منه أن يذهب إلى النبي وأن يعترف بذنبه ، فأبى ، وكما يحكي الشيخ محمد الصابوني في صفوة التفاسير : لوى رأسه إنكارا لهذا الرأي ، ثم قال لهم : لقد أشرتم على بالإيمان فأمنت ، وأشرتم على أن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد !!^{٢٩}

ويقال إن عبد الله بن عبد الله بن أبي وقف لأبيه على الطريق وهم على مشارف المدينة ، يمنعه من الدخول حتى يعترف بأنه هو الأذل ومحمد هو الأعز . ومر به النبي وهو في هذا الموقف الفارق ، فأمره أن يترك أباه وشأنه ، بل وأن يرفق به ويحسن إليه ما دام بين ظهرانيهم . وهكذا قوبلت الإساءة بالإحسان ، وعولجت الإهانة بالعفو القادر ، وخمدت فتنة وصفت بأنها " مُنتنة " أى انها قديمة قدم الجاهلية ومن شدة قدمها " أنتنت " ولم يعد لها مكان في طُهر الإسلام .

وقد استغرقت هذه الغزوة ثمانية وعشرين يوما .

النبي يتزوج جويرية :

بين سبايا بنى المصطلق - كما سبق وأشرنا - كانت " برة " بنت الحارث بن أبي ضرار ، سيد قومه . كانت تجمع بين روعة الجمال الأخاذ وعزة النفس والاعتزاز بالذات، فهي ابنة السيد القائد المطاع التي رفعت هامتها رغم الهزيمة ، ورفضت أن تتحني في استخذاء .

وقعت برة في السهم لرجل من ذوى الحاجة من المسلمين ، ما طمع في جمالها وقد كانت امرأة " حلوة مألحة " ، لكنه سعي إلى ما يمكن أن يجنيه من ورائها من مال أو متاع . كاتبها على مبلغ من المال كبير ليحررها ، وقد عرف قدرها ومكانتها في قومها . ما كان باستطاعتها أن تدفع من المال القليل أو الكثير فقد ذهبت المعركة بكل ما ملكت القبيلة ، ولم تجد بالقرب منها ، من أهلها ، من تستعين ، فقد قتل من قتل ، وأسر من أسر، ومن نجا لاذ بالفرار .

^{٢٩} محمد على الصابوني ، صفوة التفاسير ، ج ١٨ . ص ٥٨ .

فى خطوات الحرة الواثقة ، رغم أسرها ، توجهت إلى النبى تعرض عنه أمرها
وتستعينه فى كتابتها ، وقد وقر فى قلبها إيمان يكاد يصل إلى حد اليقين أنه لن
يخيب رجاءها .

وقفت على باب النبى . طلبت الدخول . أذن لها . قالت : يا رسول الله . أنا ابنة
الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك .. جئتك
أستعينك على كتابتي .

هكذا رأت أن خير من يضمن لها حريتها ويعينها على ما هى فيه لن يكون سوى
النبى . وقد كانت على صواب . صدق حدسها . وجدت فيه كرم الكريم المحب للتصالح
والصفح والعفو .

قال لها النبى وقد بيئت فى نفسه أمرا : فهل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو
يا رسول الله ؟ قال : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

لم يكن الأمر الذى بيته النبى فى نفسه هو أن يضيف إلى زوجاته زوجة أخرى ،
فما كان أغناه عن كل هذا العدد من النساء ، وقد عاش ما يقرب من ربع قرن مع امرأة
واحدة ، وهى خديجة سيدة نساء مكة . وبعدها ما كان يخفى حبه لعائشة ، الصديقة
بنت الصديق .

كان هدف النبى أكبر وأسمى من ذلك بكثير . بهذا الزواج ، الذى لم يكن قد فكر فيه
من قبل ولا ورد بخاطره ، كان يريد أن يكسب قبيلة بأكملها - شبابا وشيوخا ونساء
وأطفالا - يضمهم جميعا إلى " الأمة " ، بأسلوب كريم ، فى تواضع نبيل ، يضمن لهم
حريتهم وكرامتهم. وتحقق له ما أراد .

هناك من يرى أن عائشة كرهت " برة " (جويرية) لحظة أن رأتها ، ذلك لشدة
جمالها ، وخوفها أن يؤخذ النبى بحسنها . ويتم تصوير عائشة على أنها امرأة غيور ، لا
تود أن تقترب امرأة بكل هذا الحسن من النبى ، كى لا تفقد مكانتها المتميزة فى
قلب زوجها .

يروى ابن إسحق أن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قسم رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم ، سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحرث فى السهم لثابت بن قيس ابن
الشماس ، أو لابن عم له ، فكانت على نفسها ، وكانت امرأة حلوة مألحة لا يراها أحد

إلا أخذت بنفسه ، فأنت رسول الله تستعينه في كتابتها ... فوالله ما هو إلا أن رأيته على باب حجرتي فكرهتها .. وعرفت أنه سيرى منها صلى الله عليه وسلم ما رأيته.⁴⁰
هذا رأى لا نميل إلى الأخذ به ، أو الاعتماد عليه ، حتى ولو قال به ابن إسحق ، وهو سلطة لا ننكرها ، بل ونؤيد بقوة الرأى القائل بأن كل كتاب السيرة عيال على ابن إسحق .

لكننا في نفس الوقت لابد وأن نفكر ونبحث في مدلول الكلمات ، ولا نأخذ ما قاله ابن إسحق - لمجرد أنه ابن إسحق - على أنه من المسلمات التي لا يجب مناقشتها ، عائشة - كما يقول ابن إسحق - ما أن رأت جويرية حتى كرهتها ، لمجرد أنها امرأة ، حلوة ملاحه . هذا سلوك يبعد كل البعد عن روح الإسلام التي تربت عليها عائشة منذ نعومة أظفارها ، كما أنه يختلف تماما عما يدعو إليه النبي بالكلمة والسلوك ، وعائشة زوج النبي ما كانت لتنتهل من نبع زوجها - معلم البشرية - مبادئ الكراهية ، وقد أرسل ليعلم الناس مبادئ المودة والرحمة والسلام .

كما أن كلمات ابن إسحق تصم السيدة عائشة بأنها انطباعية انفعالية لا تعمل عقلها ، بل تخضع لأحاسيسها حبا وكرها . ما هكذا كان سلوك عائشة بالذات ، وهى النسي روت عن النبي ما يزيد عن ألف حديث ، ولا يستطيع أن يروى عن النبي ويصدق إلا من هو على درجة عالية من راحة العقل وسلامة التفكير .

هذا بالإضافة إلى أن العبارة التي ينسبها ابن إسحق إلى عائشة ، وهى أن النبي سيرى من جويرية ما رأت عائشة ، أى حلاوتها وملاحتها ، فيها إساءة ، لا نرغب تأديا فى شرحها أو الخوض فى تفاصيلها .

لهذا نرفض حكاية ابن إسحق . وقد يختلف معنا الكثيرون ، ونحن نحترم الاختلاف فى الرأى ، ما دام فى سبيل البحث عن الحقيقة وإظهارها ، دون جعجة أو تشنج أو "هلوسة" الاتهام بالزندقة والكفر .

أسلمت جويرية . تزوجها النبي . فرح بنو المصطلق بهذه المصاهرة . أسلموا ، هكذا تحول أعداء الأمس إلى أصدقاء أحباء . شاع الخبر بين المسلمين . أطلقوا ما بأيديهم من أسرى وسبایا . ما كان لهم أن يسرقوا أصهار رسول الله .

⁴⁰ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٣٩ .

هنا تظهر الحكمة الكامنة وراء هذا الزواج . لقد تم عتق بني المصطلق جميعا ،
مائة دار من العرب ، أسلموا ، انضموا إلى صفوف المسلمين كي تزداد الدعوة قوة وهيبة
وانتشارا في شبه جزيرة العرب .

قالت عائشة : لقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم
امراة كانت أعظم على قومها بركة منها .

هكذا تحدثت عائشة : عن عظمة جويرية ، لا عن كراهيتها لها وغيرتها منها ، كما
يدعي ابن إسحق . وهذه هي عائشة أم المؤمنين التي لا نتوقع منها سلوكا
غير هذا .

كان النبي نفسه هو الذي غيّر اسم " برة " بنت الحارث ، وأسماها جويرية ، إذ كان
يحب الحسن في كل شئ حتى في الأسماء ، وكانت للأسماء عنده مضامين ومدلولات .

وكان النبي عند عودته ، بعد غزوة بني المصطلق ، قد أصبح على غير ماء ،
فنزلت آية التيمم ، التي ترخص التيمم في عدم وجود الماء : " وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ
سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُبَيِّنَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " (المائدة : ٦) .

(٤)

حديث الإفك

من توابع غزوة بني المصطلق وفي أعقابها ، كان حديث الإفك ، الذي وجد فيه
المنافقون ، ومن هذا حذوهم ، مادة مسمومة لإثارة الإشاعات والأقاويل ضد إحدى أزواج
النبي . وفي هذا - بالطبع - ما يسئ إلى سمعة النبي نفسه . إذا وصم بيت النبي بالفجور -
هذا ما حاولوه - فكيف يُصدّق ذلك النبي ، وكيف يكون قدوة ، وكيف يُستمع إليه ، وكيف
يأمر فبطّاع ، وكيف يسيطر على من حوله إذا كان لا يستطيع السيطرة على أهل بيته
وصيانتهم من الانحراف والدنس !!!

حديث الإفك بكل خطورته ، كان وليد مصادفة تعسة ولدت شرارة صغيرة كان من
الممكن أن تخدم لولا أن نفخ فيها أهل النفاق والحاقدون فأججوها حتى تحولت إلى بركان
كان من الممكن ألا يبقى ولا يذر ، لولا حكمة النبي في مواجهة الموقف ، ثم عدالة السماء

عندما نزل جبريل بالوحي فأظهر الحق وبراً المظلوم وأدان الظالم ، وأصدر الحكم وفصله تفصيلاً .

ولنبدأ حكاية الإفك من بدايتها .

فى طريق العودة ، بعد أن انتهى النبى من غزوة بنى المصطلق ، نزل منزلاً لا يبعد كثيراً عن المدينة ، بات فيه بعض الليل ، ثم أذن فى الناس بالرحيل .

كانت عائشة - كما أسلفنا - فى صحبة النبى ، وهى آنذاك ، فى سن الصبا ، نحيفه الجسد خفيفة الوزن ، لم يتقل اللحم جسدها بعد . عند الرحيل ، كان من عادتها أن تجلس فى هودجها قبل أن يأتي القوم الذين يرحلون لها ، وعندما يأتون وقد ألفوا أن تكون فيه ، يأخذون بأسفل الهودج ، يرفعونه ويضعونه على ظهر البعير ، يشدون بحباله ، يأخذون برأس البعير وينطلقون .

أمر النبى بالرحيل ، بعد أن استراح الناس بعض الليل . فى هذه اللحظة بالذات ، وهنا تكمن المصادفة التى تبدو هينة تافهة لو لم تكن نتائجها مذهلة مرعبة ، وجدت السيدة عائشة نفسها مضطرة للابتعاد قليلاً عن الناس كى تقضى حاجتها . لم يكن هناك اختيار . إما أن تبتعد عن الناس كى تستر نفسها وتعطي الطبيعة حقها ، وإما أن تحدث ما يجب ألا يحدث . وكان هذا بالنسبة لها أمراً مستحيلاً .

خرجت وابتعدت . اعتقدت أن الأمر لن يستغرق سوى سويقات تعود بعدها بسرعة قبل أن يرحل الناس . وقد حدث بالفعل أن عادت وقد بدأ الناس فى الرحيل . كان من الممكن أن تدخل هودجها ، كما تعودت ، وتأخذ الأمور مجراها المألوف ، ويصل الكل إلى المدينة فى سلام . لكن الصدفة تتدخل ثانية ، وتلعب دورها من جديد ، وكأنه قدر كتب على عائشة ، وتجربة مريرة كان لابد وأن تتجرع علقمها .

عندما وصلت بعد قضاء حاجتها وأوشكت على الدخول إلى هودجها ، وضعت يدها تتحسس رقبتها فلم تجد العقد الذى كان يطوقها ، وهو عقد ثمين كانت تعتر به ، انسل من عنقها ولا تدرى .

دون أن تعطي نفسها مهلة للتفكير ، أسرع بالعودة إلي حيث كانت ، باحثة عن عقدها الذى كانت تحب دوماً أن تترزين به . ركزت كل حواسها فى عملية البحث الذى استغرق بعض الوقت . لم تشعر برحيل الناس .

جاء القوم الذين كانوا يرحلون لها البعير . حملوا اليهودج وقد ظنوا أنها فيه ، شدوه على البعير ، انطلقوا مع الجمع راحلين إلى المدينة . وما أن وصلت هى إلى العسكر ، فرحة بالعثور على عقدها ، حتى فوجئت بخلو المكان . لا أحد هناك .

هكذا وجدت أصغر زوجات النبی سنا ، وأقربهن إلى نفسه وأحبهن إلى قلبه ، نفسها وحيدة فى الليل وسط صحراء قاحلة لا رفيق فيها سوى الليل والرمال وصفير الرياح .

كانت قوية الإيمان ، رابطة الجأش ، رغم صغر سنها ونحافة جسدها لم ترتعد ، لم يسيطر عليها اضطراب أو خوف . إنها زوجة النبی ، تربت على عينه ونشأت بين يديه ، لن تضار أو تؤذى ، وهى تؤمن إيماناً مطلقاً أن الله حافظها ومنقذها . لا بد وأن يفتقدها الناس ، وعندها لا بد وأن يسارعوا بالبحث عنها والعودة بها سالمة إلى المدينة . فى طمانينة وهدوء تلتفت بجلبابها ، واضطجعت فى مكانها ، تنتظر .

هنا تتدخل الصدفة من جديد ، وكأنها قدر كارثى محتوم كتب على عائشة أن تواجهه . بدلا من أن يظهر القوم - الذين اعتقدت أنهم لا بد وأن يفتقدوها ويسرعوا بالبحث عنها - يظهر شاب ممشوق القوام ، على قدر كبير من الوسامة ، هو صفوان بن المعطل السلمي ، وهو من بنى سليم ، رحل إلى المدينة وعاش فيها وكان يعتبر كواحد من المهاجرين . كان يعرف عائشة ، وقد رآه الناس يتحدث إليها فى المدينة أكثر من مرة ، قبل أن يضرب الحجاب على نساء النبی .

كان قد تخلف هو أيضا عن الركب ولم يبت مع الناس فى العسكر . هى تخلفت عن الركب لأمر خاص بها ، وهو تخلف عن العسكر لأمر خاص به .

التقيا وحدهما فى قلب الصحراء وجوف الليل ، ولا أحد غيرهما هناك .

هل هناك مصادفة أكثر إذهالا من هذه المصادفة ؟ نقول إنها مصادفة ، وهى كذلك . لكن كارثيتها تكمن فى أن المغرضين والذين فى قلوبهم مرض سيقولون غير ذلك .

المنظر فى لمح : ابن المعطل فوق ناقته يحثها على الإسراع كى يلحق بالقوم . فجأة يرى على مرمي البصر سوادا . يتجه نحوه . يرى امرأة مضطجعة على الرمال ، متلففة فى ثيابها . يتأمل وجهها . يصيح وقد روعته الدهشة : ظعينة (زوجة) رسول الله !! إنا لله وإنا إليه لراجعون .

تمالك نفسه . سيطر على دهشته . سأل : ما خلفك يرحمك الله ؟ عائشة ما تكلمت . ما كان لها أن تتكلم . واجهت ابن المعطل بالصمت والإباء المعهود فى بيت النبوة .

ابن المعطل قرب البعير من عائشة . أناخة واستأخر . ما نسي نفسه ولا عظم الموقف . إنه فى حضرة إحدى أمهات المؤمنين ، زوجة النبى الذى آمن بما جاء ، واتبع تعاليم ما أنزل عليه .

اعتلت عائشة ظهر البعير . كان الأمر بالنسبة لها سهلا يسيرا ، فقد كانت - كما ذكرنا - خفيفة الوزن ، ممشوقة الجسد ، سريعة الحركة . أخذ صفوان برأس البعير . وانطلق مسرعا يحاول اللحاق بالناس .

هنا قد يثير بعض الخبثاء سؤالا : كيف عرفها صفوان فى ظلمة الليل وهى متلغفة فى ثيابها ، لا يبدو منها شئ ؟ لقد صاح لحظة أن رآها : طعينة رسول الله ؟ إنا لله وإنا إليه لراجعون ! من الوهلة الأولى ، أى من أول لمح ، عرف أنها زوجة النبى ، لم يساوره شك فكيف عرف هكذا بسهولة فى وسط الظلمة وفى مواجهة لقلعة الثياب ؟

مواجهة مثل هذا التساؤل والرد عليه ، قد لا تتطلب الكثير من عميق التفكير : إما أن الليلة كانت مقمرة ، وعندما يغمر القمر الليل بنوره تبدو واضحة تفاصيل الأشياء ، وإما أن الفجر كان قد بزغ فوضحت الرؤية . وما كان صعبا بالنسبة لشاب مثله - أبعد ما يكون عن الشبخوخة وكلال البصر - أن يرى سواد امرأة أراحت جسدها فوق الرمال .

أما كيف عرف أنها عائشة ، زوج النبى ، فهذا أيضا سهل التفسير . رغم أنها كانت متلغفة فى ثيابها ، إلا أن وجهها لم يكن مغطى بحجاب أو ثياب ، وليس هناك ما يرغم امرأة إرغاما على تغطية وجهها . ووجه عائشة كان مألوفاً لديه ، ولدى أهل المدينة .

على أية حال ، حاول ابن المعطل ، وقد حمل الأمانة ، أن يلحق بالناس ، فما أدرك الناس .

ودخل المدينة وحده :

ودخل المدينة وحده يقود البعير ، وعائشة بلا هودج فوق البعير . هنا تصل الأحداث إلى ذروتها .

برزت رؤوس أهل الإفك ، كرؤوس الأفاعي ، وبدأ الفحيح : عائشة تخلفت عن الركب . لم تعد فى صحبة زوجها وجمع الناس . عادت فى صحبة رجل غريب عن أهلها ، قضت معه فى قلب الصحراء شطرا من الليل .

وجد عبد الله بن أبي ، فيما شاع عن ظاهر الأحداث ، فرصته كي ينال من النبي وأهل بيته ، وحقده في هذا المجال قديم دفين . تحدث ، ربما همسا ، ونقل عنه المنافقون ، وبعض ضعاف النفوس من المهاجرين ، ونشروا قوله جهرا . لقد لامه كثيرون ، عند بنز بني المصطلق ، عندما أفصح عن ازدرائه لـ " جلابيب قریش " ، وأعلن أنه بعد العودة إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ووجد نفسه مجبرا على أن ينكر ما قال .

الآن ، من يستطيع لومه والحدث صريح واضح ؟ عائشة تدخل المدينة على بغير يقوده شاب شديد الوسامة مليح . ما يجب ألا يحدث قد حدث - هكذا همس رأس النفاق - والتي أحدثته واحدة من أهل بيت النبي الذي جاء يدعوهم إلى الطهر والعفاف .

ارتج العسكر واضطرب الناس . بعد ان اضطربت الكلمات كما النيران . اختلفوا . استجروا . كاد الأمر أن يصل بهم إلى حد الاقتتال . نكبت الجراح القديمة . استثيرت العصبية القبلية الجاهلية من جديد . قال أسيد بن حضير أخو بني عبد الأشهل (وهو من الأوس) : يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك . فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم .

عندها قام سعد بن عبادة سيد الخزرج ، قال . كذبت : لعمر الله لا تضرب أعناقهم!! أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا .

قال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .^{٤١}

احتد الجدل واحتدم ، حتى كاد أن يصل إلى عراك ، لكن النبي - رغم شدة حزنه لما شاع - استطاع بحكمته البالغة أن يهدئ من حدة الغضب الملتهب ومن خطورة الموقف المتأزم .

اعتلى النبي المنبر ، وهو يجاهد نوازع النفس ، محاولا التحكم فيها والسيطرة عليها ، كي لا يفعل أو يغضب أو يتسرع في إصدار حكم . تحدث إلى الناس ، نافيا في هدوء واثق مقالة السوء التي ردها جمع من الأنصار ، وقليل من المهاجرين ، عن غير علم وبلا بينة ، دون تحر أو تدقيق .

قال النبي وقد غمره حزن حاول قدر المستطاع ألا يظهره : أيها الناس ، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيرا ،

^{٤١} الطبري ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى .^{٤٢}

هكذا اشتكى النبي الناس إلى الناس ، ولم يشك الناس إلى الله ، رحمة بهم وخشية عليهم من غضب الله .

ما كانت عائشة منذ وصلت ، تدرى بما يدور حولها وما يشاع عنها . كل ما لاحظته هو ما بدا واضحا من تغير فى سلوك النبي تجاهها . كان دائما يلاطفها ويداعبها ويبدو باسم الوجه بشوشا كلما أقبلت عليه . بعد عودتها ، لم يعد كذلك . اكتفى كلما رآها بـ "كيف تيكم" لايزيد عليها شيئا .

فى البداية . عزت عائشة تغير سلوكه إلى الزوجة الجديدة : جويرية بنت الحارث ، وقد كانت - كما وصفتها هى نفسها - امرأة حلوة ملاحه . ربما هجرها النبي وجفاها من أجل هذه القادمة الجديدة ، وللجديد دوما طلاوة وحلاوة .

سيطرت الحيرة على عائشة واعتراها القلق . لم تتحمل هجران سيد وجودها وجوهر حياتها . مرضت . توقعت أن يلطف بها النبي ويحنو عليها ، كما تعود . لكنه هذه المرة لم يفعل ، مما دفعها - حين رأت من جفائه ما رأت - أن تطلب منه أن يسمح لها بالانتقال إلى بيت أبيها كى تحظى برعاية أمها ، تعتني بها وتمرضها . لم يعترض النبي . لم يسألها عن سبب وعكتها أو أعراض مرضها . اكتفى بأن قال : لا عليك .

فى بيت أمها بدأت عائشة تسترد قواها ، تتخلص من حالة الضعف الجسدى والمعنوي التى اعترتها ، تمنى نفسها بالعودة إلى بيتها حيث تلتقى بأحب أحبائها . لكنها صعقت عندما فاجأتها إحدى القرشيات بما يشاع عنها ويمس شرفها . التى أخبرتها هى أم مسطح بنت أبى رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف . وكان ابنها مسطح (وهذا لقبه واسمه عوف) أحد المروجين لحديث الإفك ، ومعه من قریش أيضا خمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوج النبي ، وكأنها كانت تكيد لعائشة نياية عن أختها زينب التى عصمها الله بدينها فلم تنفوه بكلمة واحدة ضد عائشة رغم كل ما سمعته ، وكان موقفها ساميا نبيلاً وهى لا تذكر عائشة إلا بالخير .

المثير للدهشة والاستغراب أن ينضم إلى جماعة الإفك - وعلى رأسها عبد الله بن أبى - الشاعر حسان بن ثابت ، الذى قرّبه النبي إليه لدرجة أن اعتبره شاعر الإسلام . حسان هذا كتب قصيدة يهجو فيها " جلابيب " قریش ، ويعرض بصفوان بن المعطل

^{٤٢} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

وبمن أسلم من العرب من مضر^{٤٣}، ويعني هجران الآلهة القديمة ، ويصف نفسه وكأنه محاصر ببحر من اللاجئين في المدينة^{٤٤}. هكذا أصبح الشاعر ، الذى كان يصدح مغردا بانتصارات النبى أداة من أدوات الإثم فى فاعلية حديث الإفك .

اعتبرت النبى حيرة وقد تأخر الوحي ، الذى لم يكن هناك من مخرج غيره لوضع حد لحيرة النبى واضطراب نفوس أهل المدينة . لجأ النبى إلى استخدام منطق البشري بحثا عن دليل البراءة ، أو دليل الإدانة إن وجد . لم يسارع إلى الاتهام الظالم ، ولا بينة لديه ، أو إلى الظلم القاهر والإيذاء المهيمن وهو لا يملك الدليل .

باح بما يعتمل فى صدره لأقرب الناس إليه : على بن أبى طالب ابن عمه وزوج ابنته ، وأسامة بن زيد ونحن نعرف مكانة زيد وولده فى قلب النبى . كان أسامة يقارب عائشة فى السن ، وكان يعتبر فردا من أفراد أسرة النبى ، وعندما سأله النبى عن رأيه فيما شاع ، أثبت أسامة على عائشة ، فما رأى عليها أو منها ما يسوء أو يسئ . أهلك يا رسول الله - قال أسامة - ولا نعلم عليهن إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل . هكذا نفى أسامة أية شبهة تمس طهر عائشة . ما قيل لا يزيد عن كونه مجرد كذب باطل لا يمكن تصديقه ويجب عدم الالتفات إليه .

أما على بن أبى طالب ، فقد كانت كلماته تتسم بالحياد الذى يعتمد على المنطق العقلاني ، لا على الانفعال العاطفى . قال على : يا رسول الله . إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف . وسل الجارية فإنها تصدقك .

ولا نرى فيما قاله " على " إتهاما لعائشة ، كما قد يتبادر إلى ذهن البعض . لقد حاول قدر الإمكان أن يخفف من عبء الحيرة التى اشتملت النبى ، وأن يسرى عنه . النساء كثيرات ونتمنى أى منهن أن تشرف بأن تكون زوجة للنبى . وقد أضاف على بمنطقه العقلاني المنصف : سل الجارية فإنها تصدقك .

رغم ذلك فإن العبارة السابقة تثير فى النفس إحساسا بالحيرة ، إذ أننا لا نعرف على وجه التحديد لماذا طلب على من النبى أن يسأل الجارية ، إن كان ما تمت روايته فى سيرة ابن هشام^{٤٥} صحيحا ، وليس مجرد إضافة من خيال كاتبه . ما صلة الجارية "بُرَيْرَة" بحديث الإفك ؟ كيف تشهد على ما ادعى المنافقون ، ومن حذا حذوهم ، أنه حدث بعد غزوة بنى المصطلق وقبل الوصول إلى المدينة ؟ هل كانت الجارية فى صحبة

^{٤٣} الطبرى ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

^{٤٤} كارين ارسترونج ، محمد ، ص ٢٩٨ .

^{٤٥} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٤٦ .

عائشة، فى رحلة الذهاب والعودة ، كى تكون شاهد إثبات أو نفى على حسن أو سوء سلوكها ؟ لم يذكر أى من كتاب السيرة أن الجارية كانت هناك فى صحبة سيدتها .

ماذا كان على يقصد - إذن - عندما طلب من النبى أن يسأل الجارية ؟ من المستبعد - إن لم يكن من المستحيل - أن يكون المطلوب منها أن تدلى بشهادة تثبت أو تنكر حدثا لم تره ولم تكن طرفا فيه ، بل إن عدم وجودها أصلا ينفى العلم ويثبت الجهل . ولا يمكن أن تنتزع شهادة من جاهل بظاهر الأمر وباطنه ، ومن الخطأ أن يرغم عليها ، لأن الشهادة فى هذه الحالة ستكون باطلة . وكما يقول سدنة القانون : باطل كل ما هو قائم على باطل .

هل أراد على أن تسأل الجارية عن سلوك سيدتها بصورة عامة ؟ فى رأينا هذا أمر مجوج ومستهجن ويجب ألا تسأل عنه جارية .

ويدعي بعض كتبة التراث أن عليا قام إلى الجارية وضربها ضربا شديدا ، وهو يقول : أصدقى رسول الله !!

أمر غريب ، مغرق فى غرابته " القاضى " يضرب الشاهدة ضربا مبرحا ، ويفعل ذلك أمام النبى الذى قال يوما : " أقضاكم على " . هل هذا كلام من الممكن أن يستوعبه عقل ؟ على الذى قال عنه النبى ما قال ، والذى اشتهر بين الصحابة جميعا بالحكمة والعدل ، يعتدي على الجارية ويؤلمها بضرب شديد كى ينتزع منها شهادة . هذا هراء لا نعترف به ولا نقره ، لأن الجارية تحت وطأة التعذيب قد تجد نفسها مرغمة على الكذب فتدين سيدتها .

على أية حال ، نجحت الجارية فى أن تخلص نفسها من الموقف كله ، بحكمه ربما ألهمت بها وربما كانت مكتسبة من وجودها فى بيت النبوة ، قالت : والله ما أعلم إلا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة ، إلا أنى كنت أعجن عجيني فأمرها أن تحفظه فتنام عنه ، فيأتى الداجن (الشاة فى البيت) فيأكله .^{٤٦}

شهادة تتسم بالبساطة والبراءة ، وتحدد الاتهام الحقيقي من وجهه نظر الجارية : كانت عائشة بدلا من أن تحرس العجين تنام . وليحاكموها على ذلك ، إذن !!

نتخيل النبى وقد تبسم ضاحكا من قولها ، وقد اطمأن قلبه وهذأت هواجسه . لكنه كان يريد اليقين ، واليقين مخبا فى قلب عائشة ، لذا كان لابد من مواجهتها ، ومنحها فرصة الدفاع عن نفسها ، وهى لن تقول سوى الحقيقة .

^{٤٦} الطبرى ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

ولنترك هذا الموقف بالغ الصعوبة ، بين النبي وعائشة ، كي تقصه هي علينا بنص كلماتها :

دخل على رسول الله وعندي أبواي ، وعندي امرأة من الأنصار ، وأنا أبكي وهي تبكي معي ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا عائشة : إنه قد كان ماقد بلغك من قول الناس ، فاتقِ الله ، وإن كنت فارقت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

قالت : فوالله ما هو إلا أن قال لى ذلك فقلص دمعي حتى ما أحس منه شيئا . وانتظرت أبوي أن يجيبا عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتكلما .

وأيام الله لأننا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأننا من أن يُنزل الله فى قرآنا يقرأ به فى المساجد ويصلى به ، ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئا يكذب به الله عنى ، لما يعلم من براءتي ، أو يخبر خبرا ، فأما قرآن ينزل فى فوالله لأنفسى كانت أحقر عندي من ذلك .

فلما لم أر أبوي يتكلمان قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقالا : والله ما ندرى بماذا نجيبه ..

قالت : فلما أن استعجما على استعيرت فيكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا ، والله إنني لأعلم لأن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أنى منه بريئة ، لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت مايقولون لا تصدقوني .. ثم التمسيت اسم يعقوب فما أذكره ، فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .^{٤٧}

لقد أسلمت عائشة أمرها لله ، اعتمدت اعتمادا كلياً عليه ، وتقدمت بشكواها إليه ، وهى تؤمن إيماناً جازماً أن الله عالم بطهرها وبراعتها ، وإن كان بعض الناس قد خذلوها وأسأعوا إليها ، فإن العدل الإلهي لن يخذلها أبداً . بعدها لزمت الصمت .

وما أن انتهت عائشة من كلماتها ، حتى تغشى النبي من الله ما كان يتغشاه . هبط جبريل بالوحي ، فسجي النبي بثوبه ووضعت تحت رأسه وسادة .

فى تلك اللحظات الفارقة ، تملك الذعر أبا بكر وارتعدت زوجته فرقا من أن يسأني من الله ما يثبت صدق ما أشاع الناس . أما عائشة فنقول إنها ما فرغت وما اهتز منها طرف . ذلك لتأكدها من براءتها . أبداً لن يخذلها من خلقها وطهرها .

^{٤٧} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .

عندما سرى عن النبى ، جلس والعرق يتصبب منه ، كما كان يحدث دوما لحظات هبوط الوحي . مسح العرق عن جبينه ، التفت إلى عائشة ، باسم الثغر ، قال : أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك .

حمدت عائشة الله على ما أنعم به عليها ، فما كانت تتوقع أبدا أن تكون براءتها بوحى من عند الله فى قرآن يتلى فى المساجد ويصلى به . لكن ما لم تتوقع حدوثه أبدا قد حدث . ولم تقل عائشة للنبى ما قالت له يوم تزوج زينب بنت جحش بأمر من السماء: أرى ربك يسارع لك فى هواك .^{٤٨}

أدان القرآن ما أشاعه أهل الإفك والفاحشة ، فى قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (النور: ١١-١٩) .

صعد النبى المنبر . تلا ما أنزل عليه من قرآن . تمت إدانة الإفك . ما عاد باستطاعة أحد أن يصدق أقاويل من تولى كبره . انتهت الفتنة . عادت عائشة إلى مكانها ومكانتها فى بيت النبى . وقد اكتسبتها التجربة المرة قوة فوق قوتها ، وصلابة واعتدادا بالنفس يندر أن تتمتع به من هى فى مثل سنها .

كان لابد من معاقبة أولئك الذين أفصحوا بالفاحشة ورغبوا أن تشيع فى الذين آمنوا ، وقد حدد النص القرآنى كيفية العقاب : " وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " (النور: ٤) .

أمر النبى بمسطح بن أثاثه وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش فضربوا حدهم .

ويجمع عدد كبير من كتاب السيرة من أمثال ابن هشام والطبرى وابن سعد وهىكل وأبى زهرة ، على أن النبى قد أقام الحد على من ذكرنا سابقا ، ولا يتفق د. شوقى ضيف معهم جميعا عندما يقول : وعفا الرسول بدورة عنه (أى عن مسطح) وعن حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت جميعا ، وأيضا عن عبد الله بن أبى .^{٤٩}

ولعل الدكتور شوقى ضيف قد خرج عن رأى الجماعة ، وأنكر تطبيق الحد على من ثبتت إدانتهم ، معلنا أن النبى قد صفح وعفا ، كى يتجنب الإجابة على سؤال قد يثار: لماذا تم تطبيق الحد على مسطح وحمنة وحسان ، ولم يتم تطبيقه على عبد الله بن أبى رغم

^{٤٨} خليل عبد الكريم ، ص ١٠١ .

^{٤٩} شوقى ضيف ، ص ٢٨٦ .

أن الدلائل تشير إلى أنه رأس الفتنة ، ورغم أن السيدة عائشة نفسها صرحت بكل وضوح أن الذى تولى كبره عبد الله بن أبى ؟⁵⁰

لماذا لم يطبق الحد على عبد الله بن أبى ؟ هذا هو السؤال .

يتجاهل من قرأنا لهم من المحدثين - باستثناء الشيخ الإمام محمد أبى زهرة - الإجابة على هذا السؤال تجاهلاً تاماً ولا يلتفتون إليه ، ربما لأنهم لا يعرفون كيف تكون الإجابة ، وربما لأنهم يعتقدون أن السؤال لا يستحق مشقة التفكير فيه ، وربما لأنهم اتخذوا جانب الحذر وتحاشوا الخوض فيما لا يجب الخوض فيه ، إذ قد تعرضهم المناقشة إلى صراحة التعبير عن رأى قد يرى فيه " الفقهاء " شططاً وانحرافاً ، لا تقييماً واجتهاداً ، وعندما توجه لهم سهام الاتهام بالزندقة والكفر ، وبعدها يصبح دهمهم مباحاً ، وربما يراق على أروصفة الطرقات على يد دعي جاهل لا يعرف شيئاً عن مبادئ الإسلام ، وربما لم يقرأ آية واحدة من آيات القرآن .

والآن نأتى إلى ما قاله الشيخ الإمام محمد أبو زهرة فى محاولته الإجابة على السؤال : إن الذين تحدثوا حديث الإفك كانوا أكثر من ثلاثة .. بل إن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : إن الذى تولى كبره عبد الله بن أبى ، فلماذا لم يقم الحد إلا على هؤلاء الثلاثة ؟

ونقول فى الجواب عن ذلك إن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر أن هؤلاء قد صرحوا بالرمي ويظهر أنه قام الدليل على أنهم تكلموا ، ولم يقم الدليل على غيرهم . ولكن أم المؤمنين عائشة قالت إن الذى تولى كبره رأس المنافقين ، فكيف لا يُحد وهو الآثم الأول ؟

ونقول فى الإجابة على ذلك إنه بلا ريب هو الذى تولى كبر هذا ، بالتنبيه على مايسهل على غيره الرمي ، من غير أن يصرح بالرمي ، ويدس الخبر فى الناس بلحن القول من غير تصريح ، فيحمل الناس على أن يتكلموا ، ولا يظهر الكلام إلا بين خاصته الذين يشيعون الإفك بتوجيه الأذهان إليه من غير أن يصرحوا ، فهم يوعزون بالقول ، ولا يظهرون ، ويدفعون غيرهم ، ولا يتكلمون ، وتلك حال المنافقين يستترون ولا يتكلمون ، وبذلك تتحقق فى غيرهم شروط إقامة الحد ، ولا تتحقق فيهم ، والله أعلم .⁵¹

⁵⁰ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ .

⁵¹ أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٧٣٩ .

اجتهد الشيخ الإمام وأبدى رأيه : عبد الله بن أبي هو المصدر الرئيسي لحديث الإفاك، وهو الذى أشاعه بتوجيه الأذهان إليه ، لكنه لم يجهر به ، ترك ذلك لأتباعه ومن صدقوا ، وبذلك لا تتحقق فيه شروط تطبيق الحد . وبناء عليه فإن أحدا لم يجزؤ على أن يمس به بسوء .

هذا هو رأى الشيخ الإمام . لقد اجتهد ونحن نحترم اجتهاده ، وله ثواب الاجتهاد سواء أصاب أو أخطأ ، لكننا لا نتفق معه فيما لجأ إليه من تفسير وتعليل . نقول :

لقد كان من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - جلد عبد الله بن أبي ثمانين جلدة ، أو حتى جلدة واحدة ، علنا وأمام أعين الناس . هذا سيد قومه ، وكان فيهم عظيما مهابا ، وما نسوا - وما نسى هو نفسه - أنهم كانوا ينظمون له الخرز كى يتوج ملكا .

كان من الصعب على شخص يتمتع بين قومه بهذه المكانة الاجتماعية ، وبهذه التركيبية النفسية المتعالية ، التى كانت تشير دوما بازدياد إلى " جلايب " قريش ، أن يخضع لحكم بالجلد . لقد عبر عن ترفعه واستعلائه عندما أعلن صراحة عند بئر بنى المصطلق : أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك . أما والله لنن رجعنا ليخرجن الأعرز منها الأذل .

رجل كهذا لا يتوقع منه أحد أن يسلم ظهره كى يجلد ، كما يجلد العبيد . ما كان يتوقع منه إلا أن يستل سيفه ويقاثل كى يموت فى كبرياء ، كما عاش بين قومه فى كبرياء ، وما كان قومه ليتركوه فى الساحة وحده وهو سيدهم . وفى لحظات الثورة والغضب تنتفض العصبية القبلية التى غرست فى أعماق النفوس منذ مئات السنين ، غير مبالية بما اكتسبته حديثا من قيم الإسلام .

ولو حدث هذا لوجد المهاجرون أو " جلايب " قريش - كما أطلق عليهم ابن أبي- أنفسهم فى موقف شديد الصعوبة ، شديد الحرج .

كان النبى يدرك كل هذا تمام الإدراك . لذا رأى ، بنقاء بصيرته وببالغ حكمته ، أن يتمسك بعبارته التى قالها لعبد الله بن أبي ، عندما عرض ذلك الابن الصادق الإيمان أن يقتل أباه ويحمل رأسه بنفسه إلى النبى ، قال نبى الرحمة : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .

صلح الحديبية

الحنين إلى مكة:

مكة !! محمد النبي يريد مكة .. إنها لا تغيب لحظة عن مخيلته .. لا تفارقه أبدا.. أحب بلاد الأرض إليه هي .. شوقه إليها وحنينه لها يزدادان يوما بعد يوم .. مهد مولده ومرتع صباه وموطن أحبائه. ما كان ينسى للجد عبد المطلب ، والعم أبا طالب ، وخديجة سيدة نساء مكة ، التي وقفت إلى جانبه في صلابة صخور مكة وفي شموخ جبالها.. كلمات ورقة بن نوفل ، الساطعة كالنير ، ما زالت تتلأأ أمام عينيه : قدوس ، قدوس ، والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتي يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة .. النور الثراني وهو على باب الغار في قمة جبل حراء. وجبريل يملأ عليه كل أفق السماء وأنى اتجه ببصره رآه : وصوت الملك يرن ويتردد " أنا جبريل يا محمد ... بداية النبوة : " أنا جبريل يا محمد ، وأنت رسول الله .." يوم لا ينسى .. ذلك اليوم .. يوم جاءه الملك !!

غلاظ القلوب هم سادة قريش وقادتها ، لكنهم أهله وعشيرته .. هم أولى بالرعاية والهداية والاستواء في درب السالكين المتجهين بأبصارهم إلى نور الله .. لن يعيشوا هكذا دوما بلا إيمان بإله واحد خالق قادر ، منسحقين تحت ثقل إيمان كاذب بآلهة حجرية خلقوها بأوهامهم وصنعوها بأيديهم وهي عاجزة جامدة لا تقدر على شيء .

لقد ناصبوه العداة .. قاتلوه .. حاولوا القضاء عليه .. أريق الدم على الجانبين .. حاصرون بعشرة آلاف مقاتل في هجوم بائنس يائنس لاستئصال دعوته .. وعادوا خائبين .

لن يقدم على ما أقدموا عليه .. لن يفعل ما فعلوا .. لن يشهر السيف .. لن يقذف بالنبل والسهم .. ليس من جهل كمن علم ، ومن ضل كمن اهتدي ، وهو النبي المرسل من قبل الرحمن الرحيم . نبي الرحمة والرحمة .. لن يكون أبدا سوط عذاب ، وليس بمقدوره أن يكون .. ما هذه هي طبيعة تكوينه ، وما هذا بجوهر رسالته.

الخروج لأداء العمرة :

فى نهاره كانت صورة مكة تتراءى أمام عينيه ، وفى ليلة كانت تقتحم رؤاه . لابد من الذهاب . لكنه سيذهب إليهم بلا سيوف بآخرة ، وبلا سهام قاتلة ، هو ومن معه سيتوجهون إلى حرم الله ، فى سلام ، من أجل السلام ، ولأداء العمرة ، ولتكن إرادة الله ، ولن يخذل الله عبده .

كان - كما نقول كارين أرمسترونج - يكابد المشكلة على مستوى العقل الباطن ، إذ حدث فى مارس عام ٦٢٨م ، أثناء الشهر التقليدي لرحلة الحج ، أن رأى فيما يرى النائم حلما أو رؤيا للمصالحة والنصر ، فقد رأى نفسه وقد حلق شعر رأسه كما يفعل الحجاج ، وارتي ملابى الإحرام ، واقفا فى الكعبة وممسكا بمفتاحها فى يده . وبدا أن تلك الرؤيا قد أفعته بالثقة فى النصر الذى عبرت عنه كلمات الله فيما بعد ، فى الآية التالية من القرآن : " لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا " (الفتح : ٢٧) .

أعلن النبى أنه خارج إلى مكة لأداء فريضة العمرة ، وعلى المسلمين أن يعدوا أنفسهم للخروج معه . كانت الدعوة فجائية غير متوقعة ، مما أصاب الكثرة بالذهول . هو ذاهب إلى قريش - التى سفكت دماء المسلمين فى " أحد " وحاولت استئصال الدعوة فى " الخندق " - هو ومن معه فى ملابس الإحرام ، هكذا دون مقدمات ودون استئذان .. من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، أن تسمح له قريش بذلك ، حتى ولو أريق الدم فى الشهر الحرام .. إنهم - كما يعتقدون - هم سدنة البيت وحراس الكعبة وأئمة الحسيج .. ومحمد قد أنكر دين آبائهم وسفه أحلامهم ، وقتل فى " بدر " صفوة قادتهم وعظمائهم .

لم يخالف المسلمون أمر النبى ، فروى الأنبياء حق ، وطاعتهم واجبة . لكن البعض طالب بتوخي الحذر . لابد من حمل السلاح ، حتى إذا ما هاجمتهم قريش استطاعوا الدفاع عن أنفسهم ، بدلا من أن يساقوا إلى حيث يذبحهم المشركون قربانا لأصنام مكة وأوثانها . لكن النبى أصر على أن لا يخرجوا معه إلا بسلاح المسافرين : السيوف فى القرب . لقد راقته الفكرة - كما يقول مونتجرى وت - لأسباب سياسية وعملية . لم يكن يأمل فى غزو مكة ، إذ كانت الروح المعنوية لأهل مكة ما تزال مرتفعة ، وكانت قوته أصغر من أن تهزمهم فى معركة فاصلة .

^١ كارين أرمسترونج ، محمد ، ص ٣١٧ .

كان هدفه الرئيسى ، بلاشك . هو ما أعلنه : أن يؤدى فريضة " الحج " لكن هذا الإقدام على ما اتخذته من قرار كانت له مضامين سياسية مؤكدة .. ومن المحتمل أن هذه المضامين السياسية كانت هى مجال اهتمامه الرئيسى . إن أداء فريضة " الحج " سيكون أوضح بيان على أن الإسلام ليس ديناً غريباً . لكنه فى جوهره دين عربى يجد فى مكة ، على وجه الخصوص ، مركزه وبؤرة وجوده . كما أنه يظهر أيضاً أن محمداً على استعداد لمد يد الصداقة - بالطبع - طبقاً لما يراه مناسباً له ولأتباعه^١.

وضع النبى رؤياه موضع التنفيذ خرج معتمراً فى ذى القعدة من العام السادس الهجرى ، لا يريد حرباً . استعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثى . التف المهاجرون والأنصار حوله فى طاعة راضية وفرح كبير . سيزور المهاجرون مكة حيث الأهل والأحبة وحيث البيت العتيق ، وقد غمرهم الحنين وطال بهم الاشتياق . والأنصار تواقون هم أيضاً إلى الطواف حول الكعبة التى طافت حولها الجموع منذ عهد إبراهيم .

استنفر النبى العرب من حوله ، وكذا أهل البوادي من الأعراب . أبطأ عليه الكثير . ليست هناك غنائم ، ولا أمل فى مكاسب من نهب وأسلاب ، فلم يخرج الأعراب ؟ قالوا : أسلمنا و لم يدخل الإيمان فى قلوبهم ، أسلموا بالسننهم ولم تؤمن قلوبهم ، فلم يذهبون وهم لا يؤمنون ؟

لم يكثرث النبى بمن تخاذل عنه . لا خير فيهم إن لم يرغبوا . خرج بمن معه من مهاجرين وأنصار . لم يفكر أى منهم - إلا بعذر - فى التخلف عنه . حتى عبد الله بن أبى - الذى شاكس وعاند وتناول يوماً - خرج مع النبى هو وأتباعه فى طاعة ظاهرة ما كانت لتخفى على أحد .

اصطحب النبى معه من زوجاته أم سلمة ، كما سمح لامرأتين شهدتا بيعة العقبة الكبرى بالخروج معه . كان العدد الإجمالى لمن خرجوا حوالى ألف وأربعمائة ، وهو عدد اختلفت فيه الآراء . يقول ابن إسحق إنهم كانوا سبعمائة رجل ساقوا معهم من الهدى سبعين بذنة كل بدنة عن عشرة نفر . أما جابر بن عبد الله ، وكان ضمن من خرجوا ، فقد قال : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة^٢ . ويروى الطبرى أن العدد يوم الشجرة كان ألفاً وثلاثمائة ، وكانت أسلم ثمن المهاجرين^٣ .

^٢ Montgomery Watt , Muhammad at Medina, p. 47.

^٣ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ .

^٤ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

هذا معناه أن العدد كان يتراوح بين ألف وثلاثمائة وألف وخمسمائة ويصعب تحديده بصورة قاطعة .

ساق النبي معه الهدى وترتدي ملابس الإحرام ، أى أحرم للعمرة ، ليعلم الناس أنه ما خرج محارباً ، إنما توجه إلى مكة زائراً للبيت ، طائعا خاشعا ومعظما .

قريش ترفع السلاح :

علمت قريش بخروج النبي ، فقد كانت لها عيون ترقب وترصد . وأرسل النبي ، بدوره عيناً له من خزاعة كي يأتيه بخبر قريش ، وقد كانت خزاعة تميل إلى جانب النبي ، ذلك لأن بنى المصطلق الذين تزوج النبي ابنة سيدهم " جويرية " كانوا من خزاعة . وهذا معناه أنه كانت تربطهم بـنبي صلة نسب .

ما كاد النبي يصل إلى عُتقان (قرية تقع إلى الشمال الشرقي من مكة) حتى أتاها الخزاعي بما انتهت إليه قريش : لن يسمحوا لمحمد بدخول مكة مهما كلفهم الأمر . لن يدخلها حاجاً ، أو معتمراً ، أو زائراً ، أو مهانداً . فإذا ما صمم على الدخول وأصر عليه ، فعليه أن يشهر السيف ويقاتل كي يدخل عتوة .. عندها تراق الدماء في الشهر الحرام ، ويتحمل محمد وزر جرم لن يغفره له العرب .

لقد سمعت قريش بمسيره فخرجت - كما أخبر النبي - ومعهم العوذ المطافيل (كناية عن النساء والأطفال) وقد لبسوا جلود النمر (أى تنمروا للقاتل) ، وقد نزلوا بذي طوى (موضع على مشارف مكة) ، يعاهدون الله لا يدخلها عليهم أبداً . ولقد تقدم بالفعل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل على رأس مائتي فارس من أشد فرسان مكة ، كي يوقفوا مسيرة محمد ومن معه ، ويحولوا بينه وبين ما جاء من أجله : لن يدخل مكة ، عليه أن يعود من حيث جاء أو يعرض نفسه ومن معه للتهلكة .

كان تعليق النبي على الموقف فيه أسى على ما أقدمت عليه قريش ، وتصميم قاطع على المضى فيما خرج من أجله : يا ويح قريش ! قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك السدى أرادوا ، وأن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش ! فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يُظهره الله أو تتفرد هذه السالفة .^٥

كان النبي يشعر بقوة موقفه ، دون إعلان حرب من جانبه ، ودون خوض قتال لم يخرج من أجله ، ولم يكن مستعداً له ، وما كان ليخوضه إلا إذا أرغم عليه .

^٥ الطبري ، ج ٢ ، ص ١١٧ . والسالفة هي صفحة العنق ، والعبارة الأخيرة كناية عن الموت .

لقد وضع قريش في مأزق ، فوجئت به ، وما كانت لتتوقعه أبدا ، إن ' طريد مكة' قد قرر العودة إليها معتمرا - لا مقاتلا - كي يطوف ببيتها العتيق ، وقد ارتدي ملابس الإحرام البيضاء - رمز السلم والسلام - وقد رفع يديه إلى السماء ومعهما ارتفع صوته بالنداء التقليدي الذي طالما رددته الحجيج عبر العصور : لبيك اللهم لبيك ، وأضاف إليه : لا شريك لك لبيك ، وتعاليت من حوله الأصوات تردد النداء في قوة وخشوع وفتها .

قريش تبعث فرسانها لقطع الطريق على الحجيج ومنعهم من دخول مكة . إنها تضرب بالأعراف عرض الحائط ، وتتقلب في ضراوة جاهلية ضد موروث قديم مقدس ، له في قلوب الوثنيين مكانته ، وفي قلوب المسلمين قدسيته .

هنا كانت تكمن قوة محمد . لن يغفر العرب جميعا لقريش وقوفها في طريق مسلمين مسالمين ، ومنعهم من دخول مكة لأداء فريضة مقدسة . لن يلوم أحد محمدا ومن معه ، فقد راعوا الشعائر القديمة مراعاة صارمة . اللوم كل اللوم سيقع على عاتق قريش إن هي منعت الحجيج من دخول مكة . يا ويح قريش !!

لكن قريشا ركبت رأسها ، وتمادت في صلفها وغطرستها . لن يدخل محمد مكة عنوة ، فيشعرهم بالإهانة والقهر . إن دخول مكة رغما عنهم سيكون فيه إذلال لهم . هذا معناه ضياع مكانة قريش وهيبتها بين العرب .

لن تسمح قريش بهذا ، حتى ولو كان حصاد مقاومتها وعنادها هو الإنكسار والدمار ، ذلك لأن الانكسار والدمار في هذه الحالة سيكونان على أسنة الرماح . لن تستسلم قريش وهي جاثية على ركبتيها أمام " سائق العير " .

خرج فرسان قريش - كما أسلفنا - بقيادة عكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد لقطع الطريق على المسلمين وردهم على أعقابهم ، أو القضاء عليهم في حالة المقاومة ، وهم يعلمون أن اتباع محمد لا يحملون معهم ما يكفي من سلاح .

هناك رأى يدعي أن خالد بن الوليد كان في صفوف المسلمين وأن النبي أمره بالخروج لملاقاة جيش المشركين ، وقد أرسل إلى المدينة يطلب المدد .

يذكر الطبري ، نقلا عن آخرين : أنه لما خرج النبي بالهدي ، وانتهى إلى ذي الحليفة ، قال له عمر : يا رسول الله ، تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ! قال : فبعث النبي إلى المدينة فلم يدع فيها كراعا ولا سلاحا إلا حملة . فلما دنا من مكة منعه أن يدخل ، فسار حتى أتى منى ، فنزل ، فأثاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليه في خمسمائة ، فقال رسول الله لخالد ابن الوليد : يا خالد ، هذا ابن عمك ، قد

أَنَّاكَ فِي الْخَيْلِ ، فَقَالَ خَالِد : أَنَا سَيْفُ اللَّهِ وَسَيْفُ رَسُولِهِ - فَيَوْمَئِذٍ سُمِّيَ سَيْفُ اللَّهِ - : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِرْمِ بِي حَيْثُ شِئْتُ . فَبَعَثَهُ عَلَى خَيْلٍ ، فَلَقِيَ عِكْرَمَةَ فِي الشَّعْبِ فَهَزَمَهُ حَتَّى أَدْخَلَهُ حِيطَانِ مَكَّةَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : " وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا " (الفتح : ٢٤) .^١

ما ذكره الطبري نقلا عن ابن أبي رزي - كما يقول - خطأ بين لا جدال فيه .

ما كان خالد بن الوليد آنذاك في صفوف المسلمين ، وما كان له أن يكون ، ذلك لأنه لم يكن قد أسلم بعد . لقد أسلم خالد بعد صلح الحديبية وبعد غزوة خيبر ، عندما توجه إلى المدينة في صحبة عمرو بن العاص وأعلن إسلامهما .

كما أن النبي لم يطلب من المدينة مددا ، عتادا وسلاحا ، فقد خرج معتمرا ، وما كان له أن يقاتل في شهر حرم الله فيه القتال .

كل ما فعله النبي عندما علم بخروج فرسان قريش لاعتراضه ، هو أن قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ، قال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله .^٢ سلك بهم طريقا وعرا بين شعاب صخورها تدمي الأقدام والأجساد ، حتى وصلوا إلى مهبط الحديبية وهي طرف الحرم على بعد تسعة أميال من مكة .

النزول في الحديبية :

هنا بركت " القصواء " ناقة النبي ، زجروها فأبَت الحراك . قالوا : خلأت الناقة ، أي حرنت . قال النبي : ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . ثم قال للناس : انزلوا . قيل له : يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه ، فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه . فنزل به في قليب (بئر) من تلك القلب فغرزة في جوفه ، فجاش بالرواء .^٣

ويقال إن الحديبية سميت بهذا الاسم نسبة إلى شجرة طلع حذاء سميت حديبية وأطلق الاسم على المكان كله^٤ . وهي تعتبر بقعة حراما ، تقع في ذلك النطاق المقدس الذي يحيط بمكة ويحرم فيه القتال وإراقة الدماء .

^١ الطبري ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

^٢ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٥٧ .

^٣ الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٥٧ .

^٤ شوقي ضيف ، محمد ، ص ٢٩٠ .

لم ينجح خالد في اعتراض جمع المسلمين . أدرك وقد وصلوا الحديبية أنهم قد تجاوزوا منطقة الخطر . لابد من تدبر وتفكير قبل الإقدام على مخاطرة القتال في البقعة الحرام . عاد أدراجه إلى مكة .

ماذا تفعل قريش ؟ كانت هذه هي وظيفتها ومأزقها . محمد وأصحابه على مقربة من البيت الحرام جاءوا معتمرين مسالمين . لو جاءوا مقاتلين ، غازين ، مهديين ، لسهل الأمر وتم الاحتكام إلى السيف ، ولتحمل محمد وزر القتال وإراقة الدماء في الشهر الحرام ، وفي أرض الحرم . لكنه - لسوء طالعهم - جاء محرما ، داعيا وملبيا ، فاتحا لزعامة أهله وعشيرته ، وقد طسوى صسفحة ماضيهم معه بكل ما فيها من آلام وأحزان .

كان سادة قريش يفكرون ، وكان محمد هو أيضا بدوره يفكر . لقد استبعدت تماما فكرة اللجوء إلى السيف . الغلبة هنا لابد وأن تكون لصاحب الفكر الثاقب والبصيرة النافذة إلى أعماق الموقف المتأزم .

بدأ دهاء سادة قريش يلعب دوره . لم لايتم إحداث الفرقة ~ وإن أمكن الفتنة - في صفوف المسلمين ؟ ما هذا بالأمر العسير ، وبين المسلمين عبد الله بن أبي وأتباعه ، وهم يعلمون جيدا ما أحدثه عبد الله بن أبي من فرقة يوم انسحابه هو وأتباعه ورفضه الاشتراك في معركة أحد التي انتهت بهزيمة المسلمين . لم لا يكون هو هذه المرة أيضا سببا في شق صفوف المسلمين ؟

كان بين عبد الله بن أبي والقريشيين شيء من الود ، ليس بينه وبينهم شارات . أرسلوا إليه . إن أراد أن يطوف حول البيت فعلى الرحب والسعة ، قريش كلها تستضيفه وترحب به .

وكم كانت دهشتهم بالغة إلى حد الذهول ، عندما وصلهم رده بالرفض . من المستحيل أن يطوف دون محمد ، أو قبل محمد !! فسي هذا المجال تقول كبارين أرمسترونج : ومهما يكن من أمر آرائه السابقة ، ورغم أنه عاد لمعارضة محمد من جديد في المستقبل ، فقد أثبت ابن أبي في الحديبية أنه مسلم صالح .^{١٠}

ويعلق موننجري وت على موقف ابن أبي بقوله : لقد تقدم به السن ، وبالرغم من أنه كان في بعض الأحيان يبدى شيئا من التذمر ، إلا أنه كان في الحديبية مسلما مخلصا.. لقد رفض عرض قريش أن يقوم هو " بالحج " الذي أثرت به قريش مجاملة له ، حين

^{١٠} "كبارين أرمسترونج ، محمد ، ص ٢٢٢ .

رفضت دخول أى من المسلمين بما فيهم محمد . لم يستمر ابن أبى فى خصامه مع محمد ،
بدليل وجوده فى الحديبية ورفضه عرض قريش بأداء المناسك
دون محمد^{١١} .

لقد استعاد ابن أبى هيبته بين المسلمين ، وكان موقفه مشرفا حين تسامى على نفسه ،
ونسي أحقاده القديمة ، وقرر ألا يخرج عن طوع النبی .
الرسول :

قررت قريش أن ترسل إلى محمد من يسبر غوره ، يحاول معرفة مكنونات صدره
وفكره ، ويتطلع إلى من هم حوله كى يتم تقييم مقدار عزمهم وقوتهم :

١- كان أول من وصل إلى المسلمين بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي فى صحبة رجال من
خزاعة ، وكانت خزاعة - كما ذكرنا من قبل - على صلة نسب بالنبي ، يميلون إليه
ويحفظون سره . كلم بُدَيْل النبي وسأله عن سبب مجيئه ، وهو يعلم مسبقا لم جاء النبي .
أكد له النبي أنه ما جاء للبيت إلا زائرا ومعظما ، ما أتى يريد حربا ، وما جالت الفكرة
بخاطره أبدا . ولو كان يريد الحرب لاستعد لها بما يضمن له النصر ، ولاختار شهرا
غير الشهر الحرام .

نقل بُدَيْل رسالة النبي إلى قريش : يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد . إن
محمد لم يأت لقتال ، إنما جاء زائرا لهذا البيت .

لم يكثر سادة قريش بما قاله بُدَيْل . بل علي العكس اتهموه وعنفوه وخاطبوه بما
يكره ، وقد رسخ فى أعماق عقولهم أن خزاعة لن تميل أبدا إلى اتهام محمد . كان
قرارهم الفصيل : إن كان جاء ولا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا . ولا
تحدث بذلك عنا العرب^{١٢} .

٢- أرادوا التأكد من قول بُدَيْل . ربما تخدعهم خزاعة ، فيأخذهم محمد ومن معه
على حين غرة ، وبعدها لن تقوم لهم بين العرب قائمة . أرسلوا ميكرز بن حنص بن
الأخيف ، وهو رجل يتصف بالمكر والغدر .

ولحظة أن رآه النبي قال : هذا رجل غادر .. لكنه رغم ذلك أحسن لقاءه ، وقال له
نفس الكلمات التى قالها من قبل لبديل وأصحابه : جئنا زوارا للبيت معظمين لحرمته ..
ما جئنا لقتال .

^{١١} Montgomery Watt, Muhammad at Medina , p. 185.

^{١٢} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٦٠ .

فصل القول فى اختصار ، لا زيادة ولا نقصان ، ولا مجال لحوار أو جدال . كان هذا هو جوهر ما عاد به مركز بن حفص إلى قومه ، لا جديد ولا مزيد .

٣- لم تقتنع قريش . إنهم يريدون رجلا يتحدث ويحاور ويداور ويناور ويعرف نوايا محمد وغاياته . ما أفادهم بشئ من ذهب . اختاروا الحنيس بن علقمة ، وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهم قوم عرفوا بشدة البأس فى المعارك عند اشتداد القتال ، وكثيرا ما أخذوا جانب قريش وقاتلوا من أجل نصرتها .

لكن الحليس رغم وثيقته وشراسته فى القتال ، كان لا يخلوا من ومضة روحانية تعبدية حائرة ما مسها نور الهداية بعد . رآه النبى وهو قائم ، عرفه ، قال لمن حوله : ابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه . إن هذا من قوم يتألهون !! أى يتعبدون .

رأى الحليس الهدى وقد علقت القلائد فى أعناقها . وفجأة دوت فى أذنيه أصوات ما يزيد عن ألف من أتباع النبى وهم يلبون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . ارتجت أرجاء الوادى . هزه الصوت والصدى .

توقف الحليس . ما تقدم خطوة . لقد اخترقه اليقين وسيطر على حواسه . ما جاء هؤلاء القوم لقتال . إنهم يتعبدون . لن يقف فى طريقهم ويناجزهم إلا شقى أو فاجر . استدار على عقبه عاد دون أن يصل إلى النبى . لقد رأى وسمع ما أغناه عن الحديث معه .

سأله عن ما دار بينه وبين محمد . ما دار بينهما شئ . لم يلتق به ولم يتحدث إليه . قص عليهم ما رأى ، وردد على أسماعهم ما سمع . ومن له فؤاد فليحس ويتدبر . ومن له فكر فليعمله ويتعقل . ومن له عينان فلينظر فى إمعان وتأمل . ما جاء محمد لقتال . ومن يقول بغير ذلك كاذب قوله .

سخرُوا منه ووبخوه . قالوا فى استعلاء : اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك !!

ثار الحليس لكرامته . غضب . وقف فى وقار . قال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصدُّ عن بيت الله من جاء له معظما . والذى نفس الحليس بيده لتُخلَّن بين محمد وبين ما جاء له أو لتُفَرَّن بالأحابيش نفرة رجل واحد .^{١٣}

^{١٣} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٦١ .

حاولوا تهدئته واسترضاءه . فهو حليف لهم قوى ومن الصعب الاستغناء عنه . طلبوا منه أن يمهلهم بعض الوقت كي يُقَلِّبوا الأمر على كافة وجوهه . فربما استطاعوا التوصل مع محمد إلى ما يرضي الحليس ويرضيهم دون قتال .

٤- هذه المرة أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي ، وكانت أمه من بنات عبد شمس ، وهذا معناه أنه كان بالنسبة لهم فى منزلة الولد وهم له فى منزلة الوالد ، وقد جاءهم ومن أطاعه من قومه لمناصرتهم عندما علم بحرج الموقف الذى يواجهونه ، وعلى ذلك فما كان عندهم بمتهم .

توجه عروة إلى حيث النبى ، سُمِّحَ له باللقاء . تعامل مع النبى فى غطرسة و صلف . قال ضمن ما قال : أى محمد ، أرأيت إن استأصلت قومك ، فهل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك ! وإن تكن الأخرى فوالله إنى لأرى وجوها وأوشابا من الناس خُلِّقُوا أن يفروا ويدعوك .

لقد بدأ عروة بالهجوم على النبى وأصحابه ، مستخفا ومؤنبا ، مستهينا بهؤلاء الذى صاحبوا النبى . كان أبو بكر يستمع . لم يتمالك نفسه . هذا ما نتخليله ، ذلك لأن ما نطق به فى انفعال لم يكن من طبعه . قال لعروة فى استياء وغضب : أمصص بَظُرَ اللات !! أنحن نفر وندعه !؟

اللات معبودة تقيف ، والبظر موضعه معروف فى فرج المرأة . وأبو بكر يطلب من عروة بن مسعود أن يمصص بَظُرَ اللات . وعروة ثقفي . هذا معناه أن أبا بكر يطلب من عروة أن يمصص بَظُرَ آلهته . كلام قبيح !!

نعم . لا أحد ينكر أن هذا كلام قبيح ينذر أن يحدث فى جدل سياسى ، أو عقائدى ، أو اجتماعي ، بين أناس على هذه الدرجة من المكانة الرفيعة ، والأدهى من ذلك أن يحدث ذلك فى حضرة النبى الذى أعلن وأكد فى تعاليمه أنه ما جاء إلا ليستم مكارم الأخلاق .

وإن كان ابن هشام والطبرى^{١٤} وغيرهما قد ذكروا هذا الحوار ولم يعلقوا عليه واكتفوا بالعنات والسرد دون التمعن فى معني الكلمات ، فإننا نستبعد تماما أن يكون أبا بكر قد فاه بما نسب إليه . لقد لازم النبى منذ بداية الدعوة ، وضحي بوقته وماله وكاد أن يضحي بحياته فى سبيل نصره دين الله ، مؤازرا النبى الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه وكان

^{١٤} انظر ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٦٢ والطبرى ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

خلقه القرآن . ألا يبدو الأمر مضحكا ومخزيا ، فى نفس الوقت ، عندما يقال إن الصادق الصديق قد فاه بمثل تلك الكلمات ؟!

على أية حال ، استمر الحوار ، وعروة بن مسعود يتعامل مع النبى فى جلافة وفظاظة وجراة . جعل كلما كلم النبى أخذ بلحيته وجنبها كى يلفت نظره إلى أهمية ما يقول ، وكى يشعر الحضور أنه كفاء للنبى يتعامل معه معاملة الند للند ولا كلفة بينهما .

لكن رجلا من المسلمين تعامل مع الموقف ، وهو يشهده ، بفظاظة فاقت كل جلافة عروة وجراته . ذلك كان المغيرة بن شعبة . وقف على رأس رسول الله وقد أمسك سيفه ، وكلما مدَّ عروة بن مسعود يده للأخذ بلحية النبى ، قرع المغيرة يده بنعل السيف ، وهو يقول : أخر يدك عن لحيته قبل أن لا تصل إليك !! وهذا معناه أنه لن يتردد فى قطعها .

عامل المغيرة بن شعبة عروة بن مسعود بما يستحق ، فاقه فى الغلظة والفظاظة ، وأوقف تبسطه وتطاولة بقرع السيف ، مما جعل عروة يصيح فى ضيق : ما أفضلك وأغلظك !! ثم اتجه فى غضب يسأل النبى : من هذا يا محمد ؟ أجاب النبى : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . هنا قال عروة فى اشمزاز واضح : أى غر ، وهل غسلت سوائك إلا بالأمس . وتفسير هذه العبارة الأخيرة التى نطق بها عروة - كما جاء فى تاريخ الطبرى - هو أن المغيرة بن شعبة كان قد صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبى : أما الإسلام فقد قبلنا ، وأما المال فإنه مال غدر ، لا حاجة لنا فيه ^{١٥} ويقال إن عروة هو الذي ودي المقتولين وأصلح الأمر . وهذا ما يعنيه بقوله أنه غسل سوائه .

أما بيتى كيلين Betty Kelen فتفسر عبارة عروة على نحو آخر ، فتدعي أن عروة صرخ فى ابن أخيه لاعتنا ، ومعلنا أنه كان يجفف له مؤخرته حتى وقت قريب .

وتعلق بيتى كيلين على الموقف كله بقولها : إن الحديبية مشهورة فى تاريخ الدبلوماسية الإسلامية ، لكن اللغة التى استخدمت فيها لاصلة لها بالدبلوماسية على وجه الإطلاق ^{١٦} .

كأن عروة فكرة - قدر ما سمح له الوقت - عن ما يدور حول محمد . ولم يتلق إلا نفس الإجابة التى تلقاها من سبق .

^{١٥} الطبرى ، ج٢ ، ص ١١٩ .

^{١٦} Betty Kelen, p. 179.

كان عروة تاجرا ثريا تجول فى بلدان كثيرة وتعامل مع ساداتها وعظمائها ، ويقال إنه قد وفد على قيصر وكسرى والنجاشى ، أى أنه رأى الملوك عن قرب وشهد كيف تعظمهم أقوامهم .

رجع إلى أصحابه . أعلن بوضوح أن محمدا قد عرض عليهم خطة رُشد ، ومن الأفضل أن يقبلوها . يودى الفريضة هو وأصحابه ثم يرحل فى سلام . ما جاء لقتال . وأضاف عروة ، وصورة النبى ومن حوله صحبه لا تكاد تفارق مخيلته : والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا .. ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ، فروا رأيكم .

رغم ما قاله عروة ، ورغم ما قاله من سبقوه ، والقول على وجه التقريب واحد ، لم يستقر القرشيون على رأى ، ما زالت الشكوك تعتمل فى صدورهم ، وما زالت العنجهية الجاهلية تدفعهم دفعا إلى ردع محمد وأصحابه .

النبى يرسل رسولا :

قرر النبى أن يضع حدا لميوعة الموقف وهلاميته . لابد من الحزم والحسم فى مواجهة هؤلاء الذين جعلوا منه خصما وما هو بخصم ، واتخذوا منه عدوا وما هو بعدو .

أرسل لهم أول رسله ، كي يهدئ من روعهم وينزع الشك من قلوبهم ، برسالة مباشرة بسيطة واضحة يسهل فهمها ويصعب الالتفاف حولها وتأويلها . اختار رجلا من خزاعة يدعى جراش بن أمية الخزاعي . حمله على بعير له وبعثه إلى أهل مكة : إنه ما جاء غازيا ، بل جاء معتمرا مسالما . لكنهم للأسف فى حماقة متهورة عقروا البعير وهموا بقتل راكبه ، لولا أن تدخل الأحابيش وعلى رأسهم الحليس وأنقذوا الرجل من بين أيديهم وخلوا سبيله ، فعاد دون أن يبلغ رسالته .

ما فعلته قريش يخالف كل الأعراف والتقاليد ، سواء كانت جاهلية أو غير جاهلية ، فالرسول آمن حتى يبلغ رسالته ويعود فى سلام ، ومن المستحيل أن يفكر أحد فى قتله مهما كان مضمون رسالته . أخطأت قريش وكادت أن تسفك الدم فى مكة وفى الشهر الحرام . هذا دليل على ما كانت تعانيه من هم وغم وحرَج . نتيجة للموقف الذى أوجدها فيه النبى وأرغمها على مواجهته وهو يرفع راية الإسلام والسلام . كان القرشيون يحسون بصغرهم وتضاؤل قاماتهم أمام شموخ محمد وارتفاع هامته .

لكنهم رغم ذلك لم يرجعوا. أرسلوا خمسين رجلا بكامل السلاح فى حملة تخويف لأصحاب النبى ، على أمل أن يحدث التخويف أثره ويدرك محمد أن لا فائدة ولا جدوى من انتظاره على مشارف مكة ، فيرحل هو ومن معه وبذلك ينتهى الموقف المتأزم .

من سوء حظ قريش أن رجال الحملة أخذوا أخذاً دون أن تراق نقطة دم واحدة . حاصرهم المسلمون من كل جانب ولم يكن أمامهم إلا الاستسلام . كان من الممكن عقابهم أو إهانتهم كما أهانت قريش الرسول الذى أرسله النبى . لم يقدم المسلمون على شئ من ذلك ، اكتفوا بأن ساقوهم إلى النبى . ارتعدت فرائص بعضهم واستولي الخوف على الجميع . كانوا يتوقعون العقاب ، ذلك لأنهم رموا عسكر النبى بالحجارة والنبل . لكنهم دهشوا عندما عفا عنهم النبى وخلقى سبيلهم . عادوا إلى قومهم وقد عقدت الدهشة ألسنتهم. كانت الرسالة بليغة : ما جاء محمد لقتال .

عثمان بن عفان مبعوثاً إلى أشراف قريش:

قرر النبى أن يلحق الرسالة الصامته ، التى عاد بها رجال قريش إلى قومهم فى أمان وانكسار ، برسالة فاصلة يحملها أحد كبار الصحابة . هكذا يتم حزم الموقف وحسمه، كي لا تمر الأيام وتطول على المسلمين وهم لا يعرفون على وجه التحديد كيف ينتهى الأمر.

اختار النبى عمر بن الخطاب . لم يكن هناك من هو أفضل من عمر فى قوته وصلابته وحزمه وحسمه . على يديه حتما لا بد وأن تتضح الرؤية لكلا الفريقين . هذا إلى جانب أنه فى الجاهلية - كما يقول الإمام محمد أبو زهرة - كان يقوم ببعض أعمال السفارة بين القبائل وبين العرب وغيرهم .

لكن عمر بن الخطاب أعلن صراحة أنه يفضل عدم الذهاب ، ذلك لأنه يخاف على نفسه. سلوك يثير الاندهاش إلى درجة عدم التصديق ، ولولا أن كلمات عمر قد ذكرت فى كل المصادر والمراجع التى بين أيدينا ، وتناقلتها الأجيال ، ما صدقنا أن كلمات كهذه يمكن أن تصدر عن عمر ، وهو الذى خرج يوماً - فى جاهليته - شاهراً سيفه ، مصمماً على قتل النبى ، غير مكترث بما قد يفعله به بنو هاشم جميعاً ، أو ما قد يحدث لو بارزه حمزة بن عبد المطلب ، ومكة كلها كانت تعرف قدر خطورة حمزة إذا ما استل سيفه .. عمر الذى خرج فى هجرته علناً وسيفه بيده متحدياً كل طواغيت قريش ، معلناً أن يلقاه خلف الجبل كل من يريد أن تتكلمه أمه .. عمر هذا يرفض الذهاب مبعوثاً من قبل النبى لأنه يخاف قريشاً على نفسه .

نكتفى نفلا عن كتب التراث بما ذكره ابن إسحق ، وهو عمدة كتاب السيرة : يقول عمر : يا رسول الله ، إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتني عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان .^{١٧}

لم يجانب عمر الصواب فى اختيار عثمان ، وتفهم النبى وجهة نظر عمر . كان عثمان ينتمى إلى ارسنقراطية مكة بكل مهابتها وثرائها ، كانت له فى بنى أمية مكانة وعزوة ومنعة يصعب معها أن تمتد إليه يد قريش بسوء . هذا إلى جانب أنه كان مشهورا ومشهورا له بطيب الخلق ولين الجانب وعدم النزوع إلى العنف أو الميل إلى القتال . كان بالفعل أفضل من يمكن اختياره - فى تلك اللحظة - سفير سلام .

دعا النبى عثمان . أخبره بالاختيار . ما اعترض عثمان . وما كان من طبعه أن يعترض على أمر أصدره النبى . خرج إلى مكة . لقيه أبان بن سعد بن العاصى الأموي . أجاره . هذا معناه أن عثمان قد أصبح فى حماية أبان حتى يبلغ رسالته ويعود سالما من حيث جاء .

التقى عثمان بزعماء قريش وأشرفها . ما كان عنهم بغريب . وما كان منهم بمتهم . استمعوا إليه حتى انتهى من تبليغ رسالته . لم يستجيبوا له . لن يدخل محمد مكة عنوة . لن يتحولوا إلى أضحوكة بين العرب .

ليس بينهم وبين عثمان خصومة . إن شاء أن يطوف بالبيت فليطف ، لن يمنعه . وأبى عثمان أن يقوم وحده بما أتوا جميعا من أجله . لقد رفض من قبله عبد الله بن أبى ، فكيف يقبل ما رفضه الزعيم الخزرجي الذى أبدى ولاء غير منقوص ولم يخرج عن نهج النبى .

رفض عثمان الطواف بالبيت ، وقد سمحت له قريش : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله . ما كان لأحد أن يتوقع أن يفعل ذو النورين غير ما فعل .

لكن قريشا إذا سمحت لعثمان بالطواف فرفض ، لم تسمح له بأن يعود إلى عسكر النبى بعد أن قام بالمهمة التى كلف بها . احتبسوه عدة أيام .. ربما من باب الحفاوة والتكريم إكبارا لشأن بنى أمية .. وربما لإعادة التفكير والتشاور .. وربما لإغاظة محمد وإثارة غضبه .

^{١٧} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٦٣

عثمان ذهب ولم يعد !! انتشرت الشائعات . القرشيون ضربوا بكل الأعراف
عرض الحائط : قتلوا عثمان !!
بيعة الرضوان :

لم يعد هناك مجال لحديث . وقعت قريش فى المحذور . قتل عثمان لن يمر دون
عقاب . لابد وأن تدفع قريش ثمن خطيئتها . أعلن النبي فى حزم باتر : لا تبرح حتى
نناجز القوم .

دعا الناس إلى البيعة . إنه القتال ، ولن يرغم النبي أحدا على خوض معركة لا
يريد خوضها . من أراد القتال فليمد يده ويبيع النبي . وقف النبي تحت شجرة سَمُرَة ،
وتقدم القوم للمبايعة فى إصرار . لن يضيع دم عثمان هدرا . حتى ابن أبي نفسه ومن معه
تقدموا ، مدوا أيديهم وبايعوا . ويقال إنه لم يتخلف عن الجمع كله إلا رجل واحد هو الجد
بن قيس أخو بنى سلمة ، التصق بإبط ناقلته محاولا التستر بها والاختفاء عن
أعين الناس .

فطن النبي لتخلف الجد بن قيس عن المبايعة ، وكان الجد سيد بنى سلمة فى المدينة.
ويدعى مونجمرى وت أن النبي اتخذ قرارا بعزل ذلك الذى خالف ولم يبيع . سأل محمد
الحضور من عشيرة سلمة : من سيحكم ؟ قالوا : الجد بن قيس . قال محمد : لا إنه بشر
بن البراء بن معرور .

ربما يكون هذا عزل رسمي لسيد العشيرة ، لكن من الممكن أيضا أن يكون مجرد
تلميح من محمد للموالين له من رجال العشيرة بعزل الجد بن قيس .^{١٨}

تمت بيعة الرضوان تحت الشجرة . ونزلت كلمات الله : " لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا
قَرِيبًا " (الفتح : ١٨) . وربما بسبب رضى الله عن الذين بايعوا ، سميت بيعة الرضوان .

وتختلف الآراء بخصوص مضمون القسم الذى أقسمه المعتمرون وهم يبايعون
النبي ، فمن قائل إنهم بايعوه على القتال حتى الموت ، وهذا رأى غير شائع . لكن
الأكثرية وعلى رأسها جابر بن عبد الله تقول إن رسول الله لم يبايعهم على الموت ولكن
بايعهم على ألا يفروا^{١٩} . ويرى الواقدي أن المعتمرين لم يقسموا على هذه أو تلك ، إنما
أقسم كل منهم عندما أمسك بيد النبي أن يتبع " ما فى نفسه " .^{٢٠}

^{١٨} Montgomery Watt , Muhammad at Medina , p. 234.

^{١٩} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

^{٢٠} كارين ارمسترونج ، محمد ، ص ٣٢٤ .

على أية حال . ما أن انتهت المباينة حتى ظهر عثمان . بذلك أنهى ظهوره الأزمة التي بلغت ذروتها بتتابع أحداث لم تكن في حساب أحد . ومع عودة عثمان اطمأنت القلوب وهذأت النفوس واستقرت السيوف في أغمادها . ما عادت هناك حاجة لقتال .

الصلح :

مع وصول عثمان ، إن لم يكن في صحبته ، ظهر سهيل بن عمرو ومعه حويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص . عندها أدرك النبي أن قد زالت أيام الخطر . لقد قررت قريش التفاوض ، فما أن رأى النبي سهيلاً مقبلاً حتى استبشريمقدمه . قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، وكان الأمر كما قال .

عرض سهيل على النبي شروط قريش للمهادنة والصلح . طال الحوار والجدل ، والأخذ والرد ، والتقدم والتراجع ، لكن مع تمسك كل من الطرفين بالفرصة السانحة للمصالحة والسلام . وفي النهاية أمكن التوصل إلى شروط للصلح يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

١- أن يرجع محمد عن مكة عامه هذا ولا يدخلها على قريش عنوة حتى لا تحدث عنهم العرب .

٢- أنه إذا كان عام قابل خرج القريشيون عن مكة ودخلها محمد وأصحابه يقيم بها ثلاثة أيام لا يزيد ، بشرط ألا يحملوا معهم من السلاح سوى سلاح الراكب ، أي السيوف في القرب لا يسمح لهم بغيره .

٣- أن توضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمنون فيها على أنفسهم وعلى أموالهم ، ويكف بعضهم عن بعض .

٤- أنه لا إسلال ولا إغلال ، أي لا غارة بسل السيوف ، ولا خيانة .

٥- أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن هم مع محمد لم يردوه عليه .

٦- أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وتوثقت خزاعة حال سماعها هذا الشرط وأعلنوا أنهم في عقد محمد وعهده . ولقد أشرنا من قبل إلى الصلة الوثيقة التي كانت تربط خزاعة بالنبي . أما بنو بكر فقد أعلنوا أنهم في عقد قريش وعهدهم . كان من الصعب أن يكون بين بنى بكر وخزاعة حلف وعهد بسبب عداة وثاراة قديمة .

شروط قریش أملاها سهيل بن عمرو في تشدد وصلابة وفي تحكم متعسف ، غير
مبال برد الفعل الذي ظهر على وجوه أصحاب النبي الذين وجدوا أن ما تطلبه قریش ،
على لسان سهيل ، فيه استهانة وزرارية .

وكما هو متوقع لم يتحمل عمر بن الخطاب ما خيل إليه أنه إهانة يجب التصدى لها
وردها بمثلها أو بما هو أكثر . اتجه في الحال إلى أبي بكر ، جذبته بعيدا عن مسمع النبي
والذين يتفاوضون معه ، سأله في حدة :

- يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟!

- بلى .

- أولسنا بأمسلمين ؟

- بلى .

- أوليسوا بالمشركين ؟

- بلى .

- فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟

وكان رد أبي بكر : يا عمر ، إلزم غرزة (أى لا تحد عن طريقة) فإني أشهد أنه
رسول الله .

قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

لكن نفس عمر لم تهدأ ، وهواجسه لم تتبدد ، لماذا هذا الذل والصغار والخصيس من
الأمر تفرضه عليهم قریش ؟ لماذا يفرض الباطل سطوته على الحق ؟ لماذا يستذل
المؤمنون الموحدون ويخضعون في استكانة لما يمليه عليهم عبدة أوثان الحجر ؟ هذا ضد
طبيعة الأشياء .

وبدا لعمر في انفعالاته العاصفة : وكان حكمة التأمل والتدبر فيه قد تلاشت ، أن
النبي قد قبل بما لا يجب قبوله ، وتنازل عما لا يجب التنازل عنه . وبدا وكأنه لم يقتنع
بما قاله أبو بكر . عندها - ودون ترو - اتجه إلى النبي ووجه له نفس الأسئلة التي
وجهها لأبي بكر من قبل . وكانت إجابة النبي هادئة واثقة : أنا عبد الله ورسوله ، لن
أخالف أمره ، ولن يضيعني !!

سقطت الكلمات على رأس عمر - بعد أن نفذت إلى أذنيه - كمطرقة الفولاذ ، فلم ينطق !! صمت . ما عاد يجادل . ذهب انفعاله وعاد وعيه . إنه في حضرة النبي والنبي تسيره إرادة السماء وعليه ، كما نصحه أبو بكر ، أن يلزم غرضه .

حان وقت كتابة الشروط وقد تم الاتفاق عليها .. وكانت لحظات الكتابة أشد صعوبة وأكثر خطورة من ساعات الجدل .

دعا النبي على بن أبي طالب كي يكتب ما يملئ عليه ، قال النبي : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم .

اعترض سهيل في الحال . صاح : لأ أعرف هذا !! أى أنه لا يعرف من هو الرحمن الرحيم ولا يعترف به . طلب من على أن يكتب : باسمك اللهم ، وهى الصيغة المألوفة لدى مشركي قريش .

توقع الحضور أن لا يتجاوب النبي مع طلب سهيل . انتظروا أن يرفض . لكنهم أصيبوا بصدمة جديدة زادتهم إيلاما على ما سبق وعانوه من ألم . قال النبي لعلى ببساطة عجزوا عن إدراك كنهها : اكتب باسمك اللهم . استمر النبي فى إملائه. قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .

هنا صاح سهيل فى عصبية مستعلية : أمسك . اكتب اسمك واسم أبيك ، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . أفرغ عن اسمك واسم أبيك ؟ قال النبي : أنا محمد بن عبد الله . اكتب يا على : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

عقدت الدهشة السنة المسلمين وأنتابهم الذهول . استعصى عليهم فهم سلوك النبي . كانت للنبي رواء . أما هم فقد صدموا ببشاعة ما أحسوا به من مهانة وإذلال .

لماذا سلم محمد ووافق بمنتهى البساطة على كل شروط مشركي مكة دون أن يملئ هو عليهم شرطا واحدا ؟ سؤال كان لابد وأن يثار . هذا سلام المستضعفين ، سلام بلا مكاسب ، الخسارة فيه واضحة لا يستطيع أحد إغفالها أو إنكارها . بهذه الشروط تم رفع الحصار عن تجارة مكة . ما عاد بوسع المسلمين مهاجمة القوافل ، وقد كانت مصدر رزق لهم يعوضهم عما تركوه فى مكة من عقار وأموال . ثم لماذا يرد إلى مكة من هاجر إلى المدينة مسلما ، وترفض قريش أن ترد من عاد إليها مرتدا ؟ الاستعلاء القرشي هنا مؤلم لاسع كوقع السوط . حتى " الرحمن الرحيم " وهى من أسماء الله الحسني رفض المفاوض المكي أن تخط بالقلم على صحيفة الصلح . وصفة محمد كرسول الله ، أنكرها

علانية ولم يعترف بها ، وطلب النبي من على أن يحوها فرفض على ، ومحاه النبي بنفسه . أى هوان أكثر من هذا الهوان !؟

تعلق كارين أرمسترونج على الموقف بقولها : والأسوأ من ذلك أن روح التمرد قد ظهرت ، فكانت المعاهدة أكبر من طاقة عمر .. وكان أبو بكر قلقا كذلك لكنه أخبر عمر أنه لا يزال يثق في محمد . وقال عمر فيما بعد أنه لو وجد مائة صاحب يتبعونه لترك الأمة ومضى .. ناهيك بالقاعدة العريضة من المسلمين الذين كانوا يجلسون في ذهول عقد ألسنتهم وهم يحاولون استيعاب ذلك التحول المفاجئ .²¹

والرأى السابق ، فيما يختص بعمر بن الخطاب ، مأخوذ في جوهره عن ما جاء في الطبقات الكبرى من قول عمر : لقد صالح رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أهل مكة على صلح وأعطاهم شيئا لو أن نبي الله أمَرَ على أميراً فصنع الذى صنع نبي الله ما سمعت له ولا أطعت .²²

وفي اندفاعه الجياش ، عندما تثور عاطفة الشمم والإباء فيه ، لم يستطع عمر أن يدرك الحكمة في قبول النبي لهذا الشرط الذى بدا له ظالما مجحفا . لم يظن عمر إلى حكمة النبي وعمق رواه : من يرتد عن الإسلام ويفر إلى مكة لا يجب استعادته أو حتى مجرد المطالبة به ، إذ لا خير فيه ولا رجاء . على العكس فإن بقاءه بين المسلمين قد يكون فيه ضرر بالغ : قد يتجسس لصالح قريش ، وقد ينشر الشك والضغينة والفرقة في نفوس المسلمين ، وبُعده أفضل من بقاءه شوكة سامية يصعب تجنب أذاها . أما الجزء الأول من هذا الشرط فسيكون في مستقبل الأيام وبالا على قريش ، وسيطالب القريشيون أنفسهم بالغائه راجين النبي أن يضم إليه كل من خرج من مكة مهاجرا ، وسنوضح هذه النقطة بالتفصيل في نهاية هذا الفصل .

قصة أبي جندل :

تمت كتابة شروط الصلح ، وقبل التوقيع على الوثيقة ظهر أبو جندل بن سهيل بن عمرو - ابن ذلك الزعيم الذى كان يفاوض النبي - وهو يرسف في الحديد . كان أبو جندل شابا في مقتبل العمر ، اعتنق الإسلام فحبسه أبوه . لكنه نجح في الفرار وقصد عسكر المسلمين على أمل الانضمام إليهم والهجرة معهم إلى المدينة ، لكن من سوء حظه أنه جاء كى يجد نفسه فى مواجهة أبيه .

²¹ كارين أرمسترونج ، محمد ، ص ٣٢٦ .

²² ابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

انقض سهيل على ولده . لطمه علي وجهه وأخذ بتلبيبه ، جذبه جذبا شديدا عنيفا ،
ثم جره جرا كي يرد إلى قریش . صرخ أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ،
أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟

ازداد المسلمون غما على غم . تعمقت جروح الإهانة فأدمت قلوبهم ، وهم يشعرون
بالعجز أمام تجبر القریشی وشدة فتكه بولده .

حاول النبي أن يستخلص أبا جندل وينقذه من بطش أبيه ، لكنه فوجئ بصيحة
سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه . قال للنبي : إنا لم نقض الكتابة بعد . قال سهيل : فوالله
إن لا أصالحك على شيء أبدا . قال النبي : فأجزه لي . وكان رد سهيل نافذا كالسهم : ما
أنا بمجيزه لك .

وبدا رد النبي خاذلا لمشاعر المسلمين ومخيبا لرجائهم ، عندما قال : يا أبا جندل،
اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد
عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله ،
وإنا لا نغدر بهم .^{٢٣}

تثور ثائرة عمر بن الخطاب من جديد . يقوم من مقامه ، يذني قائم سيفه من أبي
جندل على أمل ان يأخذ السيف ويضرب أبيه . لكن أبا جندل لم يفعل . ما سمحت له نفسه
أن يقدم على قتل أبيه . وانتهى أمر أبي جندل بخذلانه ، وعودته إلى قریش ، أمام ألف
وأربعمائة من المسلمين . وزاد ذلك الناس غما على غم . ودخل عليهم بعد ذلك - كما
يقول ابن هشام - أمر عظيم ، حتى كانوا يهلكون .

يقول عمر بن الخطاب فيما بعد . معبرا عن غضبه وثورته أثناء تلك اللحظات
العصيبة : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ .^{٢٤}

اكتفي عمر بأن سأل النبي سوألا لا يخفى ما تملك داخله من شك : أولست كنت
تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال النبي : بلى . ثم أضاف : أفأخبرتك أنا نأتيه هذا
العام ؟ قال عمر : لا . قال النبي : فإنك آتية ومطوف به .

ولقد تحدد الميعاد بالفعل بعد عام ، كما نصت على ذلك وثيقة الصلح التي تم التوقيع
عليها ، وكان بين اليهود أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وسعد
بن أبي وقاص ومكرز بن حفص .

^{٢٣} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ .

^{٢٤} الباقوري ، ص ١٤٠ .

تمرد صامت :

طلب النبي من المسلمين أن يتحللوا من إحرامهم ، أن يحلقوا رؤوسهم وينحسروا : قوموا فانحروا ثم احلقوا . كررها النبي ثلاثا .

لم يتحرك أحد . لا أحد حلق ولا أحد نحر ، وكأنهم قد سَمروا في أماكنهم . سيطر على المكان صمت كثيب . تركزت العيون كلها في حزن مكثوم على محمد . كانت لحظة نادرة من لحظات العصيان . إن لم يستطع النبي أن يسيطر على قومه في لحظة فارقة كهذه ، فلن يستطيع أن يسيطر عليهم بعد ذلك أبدا .

يعلق لينجز Lings على الموقف بقوله : لم يتحرك أحد . أعاد الأمر ثانية وثالثة . لكنهم نظروا إليه في صمت مشدود مدهول . لم يكن تمردا من جانبهم لكنهم بعد أن خابت توقعاتهم فوجئوا بهذا الأمر وهم يعلمون جيدا أنه خاطئ من الناحية الشعائرية . فطبقا لشريعة إبراهيم لا يصح الذبح إلا في المنطقة المقدسة ، ونفس الشيء فيما يختص بقص الشعر . لقد أصاب رفضهم الواضح النبي بشئ من الإحباط ، فذهب إلى خيمته وأخبر أم سلمة بما حدث .²⁵

ونسى لينجز - أو لعله لا يعرف - أن الحديبية كانت في نطاق الحرم ، أي في نطاق المنطقة المقدسة .

اتجه النبي إلى خيمته حيث كانت أم سلمة تنتظر . لقد رقت الموقف كله واستوعبت ما حدث دون أن يشعر بها أحد . قرأت ما على وجه النبي من هموم ، وقد ارتسم سؤال : كيف يواجه الموقف .. ماذا عليه أن يفعل ؟

كانت أم سلمة من خيرة أمهات المؤمنين في رصانة عقلها واتزان فكرها . ذكر لها ما لقيه من الناس . استمعت إليه في هدوء ووجهها يغمره الاطمئنان والبشر . قالت : يا نبي الله ، أتحب ذلك ؟ كان الصمت معبرا ، وكأنه يتحدث بكلمات غير منطوقة : نعم ، أرجو أن يكون ذلك كذلك . قالت : اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك ، وتدعو حالقك فيحلقك .

استمع النبي إلى كلمات الحكمة الصادقة وقد خرجت في حب ومودة من بين شفتي زوجته وأقرب الناس إليه في هذه " الغزوة " وما اكتنفها من صعاب . وعندما نستخدم كلمة " غزوة " فنحن لا نقصد غزوة حرب وسفك دماء . كانت هي غزوة من أجل المودة والسلام والسلام الذي هو روح الإسلام .

²⁵ Lings, p. 254.

خرج النبي من خيمة أم سلمة وقد ثبتت كلماتها يقينه ، وكأنما أمدته بقوة كساد أن يفترقها وسط الجمع الصامت في غضب . لم يكلم أحدا منهم . نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا ، واتسم فعلهم بعصبية بالغة وغضب مكين وبعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما .^{٢٦}

أصابته أم سلمة فيما أشارت به ، إذ أن مشورتها كانت السبب الرئيسي في إنهاء الموقف المتأزم . وهذا يظهر بوضوح جلى مكانة المرأة وعلو قدرها وعظم تأثيرها الفكرى والنفسى أيام النبوة وفى صدر الإسلام ، مما يُدحض ادعاءات بعض المغرضين فى الشرق أو الغرب الذين يدعون - بالباطل - أن المرأة مهانة فى الإسلام . ولا يجب أن ننسى الدور البطولى الذى قامت به السيدة خديجة فى سنوات مكة .

يقال إن النبي أقام بالحديبية بضعة عشر يوما ، ويقال عشرين يوما ، ثم أمر بالرحيل . وفى الطريق ما بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح : " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا " . (الفتح : ١) .

ثمرات الصلح:

لم تكن الحديبية تراجعا وانكسارا وخضوعا لإملاءات قريش كما خيل للمعتمرين من أتباع النبي . على العكس من ذلك كانت " فتحا " وتمهيدا لفتح أكبر هو فتح مكة . لقد أدار النبي حلقة التفاوض بعقلية سياسية ملهم ، لا تدفعه العاطفة ولا يسيطر عليه الانفعال . كان يريد سلاما مع قريش كي يحمي ظهره من غدرهم وبعدها يتفرغ لليهود فى خيبر وما حولها كي يحمي الأمة الإسلامية الناشئة من خطر وجودهم .

كان يدرك ببصيرته الملهمة أن الصلح - رغم ما بدا من إجحاف الشروط - سيكون فى النهاية خيرا لصالح المسلمين . ولقد تحقق ما توقع إذ اعتنق الإسلام فى العامين التاليين للصلح أناس فاق عددهم عدد من أسلم منذ بداية الدعوة ، وربما يزيد .

ينقل الطبرى - فى هذا المجال - عن الزهرى قوله : فما فُتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث النقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضا فالتقوا ، وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم

²⁶ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ، فقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر .^{٢٧}

ويدعي " مولاي محمد " أن الإسلام انتشر بعد الحديبية وغمر نوره القبائل فأصبح عشرة أمثال ما كان عليه في فترة صلح الحديبية .^{٢٨}

ولقد أسلم بعد الحديبية فارس قريش خالد بن الوليد ، وداوية دهاتها عمرو بن العاص ، أسلما طوعا لا قهرا ، ونكتب عن قصة إسلامهما بالتفصيل فيما بعد .

لقد رحل الرسول إلى الحديبية ومعه ألف وأربعمائة مسلم على وجه التقريب ، وبعد عامين فقط توجه لفتح مكة ومعه عشرة آلاف . لقد كانت الحديبية ، بهذا المعنى ، فتحا !!

ومن المثير للدهشة والاستغراب ، بل وللتأمل أيضا ، أن سهيل بن عمرو الذى تعامل مع النبي بشدة وغلواء أثارا حفيظة المسلمين ، خصوصا عندما رفض كتابة البسملة كما رفض الاعتراف بمحمد نبيا ورسولا وصمم على أن يكتب اسمه فقط مجردا من أى صفة تضاف إليه .. عمرو هذا أسلم فيما بعد وهاجر إلى الشام وسقط شهيدا هو وابنه أبو جندل في خلافة عمر بن الخطاب وهما يدافعان عن الإسلام ، ومن قبله استشهد ابنه عبد الله - وكان قد حضر صلح الحديبية مسلما - فى معركة اليمامة فى خلافة أبى بكر .^{٢٩}

ولا يجب أن نخفل حقيقة أن هذا الصلح ، الذى أقدمت عليه قريش ، تضمن اعترافها لأول مرة بمحمد كدِّ لها ، وإن لم تعترف به كنبى . لقد تعاملت معه كزعيم على رأس أمة لها كيائها وسطوتها وسلطانها على أرض المدينة المنورة ، ولم تكن تعترف به من قبل إلا كـ " غلام بنى هاشم " المتمرد على أهل مكة ، الخارج عن طوعها . أخيرا اعترفت قريش أن هناك أمة إسلامية يقودها محمد ، وأن عليها أن تتعامل مع هذه الأمة وزعيمها بعهد فى ميثاق تلتزم به ولا تحيد عنه .

هذا بالإضافة إلى دلالة واضحة ، وهى أن قريشا - عن وعي أو غير وعي - قد اعترفت بالإسلام دينا ضمن أديان العرب وبذلك أصبح من حق المسلمين أن يقيموا شعائر الحج والعمرة ، وأن يطوفوا بالبيت الحرام ، دون خشية أو رهبة .

^{٢٧} الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

^{٢٨} مولاي محمد ، ص ١٧٠ .

^{٢٩} الباقورى ، ص ١٤٤ .

أين الإهانة والإذلال فى صلح كانت هذه نتائجه ؟ لقد أدرك أولئك الذين غضبوا وتذمروا وكادوا أن يتمردوا ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، أنهم لم يكونوا على صواب ، لدرجة أن عمر فى ندمه على ما أقدم عليه وما نطق به ، قال فيما بعد : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذى تكلمت به حين رجوت أن يكون خيرا .^{٣٠}

عند تطبيق شروط الصلح يتيقن المسلمون أن ما أغضبهم كان فى الواقع خيرا..
نعطي مثلا أو مثلين :

عدم رد النساء :

جاء النبى فى المدينة نسوة مهاجرات مؤمنات . تسأل المسلمون : هل يردهن النبى؟ كانت الإجابة واضحة : لن يفعل النبى ذلك . لماذا ؟ لأن النص فى معاهدة الصلح واضح : رد الرجال ، ولا توجد أية إشارة إلى النساء . وبناء عليه فقد أصبح النبى فى حل من ردهن . ونزلت الآية فاصلة ، مؤكدة صواب ما أقدم عليه النبى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تُرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآثُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (الممتحنة : ١٠) .

وعلى ذلك فعندما هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط إلى المدينة ، بعد الحديبية ، خرج أخاها عمارة والوليد يطالبان بردها. لكن النبى لم يستجب لهما . ذكرَّاه بالعهد الذى قطعه على نفسه فى الحديبية ، ذكرَّهما هو أن العهد نص على إعادة الرجال ولا إشارة فيه ولا ذكر لإعادة النساء . ما دار بخالد قريش أن تهاجر النساء . الخطأ فى هذه الحالة ليس بخطأ النبى ، بل هو خطأ قريش ، وعلي قريش أن تتحمل وزر أخطائها. وبعد هجرة أم كلثوم تتابععت هجرة النساء اللاتى لم يفلح أزواجهن فى استردادهن .

حكاية أبى بصير:

أما النص الآخر من نصوص الصلح الذى خسرت قريش بسببه الكثير مما دفعها إلى أن ترجو النبى أن ينقضه ، فقد كان ذاك الشرط الذى طالبت فيه النبى أن يرد لها كل من ذهب إليه مسلما من قريش . كان ذلك الشروط وبالا على قريش ، كما ستثبت ذلك حكاية أبى بصير التى نوردها بإيجاز فى السطور التالية :

^{٣٠} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٦٦.

أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية ينتمي في الأصل إلى ثقيف ثم أصبح فيما بعد من حلفاء بنى زهرة . تمكن من مغافلة أولئك الذين كفلوه وأجاروه فى مكة وخرج مهاجرا إلى المدينة . بعث من يهيمهم أمره كتابا إلى النبی يطالبون برده . بعثوا برجلين . طلبوا منهما ألا يعودا إلا ومعهما أبو بصير .

لم يكن فى وسع النبی أن يفعل شيئا إلا أن يوفى بالعهد . هذا ما عرفته عنه قريش . وقد كانت على تمام التأكد منه . لذا فقد كانت عودة أبى بصير إلى مكة - من وجبه نظره - أمرا مؤكدا .

كانوا على حق فى ثقتهم بمحمد ، فما خدعهم يوما وما كانت الخيانة أو الغدر من طبعه . قال النبی لأبى بصير فى وجود مبعوثي قريش : يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ومن معك من المستضعفين مخرجا .^{٣١}

أطاع أبو بصير كلمات النبی . ما كان باستطاعته أن يعصى . لكنه كان قد بيئت فى نفسه أمرا . لن يفتن فى دينه ولن يستسلم . انطلق مع الرجلين . لقد وفى النبی بعهده مع قريش ولن يستطيع القريشيون لومه أو إلزامه بشئ إذا ما أقدم أبو بصير على فعل ما لا يرضيهم .

لابد من إيجاد وسيلة للخلاص . لن يعود إلى موطن الشرك . على بعد ما يقرب من ثمانية أميال جنوب المدينة ، جلس أبو بصير ورفيقاه يستريحون فى قرية " ذى الحليفة " . استخدم أبو بصير ذكاه ودهاءه . أبدى اعجابه الشديد بسيف أحد الرجلين . طلب أن ينظر إليه . دون روية أعطاه الرجل السيف وقد خدع بإطراء أبى بصير له .

فى لحظة كاللمح استل أبو بصير السيف من غمده . علا به الرجل . قتله .

استأنه الرجل فغدر به . نسي كلمات النبی : لا يصلح لنا فى ديننا الغدر .

فر الرجل الآخر هاربا . عاد إلى حيث النبی . أخبره بما حدث . قتل صاحبكم صاحبى . قالها والرعب يقفز من عينيه .

ظهر أبو بصير متوشحا سيف الرجل المقتول . قال مخاطبا النبی : يا رسول الله وفيت ذمتك ، وأديت عنك ، أسلمتني ورددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم .^{٣٢}

^{٣١} الطبرى ، ج ٢ ، ١٢٥

^{٣٢} نفس المرجع السابق ، نفس الصفحة .

هذا معناه أنه ما دام النبي قد رده مع المبعوثين فهو بذلك لم يصبح فردا من أفراد الأمة ، وبذلك لا يتحمل النبي مسئولية الدم المسفوك أو دفع دية الرجل المقتول .

رفض النبي بقاء أبي بصير في المدينة . عرض على الرجل أن يرجع به إلى أصحابه في مكة . سيطر على الرجل الفزع . رفض وهو يرتعد . إن مصيره بكل تأكيد، لو صحب أبا بصير ، سيكون نفس مصير صاحبه . ليست لي قوة .. قالها الرجل وأسرع بالإنصراف وهو لا يكاد يصدق أنه قد نجا بحياته .

قال النبي وهو يتأمل أبا بصير : ويل أمه محشٌ حرب لو كان معه رجال !! أي أنه لو اجتمع إليه عدد كاف من الرجال فإنه لن يرتد في أن يوقد حزبا ويشعل نارها . وستكون تلك النار - بكل تأكيد - وبالا على قريش .

خرج أبو بصير . توجه إلى مكان على ساحل البحر الأحمر يقال له العيص ، في الطريق الذي تسلكه تجارة مكة إلى الشام . هناك نصب خيمته .

بلغ المسلمين المحتبسین في مكة ما كان أمر أبي بصير ، كما وصلتهم أيضا كلمات النبي . فهموا معني الكلمات وما ترمي إليه . أبو بصير في حاجة إلى رجال وعندها سيصبح قوة ، وستكون لقوته شأنٌ وخطر. بدأوا يتسللون وقد خُفَّت الرقابة الصارمة عليهم بعد صلح الحديبية . لكنهم لم يتوجهوا إلى المدينة ، فقد كانوا يعلمون بشروط الصلح ، ذهبوا مباشرة إلى أبي بصير ، وكان على رأسهم أبو جندل . اجتمع إلى أبي جندل بن سهيل ما يقرب من سبعين رجلا . ويقال إن عدد أتباع أبي بصير وصل إلى ثلاثمائة . أصبح معه رجال .

وتحققت كلمات النبي. بدأ أبو بصير يشن الحرب على كل من يلقاه من رجال قريش، قطع طريق القوافل . ما يسمعون عن بعير خرجت إلا اعترضوها ، يقتلون الرجال ويأخذون الأموال . بذلك أصبح صلح الحديبية ، فيما يختص بتأمين طريق تجارة قريش ، لا معني له . الشرط الذي وضعته قريش وأصرت عليه ، وأثار غضب المسلمين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، انقلب وبالا على قريش .

هكذا أثبتت الأحداث عبقرية محمد النبي التي سير بها الأحداث في الحديبية ، والتي لم يفطن إليها كل المحيطين به . وهذا ليس بمستغرب في سير الأنبياء . لقد حدث لموسى من قبل ، كما حدث للمسيح من بعد موسى .^{٢٣}

^{٢٣} أنظر كتابينا : موسى في الأساطير الإسرائيلية ، ولا تصلبوا المسيح .

هنا وجدت قريش نفسها فى مواجهة كارثة : قطع طريقها التجاري من جديد وقتل الرجال وفقدان الأموال وضياح هيبتها بين العرب . وبناءً عليه فقد سارع القريشيون بإرسال مبعوث إلى النبی يرجونه ، بل ويستحلفونه بالله ويناشدونه بصلة الرحم أن يأوى هؤلاء الذين خرجوا عن طوعهم وأصبحوا لهم أذى . لا حاجة لقريش بهم . ولن يطالبوه بردهم . قريش هى التى طالبت بنقض الشرط الذى توهمت أنها تهبين المسلمين به ، فإذا بها تهين نفسها .

أرسل النبی إلى أبى بصير يدعوهُ هو ومن معه إلى المدينة لكن الدعوة - بالنسبة لأبى بصير - وصلت بعد فوات الأوان . كان أبو بصير يـُـجود بأنفاسه الأخيرة . أسرع إليه الموت ، فلم يسعد بالعودة ومصاحبة النبی . وبنى الناس هناك مسجداً - كما يقول شيخنا الباقورى - حيث مات أبو بصير ودفن .

نختتم هذا الفصل بإشارة عابرة إلى الشجرة التى وقف النبی تحتها أثناء بيعة الرضوان . يقال إن الناس أخذوا يتوافدون عليها بعد موت النبی للتبرك بها . أفزع الأمر عمر بن الخطاب ، بعد أن أصبح أميرا للمؤمنين ، خصوصا بعد أن علم أن الناس يصلون عندها . خشى أن يعود البعض - جهلا - إلى وثنية ما قبل الإسلام . أمر باقتلاعها . بعدها نسيها الناس . ما عاد أحد يدرى أين علي وجه التحديد كان مكانها .

غزوة خيبر

قرار الغزو :

بعد عودته من الحديبية إلى المدينة واستقراره بها ما يقرب من عشرين أو ثلاثين يوماً ، قرر النبي الخروج بالناس لغزو خيبر وما قرب منها من مكامن لليهود . لقد أمن غدر قریش بعقد صلح لا اعتداء ولا غدر فيه لعدة سنين . ولقد آن له أن يتجه ببصره إلى الشمال حيث تكمن القوة الحقيقية لليهود . ما بقى في المدينة من يهود لم يعد لهم خطر يذكر . كانوا قلة قليلة ، ولقد استسلموا لأقدارهم ولم تعد بهم رغبة في مقاومة أو قتال . أما من خرج منهم من يهود بنى قينقاع وبنى النضير فقد استقروا في الشمال وانضمت أغلبيتهم إلى يهود خيبر ، وأخذوا يعملون على تكوين دولة خاصة بهم . هذا معناه أنه قد أصبح لليهود قوة في الشمال من الممكن أن تهدد أمن المدينة وتعرض أهلها لخطر شديد التدمير .

كان من المستحيل أن ينسى اليهود ثاراتهم : من طرد منهم ، ومن أخذت أمواله ، ومن قتل . القلة قليلة التي بقيت في المدينة أصبحوا كالغرباء ، وقد كانوا قبل قدوم محمد هم أصحاب الأرض والمال وصناع السلاح ، يسوسون كل من حولهم بقوة واقتدار . لكنهم فقدوا كل شيء خلال سنين قليلة ، بل لقد وصل الأمر بمحمد - كما شاع بينهم - أن أمر ببيع نسائهم في نجد مقابل خيل وسلاح .

لن يمر هذا كله دون عقاب ، إنهم مشيعون بقوة عقائدية تدفعهم في إصرار للقتال حتى الموت ، هذا إلى جانب أنهم يملكون القوة المادية : مال ومؤن وسلاح وقلاع محصنة ، خيل إليهم أنه يستحيل مهاجمتها وإخضاعها . وغطفان - كما تصور قادة يهود - بكل عدائهم وكراهيتهم لمحمد لن تتخلى عنهم ، لابد وأن نقف إلى جانبهم نشد من أزرهم وتناصرهم ، ولن تسمح بأن تنكسر شوكتهم ، وهم يكسبون ولاءهم دوماً ببعض خيرات خيبر ، وخبير شديدة الخصوبة وفيرة الثراء وفيها ما يغري غطفان بتأييد أصحابها وإظهار الاستعداد الفوري للمساندة والولاء .

بالإضافة إلى غطفان ، هناك احتمال أن يستجيب لهم قيصر الروم لو طلبوا منه مدداً لحرب محمد ولو تحقق مثل هذا الاحتمال لأصبح القضاء على محمد ودعوته أمراً محتوماً . لقد نجحوا من قبل في تأليب القبائل وتحزيب الأحزاب ضد محمد ، لكن

الأحزاب - كما سبق وفصلنا - هُزموا دون قتال. هزمهم الخندق وهزمتهم ثورة لطبيعة القاسية التي تبذت للمسلمين وكأنها غضب الله انصب على رؤوس المشركين نقمة ولعنة فأصابهم بالخيبة والانهزام .

لقد اعتقد بعض قادة يهود أن الإسلام قد وهن وضعف بعد أن وصلتهم الأنباء عن شروط الحديبية المجحفة وعدم استطاعة محمد ومن معه دخول مكة لأداء العمرة . صورت لهم أوهامهم أن الوقت قد آن للهجوم والانتصار .

كان للنبي رواه . أترك كل ما يدور في أفئدة يهود وكل ما يعتمل في أعماقهم . وكانت له أيضا عيون ترصد . لابد من تأمين الشمال - كما تم تأمين الجنوب - والقضاء على مكنم الخطر .

الخروج بالجيش:

كانت خيبر في الشمال الشرقي من المدينة وتبعد عنها حوالي مائة ميل يقطعها المسافر في خمسة أيام .

أمر النبي أصحابه بإعداد العدة للقتال . خيبر هي الهدف . لن يخرج معه إلا من شهد الحديبية . كان لابد من تعويضهم عن مسيرة خابت فيها - في الظاهر - آمالهم . خيبر هي فرصتهم ويجب ألا تضيع . لقد وعدهم الله - هم الذين بايعوا تحت الشجرة - مغنم كثيرة : " لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغْنِمًا كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا " (الفتح : ١٨-١٩) . ربما تكون ثروات خيبر هي ما وعدوا ، وربما يكون هناك ما هو أكبر وأكثر وتكون خيبر هي أول السيل .

حاول بعض الأعراب الانضمام إلى المقاتلين على أمل أن يأخذوا نصيبهم عند توزيع الغنائم ، لكن النبي أوضح لهم أن غنائم خيبر لن ينالها إلا أهل الحديبية أصحاب بيعة الرضوان ، ومن أراد الخروج من الأعراب - أو من تخلف عن الحديبية - فعليه أن يخرج للجهاد فقط متطوعا دون مطمع في مكسب أو غنيمة .

في النصف الثاني من المحرم ، العام السابع للهجرة (يونيو ٦٢٨ م) استعمل النبي نُمَيْلَةَ بن عبد الله الليثي على المدينة ، وخرج على رأس جيش قوامه ألف وأربعمائة رجل ومائتي فارس . وزع الرايات : راية إلى الحباب بن المنذر ، وراية أخرى إلى سعد بن عباد ، أما لواء النبي الأبيض فقد حملة على بن أبي طالب .

اصطحب النبي معه زوجته أم سلمة ، وسمح لبعض النساء - ويقال أن عددهن كان عشرين امرأة - بالخروج مع الجيش لحمل الماء ورعاية الجرحى . لقد توقع النبي ألا تكون المعركة سهلة فعدد اليهود كبير - يزيد عن الألف من شجعانهم- وحصونهم شديدة القوة جيدة التسليح .

وكعادة النبي في غزواته ، اتسمت مسيرته بالسرية والسرعة ، قطع المسلمون المسافة بين المدينة وخبير في ثلاثة أيام ، بدلا من خمس . أشرفوا على حصون خبير عند الفجر . هنا كمنت المفاجأة : لم يكن أحد من يهود يتوقع وصول المسلمين بهذه السرعة وفي هذا الوقت .

خرج عمال يهود في الصباح وقد حملوا الفؤوس والزناويل متوجهين إلى عملهم اليومي . ما دار بخلد أحدهم أنه سيواجه رعبا قبل أن يصل إلى حيث يريد . أسرعوا بالفرار وقد تملكهم الفزع وسيطر على أفئدتهم ، وهم يصيحون : محمد والخميس ، أي محمد والجيش . ارتدوا إلى الحصون فملؤوها صياحا . عندها قال النبي : الله أكبر ، خربت خبير !!

نزل النبي بواد يقال له الرجيع ، بين خبير وغطفان ، كان لاختيار هذا الموقع أهميته وضرورته من الناحية القتالية : إنه يقطع الطريق على غطفان . لن يستطيعوا إرسال مدد يعين يهود . عليهم أولا أن يواجهوا المسلمين بكل قوتهم الضاربة . كان رجال غطفان قد خرجوا بالفعل ، لكنهم قبل الوصول إلي حيث كان المسلمون ، ترددوا ثم تراجعوا خوفا على أهلبيهم وأموالهم . بذلك أمن المسلمون خطرهم ، وتحركوا في ثبات إلى هدفهم الحقيقي الذي خرجوا من أجله .

كان على النبي أن يهاجم الحصون حصنا حصنا ويأخذها مالا مالا . كان من المستحيل مهاجمة الحصون كلها في وقت واحد . لم يكن المسلمون يملكون المقدرة على فعل ذلك .

حصون خبير:

كانت خبير - كما يذكر الدكتور شوقي ضيف - ثلاث مناطق ، وفي كل منطقة عدة حصون منيعة ، واسم المنطقة الأولى منطقة النظاة ، وكان بها أربعة حصون : النظاة وناعم والصعب والزبير ، وجعلوا أشداهم في هذه الحصون ، وفي المنطقة الثانية منطقة الشق ، وبها حصنان : أبى والبرئ ، وجعلوا في هذه المنطقة النساء والذراري ، والمنطقة الثالثة منطقة الكتبية وبها ثلاث حصون : القموص أو نزار وكان لأبى الحقيق

وولده ، والوطيح والسلام . وكل تلك الحصون كانت على رؤوس جبال ، واشتهرت
خيبر بأن جموعها من أقوى جموع اليهود .. وأكثرها سلاحا وأوفرها مالا .^١

القتال :

استغرق حصار خيبر وإخضاعها شهرا كاملا ، وكان أسلوب المسلمين في القتال
هو حصار الحصون حصنا حصنا ، فإذا ما استولوا على حصن وفرغوا منه تفرغوا
بكامل قوتهم لحصار الحصن الذى يليه . لم تكن هناك وحدة بين الحصون ، ولم تسنح
الفرصة لليهود خيبر كي يوحدوا قيادتهم ويتفقا على خطة شاملة لإدارة المعركة . الهجوم
المفاجئ قضى على فرصة توحيدهم . أصبح على كل حصن منفردا أن يدافع من فيه عن
حياتهم وممتلكاتهم دون أن يتوقعوا مساعدة من بقية الحصون .

كان أول حصن تم حصاره ومهاجمته هو حصن ناعم ، عند هذا الحصن قتل أحد
المسلمين ، وهو محمود بن مسلمة ، ألقبت عليه منه رحا فقتلته . ويقال إن النبي ، عند
مهاجمة هذا الحصن ، أعطي رايته البيضاء لأبى بكر الصديق كي يكون قائدا على رأس
الجند ، فقاتل وعاد مجهدا ، ولم يستطع الاستيلاء على الحصن . وفى اليوم التالى بعث
عمر بن الخطاب ، بدلا من أبى بكر فقاتل هو أيضا ثم عاد مكثورا ، عجز هو أيضا ولم
يستطع أن يفعل شيئا فى مواجهة الحصن . كان اليهود من خلف تحصيناتهم يقاثلون
باستبسال وشراسة . لقد عقدوا النية على القتال حتى الموت .

ويذكر ابن إسحاق أن النبى عندها قال : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله
ورسوله يفتح الله على يديه ... ودعا رسول الله عليا وهو أرمد ... ثم قال : خذ هذه
الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك .

خرج علي وهو يحمل راية النبى .. تبعه المسلمون ، وهم يشعرون أنهم لن
يعودوا هذه المرة إلا بعد الاستيلاء على الحصن . إنهم تحت قيادة علي .

ركز علي الراية فى كومة حجارة تحت الحصن . أطل وجه يهودى من قمة
الحصن . سأل : من أنت ؟ قال : أنا علي بن أبى طالب . قال اليهودي : كما يذكر ابن
هشام - علوتم وما أنزل على موسى . فما رجع علي حتى فتح الله على يديه .^٢

علي ، إذن هو بطل خيبر ، كما كان من قبل بطل " بدر " وبطل " أحد " وبطل "
الخنديق " ، المعارك الكبرى التى حددت مصير الأمة الإسلامية الناشئة . ويمكن القول إن

^١ شوقي ضيف ، ص ٢٩٨ .

^٢ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ .

علياً كرم الله وجهه كان سيف الإسلام يباطش ودرعه الوثقى وقائده المظفر في هذه الفترة
الحرجة من تاريخ الرسالة ، رمبازراته التي كانت تفتتح بها المعارك مشهود لها وقد ذاع
صيتها وما أنكرها ، أو استطاع تجاهلها ، أى من كتاب السيرة والتاريخ . ما صمد فى
وجه على بطل ، سواء كان من عتاة المشركين أو من مشاهير اليهود . سيفه القاطع كان
يقطع قطعاً لا تقوم بعده حياة ، وكأنه قتر الله .

ومن بطولاته التي أذهلت من حوله - كما يحكي ابن اسحق - أنه فى حصاره
لأحد حصون خيبر ، ضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده ، فانتزع على بابا من
أبواب الحصن وترس به عن نفسه ، ظل يقاتل : السيف للقاطع فى يد يبيد به كل من
يتصدي له ، واليد الأخرى تحمل الباب وتحركه فى خفه وقوة انقاء ضربات العدو .
وعندما تم الفتح والاستيلاء على الحصن ، ولم يعد للباب نور ، ألقاه على من يده . ويقال
إن ثمانية من جنده اتجهوا إلى ذلك الباب - بعد أن توقف القتال - وحاولوا قلبه فما
استطاعوا . من هنا كانت الدهشة وكان الذهول . أى قوة تلك وأى بأس كان فى ذراع
على !!

وأمام أحد الحصون خرج مرخب صاحب الحصن - وهو من أبطال اليهود
المعدودين - وقد استل سيفه فى كبرياء . طلب المبارزة وهو واثق من قوته وقدرته
ومضاء سيفه . ارتفع صوته فى خيلاء متغطرس يرتجز :

قد علمت خيبر أنى مرخب شاكي السلاح بطل مجرب

أطعن أحيانا وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تحرب

كان حماى للحمي لا يقرب

برز له ليث الإسلام على وهو يرد على كلماته بكلمات باترة :

أنا الذى سمتني أمى حيرة أكيلكم بالسيف كيل السندرة

ليث بغابات شديد قسورة

تبارزا ، والكل يشهد ، والقلوب تخفق ، فهذان بطلان من أصحاب الهامات
السامقة ، كل منهما يمثل فكراً وعقيدة وتتمحور فيه آمال أمة . كان لابد أن يقضى
أحدهما على الآخر ، ولا مفر فما تعود أى منهما الفرار . ضربات على كانت فاصلة
قاسمة . قدر الله . سقط مرحب . استولى المسلمون على الحصن .

الجوع :

لم يتوقع المسلمون أن يطول الحصار والقتال مدة شهر وأكثر . لم يكن معهم من الطعام ما يكفي كي يقيم أودهم عدة أيام . لقد ظلوا يقاتلون أمام حصن النبطاة عشرة أيام كاملة . جرح منهم أكثر من خمسين مقاتلاً حُمِلوا إلى الخيام حيث النساء ينتظرن بالدواء .

نفد الطعام ، شعروا بالجوع . اضطروا لذبح الحُمُر الأنسية كي يأكلوها . فارت بلحمها القدور . علم النبي بما فعلوه . بعث بمن ينادي أن رسول الله قد نهي عن أكل لحوم الحمر الأنسية . أطاع المسلمون رغم الجوع . كفأوا القدور على وجوها .

وفي قول ابن إسحق أن النبي نهاهم يومئذ عن أربع : عن إتيان الحبالي من السبايا ، وعن أكل الحمار الأهلي ، وعن أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن بيع المغنم حتى تقسم .^٢

اختلفت الآراء فيما يختص بأكل لحم الحمار الأهلي . قد يسأل سائل : لماذا حرم النبي أكل لحم الحمار وأباح لحم الخيل . رغم أن طعامهما واحد ، تأكل العشب ولا تأكل اللحم . وليست ذات ناب أى لا تعد من السباع ؟!

قد يقول قائل إن إباحة أكل لحم الفرس ليست فى نفس خطورة إباحة أكل لحم الحمار ، فقد كان الفرس ذا قيمة كبيرة فى المعارك الحربية وكان له سهم كسهم الفارس عند تقسيم الغنائم ، لذا فقد كان من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن يذبح الفارس فرسه كي يقتات به . أما الحمار فلم تكن له نفس القيمة أو ما يداينها ولا حساب له عند القسمة ، وعلى ذلك فقد كان من السهل ذبحه إذا ما دعت الضرورة ذلك .

لكن تحريمه فى خيبر ربما كانت له حكمته ، فقد كان المسلمون فى حاجة إلى حُمُرهم لنقل المتاع وحمل الخيام وما ثقل من العتاد . وربما أمر النبي بالتحريم حتى لا يتم ذبح الحُمُر التى يستولى عليها المسلمون غنيمة أثناء القتال ، والغنيمة لا بد أن تقسم بين المسلمين لا أن يخص بها نفسه من حصل عليها ويطعم منها لأنها فى هذه الحالة تكون حراماً ، أى رجساً ، كما نقل البعض عن النبي .

ويورد الإمام محمد أبو زهرة رأى الحافظ ابن كثير فى هذا الخصوص ، وهو رأى نخصه بالذكر لغرابته بالنسبة لنا ، إذ أنه يشير إلى رأى الإمام مالك الذى يحرم أكل لحم الحُمُر الأنسية ويبيح أكل لحم الكلاب .

^٢ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٨١ .

يقول الحافظ ابن كثير في تاريخه : إن تحريمها (أى الحُمُر) هو مذهب جمهور العلماء سلفا ، وخلفا ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، ولعل من المفارقة فى مذهب مالك أن يحرم لحم الحُمُر الأنسية ، ويبيح أكل لحم الكلب ، وله فى إباحة لحم الكلب اجتهدا يتصل بنص قرآنى ، إذ أن القرآن الكريم أباح أكل صيده فى قوله تعالى : " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " (المائدة : ٤) . ويقول الإمام مالك فى ذلك : كيف يؤكل صيده ، ويحرم لحمه .^٤

نعود إلى حالة نقص الزاد التى أحس بها المسلمون وقد جهدوا ، وشعروا بأن الجوع الذى يهددهم قد يكون له على قدرتهم القتالية أثر كبير . وقد حاولوا التعويض بأكل لحوم الحمار الأنسى فحرمه النبى .

توجه بنو سهم من أسلم إلى النبى ، أخبروه أنهم جهدوا وقد نفذ الزاد . ما عاد بأيديهم شئ . ولم يكن النبى بأفضل منهم حالا . ما وجدوا عنده شيئا يعطيهم إياه . كان الموقف حرجا ومحيرا ، ولم يكن أمام النبى ، إلى جانب القتال سوى الدعاء . قال : اللهم إنك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدي شئ أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعاما وودكا^٥ .

كان المسلمون يحاصرون حصن الصعب بن معاذ ، وقد نما إلى علمهم من بعض غلمان يهود أنه أكثر حصون خيبر طعاما ومؤونة . فانتلوا قتال المستبسلين الذين لا يخشون الموت طلبا للحياة . كان اليهود يقاتلون فى ضراوة ، يدافعون عن حصنهم وممتلكاتهم دفاع الأبطال - وقد اشتهرت خيبر بقلاعها وأبطالها - لكنهم لم يصمدوا طويلا أمام ضربات المسلمين . سقط الحصن . وفى الحصن كانت خيرات من طعام وشراب لم تخطر لهم على بال ، وبكميات تصل بالجميع إلى حد الشبع وتزيد كى تسيد رمقهم فى أيام نالية وهم يستولون على بقية الحصون .

فى أحد الحصون ، وجد المسلمون كمية كبيرة من السلاح والعتاد ، كما وجدوا المنجنيق وهو آلة حرب لم يستخدموها من قبل ، وقد أمر النبى بنصبه أثناء حصار الحصنين الأخيرين : الوطيح والسلام ، كانا آخر حصون أهل خيبر افتتacha وكانت مقاومة اليهود فيها مستميتة . استمر الحصار عشرة أيام ، وعندما استعصى على المسلمين الاستيلاء عليهما ، أمر النبى بنصب المنجنيق . شاهد اليهود ما أقدم عليه

^٤ أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ٨٣ .

^٥ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ .

المسلمون . انكسرت شوكة المقاومة فى نفوسهم . اعتراهم الوهن وسيطر عليهم اليأس .
لم يكن أمامهم سوى الاستسلام .

الصلح:

أيقن اليهود أن مصيرهم الهلاك . النصر يبدو مستحيلا . ما عاد يجدي قتال .
المخرج الوحيد هو أن يقوموا بعرض الصلح ، وفى ذلك قد تكون نجاتهم ، إن لم يصمم
محمد على إبادتهم . وهذا أمر مستبعد ، ذلك لأنهم كانوا يعرفون أنه لا يميل إلى سفك
الدماء ، إلا إذا أجبر على ذلك ولم يكن أمامه خيار .

طلب أهل خيبر من النبى أن يبقيه فى أرضهم ولا يجلبهم عنها ، وأن يعاملهم
بالأموال على النصف فهم أعلم بأرضهم من غيرهم وأمر لها . وافق النبى . لسن
يصبحوا هم ملاك الأرض ، بل مجرد عاملين عليها مقابل نصف ما ينتجون . لكن النبى
أعلن لهم بوضوح لا لبس فيه : على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم .

ويثبت هذا الصلح أن النبى كان سياسيا من طراز متميز فى عصره ، فلو صمم
على قتلهم ، أو أصر على طردهم ، لخلت الأرض من سكانها وأصابها البوار ، ولم يكن
عنده من الرجال ما يكفى لزراعة كل تلك الأراضى الخصبة والحدائق الياضعة . صحيح
أن الأنصار كانوا مهرة فى فلاحه الأرض وزراعتها ، لكن أرضهم كانت فى انتظارهم
وهى أولى بهم ، ومن غير المعقول أن يتركوا حقولهم وممتلكاتهم كي يبيذروا ويحصدوا
فى حقول أخرى لن تكون - مهما أقاموا بها - ملكا لهم ، فهي غنيمه حرب وفيؤها
للمسلمين : الخمس لله ورسوله ، والأربعة أخماس للذين قاتلوا وانتصروا ، هذا إلى جانب
أن النبى كان فى حاجة إلى رجاله وهم جميعا مقاتلة للدفاع عن الأمة ضد من يترصبون
بها ويبغون القضاء عليها .

حسن معاملة أهل خيبر:

هكذا أحسن النبى معاملة أهل خيبر عندما أبقى عليهم ، لم يجلبهم ، ولم يوقع بهم
أى عقاب . وكان من إحسان النبى معاملة يهود خيبر - كما ينقل الدكتور هيكل عن
مصدر لم يذكره - أنه كان من بين ما غنم المسلمون حين غزوها عدة صحائف من
التوراة ، فطلب اليهود ردها فأمر النبى بتسليمها لهم . ولم يصنع صنيع الرومان حين
فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، ولا هو صنع صنيع النصارى
فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة^٦.

^٦ هيكل ، حياة محمد ، ص ٣١٣ - ٣١٤ .

كما أن النبي حفظ لنساء اليهود كرامتهن عندما نهى عن إتيان الحبالى منهن : لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره . كما أنه عليه السلام نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر .

وزواج المتعة ، باختصار شديد ، هو اتفاق بين رجل وامرأة ، على أن يعاشرها لمدة معلومة لقاء أجر معلوم ، وينتهي الأمر بانتهاء المدة ويذهب كل منهما إلى حال سبيله دون طلاق . ورغم أنها مباحة حتى الآن في بعض المذاهب الشيعية (الشيعة الإمامية) ، إلا أن فقهاء السنة جميعا - كما يذكر الدكتور أبو زهرة - قد أجمعوا أنها محرمة تحريما أبديا إلى يوم القيامة .

ويضيف الدكتور أبو زهرة - وهو يكتب باقتدار في مجال تخصصه - أنه لا يحل في العلاقة بين الرجل والمرأة إلا الزواج ، الذى يكون ما عداه امتهانا للمرأة إذ تتخذ متاعا لقضاء لبانة الرجل ، بذوقها ثم يرميها ، ويستأجرها مستمتعا بأجر ، ولقد قال الله سبحانه وتعالى مبينا أن الفروج لا تحل إلا بالزواج ، أو بملك الإيمان ، فقال سبحانه وتعالى فى وصف المؤمنين : " قَدْ أَقْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ " (المؤمنون : ١-٧) .

فهذا النص قاطع فى أنه لا تباح الفروج إلا بالزواج ، أو ملك اليمين ، وأن من ابتغى غير الزواج أو ملك اليمين فهو عاد أثيم ، فالذى يتخذ المتعة فى الفروج عاد أثيم^٧ .

يهودية تؤمن وتخلص:

ولقد جل قدر المرأة اليهودية وعلا فى هذه الغزوة ، عندما اصطفى النبي إحدى نساء خيبر كى تكون زوجة له ، وكأنه يريد أن يعلن بهذا الزواج أنه على استعداد لإنهاء عدائه مع اليهود . لم يكن الهدف الجوهرى هو التمتع بجسد إحدى اليهوديات ، فقد كان عنده من النساء ما يكفى ويزيد ، وكان بينهن جميلات ، لكنه فى رأينا- إن لم نكن قد أخطأنا الفهم - كان يود مداواة الجراح وإرضاء أهل خيبر بعلاقة نسب بينه وبينهم .

كيف اختار النبي تلك اليهودية التى اصطفاها ؟ سؤال قد يثار .

^٧ أبو زهرة ، خاتم النبيين ، ج ٣ ، ص ٨١٠ .

تلك التي اصطفاه هي صفية ابنة حَيَّ بن أخطب سيد بنى النضير. كانت زوجة لكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، فى السابعة عشرة من عمرها ، حديثة عهد بالزواج ، علي قدر وافر من الجمال ، وقد أخذت بين السبايا عندما تم الاستيلاء على " القموص " حصن بنى أبي الحقيق ، ومعها بنتا عم لها .

جاء بلال بصفية ومعها أخرى ، وبدلا من أن يتجه بهما مباشرة إلى حيث النبي، مر بهما أولا على جثث قتلى يهود . ولا نعرف بالضبط لماذا فعل بلال ذلك بامرأتين شابتين لا حول لهما ولا قوة ، ولا شأن لهما ولا خبرة بأمور الحرب وصولات القتال . هل كان يريد أن يصيبهما بالرعب ؟ هل كان يريد أن يظهر لهما مقدار قسوة المسلمين وشدة فتكهم باليهود ؟ أى نوع من أنواع البطولة كان يريد أن يجسد لهما ؟ كانت صاحبة صفية تصرخ وتولول وتحثو على رأسها التراب . ربما أسعد سلوكها بلال ، وإلا لتوقف وكف عن فعل ما قام بفعله ، لكنه لم يتوقف .

يستعصى علينا فهم ما قام به بلال ، ومن هو فاهم من " عناويل التأويل " فعليه أن يتكرم فى تواضع - حتى ولو كان مصطنعا - ويفهمنا دون تقعر أو تشنج ، أو انبعاث ، أو شتائم ، أو صراخ .

ونعتذر للمنبعجين " تعالما " ، فقد ينتفض أحدهم انتفاضة الأقزام ، وهو يتصور أنه ينتمي لسلالة عماليق ، صارخا كيف تجرؤ ؟ كيف تدين سلوك الصحابي الجليل مؤذن الرسول ؟ ويكون ردنا على المتشنج جهلا : والله ما أدناه نحن ، ولكن أدانته كلمات نبي الرحمة ، الذى يبدو أن بلالا لم يتعلم منه الكثير . قال النبي موجهها كلماته القاطعة لبلال : **أَنْزَعْتَ مِنْكَ الرَّحْمَةَ يَا بِلَالُ حِينَ تَمُرُ بِامْرَأَتَيْنِ عَلَى قَتْلِي رَجَالَهُمَا** ^٨ . أتمني ألا ينبرى أحد المتحذلقين من محترفي الفتاوى فيقول : لم يكن النبي يؤنبه ، بل كان يدلُّه !!

أمر النبي بصفية فحيزت خلفه ، ألقى عليها رداءه . عندها عرف المسلمون أنه قد اصطفاه لنفسه . كان دحية الكلبي يريد لها ، لكنه تراجع أمام اختيار النبي لها وقنع بابنتي عمها ، وقد أعطاهما له النبي .

ويحكي الرواة أن النبي رأى فى عين صفية أثر اخضرار فسألها عن سببه ، فأخبرته أنها رأت فى المنام ، وهى عروس بكنانة بن الربيع ، أن قمرا وقع فى حجرها ،

^٨ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ .

فعرضت رؤياها على زوجها . فقال : ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدا ، فاطم وجهها لطمه أخضر عينها منها ، فأتي بها لرسول الله وبها أثر منها ^١ .

تساءل بعض القوم ، فيما يختص بصفية ، أسريّة هي أم ستصبح زوجة للنبي ؟ كانوا يعرفون ، طبقا للموروث من عادات العرب ، أنه إن ألقى عليها ستر فهي زوجة وإن خرجت بلا شيء فهي سرية . انتظروا خروج النبي من خيبر وهي في صحبته . عندما خرج النبي ، أمر بستر فحجز بينها وبين الناس . كانت الإجابة واضحة .

أعدتها للعرس أم سليم ابنة مليحان ، أم أنس بن مالك ، جملتها ومشطتها وأصلحت من أمرها . فلما كان الليل دخل النبي قبة نصبت له ودخلت صفية معه . وبات أحد الأنصار - أبو أيوب خالد بن زيد - يحرس القبة ويدور حولها في قلق خشية أن تغدر به اليهودية وهي حديثة عهد بالإسلام ، وقد قُتل قومها وفيهم زوجها ، ومن قبله قتل أبوها .

لكن النبي قبل أن يدخل بها كان قد أعدها لذلك اليوم من الناحية النفسية . رفق بها وعاملها بنحو لم تكن تتوقعه وربما لم تألفه من زوجها الذي بطش بها لمجرد حلم قصته عليه . كما شرح لها ما فعله أبوها وكذلك زوجها . أبوها حزب الأحزاب وحرص القبائل ودعا إلى القضاء على محمد ، ولو هادن وسالم لسلم ونجا ، لكنه وضع هدفا واحدا نصب عينيه وهو تدمير الأمة الناشئة وقتل النبي . ويعتبر قتله نوعا من أنواع الدفاع عن النفس . أما عن زوجها فقد كذب وخان الأمانة عندما أخفى ما لا ما كان يجب عليه أن يخفيه .

ولقد حسن إسلام صفية . أخلصت للنبي لدرجة أن أصبح أحب الناس إليها . ورغم أن عائشة وحفصه تعاملتا معها بجفاء في بداية الأمر ، إلا أنها نجحت في اكتساب مودتهما ، إن لم نقل حبهما . عاشت في ونام مع كل نساء النبي ، وظلت محبة مخلصه لزوجها حتى صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى . ماتت في عهد معاوية بن أبي سفيان ودفنت بالبقيع .

قد يسأل سائل : كيف تزوجها ودخل بها ، بينما زوجها الذي هو ابن عمها قد تم قتله منذ عدة أيام ؟ هل هذا يجوز من الناحية الشرعية ؟ أليس لها عدة .

هنا نرجع إلى رأى الشيخ الإمام محمد أبى زهرة فهو أكثر منا إماما وأوسع علما فيما يختص بأمور الشريعة . يقول الإمام : لقد دخل النبي بعد استبراء رحمها بحيضة تحيضها ، ولم يكن لها عدة ، لأنه لا عدة من كافر ، وخصوصا أن عدتها تكون عدة

^١ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

وفاة، وهي تكون للإحداد على الزوج السابق ، ولا حداد على كافر ، ولكن لا يصح أن يدخل بحامل ، فتركها صلى الله عليه وسلم حتى تستبرئ^{١٠} .
ويهودية تنتقم وتحقد:

صفية كانت مثلاً لامرأة من خيبر أسلمت وأخلصت . الآن نعطي مثلاً آخر لامرأة أخرى ، هي أيضاً من خيبر ، نعمت وحقدت وحاولت باستخدام السم أن تقتل .
زينب بنت الحارث ، زوج سلام بن مشكم ، كانت تختلف اختلافاً كلياً عن صفية ابنة خُيَّ بن أخطب : صفية أسلمت ، صفت نفسها واطمأنت روحها ، فسلمت أمرها في صدق الله ثم النبي ، رغم مقتل أبيها وزوجها . أما زينب التي قتل أبوها هي أيضاً ، وزوجها فلم تنس ولم تغفر . تحول الغضب والحقد في أعماقها سما زعافاً سم حياتها وأحال داخلها إلى جحيم دنيوى لم تر لنفسها مخرجاً منه إلا بالانتقام من الرجل الذى فعل بها ذلك ، وكذا فعل بقومها .

رسمت علي وجهها ملامح الاستسلام ، نظاهرت بالمودة : ضيوفنا أنتم يا معشر المسلمين ، وأنتم تقبلون الهدية عندما يهدي لكم ، تقبلوا هديتنا !!

دارت الكلمات فى فؤادها ، فجسدتها فى الحال فى صورة فعل . لتكون الهدية للنبي فهو سيد القوم وصاحب الأمر والنهي ، ولن يرفض الهدية وهى تقدم له من امرأة تنتمى إلى ارسنقراطية يهود .

ذبحت شاه . شوتها على الجمر . سألت : أى الأجزاء من لحم الشاه يفضلها النبي؟ قيل لها : الكتف . جاءت بالسم القاتل . الذى يمثل السم الذى دمرها نفساً وروحاً . سمت الشاه ، كل الشاه ، أما الكتف التى عرفت أن النبي يفضلها فقد أكثرت فيها السم وزادت ، وبذلك خيل إليها أن أقل القليل من لحم الكتف يقتل ، وأن الموت حتم لا مهرب منه .

تقدمت فى خضوع ظاهري وهى تحمل هديتها . وضعتها فى مزلة خادشة أمام النبي ومن أحاط به . وجبه شبيهة ، مقدمة من امرأة يهودية ، فليأكلوا فى هناء ، وليرحلوا عن خيبر فى فرح !! انصرفت وصيحة الانتقام تكاد تتطلق من أعماقها رغماً عنها .

تناول النبي الذراع ، كما قيل لها وكما توقعت ، لآك منها مضغعة ، توقف ، ما أساغها . كان الطعم غريباً . لقد تربى منذ الصغر على لحم الشياه . فى الحال لفظ المضغعة من فمه . لقد أضيف إلى اللحم ما يثير الشك . نظر إلى وجه صاحب له - وهو البشر

^{١٠} أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ٧٩٣ .

بن البراء بن معرور - كان قد أخذ مضغعة وابتلعها . فإذا بلون وجهه قد تغير . أشار بيده الكريمة إلى من حوله أن كفوا . قال : أن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم .^{١١}

نخشى أن يفسر أحد " المتفقيين " العبارة الأخيرة بأنها إحدى معجزات النبي ، ذلك لأن العظم - كما قد يزعمون - قد نطق وتكلم وخاطب النبي محذرا أن يتناوله لأنه مسموم . لقد زعموا من قبل أن ذنبا تكلم وخاطب النبي ، وأن الجبل والشجر تحرك وأتى طائعا عندما أشار له النبي ، وأن جذع الشجرة في المسجد بكى وتوسل - بعد إقامة المنبر - لكي لا يهجره النبي ، وأن حفنة تمر باركها النبي - أثناء حصار الخندق واشتداد الجوع - أصبحت بعد مباركته إياها كافية لإطعام جيش المسلمين وتبقى منها ما يزيد عن حاجتهم ، ومثل ذلك كثير ، وكلها لا تصيف شيئا ذا قيمة لجوهر رسالة الإسلام .

لقد أحس النبي بعد أن لاق قطعة اللحم أن الشاه مسمومة ، وأكد له ذلك ما اعترى بشر بن البراء بعد أن لاق قطعة وابتلعها . وقد مات بشر بالفعل . والموقف كله ليس في حاجة إلى كثير من التفسير والتأويل والزج فيه بغير المحتمل من المعجز ودلائل الإعجاز .

وقد يسأل سائل : لقد حذره جبريل من قبل عندما حاول يهود بني النضير قتله بإلقاء حجر عليه (فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعا إلى المدينة) .^{١٢} ونتيجة لهذا التحذير تم انقاذ حياته ، فلماذا لم يحذره جبريل هذه المرة أيضا عندما وضعت أمامه الشاه المسمومة ؟

لا ندعي علم ما لا نعلم . لا نملك إجابة على السؤال . نترك الإجابة للمتفقيين ، ولن نخلو جعبتهم - بكل تأكيد - من آلاف التفسيرات والتأويل . هذا جوهر عملهم الذي منه يتكسبون ويتربحون ، ولا دخل لمنطقنا بما يزعمون .

نعود إلى زينب بنت الحارث وجريمتها ، لم يأمر النبي بقتلها فورا ودون إبطاء ، وقد كان الجرم بينا والدليل بين يديه ، لكنه بسماحته وعدله المعهود استدعاها كي تمثل أمامه . سألها دون تخويف أو تهريب : ما حملك على ذلك ؟ أجابت اليهودية ببشاش : قتلت أبي وزوجي وعمي ، وبلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت إن كان نبيا فسيُخبر ، وأن كان ملكا استرحت منه .^{١٣} اعترفت ولم تنكر ، ولم يكن أمامها للنجاة بجرمها من سبيل .

^{١١} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٩٠ .

^{١٢} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ١٩١ .

^{١٣} الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

ويقال أن النبي تجاوز عنها وعفا .^{١٤} وهذا رأى لا نميل إلى الأخذ به . لقد قتلت بشر بن البراء ، كان يجب أن تُقتل ، تم دفعها إلى أهل بشر فقتلوا بها . ما ظلموها ، لكن ظلمت نفسها ، والعدل يتطلب القصاص .

ويقال أيضا أن أثر السم ظل كامنا في جسد النبي ، حتى إذا مرض مرضه الأخير ، وضعف جسده ، بدأ يحس بسريان السم . ويُروى أنه قال لأم بشر ، وقد ذهبت تعود في مرضه الذي توفي فيه : يا أم بشر ، إن هذا الأوان وجدت انقطاع أبهري^{١٥} من الأكلة التي أكلت مع ابنك بخير . وكان المسلمون يرون أن رسول الله قد مات شهيدا مع ما أكرمه الله من النبوة .^{١٦}

حكاية لا نصدقها :

بعد الاستيلاء على " القموص " حصن بنى أبي الحقيق ، أتى بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، زوج صفية التي اصطفاها النبي لنفسه وتزوجها في طريق العودة إلى المدينة ، سأله النبي عن كنز بني النضير ، وكان هو حافظة والمسئول عنه . أنكر كنانة أنه يعرف شيئا عن الكنز أو عن مكانه ، لقد قدموا للنبي كل ما يملكون ، لم يعد هناك ما هو أكثر . وهذا معناه بكل بساطة - كما ادعي كنانة - أن لا كنز هناك .

سأله النبي عن كل ما احتمله حتى بن أخطب معه من ثروة حين رحل مع بنى النضير . كانت الإجابة : لقد ضاعت الثروة . أذهبها النفقات والحروب . وما تبقى منها شيء . لم يقتنع النبي بما سمع ، فقد كان العهد قريبا والمال وفيرا بحيث يستحيل إنفاقه كله ، إذا ما أخذنا في الحسبان أن بنى النضير لم يخوضوا حربا منذ خروجهم من المدينة . المال بكل تأكيد مخبأ مكنوز في مكان ما . لابد من البحث عنه والحصول عليه فهو حق للمسلمين .

قال النبي لكنانة وقد وجد فيه صلابة وتصميما على عدم البوح : أرأيت إن وجدناه عندك . أأنتك ؟ لم يترشح كنانة عن موقفه ، لم يكثرث بوعيد أو تهديد ، وكأنه قد استعلى بيهوديته على من حوله . قال : نعم .

جاء رجل من يهود . باح بسر كنانة . رآه يدخل خربة ، وكان يطيف بها كل غداة . أمر النبي الزبير بن العوام وبعض صحبه بالذهاب إلى الخربة وحفرها ، عليهم

^{١٤} نفس المرجع السابق ، نفس الصفحة .

^{١٥} عرق في القلب إذا ما انقطع مات صاحبه .

^{١٦} الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

يجدون فيها شيئا مخبوا ، فطواف كنانة بها لا بد وأن يكون له معنى ووراء مغزى .
ذهبوا . حفروها . وجدوا بها بعض الكنز . لقد كذب كنانة ورفض البوح .

هنا نأتي إلى نقطة الارتكاز الحرجة في الرواية .

يجمع كتاب السيرة القدامي ومن نحا نحوهم من المحدثين ، أن النبي سلم كنانة إلى الزبير بن العوام وأصدر أمره ، قائلا : عذبه حتى تستأصل ما عنده !!

معني الأمر الذي أصدره النبي واضح شديد الوضوح ، ليس فيه أى لبس يسمح بلى عنق المعني وتأويله ومنحه من التفسيرات ما لا يستقيم مع صريح العبارة .

رجل قاتل وهزم ، واستسلم بعد أن عرض الصلح ، أمر النبي بتعذيبه وهو فى موقف الانكسار ، كى يبوح بسر ما أخفي . ولم يكن التعذيب فى حدود قوة الرجل على التحمل . كان على الزبير أن يعذبه ويستمر فى تعذيبه ولا يكف ، حتى ولو أشرف الرجل على الهلاك ، لا بد وأن يستأصل ما عنده . فكان الزبير . كما يحكي ابن اسحق . يقدح بزند فى صدره ، حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة .^{١٧}

معني هذا الكلام لو صدقت روايته ، وصح واقعه ، أن النبي أمر بتعذيب أعدائه . وبناءً عليه يصبح مبدأ تعذيب الخصوم والأسرى ، لاستخلاص ما لديهم من معلومات ، مبدأ إسلامياً ، بداه ووضعه ورسخ أسسه محمد بن عبد الله نبي الإسلام ، المعروف بنبي الرحمة ، والذي أرسل رحمة للعالمين ، أى لكل الدنيا ، الأصفر منها والأحمر ، مهما كانت أديانهم ومعتقداتهم وليس فقط لعرب أم القرى وما حولها من أعراب في خيام متناثرة .

معني هذا الكلام ، أيضا ، أن اليهود عندما يقومون بتعذيب الفلسطينيين إلى حد الموت ، والأمريكان عندما يستخدمون كل طرق الإهانة والإذلال والتعذيب الجسدى والنفسى مع من يعتبرونهم أعداء فى سجون العراق وأفغانستان وجوانتانامو ، كى يستخلصوا منهم ما كتموه من أسرار - حسب التصور اليهودى الأمريكى - فهم بذلك يفعلون ما هو معروف ومألوف ومتعارف عليه فى كل الحروب ، ولا يستطيع أى مسلم - مهما كان مذهبه - أن يلومهم ، وحجتهم فى ذلك واضحة ، ودليلهم ليس فى حاجة إلى بحث أو استقصاء : لقد سبقهم فى استخدام وسائل التعذيب محمد بن عبد الله نبي الإسلام ،

^{١٧} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٨٩ .

عندما أصدر أمره لأحد قادة جيشه وهو يشير إلى يهودي أسير : عذبه حتى تستأصل ما عنده !!

فيما يختص بإصدار النبي أوامر بتعذيب أعدائه ، أو المعتدين على ماله ، نروى حكاية أخرى أكثر بشاعة من الرواية السابقة ، وهي أيضا رواية لا نصدقها ، ونشك في حقيقة حدوثها .

هذه هي الحكاية كما يرويها الإمام أبو زهرة ، نقلا عن البخاري ومسلم : جاء رهط من عكل ورهينة فأسلموا ، واجتؤوا المدينة المنورة فأتوا رسول الله ، فذكروا ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام : الحقوا بالإبل فاشربوا من أبوالها وألبانها ، فذهبوا وكانوا فيها ما شاء الله تعالى ثم قتلوا الراعي وسرقوا الإبل ، فجاء الصريخ إلى رسول الله ، فلم ترتفع الشمس حتى أتى بهم ، فأمر بمسامير فأحميت فكواهم بها ، وقطع أيديهم وأرجلهم وألقاهم في الحرة يستقون فلا يسقون حتى ماتوا . وفي رواية عن أنس أنه قال : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه من العطش . وفي رواية للبخاري ومسلم أن رسول الله أمر فسمل أعينهم .^{١٨}

مجموعة من الأعراب أحسن إليهن النبي فخانوا الأمانة : قتلوا الراعي وسرقوا الإبل . الجريمة واضحة ، لكن العقاب - على غير المتوقع - مروع وصاعق : النبي نفسه يأمر بمسامير تحمي وتكوى بها جلودهم ، ولا يكتفي بذلك بل يصدر أمرا ثانيا بتقطيع أيديهم وأرجلهم ، ثم يلقون في الهاجرة كي يموتوا من شدة نزف الدم وشدة العطش ، يصرخون من أجل شربة ماء فلا يكثرث بهم أحد . أما الأمر الثالث ، وهو الأكثر فظاعة ، الذي أصدره النبي - كما تحكي الرواية - فهو أن تسمل أعينهم بعد كل ما سبق وفعل بهم .

هذه وحشية لا بشرية ، من المستحيل أن يقدم عليها أى إنسان سوى ، وحشية تنكرها الأخلاق وتنتبرأ منها الأعراف ، ولم يأت بما يقترب منها - أو ربما يزيد عليها - سوى بنى إسرائيل ، فقد لازمتهم منذ بدايتهم الأولى وحتى الأجيال المعاصرة تطبيقا لتعاليم إله دموى - ربما اخترعته أخيلتهم المريضة - يتلذذ بسفك الدماء ويسعد بالإبادة والحرق والتدمير من أجل سيادة شعب ادعوا أنه اختاره واصطفاه لنفسه .^{١٩}

نحن ننكر القصتين السابقتين ، ونعتبرهما مدسوستين في كتب التراث ، ربما عن طريق من تظاهر بالإسلام من اليهود عبدة " يهوه " ، أو الفرس عبدة " النار " ، أو

^{١٨} أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٧٦٦ .
^{١٩} انظر كتابنا : موسى في الأساطير الإسرائيلية .

الصابئة عبدة " الكواكب " ، أو ممن لا دين لهم سوى الحقد الأسود الناقم ، بهدف الإساءة إلى الإسلام وتدمير سمعة النبي وإظهاره في صورة همجي متبربر يخلو قلبه من السماحة والنبيل الذي يجب أن يتحلى به النبي .

وبالتأكيد يجد كتاب الغرب في أمثال هذه الحكايات مادة خصبة للتشنيع على النبي وإثارة النقمة عليه وعلى أتباعه ، فأتباع نبي همجي متبربر - كما تصور القصص المدسوسة والتي تناقلتها كتب التراث في غباء واضح - لا بد وأن يكونوا هم أيضا مثله همج برابرة ، وربما غدوا أسوأ منه .

وطبقا لهذا الفهم القائم على قراءتهم لأمثال ما سبق من سخافات وأضاليل مدسوسة، بنوا موقفهم المطالب بإبادة المسلمين بدعوى أنهم ملايين من المخلوقات الهمجية المتخلفة التي لا تصلح للحياة في عالم متحضر ، ويجب أن يعاملوا معاملة الكلاب والذئاب والأفاعي القذرة ، حسب تعبير أحد حاخامات اليهود .

ما هكذا كان النبي وما بهذا أمر .

والأدلة على صدق ما نقول - وما نقوله صادق إلى حد اليقين - وافر في سيرته وأحداث حياته التي فصلناها في فصول سابقة من هذا الكتاب . وفي كتابنا : سنوات مكة الذي سبق نشره منذ عدة سنين . ونكتفي بعدة أمثلة مختصرة ، فقط كي نذكر من غفل قلبه وضل فكره فتعلق بمنكر الأقاصيص المدسوسة يرويها وينشرها حقدا وضغينة وكرها .

ماذا فعل النبي بأسرى بدر ، وقد بلغ عددهم السبعين ، وأغلبهم من عتاة الذين أساءوا إليه . وتعالوا عليه ، وأعلنوا ازدراءهم ولم يخفوا تحقيرهم له ؟ أمر بحسن معاملتهم ، وعدم الغلظة حتى في مجرد الحديث إليهم ، لدرجة أن من آوهم في بيوتهم كانوا يقدمون لهم أفضل ما عندهم من طعام ، ويؤثرونهم على أنفسهم . طلب النبي الفدية من القادرين لمساعدة فقراء المسلمين ، وطلب ممن يستطيعون القراءة والكتابة أن يُعَلِّم كل منهم عشرة من المسلمين المتواجدين في المدينة ، وأطلق سراح من لا يقدر على هذه أو تلك .

درس في السماحة وعفو القادرين ، لا حقد ولا همجية ولا بربرية ولا رغبة في القتل والانتقام كما يدعي سفهاء الحاقدين ، سواء كانوا منافقين أو مستشرقين .

في غزوة " أحد " عندما انكسر جيش المسلمين لأسباب تم شرحها من قبل ، ومثلت قريش بجثث قتلى المسلمين ، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ،

لدرجة أن هند بنت عتبة أخرجت كبده ولاكتها انتقاما لمقتل أبيها وعمها وأخيها ، هل فعل النبي نفس الشيء ومثل بحث الأعداء ؟ لقد رفض عندما قال بعض أصحابه : والله لن نظفرنا بهم يوما من الدهر لنمتلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب^{٢٠} ، وقد نزل قوله تعالى : " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ." (النحل : ١٢٦-١٢٧) .

وبعد فتح مكة واستسلام أهلها له ، أصبحت هند دموية الشدقيين في متناول يده ، وكان بإمكانه - لو صح ما يحكي عنه من أقاصيص مقتراة - أن يفتك بها بضربة سيف ، أو أن يصلبها على جذع شجرة ، انتقاما لعمه ، لكنه لم يفعل . بدلا من ذلك عفا وأصلح ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .

تعاليم النبي لقادة رجاله في كافة ميادين القتال : لا تقتلوا امرأة أو طفلا أو شيخا ، أو عابدا في صومعة أو دير ، لا تقطعوا شجرا ، ولا تقتلوا زرعاً أو ثمرا ، لا تمسوا بحد السيف من الأعداء من قال : لا إله إلا الله !!

أمثل هذا النبي يأمر بتعذيب يهودي من أجل بعض المال ، أو يأمر بكي الأجساد بالمسامير المحماة وتقطيع الأيدي والأرجل وسمل العيون من أجل ناقة أو عدة نياق ؟ افتراء لا يتقبله إلا دعي أو غبي ، أو حاقد مريض النفس متخلف الفكر .

أما ما فعله بعض قادة المقاتلين في بعض الغزوات أو السرايا ، ويبدو بشعا لا رأفه فيه ولا رحمة ، فالنبي لا يسأل عنه . نكتفى بمثل واحد : ما فعله زيد بن حارثة . زيد هذا خرج في جيش إلى بنى فزارة ، فلقبهم بوادي القرى ، فأصاب فيهم وأسر أم قرفة وبناتها . كانت أم قرفة سيدة عجوزا في بيت شرف من قومها ، يضرب بها المثل في العزة والسودد ، كانت العرب تقول : لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت . بعد أن وقعت هذه السيدة العجوز الشريفة أسيرة ، لم يرحم زيد كبر سننها ، ولم يحسن معاملتها لمكانتها في قومها ، أو على الأقل لكونها امرأة . وقد نهى النبي - كما سبق وذكرنا - عن قتل النساء والشيوخ والأطفال . قتلها زيد قتلا عنيفا ، ربط برجليها حبلين ثم ربطهما إلى يعبرين حتى شقهما^{٢١} .

^{٢٠} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

^{٢١} الطبري ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

ما هكذا يكون القتل في الإسلام . وما نصت على هذه القتلة آية أو حتى مجرد كلمة من كلمات القرآن . هذا إلى جانب أن النبي نفسه قال : إذا قتلتم فأحسنوا القتلة . فهل أحسن زيد ؟ السؤال ليس في حاجة إلى إجابة .

أما كلمات النبي في هذا المجال فهي صريحة جلية - كما أوضحنا من قبل - تخرس السنة كل من وجهوا له مثل هذه الاتهامات القائمة على الجهل أو التجاهل المتعمد . يقول النبي وهو يأمر بلالا أن يسلم اللواء إلى عبد الرحمن بن عوف عند خروجه إلى دومة الجندل : خذ يا ابن عوف فاغزوا جميعا في سبيل الله ... لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم ..^{٢٢}

أبعد هذا القول يتشدد المرجفون بباطل الأكاذيب ؟ من له أذنان للسمع فليسمع .. ومن عنده ذرة من فكر منصف فليعلن رفضه لغناء الحقد الأسود ، سواء كان صليبيًا أو صهيونيًا ، ولا نقول مسيحيًا أو يهوديًا ، فنحن نؤمن بما جاء به موسى وما بشر به المسيح . وهذا هو الفرق بين فكرنا وفكرهم ، وعقيدتنا وعقيدتهم ، وإيماننا وإيمانهم .
الصلح مع يهود فدك:

نعود إلى خيبر ومصالحة النبي لأهلها . طلبوا منه - كما سبق وقلنا - أن يعاملهم في الأموال على النصف فوافق ، علي أن يخرجهم من خيبر متى شاء . وعلى نفس الأساس تم الصلح دون قتال مع يهود فدك ، وهي واحة صغيرة غنية تقع في الشمال الشرقي لخيبر . وهذا معناه أن فدك قد صارت خالصة للنبي ، ولا يحق للمقاتلين الحصول على شيء مما فيها ، أرضا وثمرًا ومالا ، لأنه لم يكن هناك قتال .
الاتجاه إلى وادي القرى:

اتجه النبي بجيشه إلى وادي القرى ، ويقع شمال خيبر ، وسكانه هم أيضا يهود . دعاهم النبي إلى الإسلام فرفضوا ، دعاهم إلى الصلح فأبوا إلا القتال . أحكم النبي عليهم الحصار . خرج منهم رجال للمبارزة فقتلوا . لم يكن أمامهم بعد ذلك سوى الاستسلام . قسمت الغنائم . فقد تم الاستسلام قهرا . وتم الصلح بنفس شروط خيبر .
يهود تيماء :

في تيماء كانت آخر معاقل يهود في الشمال الشرقي من الحجاز . وقد أرسلوا إلى النبي يطلبون الصلح على أن يدفعوا الجزية التي قررها الإسلام على أهل الذمة مقابل حمايتهم والدفاع عنهم إذا ما هددهم خطر .

^{٢٢} ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٣٠٩ .

بذلك خضعت كل يهودية الحجاز لسلطان المسلمين ، انكسرت شوكتهم وتلاشى نفوذهم ، بعد أن أصبحوا يعملون في أرض لا يملكونها ، مهددين بالطرد منها فى أية لحظة ، فقد كان هذا شرطا من شروط الصلح والكف عن القتال .

ولقد حدث ذلك بالفعل في عهد عمر بن الخطاب ، إذ بلغه أن النبي قال فى مرضه الذى قُبِضَ فيه : لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان . ففحص عمر فى ذلك حتى بلغه الثبُت: فأرسل إلى يهود : أن الله قد أذن فى إجلائكم ^{٢٣} .

هكذا تم التخلص من اليهود ، وأصبح الشمال آمنا من خطرهم ، كما أصبح - من قبل - الجنوب بعد صلح الحديبية ، وكما سيصبح فيما بعد أكثر أمنا وأمانا وسلاما بعد الفتح الأكبر ، فتح مكة المكرمة .

يعلق مونتجمرى وت على النهاية المأساوية لليهود بقوله : لقد تعارضت دعوة محمد مع ما يعتقده اليهود من أنهم شعب الله المختار ولا يمكن أن يظهر نبي إلا من بينهم . وطبقا لهذه النظرة كان على يهود المدينة أن يرفضوا محمدا .. ربما لم يكن من الضروري أن يسخروا من الإسلام كما فعلوا ، لكن بما أنهم كانوا قد قرروا رفض محمد ، كان لابد وأن يبرروا هذا الرفض لأنفسهم على الأقل . ولقد مثل إنكارهم تهديدا اجتماعيا وسياسيا لا يمكن تجاهله . وهكذا بدأت سلسلة الأحداث الحزينة .

ولا يمكن القول إن محمدا كان لا يضع فى حساباته مقدار ثرائهم . إن فى قول كهذا عدم تقدير خطير لمقدار ذكائه . لكن أن نتخذ من هذا الأمر سببا وحيدا لغزو اليهود ودرهم ، أى أن نفسر الدافع على أنه مادي محض ، فهذا معناه أننا نقع فى خطأ بالغ . لقد كانت ثروة اليهود بالتأكيد ذات فائدة عظيمة بالنسبة لمحمد ، إذ دعمت وضعه المادي ، لكن السبب الجوهرى للصراع كان سببا عقائديا على كلا الجانبين . ^{٢٤}

عودة مهاجرى الحبشة :

أرسل النبي عمرو بن أمية الضمري إلى الحبشة كي يعود بمن هاجر من المسلمين إلى أرض الحبشة وأقام بها كل تلك السنين . عادوا فى سفينتين - كما يذكر ابن هشام - يوم فتح خيبر ، وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب . فرح النبي بمقدم جعفر أيما فرح ، احتضنه وقبله ، معبرا عما يعتل فى داخله من مشاعر بقوله : ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر . ^{٢٥}

^{٢٣} الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

^{٢٤} Montgomery Watt, Muhammad at Medina, p. 220.

^{٢٥} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٤١٤ .

زواج النبي من أم حبيبة :

من بين من عادوا كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان ، كانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش بن رثاب الأسدي ، ومعهما ابنته حبيبة . لكن عبيد الله في الحبشة اعتنق النصرانية وفارق الإسلام ، ومات هناك على غير الدين الذي هاجر من أجله .

وبعد عودة أم حبيبة إلى المدينة تزوجها النبي . ونعتقد أن هذا الزواج كان شأنًا من شئون السياسة ، لا من شئون الرغبة والجنس ، فلم يكن النبي في حاجة إلى مزيد من النساء . كان هذا الزواج زباطا داعما لصلته بمكة وعلى رأسها أبي سفيان .

وفي هذا العام ، وهو العام السابع الهجري ، اتخذ النبي لأول مرة منبرا كان يخطب الناس عليه ، كان مكونا من درجتين ومقعدة أي مستراح . ومنذ ذلك التاريخ أصبح المنبر معلما مميزا لكل مساجد المسلمين في كل أرجاء الدنيا التي وصلها الإسلام وانتشر بين أهلها .

ختاما لما سبق وفصلنا نقول إن سقوط خيبر ، واستسلام بقية المستعمرات اليهودية، مثل واقعا حيا وبصورة قاطعة لنهاية الصراع بين المسلمين واليهود في حياة النبي . لقد عارضوا وتآمروا وقتلوا بقوة ، وتم سحقهم بقوة أشد وأكبر. لم يكن صراع ممتلكات ومال وسلاح . كان صراع معتقد ضد معتقد ، ودين ضد دين ، ومستقبل إسلامي ضد ماض يهودي ، وكان المسلمون ، عقائديا ، هم الأقوى . كانت خيبر بحق ضربة قاصمة ، ويمكن القول - مع شيء من المبالغة - إنها كانت مثل " بدر " هي أيضا فرقانا .

الفصل السابع
القُوَّة والانتِشار

الفصل السابع القوة والانتشار

(١)

عمرة القضاء

المعنى :

ما أن دخل هلال ذى القعدة من العام السابع الهجرى ، حتى أمر النبى أصحابه أن يستعدوا للذهاب إلى مكة كي يؤدوا العمرة ويطوفوا حول البيت العتيق ، وقد صدوا ومنعوا من الاقتراب منه فى نفس التوقيت من العام السابق ، أى العام السادس الهجرى .

ويقال إنها سميت عمرة القضاء لأنها - كما يقول ابن هشام - مكان عمرته التى صدوه عنها^١ . ويتفق مع هذا رأى ابن سعد والطبرى ، يأخذ به أغلب كتاب السيرة ، قدامى كانوا أو محدثين . لكن شيخنا الباقورى لا يأخذ بهذا رأى ، ويقدم تفسيراً فريداً لا يمكن للمنطق أن يرفضه . يقول الشيخ : وإنما سميت هذه العمرة عمرة القضاء ، لأن رسول الله قاضى عليها قریشاً ، وليس لأنه قضى بها العمرة التى صد فيها عن البيت ، فإن تلك العمرة لم تكن قد فسدت بذلك الصد ، بل كانت عمرة تامة متقبلة .. وهى معدودة فى عمر رسول الله الأربع وهى : عمرة الحديبية ، وعمرة القضاء ، وعمرة الجعرانة ، والعمرة التى قرنهما - صلوات الله عليه - مع حجه فى حجة الوداع^٢ .

ونجد بين كتاب السيرة من يطلق على هذه العمرة : عمرة القصاص ، ذلك لأن القرشيين صدوا النبى والذين معه فى ذى القعدة (الشهر الحرام) من سنة ست ، فاقتصر منهم ودخل مكة فى ذى القعدة فى الشهر الحرام الذى صدوه فيه من سنة سبع . ويستدل على مصداقيه هذا الوصف - كما يقول ابن عباس - بما أنزل الله فى تلك العمرة من قرآن : " الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ " ^٣ . (البقرة : ١٩٤) .

الخروج :

عندما دخل هلال ذى الحجة أمر النبى أصحابه بالاستعداد للخروج على ألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية . بالفعل خرجوا جميعاً ، ما تخلف منهم أحد - باستثناء من مات

^١ ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ .

^٢ الباقورى ، ص ١٥٩ .

^٣ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ .

أو استشهد - فهذا هو اليوم المشهود الذي كانوا ينتظرونه جميعا مهاجرين وأنصارا .. المهاجرون في شوق إلى البيت الحرام وإلى جبال مكة ووديانها وشعابها ومن فيها من الأهل والأحبة ورفاق الثرب وأصدقاء الطريق في رحلات التجارة ، وسمار الليل في حفلات السمر والسهر الجاهلية ، ما قبل الإسلام ، وما كان عهدا ببعيد.. في الفؤاد نكروى وفي القلب حنين ، وإن كانت المواقف قد تغيرت ، والقيم قد اختلفت وما عاد الدين هو الدين .

والأنصار أيضا كان يشدهم الحنين إلى الطواف حول البيت ، وما فعلوا ذلك طوال سبع سنين ، رغم أن قريشا ما كانت لتمنعهم أو لتقف في طريقهم لو حاولوا الحج أو العمرة ، بل ربما كانت سترحب بهم وتشجعهم كي تحدث فرقة في صفوف المسلمين. ولقد ذكرنا محاولتهم مع عبد الله بن أبي أيام صلح الحديبية عندما طلبوا منه أن يدخل مكة ويطوف بالبيت ، لكنه رفض . ما كان ليدخلها دون محمد ، وما كان ليطوف ببيتها قبل النبي .

الحنين ، إذن ، كان له وهج ، والتلبية كانت في سرعة وابتهاج وفرح . كانوا في الحديبية ألفا وأربعمائة على وجه التقريب ، وزاد العدد في عمرة القضاء ليصل إلى ألفين. لقد انضم إلى أصحاب بيعة الرضوان ما يقرب من ستمائة من المسلمين الذين لم يشهدوا الحديبية ، شدهم الحب ، ودفعهم الحنين ، وشدح همهم عمق العقيدة .

استخلف النبي على المدينة أبا رهم الغفاري . ساق ستين بذنة هديا وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي . لم ينس السلاح ، دروعا وسيوفاً ورماحا ، من باب الحذر ، فهو لا يأمن غدر قريش ، وقريش في غدرها لا تكثر بالعهود أو المحرمات ، وتضرب عرض الحائط بالشهر الحرام . استعمل على السلاح بشير بن سعد ، وقدم الخيل - مائة فرس - أمامه وعليها محمد بن مسلمة . خرج المسلمون في قوة ترهب عدو الله وعدوهم ، رغم أنه ما جال بخاطر النبي أن يخوض معركة ، أو أن يبدأ بقتال ، فقد خرج معتمرا مبتهلا ، متعبدا .

بلغ الأمر قريشا . محمد قادم بجيش مدجج بالسلاح . أرسلوا مكرز بن حفص بن الأخيف يستطلع الأمر. لقي النبي في وادي مر الظهران على مقربة من مكة . قال مكرز للنبي : ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر. تدخل بالسلاح على قومك في الحرم وقد

شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافرين ، السيوف فى القرب ، قال النبى : إني لا أدخل عليهم بسلاح .^٤

خلف النبى على السلاح أوس بن خولى الأنصارى ، فى مائة رجل وذلك فى بطن يأجج ، على بعد ثمانية أميال من مكة . تقدم ، ومن معه ، نحو مكة من جهة الشمال ، دخل من الثنية التى تطلعه على الحجون ، وقد سبقه ومن معه صوت تكبيرة اهتزت لها الجبال وزدت صداها الوديان ، وارتعدت من خشيتها قلوب قريش : لبيك اللهم لبيك .. لا إله إلا الله وحده .. نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده . قالها النبى لابن رواحة . وقالها ابن رواحة للناس .. انطلقت من الحناجر مجلجلة مدوية ، فى موكب جليل مهيب .

كانوا يتوقعون جموع قريش تملأ الوادي فى لحظة لقاء نادر طال انتظاره سبع سنين ، خابت توقعاتهم . ما وجدوا من الأهل ، أو الأصدقاء ، أو الأحباب ، أو حتى رفاق الطريق فى سابق الأيام ، أحدا . هجر الوادي العتيق أهله ، أصبح مجرد خلاء ، تسلقوا رؤوس الجبال ، ومن فوق القمم العالية كانوا ينظرون فى دهش ممزوج بالحيرة والغضب والإعجاب .. مشاعر متضاربة ، وهواجس مقلقة ، وعجز عن إدراك ما يخبئه الغيب فى جوف أيام قادمة .

قلة قليلة من كبار قريش دفعها الفضول والحذر إلى دار الندوة ، ينظرون ويرقبون ويترصدون ، لابد أن يكون محمد ومن معه تحت أعينهم كي لا يأخذوا على غرة ، وقد يفلت الزمام وتضيع من بين أيدهم مكة وهم غافلون عاجزون . كانت هواجسهم أشد فتكاً بهم ممن تخيلوا أنهم أعداءهم .

رغم ذلك همسوا فى عجرفة جاهلية : هذا محمد وأصحابه ، قدموا وقد وهنتهم حمى يثرب . وكأن همسهم قد وصل سمع النبى ، إذ قال لمن معه : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة . وما أن دخل المسجد حتى اضطبع بردائه ، أى أدخل بعض بردائه تحت إبطه الأيمن وغطى به الأيسر ، مظهرًا منكبه وذراعه الأيمن دليل قوة . ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهرول فى الأشواط الثلاثة الأولى ما بين الركن الأسود والركن اليماني ، ومشى فى الأربعة أشواط التالية . ويقول ابن عباس : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما صنعها لهذا الحي

^٤ أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٨٢٢ .

من قريش للذى بلغه عنهم ، حتى إذا حسج حجة الوداع فلزمها فمضت السنة بها .^٥

بعد الطواف بدأ النبي سعيه علي ناقته القصواء ، بين الصفا والمروة ، سبعة أشواط. كان يهرول في جزء من كل شوط منها ، تذكرة لهرولة هاجر أم اسماعيل وهي تبحث عن الماء . وعند المروة ، بعد أن فرغ السعي ، أمر النبي بالنحر. نحر هديه ونحر الناس ، ومن لم يجد ناقه أو بعيرا رخص له أن يذبح بقرة . ثم حلق النبي رأسه ، وحلق الناس ، وبذلك تمت مراسيم العمرة في أول يوم دخلوا فيه مكة .

أرسل النبي إلى محمد بن مسلمة وبشير بن سعد ، ومن قاموا معهما على حراسة الخيل والسلاح ، كي يقدموا جميعا لأداء العمرة ، وقد أرسل من يحل محلهم .

لكن : رغم السلم والسلام والهدوء الذى ساد أجواء مكة ، ورغم عدم إقدام قريش على ما يعكر الصفو أو يثير القلق فى قلوب أصحاب النبى ، إلا أن المعتسرين - وخصوصا المهاجرين من أهل مكة - اعتراهم الاحساس بالوحشة والغربة ، فما ذهبوا إلى بيت ، وما التقوا من الأحبة بأحد . حتى النبى نفسه ، ما فتح له بيت ينزل فيه رغم وجود بنى هاشم وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب .. عاش فى خيمة ضربت له بين الخيام . لقد هجر مكة أهلها إلى قمم الجبال والتلال . لن يعودوا إلا بعد أن يرحل محمد بعد ثلاثة أيام من مقدمة ، حسب ما نص عليه الاتفاق فى صلح الحديبية .

بلال يؤذن للصلاة :

لما كان الغد ارتفع صوت بلال بالأذان لصلاة الظهر من فوق ظهر الكعبة : الله أكبر .. الله أكبر .. دوت الكلمات وانتشرت فى صفاء مذهب ونورانية أخادة ، اهتزت لها القلوب ، وخشعت لها النفوس وتسامت الأرواح . اشربأت أعناق أهل مكة ، أصاخوا السمع فى ذهول . ما هذا الذى يحدث فى مكة وفوق ظهر الكعبة ؟!!!

أليس هذا هو العبد الحبشى الذى كان يجلد بالسياط ويلقى فوق الرمال الحارقة مكبلا تحت لهب الشمس ؟ ما باله هكذا وقد أصبح وكأنه هو ليس هو؟! لقد بدا لهم قويا شامخا ، ساميا متساميا ، يذوب ذوبا فيما يقول ، وكأن سمرته الداكنة قد تحولت بقدرة خارقة إلي شعاع من نور .

ويدعي الدكتور هيكل أن " محمدا دخل إلى الكعبة وبقي بها حتى صلاة الظهر . ولقد كانت الأصنام ما تزال تغمرها " .^٦ ويتفق معه فى هذا الإدعاء الدكتور شوقي ضيف

^٥ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٤٢٥ .

عندما يقول : وفى الغد دخل رسول الله الكعبة وظل بها ، وفيها ظل يفكر فى إبراهيم وإسماعيل .^٦

ولا يذكر لنا الدكتور هيكل ، أو الدكتور ضيف ، عن أى مصدر أخذ أو عن أى مرجع نقل . وهذا هو منهجهما فى كتابيهما : النقل - فى أغلب الأحوال - دون الإشارة إلى المصدر . ولعلهما اعتقدا أن ما جاء فى كتب التراث ما هو إلا ملكية عامة ، لا خصوصية فيها ينقل منها من شاء ، متى شاء ، دون اكتراث بذكر أسماء أصحابها . وهكذا يبدو الناقل وكأنه هو المؤلف ، وهو المبدع وهو صاحب الفكر .

ولقد أدى اتباع هذا المنهج إلى شيوع السرقات الأدبية ، خصوصا بين ضعاف النفوس من أساتذة الجامعات ، لدرجة أن تمت سرقة كتب بأكملها دون حياء . وكان كل ما فعله أستاذ جامعي - على سبيل المثال - هو أن حذف اسم المؤلف ووضع اسمه مكانه ، ثم أعاد طبع الكتاب ، لم يغير فيه كلمة أو حرفا ولو من باب الحياء . وعلى المتضرر إن وجد ، أن يلجأ إلى القضاء . والكل يعلم متأهات القضاء وتفنن التلاعب بالقوانين ، وقد تستمر القضية بين الأخذ والرد ما يقرب من الخمسين عاما ربما نقل قليلا وربما تزيد ، وقد ينسأها الورثة بعد رحيل السارق ومن قبله المسروق .

نعود إلى النبي ، وقد جلس فى الكعبة - وسط الأصنام - حتى صلاة الظهر ، كما يدعي الكاتبان . لم يخبرنا الدكتور هيكل ماذا كان محمد يفعل فى الكعبة وهو جالس بين الأصنام . يكتفى بالقول إنه دخل وبقي بها حتى صلاة الظهر ، ولا يزيد . هذا هو كل شئ . أما الدكتور ضيف فيدعي أن محمدا ، فى جلسته تلك ، كان يفكر فى إبراهيم وإسماعيل .

هذا كلام يرفضه أى صاحب فكر ، مهما كانت بساطته ، ولا يرضى به عاقل ممن آمن بهذا الدين . ألم يحل التفكير لمحمد فى إبراهيم وإسماعيل إلا وهو محاط بالأصنام من كل جانب ؟ منطق معلول لا تستقيم معه الأمور .

ويكرر الشيخ أبو زهرة ما ذكره هيكل وضيف ، لكنه من باب الأمانة يذكر أنه قد نقل عن الواقدي : جاء فى الواقدي " لما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم نسكه ، دخل البيت فلم يزل فيه ، حتى أذن بلال الظهر فوق الكعبة الشريفة .^٧ ولا يذكر لنا

^٦ هيكل ، حياة محمد ، ص ٣٢١ .

^٧ شوقي ضيف ، محمد ، ص ٣٢٣ .

^٨ أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ٨٢٤ .

الواقدي سبب جلوس محمد بين الأصنام . ولا يعلق أبو زهرة على كلام الواقدي ، ربما لأنه لا يريد مناقشة المحذور ، مما قد يعرضه لما لا تحمد عقباه .

نستبعد تماما أن يكون محمد قد جلس من الصباح حتى صلاة الظهر داخل الكعبة محاطا بأصنام قريش ، راضيا بوضعه فيما بينها ، وكأنه يتأملها أو يحاورها ، أو يحاول استكشاف حقيقة ما هي . هذا سخف لا نميل إليه ، ولا نأخذ به . لقد ابتعد محمد عن أصنام مكة منذ صباه وصدر شبابه حتى بعثه الله نبيا . لم يسجد لصنم . لم يتقرب إلى وثن . لم يقدم لآلهة الحجر قربانا ، أفبعد النبوة يجلس بإرادته الحرة وحيدا في قلب الكعبة ما بين الأصنام ؟

مجرد تصوير الموقف وتصديقه إثم التفكير فيه .

النبي يتزوج ميمونة :

في عمرته تلك تزوج النبي ميمونه بنت الحارث ، وهي أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب وخالة خالد بن الوليد . كانت ميمونة (واسمها برة غيره النبي إلى ميمونة) في السادسة والعشرين من عمرها ، تزوجت مرتين : مسعود بن عمرو الثقفي الذي فارقها ، ثم أبو رهم بن عبد العزى الذي توفي عنها .

عرضها العباس على النبي . ويقال " إن العباس قد أسلم لحظة لقائه بالنبي في هذه العمرة ، بالرغم من أنه أكد لمحمد أنه قد أسلم سرا منذ زمن طويل . وقد وافق محمد على هذا الزواج لأنه كان يحب العباس ، ويحب الهاشميين ، ويحب تلك العودة إلى مكة⁹ . وعن " إشاعة " أن العباس قد أسلم منذ فترة طويلة . يقول مونتجمري وت : إنها مجرد محاولة من بعض المؤرخين الذين كانوا يكتبون في فترة الخلافة العباسية لإعلاء شأن الجد الأكبر للأسرة العباسية والتعظيم من قدره¹⁰ .

وافق النبي علي الزواج من ميمونة تأليفا للقلوب ، وبسطا للمودة ، وقد عرض على أهل مكة - عندما جاءه رسولا يطلب منهم الرحيل - أن يحضروا وليمة عرسه ، لكنهم في جفاء رفضوا .

جاءه - كما يحكي ابن إسحق - حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش في اليوم الثالث ، وكانت قريش قد وكلته بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، فقالوا

⁹ Betty Kelen, p. 198.

¹⁰ Montgomery Watt, Muhammad at Medina, p. 200.

له : إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا . قال النبي : وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه . قالوا : لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا .^{١١}
أمر النبي المسلمين بالرحيل ، لم يجادل ، لم يعترض ، ولم يلجأ إلي قوة ما أتى به من خيل وسلاح . كان يراعي العهد ، ويفي بالوعد ، ويحترم المواثيق ، ما عُرف يوما بالخيانة ، وما ذاع عنه حادث غدر .

قبل هبوط الظلام ، كان النبي والذين معه يرحلون ، يغادرون مكة في هدوء وسكينة ونظام في السير ما ألقته قریش من قبل . خلف النبي مولاہ أبا رافع على ميمونة . وقد أتاه بها أبو رافع بسرِّف حيث بنى بها وأصبحت من أمهات المسلمين . ولقد طلبت عند موتها في العام الحادي والخمسين من الهجرة أن تدفن في نفس المكان الذي بنى النبي بها فيه ، وتحقق لها ما أوصت به .

عمارة بنت حمزة :

ما أن غادر النبي مكة حتى تبعته عمارة بنت أسد الله وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، تطلب الصحبة والهجرة ، فما عاد لها بمكة مكان تطمئن فيه نفسها ، وتهجع في هدوء روحها ، ما عاد حولها من أحباب . أخذها على إلى فاطمة حتى ينظر النبي في أمرها . وفي حضرة النبي تتنازع ثلاث رجال ، كل يدعي أنه هو أولى برعايتها والحفاظ عليها وصونها ، والثلاثة من الكبار ذوى المكانة والشأن : زيد بن حارثة الذى تربى في بيت النبوة وأخي النبي بينه وبين حمزة فأصبح بمنزلة العم لها ، وعلى بن أبى طالب وهو ابن عمها وزوج فاطمة ابنة النبي وبذلك فهي من أقرب الناس إليه وهو أولى بها ، أما الثالث فهو جعفر بن أبى طالب وكان زوجا لخالتها أسماء بنت عميس .

قضى بها النبي لجعفر ، لكونه زوج خالتها ولا تجوز له ، فالمرأة لا تنكح على خالتها . هذا إلى جانب أن حمزة وجعفر كانا أخوين من الرضاعة . وقد زوجها النبي فيما بعد سلمة بن أبى سلمة ، رغم أن عليا كان قد اقترح أن يتزوجها النبي ، لكن النبي رفض قائلا : لا تحل لى إذ هى ابنة أخي حمزة من الرضاعة .^{١٢}

^{١١} ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٤٢٦ .

^{١٢} شوقي ضيف ، ص ٣٢٤ .

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص :

بعد عمرة القضاء ودخول العام الثامن الهجرى ، توفيت زينب ابنة النبى ، وأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، ونرى أن نعرض بقليل من التفصيل حكاية إسلامهما .

كانت عمرة القضاء ، بالنسبة للمسلمين ، نصرا معنويا فذا ، ما أشهروا فيه سيفاً ، وما أطلقوا سهماً ، وما فكروا أبداً فى إراقة نقطة دم ، فمكة هى الوطن ، وقريش هم الأهل والأحبة ، رغم كل ما أظهره القرشيون من جفاء . كان سلاحهم الوحيد : الله أكبر الله أكبر .. لبيك اللهم لبيك .. يا رب هذا البيت أتينا طائعين .

ما كان باستطاعة قريش أن تقاوم هذا النداء ، أو أن تقاوم أصحابه وقد أتوا فى الشهر الحرام محرمين . اكتفوا بتأمل الموكب المهيب من فوق رؤوس الجبال والثلل ، حتى خرج النبى ومن معه من مكة بعد ثلاثة أيام .

أحس القرشيون فى أعماقهم أنه ما عاد باستطاعتهم الوقوف فى وجه هذا الطوفان العقائدى الجارف ، وهذا الإيمان بالإله الواحد الذى لا يعادله إيمان ، وبدا لبعضهم - وهم مكلمون - أنه قد مضى زمن الأصنام والأوثان .

ولقد أوضحت هذه العمرة للجميع - كما تقول بيتى كيلين Betty Kelen - أن ديانة محمد ديانة عربية حتى الأعماق ، مرتبطة أشد الارتباط بالبيت الحرام . لم يعودوا فى حاجة إلى التفكير فى أمر الديانات الغربية : يهودية كانت أو مسيحية أو مجوسية . زد على ذلك أنه قد طرأ فى تفكير البعض تغير شديد الغرابة : إن باستطاعة العرب الآن أن يسموا أنفسهم : أهل كتاب ^{١٣} .

مالئت قلوب بعض أهل مكة إلى الإسلام مختارين : ذهبوا إلى النبى فى المدينة بإرادتهم الخالصة . كان من بين الذين أسلموا الوليد بن الوليد ، الشقيق الأصغر لخالد بن الوليد . سأله النبى عن خالد ، وهو يعرف جيداً قدر خالد كفارس من خيرة فرسان مخزوم . كان يود أن يكسبه سيفاً من سيوف الإسلام . اكتفى شقيق خالد بالقول : يأتي الله به . لكنه كان قد قرأ فى نفسه قرار : لن يترك خالداً حتى يهتدي بنور الله إلى الإسلام . أرسل له رسالة يعلمه أن النبى يسأل عنه ، هذا معناه أن لخالد عند النبى مكانة ، وأنه لو أسلم فلن تقل مكانته بين المسلمين عن مكانته بين المشركين ، بل سيزيدها الإيمان شموخاً وقوة ومنعة .

^{١٣} Betty Kelen, p. 200.

لم يكن الوليد - الأخ الأصغر لخالد - هو فقط الذي أسلم ، لقد أسلمت أسماء ، أم خالد ، هي أيضا عن افتتاع بصدق الرسالة ، ولقد أصبحت خالة خالد نفسها - ميمونة بنت الحارث - زوجا للنبي .

هذا من جانب ، وهو الجانب العائلي . من جانب آخر ، وهو الجانب القتالي ، اشترك خالد في معركة " أحد " ضد محمد ، ولم يكن النصر حاسما ، واشترك في معركة الخندق ، ولم يكن هناك نصر . وقد اعتراه وهو عائد ، منكس الأعلام مع قريش في خيبتها ، أن محمدا سوف ينتصر في النهاية . وعندما نجح النبي في تجنبيه ، وهو في الطريق إلى الحديبية وعجز خالد عن النيل منه ، صاح في قنوط - كما يروى لينجز Lings - وكأنه قد استسلم : هذا الرجل معصوم ولا يمكن هزيمته .¹⁴ بعدها وصلت الأخبار عن نصر خيبر المذهل ، والذي ما توقعه أحد من العرب . عندها تيقن خالد من صدق ما قال : هذا الرجل لا يمكن هزيمته !!

ثم يتدخل العامل الروحي الذي لا سيطرة للجسد أو للمادة عليه : يرى خالد أنه في أرض قاحلة تحيط بها الأسوار إحاطة كاملة كما السوار ، وكأنه لا مخرج له ولا منفذ ، وأنه لن يلقى في هذا التيه القحط سوى الاضمحلال والبوار ، ثم فجأة يبدو له وكأنه قد انبعثت من أحد الأسوار طاقة نور نفذ منها فإذا هو في أرض خضراء واسعة شاسعة مترامية الأطراف .

احس خالد أن ما رآه ما هو إلا رؤيا ، استطاع وهو يتأمل صورها أن يدرك جوهر معناها : إن الرجل لنبي . وما كاد يمضي على عمرة القضاء أكثر من شهرين إلا وكان خالد قد اتخذ قراره : أن يذهب إلى النبي ويعلم إسلامه بين يديه .

وإذا كان بعض كتاب السيرة يرى أن اعتناق خالد للإسلام لا يخلو من منفعة شخصية ، وذلك باختياره القوة الصاعدة الواعدة ، وهجره قوة جاهلية غدت متدهورة متهاككة ، فإن هذا لا يقلل من قدر خالد شيئا ، ولا مقدار ذرة !! لقد أصبح خالد ، بعد إسلامه ، سيفاً من أحد وأمضى سيوف الإسلام ، ومكانته في التاريخ الإسلامي لا ينكرها إلا مكابر .

أما عن عمرو بن العاص واعتناقه الإسلام فهناك حكاية ترويه كتب التراث ، نذكرها رغم عدم تصديقنا لها ، ثم نعلق عليها .

¹⁴ Lings, p. 283.

يقول عمرو ، حسب ما جاء فى تاريخ الطبرى ^{١٥} ، لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق ، جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأى ، ويسمعون منى ، فقلت لهم : تعلمون والله أنى لأرى أمر محمد يعلو علوا منكرا .

اقترح عليهم أن يرحلوا إلى أرض النجاشى : فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى ، فلأن نكون تحت يديه أحب إلينا أن نكون تحت يدى محمد ، وأن يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا ، فلا يأتينا منهم إلا خير .

جمعوا له الهدايا . قدموا عليه . وبدوا عنده عمرو بن أمية الضمرى ، وقد بعثه النبى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه . قال عمرو لأصحابه : هذا عمرو بن أمية الضمرى ، لو قد دخلت على النجاشى وسألته إياه ، فأعطانيه فضربت عنقه !! فإذا فعلت ذلك رأيت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد .

دخل على النجاشى . سجد له . قدم له الهدايا فأعجبته . عندها انتهز عزر الفرصة ، كما هى عادته ، قال : أيها الملك ، إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطينيهِ لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وأخيرنا .

تحكى الرواية أن النجاشى غضب غضبا شديدا ، ثم لطم عمرو لكمة شديدة يقال إنها كسرت أنفه ، فجعل يتلقى الدم بثيابه ، وأصابه من الذل ما لو انشقت به الأرض لدخل فيها فرقا منه . قال الدليل - حسب تعبيره هو لا تعبيرا نحن - والله أيها الملك ، لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتي موسى لتقتله ! قال عمرو : أيها الملك ، أكذلك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو ! أظنني واتبعه فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قال عمرو : فتبايعني له على الإسلام . قال : نعم ^{١٦} .

ويضيف عمرو : فبسطت يدي ، فبايعني على الإسلام ، ثم دعا بطست فغسل عني الدم ، وكساني ثيابا ، وكانت ثيابي قد امتلأت بالدم فألقيتها ^{١٧} .

قرر العودة . عندما خرج من السفينة اتباع بعيرا . شق طريقه يريد المدينة المنورة . عند " الظهران " التقى بخالد بن الوليد وعثمان بن أبى طلحة . سألهما : إلسى أين؟ قال خالد بأسلوب واثق : والله لقد استقام المنسم ، وإن الرجل لنبى . اذهب والله أسلم ، فحتى متى !!

^{١٥} مع شئ من التصرف والاختصار .

^{١٦} الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٤٦

^{١٧} أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ٨٤٣

أعلن عمرو أنه هو أيضا قد اختار الإسلام ، رغم أننا نعتقد أنه لم يكن أمامه خيار ، وأن حكاية النجاشي وكسره أنف عمرو والدن الذي سال ، وإصداره الأمر إلى عمرو أن يخضع ويخضع ويتبع محمدا لأنه هو النبي الذي يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى .. هذه حكاية مختلفة أملتتها قريحة بعض الأتقياء .. وزودها خيالهم " الورع " بالهدايا والدماء ، فليس هناك ما يثبت تاريخيا - كما أنه لم يرد في آية واحدة من آيات القرآن - أن النجاشي قد اعتنق الإسلام وأعلنه هكذا على رؤوس الأشهاد . ولو قد فعل لهجرت الحبشة كل مسيحياتها واعتنقت الإسلام . هذا لو قد حدث ، لكنه لم يحدث ، وما زالت الحبشة على مسيحياتها حتى اليوم . والحكاية - في كتب التراث - لا تزيد عن كونها مجرد تخيل وابتداع .

لم يكن عمرو بن العاص في حاجة إلى كسر أنفه وإسالة دمه كي يؤمن برسالة محمد ، كما أنه لم يكن مرغما - أي لم يرغمه أحد - لكنه بإرادته الخالصة اختار ، ولم يكن اختياره في تلك اللحظة عن إيمان مطلق ، بل نتيجة لحسابات الداهية التاجر الذي ينظر بعميق التفكير إلى كفتي الميزان .

نجم قريش يخبو ، ينزلق من الأعلى إلى أسفل التل ، حيث البوار والاندثار .
نجم محمد يعلو ويتألق وتزحف إليه الكثرة كي تهتدي بنوره ، وهو سائر في مداره بقوة واقتدار .

شمس قريش تخبو وتغرب . وليس في منهج عمرو ما يلزمه بالعيش تحت أشعة خابية لشمس غاربة . إنه يريد شمسا مشرقة تنمو بوجهها مصالحة ، وتتألق في سطعائها أطماعه ومواهبه . بأسلوب مباشر بسيط : إنه يسعى وراء مكاسبه ومصالحه .

لن يتعلق بسفن قريش ، فقد استقرأ من سير الأحداث أنها لا محالة غارقة .
هذا هو عمرو بن العاص ، وهذه هي تركيبته النفسية وتطلعاته الذاتية الدنيوية ، وهو غرس الجاهلية ، الذي كان لابد وأن يشذبه الإسلام ويطهره ، فعمرو ما قبل الإسلام ليس هو هو عمرو ما بعد الإسلام . هذا أمر مستحيل ، لأنه ضد طبيعة الأشياء .

ندرك أن ما ذكرناه ، في كلامنا السابق ، عن عمرو بن العاص ، قد يغضب بعض " الأدعياء " من المتعالمين فيرتفع صراخهم كي يثير بعض ، وربما كثرة من بسطاء " الأتقياء " : هذا كلام لا يقال ، ويجب ألا يقال ، عن صحابي " جليل " .. هذه زندقة .. اقفوا به في أنون " التكفير " .. خارج هو عن إجماع " العمياء " .. معذرة نقصد من يطلقون على أنفسهم صفة " العلماء " وهم لا يزيدون عن كونهم مجموعة من الأدعياء ،

الخاوية عقولهم من العلم ، وقلوبهم من صادق الإيمان . يكسبون الآلاف ، وربما مئات الآلاف من " حفلات " تقام باسم الدين ، ويظهرون براعتهم - كما الحواة- فى ندوات علنية على شاشات التلفاز ، يفسرون الأحلام ، ويدعون أنهم يتحدثون بسلطة القرآن وصحيح الحديث ، وكان هذا هو ما آلت إليه الدعوة وما أصبح عليه أمر الدين . ولا عجب أن تدهورت أحوال المسلمين فأصبحوا أكثر دول العالم تخلفا وأكثرها جهلا ، ينظر إليهم أصحاب الديانات الأخرى - وعلى رأسهم اليهود - على أنهم مجرد حشرات قذرة ، ديدان وأفاعي وثعابين . العيب ليس فى الدين فهو دين الحق والقوة والعدل ، لكن العيب فىمن تاجروا بهذا الدين .

هل أغضبنا " الأدعياء العلماء " ؟ هل أثرتنا حفيظة بعض بسطاء " الأتقياء " بكلامنا عن الدافع لإسلام عمرو بن العاص وتعليقنا عليه ؟ ربما .

لهذا نرى أن نختم هذه النقطة بما يؤيد رأينا من صفحات كتبها شيخ من شيوخ العلم الأجلاء ، المتبحرين الصادقين ، الذين تعالوا فوق اغراءات المادة وبريق السلطة فى أنفه واعتزاز . يقول الشيخ الإمام محمد أبو زهرة : هذا عمرو يقول لو أسلمت قريش كلها ما أسلم ، ثم يخرج ببعض قومه ليحرض النجاشي على المؤمنين ، ويحاول أن يتمكن من قتل رسول من عند رسول الله .. لذلك نقول إن إسلامه كان لمصلحته الشخصية الدنيوية ولعل الإسلام قد دخل قلبه بعد ذلك .. إنه (أى عمرو) رجل لا يظهر فى الهيجاء ، ويغنى لنفسه الانحياز عن مواطن الردي ، فهو يحضر بدرا وينجو ، وأخدا وينجو ، والخندق وينجو ، ويظهر أنه لم يقتل ولم يقاتل بل كان من النظارة أو المدبرين ، كما كان شأنه فى القتال بين إمام الهدي على بن أبى طالب ومعاوية يدبر فى حرب البغاة .^{١٨}

على أية حال ، قدم خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة إلى المدينة ، وقد علم النبی بمقدمهم واستبشر به خيرا . تقدم خالد فسلم وأسلم . تبعه عمرو الذي تحدث بعقلية التاجر وكأنه يعقد صفقة : يا رسول الله إنى أباعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبي ولا أذكر ما تأخر .^{١٩}

إنه يريد مقابل إسلامه أن يغفر له النبي ما تقدم من ذنبه ولا يلح على غفران ما تأخر . وكان النبي هو الذى يغفر ما تقدم من الذنوب وما تأخر . لم يكن قد آمن قلبه بعد ، كى يطلب من النبي أن يدعو الله كى يغفر له . ويرد النبي فى بساطة وسماحة ، وهو

^{١٨} أبو زهرة ، ج٣ ، ص ٨٤٤ .

^{١٩} الطبرى ، ج٢ ، ص ١٤٦ .

يفهم جيداً طبيعة ذلك الذى يواجهه : يا عمرو ، بايع فإن الإسلام يجب ما قبله ، وإن
الهجرة تجب ما قبلها .
وتقدم ثالث الثلاثة ، عثمان بن طلحة ، فسلم وأسلم .

الرسول إلى الملوك والحكام

بعد عودة النبي من عمرة القضاء ، بدأ يفكر فى نشر الدعوة ، وإعلام الناس برسالة الإسلام ، على نطاق واسع يتخطى حدود شبه جزيرة العرب . لم بعد هناك خطر من قریش فقد انهتد قواها بعد الخندق ، وفترت إرادة القتال فيها بعد أن أثبت محمد ، فى عمرة القضاء ، أنه يجل البيت ويقده ، يؤدى العمرة ويدعو إلى الحج ، ويعلى من شعائر العرب التى توارثوها عن إبراهيم وإسماعيل .

ما عادت مكة تثير قلقا للنبي . إنها مسألة وقت - قد لا يطول - وتفتح أبوابها ، طاعة بإذن الله ، لا مكرهه ، كى تصبح قدس أقدس الإسلام .

رنا النبي ببصره ، بعيدا إلى الشمال . إنه لم يُرسل إلى العرب عامة وإلى قریش خاصة ، كما يدعي بعض المستشرقين ، أى إلى أم القرى وما حولها وما كان عليه أن يتطلع لما هو أبعد من ذلك ، وهو استقراء خاطئ : لقد أرسل للناس كافة أحمرهم (أى أبيضهم) وأسودهم ، فى كل بقاع الدنيا . ولقد كانت كلمات الوحي صريحة واضحة : ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . وهذا ما أكدته النبي بكلماته - رغم أن كلمات الوحي ليست فى حاجة إلى تأكيد - وهو يتحدث إلى الصحابة ، وقد انتوى أن يرسل إلى الملوك والحكام رسلا يعلمونهم بأمر النبي الخاتم ويدعونهم إلى الإسلام : إني بُعثت رحمة وكافة ، فأدوا عني يرحمكم الله .

قر قرار النبي أن يرسل الرسل ، كما فعل المسيح عيسى من قبل وأرسل الحواريين يبشرون بملكوت الله . ولا نستطيع أن نجزم بتاريخ معين خرج فيه الرسل يحملون رسائل النبي . اختلف كتاب السيرة واختلف المؤرخون ، فمن قائل إن ذلك كان بعد الحديبية ، ومن قائل كان بعد خيبر ، ومن قائل كان بعد عمرة القضاء واستمر على امتداد السنوات التى عاشها النبي وحتى وفاته . وهذا ما نأخذ به ، إذ أنه بعد عمرة القضاء بدأت فترة هدوء وسكينة واستقرار .

سيخرج الرسل إلى الملوك والأمراء والحكام ، كبارا كانوا أم صغارا ، إنها دعوة الإسلام إلى السلام بالكلمة - لا بالسيف - كما يدعي بعض الأدعياء من كتبة المستشرقين .. رسل يحملون الكلمات : أدع إلي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.

اتهم بعض المتعصبين من كتاب الغرب ، الإسلام بالدموية والانتشار على أسنة الرماح وحد السيف ، نسوا هذه الكلمات ، أو تناسوها ، أو ربما طمسوها تماماً من أفكارهم ، كى لا تخط فيما يكتبون فتفصح فيهم الميل إلى التجنى والإساءة إلى دين يقوم فى جوهر دعوته على : وجادلهم بالتى هى أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم .

كان لابد وأن يكون للنبي خاتم يختم به رسائله ، فالرسالة لابد وأن تكون مختومة بخاتم صاحبها أو مهمورة بتوقيعه ، ولا تُعتمد رسالة دون خاتم أو توقيع . تم صنع خاتم للنبي ، خاتم من فضة نقشت عليه ثلاث كلمات : محمد رسول الله ، فى ثلاثة أسطر .

ويروى ابن سعد عن الشعبي أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكتب كما تكتب قريش باسمك اللهم ، حتى نزلت عليه : اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ، فكتب بسم الله ، حتى نزلت عليه قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، فكتب بسم الله الرحمن ، حتى نزلت عليه : إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، فكتب بسم الله الرحمن الرحيم^١ .

هذه الآيات جميعا لابد وأن تكون قد نزلت قبل صلح الحديبية ، لأنه فى صلح الحديبية أراد النبي أن يبدأ صيغة الصلح بـ " بسم الله الرحمن الرحيم " فرفضها سهيل بن عمرو - كما أسلفنا - رفضا قاطعا وهو يقول : لا أعرف الرحمن ولا أعرف الرحيم ، أكتب باسمك اللهم . أما إذا كانت الآيات السابقة قد نزل الوحي بها بعد صلح الحديبية فهذا معناه أن ما أورده ابن سعد على لسان الشعبي خطأ . ونترك مناقشة هذا الأمر للمتخصصين فى علوم القرآن الكريم . وكما تحكى كتب التراث ، بعث النبي سليط بن عبد شمس إلى هوزة بن على صاحب اليمامة . وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص إلى جيثر بن جُلندي وعباد بن جُلندي صاحبي عمان . وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية . وبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ، وهو هرقل ملك الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى عظيم فارس^٢ .

سنختار بعض هذه الرسائل كنماذج ، نناقش ما جاء فيها ، وما دار حولها ، بأسلوب عقلاني يعتمد على الفكر المنطقي ، لا على المبالغة وتضخيم الحدث ، مما قد يفقده فعاليته ومصداقيته .

^١ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

^٢ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بأن نصوص الرسائل التي ورد ذكرها في كتب التراث، والتي سنعطي أمثلة منها ، هي ما أملاه النبي على كتبة رسائله دون تبديل أو تحوير ، فنحن لا نملك مرجعية الأصول . ولا يمكن تجاهل احتمال أن الذين أرخوا فيما بعد لسيرة النبي قد حذفوا أو أضافوا أو أعادوا الصياغة أو غيروا بعض المضامين ، بحيث تبدو فيها القوة والسطوة والمقدرة وسلطة الاقتحام وفرض الخضوع والإذعان ، معتقدين أنهم بذلك يعلنون من شأن الإسلام ويعظمون من أمر النبي . وهذا بالتأكيد ، لو كان قد حدث فعلا ، خطأ في منهج التدوين والتأريخ .

إلى قيصر:

لنبداً بخطاب النبي إلي قيصر ، وهو هرقل ملك الروم ، وما حكاه الرواة عن قيصر بعد أن تسلم الخطاب الذي حملة دحية الكلبي . جاء في خطاب النبي : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد: أسلم تسلم ، وأسلم يؤئك الله أجرك مرتين ، وإن تتول فإن إثم الأكافرين عليك (أى إثم الرعية عليه لصدده إياهم عن اتباع النبي) .

كلمات الرسالة ، كما هو واضح ، بسيطة ، هادئة ، فيها دعوة للإسلام وترغيب فيه ووعد بأجر من الله يؤتي مرتين ، ولا يوجد فيها ما يمس هيبة قيصر أو يقلل من عظمة ملكه وسلطانه .

لكن ما يثير الاستغراب والاندعاش ، وبالطبع عدم التصديق ، هو ما خلفه لنا الإخباريون عن سلوك قيصر ورد فعله بعد أن قرأ الخطاب . ونورد مما قالوه بعض المقطعات .

قال ابن شهاب الزهري : حدثني أسقف للنصارى أدركته في زمان عبد الملك بن مروان ، أنه أدرك ذلك في أمر رسول الله وأمر هرقل .. قال : فلما قدم عليه كتاب رسول الله مع دحية بن خليفة ، أخذه هرقل فجعله بين فخذه وخصرته ثم كتب إلى رجل برومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرءونه ، يذكر له أمره ، ويصف له شأنه ، ويخبره بما جاء منه ، فكتب إليه صاحب رومية : إنه للنبي الذي كنا ننتظره ، لاشك فيه ، فاتبعه وصدقته^٢.

ويقول خالد بن يسار ، عن رجل من قدماء أهل الشام ، إن هرقل جمع الروم فقال: يامعشر الروم ، إني عارض عليكم أمورا ، فانظروا فيم قد أردتها ! قالوا : ما هي ؟ قال:

^٢ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

تعلمون والله أن هذا الرجل لنبي مرسل ، إنا نجده في كتابنا نعرفه بصفته التي وصف لنا ،
فهل فلنتبعه ، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا . فقالوا : نحن نكون تحت يدى العرب ، ونحن
أعظم الناس ملكا ، وأكثرهم رجالا ، وأفضلهم بلدا ؟!

قال : فهل فأعطيه الجزية في كل سنة ، اكسروا عنى شوكته وأستريح من حربيه
بمال أعطيه إياه . قالوا : نحن نعطي العرب الذل والصغار ، بخرج يأخذونه منا ، ونحن
أكثر الناس عددا ، وأعظمهم ملكا ، وأمنعهم بلدا . لا والله لا نفعل هذا أبدا .

قال : فهل فلأصلاحه على أن أعطيه أرض سورية ، ويدعني وأرض الشام (وكانت
أرض سورية أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب من أرض
سورية، وكان ما وراء الدرب عندهم الشام) .

فقالوا له : نحن نعطي أرض سورية ، وقد عرفت أنها سرء الشام ، والله لا نفعل
هذا أبدا .

فلما أبوا عليه ، قال : أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم ، ثم
جلس على بغل له ، فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال:
السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع ، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية .

هكذا صدح الرواه بأنغام المبالغة المضحكة المموجة . قيصر الروم الذى كانت
تهابه امبراطورية الفرس والذى كسر شوكتها ، يستسلم استسلاما كاملا وينحني فى
خضوع ويعرض ما لا يمكن عرضه ، دون مناقشة أو جدل ، لمجرد أنه تسلم خطابا فى
سطين من نبي لم يره ولم يدرس فكره ، ولم يناقش عقيدته .

ما أن قرأ السطرين - كما يحكي الرواة - حتى جعل الكتاب بين فخذه وخاصرته،
وربما كانت تلك فى زمنه علامة من علامات التبجيل والتقديس ، ثم - ودون أى تردد -
عرض على الروم أن يؤمنوا بمحمد كى تسلم لهم الدنيا والآخرة . ويرفض الروم ، أى
يرفض الشعب ويعترض على دعوة الإمبراطور - هكذا تخيل الرواة - ذلك لأنهم هم
الأعظم ملكا والأكثر مالا ورجالا ، والأفضل بلدا . ومنطقهم هو الأقوى ، ذلك لأن
الإمبراطور لم يقدم لهم بالدليل القاطع والحجة الساطعة ما يرغبهم أو يغريهم على اتباع
ذلك النبى .

هنا يتخيل الرواة إمبراطور الروم وقد ارتعدت فرائصه ، وتهايى داخله ، لذا فهو
يصيح مستعظا قومه : فهل فأعطيه الجزية كل سنة ، اكسروا عنى شوكته وأستريح من
حربة بمال أعطيه إياه .

إمبراطور الروم يعرض دفع الجزية للنبي العربي دون أن تطلب منه ، فالخطاب لا يذكر شيئا عن الجزية ولا يشير إليها ، بل إنه يخلو من أى كلمة تهديد أو وعيد . إنه يخشى شوكة النبي وحربه ، رغم أن النبي لم يتوعدة بحرب ولم يتخذ منه موقف العداء . لكن هكذا تخيل الإخباريون .

ويرفض الروم دفع الجزية - كما تحكي الحكاية - ويحاول الإمبراطور أن يجد لنفسه مخرجا - من ماذا؟ .. لاندري - ويعرض المصالحة ، ولا نعرف متى بدأ الخصام ، على أن يعطي النبي أرض سورية ، بشرط أن يدع له النبي أرض الشام .

سهلا ، هشا ، لينا ، هينا ، كان إمبراطور الروم ، فى مخيلة الرواة . لذا ، فعندما رفض قومه كل عروضه ، لم يكن أمامه - كما تحكي الحكاية - إلا أن يركب بغلاً له - وللقارئ أن يتخيل الإمبراطور فوق البغل - ثم ينطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ، ثم قال : السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع . ثم ركض وظل يركض ويركض طالبا النجاة - من ماذا ؟ .. لا نعرف - حتى دخل القسطنطينية!!

الحكاية مشوقة ، فيها إبداع وخبكة تكاد تكون مسرحية ، تبدأ دراميا بتسلم الخطاب ، تصل إلى ذروتها بالمواجهة بين الإمبراطور والشعب ، وتنتهي مأساويا - بالنسبة للروم طبعاً - بفرار الإمبراطور !!

أمتعنا الرواة بوهم لا صلة له بالتاريخ ، ولا جذور له فى واقع الأحداث ، بل إن الأحداث ستثبت كذب ادعائهم عندما نكتب بعد عدة صفحات عن غزوة مؤتة ، التي استشهد فيها ثلاثة من خيرة الصحابة وهزم فيها جيش المسلمين عندما توجه لأول مرة فى ثلاثة آلاف مقاتل إلى حدود الشام .

لقد استطاع الرواة بخيالهم فأحدثوا ما لم يحدث وما لا يمكن أن يحدث فى ذلك التاريخ ، وإن كان قد حدث ما هو أروع ، لكن فيما بعد ، بعد أن تمكنت العقيدة ، وثبت الإيمان ، وتغير ميزان القوى ، وأصبحت كلمة الله هى العليا ، وكان قضاء الله أمراً مفعولاً .

إلى كسرى :

نعرض لكتاب آخر من كتابات النبي ، ونناقش ما قصه الرواة على أنه حقائق تاريخ .

كتب النبي إلى كسرى بن هرمز ملك فارس ، وبعث الخطاب مع عبد الله بن حذافة السهمي ، فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

السلام على من اتبع الهدى وأمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فاسلم تسلم ، فإن أبيت ، فإن أثم المجوس عليك^٤ .

ويحكي الرواة أن رد فعل كسرى كان على النقيض تماما من رد فعل قيصر . لم يهتز كسرى ، لم يرتعد ، لم يخش شوكة النبي الذي لم يره ولا يعرف عنه شيئا ، لم يعرض على قومه أن يستلموا ويسلموا ، أو أن يدفعوا الجزية أو يتنازلوا عن جزء من أرضهم وسلطانهم . ما أقدم على شيء من ذلك ، وما توقعه منه أحد . كل ما فعله هو أن مزق الخطاب في استخفاف ، ثم قال في كبرياء واستعلاء : يكتب إلي هذا وهو عبيد !!

الكلمات السابقة ليست من عندنا ، ولم نقلها عن كتاب في تاريخ الفرس ، أو عن حقائق ما حدث في عهد النبي . إنما نأخذها عن مجموعة من الرواة ، عدة أسطر من "العنعات" حتى وصلت الرواية إلى الطبري فسجلها فيما أسماه " تاريخ " ، وهو نفسه لم يشهد ، ولم يدقق ولم يحقق ، اكتفى بتسجيل الرواية غير مكترث بما فيها من غرابة قد تتعدى حدود المعقول كما حدث في حكاية قيصر الروم الذي ركب بغلا له ، وترك شعبه ، ثم هرب .

والآن نسترسل مع الرواة لنشهد ما حدث في رواية كسرى بعد أن مزق الخطاب .

كتب كسرى إلى " باذان " ، وهو على اليمن أن : ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين ، فليأتاني به . فبعث " باذان " قهرمانة وهو " بابويه " وبعث معه رجلا من الفرس يقال له " خرْخُصرة " ، وكتب معهما إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ... فخرجا حتى قدما على رسول الله ، فكلمه بابويه ، قال : إن شامانشاه ملك الملوك كسرى ، قد كتب إلي الملك باذان ، يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتتطلق معي ، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت ! فهو مهلكك ومهلك قومك ، ومخرب بلادك . ودخلا على رسول الله وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا شواربهما ، فكره النظر إليهما ، ثم أقبل عليهما فقال : ويلكما !! من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا بهذا ربنا - يعنيان كسرى - فقال رسول الله : لكن ربي قد أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي^٥ .

^٤ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

^٥ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

الرواية هذه المرة ليست بنفس قوة التكتيف في الحدث الدرامي ، كما في رواية قيصر . لقد استخدم الرواة هذه المرة أسلوباً آخر - ربما دون أن يدروا - يجمع بين البلاهة والعبثية . إن كسرى يأمر واليه على اليمن أن يرسل رجلين كي يأتيه بذلك "الرجل الذى بالحجاز" ، وكان كسرى هذا لا عقل له ولا فكر ، ولا يوجد فى حاشيته وزير أو ناصح أو مستشار . لو كان بالحجاز لص ، أو قاطع طريق أو حتى سارق إبل ، ما استطاع رجلان وحدهما أن يطارداه ، ويأسراه ويرميا به عند أقدام كسرى مكبلاً . فلن يجده الرجلان - بمنطق الواقع - وحده . لابد وأن يكون معه رجال .

فما بالكم بنبي أنشأ دولة ، وحوله رجال آمنوا بما جاء به ، وله عزم وقوة إلى جانب تكليف إلهي بنقل رسالة السماء إلي أهل الأرض . أيكفى رجلان لإحضار ذلك "الذى بالحجاز" ؟ لو كان يريده فعلاً لأرسل جيشاً أو على الأقل عدة مئات من الجند ، كي يضمن تنفيذ الأمر ، لكن هذا ما يقوله الرواة ، وهو حديث سقيم ومنطق معلول .

لكن المضحك العبثي في الرواية هو ما يحدث بعد لقاء الرجلين بالنبي . ينظر النبي إلى الرجلين - كما يحكي الرواة - فإذا كل منهما بلا لحية وقد أعفا شاربه . عندها يصيح النبي : ويلكما!! ثم يسألهما في استنكار : من أمركما بهذا ؟ يجيبان : ربنا ، أى كسرى عظيم فارس . ويكون رد النبي قاطعاً ، باتراً ، لا محل للجدل فيه : لكن ربى أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي !!

ولنا أن نتخيل - فروايات الحكائين في حاجة إلى الكثير من التخيل - رجلين جاءا لأخذ النبي أسيراً بالطبع كي يقف في خضوع - كما اعتقدا - أمام سيدهما كسرى ، ومعهما رسالة وعيد وتهديد : هو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك . وبدلاً من أن يناقشهما النبي في أمر الرسالة ، أو عن سبب مجيئهما إن لم يكونا قد قدما الرسالة بعد ، إذ بالنبي يحدثهما عن أمر ربه بإطلاق اللحي وقص الشوارب !! لم يحدثهما عن الإسلام أو عن جوهر الدعوة ، أو عن وحي السماء ، أو عن الكتاب الذى أنزل عليه ، لم يوجه لهما دعوة لترك عبادة النار والإيمان بالواحد الأحد القهار . لا شئ من هذا على وجه الإطلاق . فقط أعلمهما أن ربه قد أمره بإعفاء لحيته وقص شاربه !!

هكذا تحدث الرواة !!

إلى المقوقس :

رسالة ثالثة أرسلها النبي إلى المقوقس صاحب الإسكندرية وعظيم القبط فيها . حمل الخطاب حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ، وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتلك الله أجره مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط : " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " (آل عمران : ٦٤) ^١.

رد المقوقس في رسالة إلى النبي ، يقول : قد علمت أن نبيا قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركيها ^٢.

لم يزد المقوقس على هذا . لم يسلم . اكتفى بما فعل . تخلص من الأمر كله فسي كياسة ، ولباقة ، وحسن أدب ، بأن أرسل مع حامل الرسالة هدية : كسوة لصاحب الدعوة يلبسها ، وبغلة يركبها ، وامرأتين جميلتين . أما عن موضوع النبوة ، فالنبي الذي ينتظره يخرج من أرض الشام ، لا من أرض الحجاز . وهذا رفض واضح لكنه مغلف بلقافة من اللباقة والأدب المذهب الذي لا يسئ ولا يجرح الإحساس .

قبل النبي الهدية . احتفظ بإحدى الجاريتين ، وهي مارية التي أنجبت له إبراهيم ، أما الثانية وهي سيرين فقد وهبها لشاعره حسان بن ثابت . وهكذا انتهى الأمر بالنسبة للمقوقس . لم يعد يفكر في أمر الحجاز أو نبي الحجاز . وما دار بخلده أبدا - فقد كان الأمر يفوق كل التصورات - أن رايات الإسلام سوف ترفرف في كل ربوع مصر بعد قلة من سنين .

إلى النجاشي:

بعث النبي عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وكتب معه كتابا : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول

^١ أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ٨٦٦ .

^٢ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

الطبية الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه .
وإني أدعوك إلى الله وحدة لا شريك له ، والموالة على طاعته ، وأن تتبغني وتؤمن
بالذي جاعني ، فإني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمي ، جعفرا ، ونفرا معه من
المسلمين ، فإذا فأقروهم ، ودع التجبر ، فإني أدعوك وجنودك إلى الله . فقد بلغت
ونصحت ، فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى .

وجاء في تاريخ الطبري أن النجاشي كتب إلى رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم:
إلى محمد رسول الله ، من النجاشي الأصحم بن أبجر ، سلام عليك يا نبي الله ورحمه الله
وبركاته ، من الله الذي لا إله إلا هو ، الذي هداني إلى الإسلام . أما بعد ، فقد بلغني
كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى ما
يزيد على ما ذكرت تفرقا ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قرئنا ابن
عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ،
وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر ،
فإني لا أملك إلا نفسي ، وإن شئت أن أتيتك فعلت يا رسول الله ، فإني أشهد أن ما تقول
حق .. والسلام عليك يا رسول الله .

ولا يكتفى الإخباريون بفبركة هذه الرسالة التي لم يكتبها النجاشي - لأنه كما سبق
وشرحنا بالتفصيل ، لم يؤمن - لكنهم يصلون بحكايتهم إلى قمة درامية مأساوية .

يقول ابن اسحق : وذكر لي .. ولا نعرف من الذي ذكر له ، فهو لا يذكر ولا
يتذكر ، وربما يتذكر لكنه يرفض البوح ، مما دفعه إلى أن يبني الفعل للمجهول ، ثم قدم
الكلام للمبني للمجهول على أنه حقيقة مؤكدة : ذكر لي أن النجاشي بعث ابنه في ستين
من الحبشة في سفينة ، فإذا كانوا في وسط البحر غرقت بهم سفينتهم ، فهلكوا !!

هكذا تدرج الحدث دراميا حتى وصل قمته المأساوية : رسالة النبي ، إسلام
النجاشي ، إرساله ولده ومعه ستون حبشيا كي يعلن إسلام أبيه ، بل وإسلام الحبشة كلها
- كما ادعي عمرو بن العاص من قبل - لكن البحر كانت له غضبة لا نعرف لها سببا :
ابتلع السفينة بما فيها ومن فيها .

أسدل الستار على رواية صمم الإخباريون على أن تكون نهايتها مأساوية جنائزية .
رغم أن البحر - لو تعاملنا مع الحدث دراميا - كان لابد وأن يكون أكثر هدوءا وأكثر
مودة ، وهو يحمل على ظهره كل هؤلاء الذين آمنوا ، وخرجوا في طاعة وخشوع

متوجهين إلى مصدر الهداية كي يعلنوا إيمانهم ويقدموا فروض طاعتهم وولائهم .

أما عن ادعاء بعض الإخباريين أن عمرو بن العاص قد أكد إسلام النجاشي وشعب مملكته ومعهم الأساقفة والرهبان ، فقد ذكره الإمام محمد أبو زهرة^٨ ، ولم يعلق عليه ، اكتفى في مجمل حديثه عن النجاشي بقوله : استجاب لكلمة الحق من غير نكؤ ولا تردد . ولم يؤمن قومه .

لقد ناقشنا موقف النجاشي بالتفصيل في صفحات سابقة يمكن الرجوع إليها ، ومجمل القول هو أن النجاشي كان ملكا مشهود له بالحكمة والعدل ، آوى المسلمين وأحسن معاملتهم. لكن لم يثبت تاريخيا أنه أسلم ، أو أن شعبه وكهنته أسلموا ، فقد ظلت الحبشة في عهده مسيحية ، وما زالت على مسيحيتها حتى اليوم .

إلى أسقف بنى الحارث:

كتب النبي رسائل أخرى كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ، لا الحصر ، رسائله إلى الحارث بن أبي شمر الغساني في الأردن ، وإلى جيتقر وعبد ابني الجندني بعمان ، وإلى المنذر بن ساوى العبدي في البحرين ، وإلى أهل اليمن ومنهم الحارث بن عبد كلال ونعمان قيل ذي يزن ، وإلى بنى معاوية في كندة ، وإلى جبلة بن الأيهم ملك غسان ، ورسائل أخرى كثيرة يمكن الرجوع إليها في كتب التراث^٩.

نخص بالذكر ، هنا ، كتاب النبي لأسقف بنى الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم ومن تبعهم ، كتب لهم جميعا يقول : إن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم ، وجوار الله ورسوله ، لا يُغَيَّرُ أسقف من أسقفته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن عن كهنته ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ، ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير متقلين ، ولا ظالمين^{١٠}.

هذه الكلمات المضئنة بنور الحق ، المعلننة والمعلنة لعدالة الإسلام ، يجب أن تنتشر في كل بقاع الدنيا ، ويتم تفسير ما تتضمنه من معان ، كي يكف أعداء الإسلام عن اتهام النبي بالعدوانية والدموية ، ووصم المسلمين بعار التعصب والإرهاب . كلمات النبي بكل شفافيتها ونورانياتها ، شهادة حق تدحض كل ما يدعون .

^٨ محمد أبو زهرة ، ج ١ ، ص ٨٦٩ .

^٩ أنظر الطبري ، ج ٢ ، ص ١٢٨ وما بعدها وابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٥٨ وما بعدها .

^{١٠} ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

نستخلص مما عرضنا من بعض رسائل النبي إلى الملوك والحكام ، أنها تدل على أن النبي كان على يقين تام أنه لم يرسل إلى أم القرى فقط وما حولها ، أى إلى العرب خاصة، لكنه أرسل إلى كافة الناس فى كل بقاع الدنيا ، فمن أحاديثه أنه قال : إن كل نبي كان يبعث إلى قومه خاصة ، وبُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود . وقد استلهم ذلك من تعاليم الوحي السماوى : " وما أرسلناك إلا رحمة العالمين " ، " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا " .

ومن هذا النبع الإسلامى الصافى العميق ، انتشر الإسلام فى قوة واقتدار واعتدال، كى ينشر الحق والعدل فى كل ربوع الدنيا، فيصبح عدد أتباعه ، فيما يقل عن مائة عام من بداية التاريخ الهجرى ، أكبر من عدد أصحاب الديانات الأخرى مجتمعين، وترتفع أعلام الإمبراطورية الإسلامية فى ربوع آسيا وأفريقيا وأوروبا، ويستمر حكم العرب فى الأندلس ما يقرب من سبعمائة عام .

أما ما حدث بعد ذلك من تدهور وانحيار ، فلم يكن بسبب الإسلام - وهو الحق - لكن بسبب ضعف الإيمان فى قلوب المسلمين ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أغرتهم مفاصد الدنيا ففسدت نفوسهم وتبدلت عقولهم ، وأصبح الفساد سرطانيا وهو يدفعهم دفعا نحو الكارثة .

قتل الدعاة على حدود الشام:

لابد وأن ينتشر الإسلام في الشمال ، كان من المستحيل أن تظل الدعوة محصورة بين القبائل الوثنية لا تتخطى حدودها إلى حيث النصارى من عرب الشمال الخاضعين للإمبراطورية المسيحية . لقد انضمت المستوطنات اليهودية إلى الأمة الإسلامية الناشئة بعد أن تم احتواؤها بمعاهدات سلام ، أو إخضاعها - عندما اعتدت وقاقلت - بقوة السلاح . والآن جاء دور القبائل التابعة للإمبراطورية الرومانية في الشمال ، وهي تدين بالمسيحية ولا تعرف شيئا عن الإسلام .

أرسل النبي خمسة عشر رجلا ، تحت قيادة كعب بن عمير الغفاري ، إلى ذات الطلح على حدود الشام . لم يذهبوا لقتال ، فمن غير المعقول أن يتجه خمسة عشر رجلا إلى حدود الشام كي يخوضوا معركة . كان هدفهم الدعوة إلى الله . وكان سلاحهم القرآن .

لم يستجب لهم أحد ممن لا قوهم من بني قضاة وكان عددهم كبيرا ، إذا ما قورن بعدد المسلمين . لم يبدأ المسلمون - بعد صدهم - بقتال . كان من الطبيعي أن يتجنبوه ، فما خرجوا له . حاولوا الانصراف في سلام ، لكن بني قضاة حاصروهم حصار فناء . رموهم من كل جانب من بوابل من نبال . استشهدوا جميعا باستثناء رجل واحد ، نهشته السيوف والحرايب حتى ظن أنه بين الأموات . لكنه نجا ، ونجح في الوصول إلى حيث النبي . أخبره بما آل إليه مصير الدعاة .

قتل حامل رسالة النبي:

وكان النبي قد أرسل الحارث بن عمير الأزدى برسالة إلى شُرْحَبِيل بن عمير الأزدى ، حاكم بُصْرَى من قبل الإمبراطور البيزنطي ، فأساء شُرْحَبِيل استقبال الرجل: أمر ببقده في الأغلال ، ثم بعد ذلك بقطع راسه . لم تكن من عادات الملوك والحكام قتل حامل الرسالة ، فهو في أغلب الأحيان لا يعرف فحواها ولا ذنب له . كان العرف السائد هو حسن معاملة الرسول ، مهما كان مضمون الرسالة ، وهو آمن إلى أن يعود من حيث جاء .

قتل مبعوث النبي كان يمثل إهانة ، ولقد اعتبرها البعض جريمة لا بد من عقاب من أقدم عليها . لأنه لو تم التهاون في أمر كهذا لتكرر قتل الرسل في مستقبل الأيام ، ولَهَان أمر صاحب الرسالة ، واستهان الآخرون بشأنه هو ومن معه .

الخروج لرد العدوان:

ربما بسبب قتل حامل رسالة النبي ، وربما أيضا بسبب قتل الدعاة الخمسة عشر، قرر النبي أن يرسل جيشا لرد العدوان . وكانت موقعة مؤته .

في جمادي الأول من سنة ثمان هجرية (سنة ٦٢٩م) ، دعا النبي المسلمين إلى الخروج للقتال ونصرة دين الله . تجهز الناس وتجمعوا وبلغ عددهم ثلاثة آلاف ، وهو أكبر جيش - حتى تلك الفترة - يخرج من المدينة ، ترفرف عليه رايات الإسلام ، وعلى رأسه ثلاثة من كبار الصحابة : جعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة ، ومعهم في صفوف الجند خالد بن الوليد ، وكان حديث عهد بالإسلام .

كان لابد من تعيين أمير للجند ، يعمل الجميع تحت قيادته ولا يخرجون عن طوعه . اختار النبي زيد بن حارثة أميرا ، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل فليترض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم . ويقال إن جعفر بن أبي طالب - وكان في الثالثة والثلاثين من عمره فارسا يُهاب جانبه - عندما سمع بإمارة زيد عليه ، وثب واقفا ، فقال : يا رسول الله ، ما كنت أذهب أن تستعمل زيدا على !! قال النبي : امض ، فإنك لا تدري أى ذلك خير ^١ .

هذا درس عملي تطبيقي ، يرسى دعائم مبدأ من أروع دعائم الإسلام وأكثرها إنصافا وعدلا : لا محاباة لسيد من أعرق بيوتات قريش ، وهو في نفس الوقت ابن عم النبي ، على حساب ذلك الذي كان عبدا ذات يوم في بيت خديجة . لقد أزال الإسلام الحواجز ، وسوى بين الناس ، بعد أن ذابت العنجهيات الجاهلية وأصبح الفضل لمن اتقى . ولا ينسى التاريخ أن زيدا كان ثالث ثلاثة ، آمنوا بالنبي فور هبوط الوحي وبدء الرسالة ، ولم يكن بعد قد آمن به غيرهم أحد . اتبع النبي ، ورافقه ، وجاهد معه ، واعتبر من أهل البيت .

عقد النبي لهم لواء أبيض ، دفعه إلى زيد بن حارثة ، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا هناك إلى الإسلام ، فإن استجاب الناس كفى الله المؤمنين شر القتال ، وإن رفضوا واعتدوا فما على المسلمين في هذه الحالة إلا أن يردوا العدوان ،

^١ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

لكنه نهاهم عن قتل النساء والشيوخ والأطفال ، وألا يخبروا ما عمر فى الأرض بهدم البيوت وتقطيع الأشجار وحرق الثمار . لقد خرجوا كى يصلحوا فى الأرض ، لا كى يكونوا معاول هدم أو أدوات تدمير وخراب .

ويقال إن عبد الله بن رواحة بكى وهو يودع النبى^٢ ، وكأنه أحس بروح المؤمن النقى ، وشفافية الشاعر النقى ، أن هذا هو اللقاء الأخير بينه وبين النبى ، وأن خروجه هذا لن تتبعه عودة . لكنه ، عندما سألوه عما يبكيه ، قال : أما والله ما بى حـب الدنيا ، ولا صـبابـة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار : وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . فلست أدرى كيف لي بالصـتـر بعد الورود ! ثم أنشد يقول :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهرة	بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدني	أرشده الله من غاز وقد رشدا ^٣

جيش العدو :

سمع العدو بخروج المسلمين ، وكان لهم بالطبع عيون ترصد وتتجسس ، فجمعوا الجموع وأعدوا العدة كى لا يؤخذوا على غرة . كان من المستحيل أن يخفى المسلمون أمرهم ، حتى ولو كمنوا نهارا وساروا ليلا ، كما كانوا فى أغلب الأحيان يفعلون ، ذلك لأن عدد الجيش كان هذه المرة كبيرا : ثلاثة آلاف مقاتل ، وهو ما لم يبلغه عدد جيش من جيوش المسلمين من قبل .

جمع شُرَخيـل بن عمرو ، عامل هرقل على أرض الشام أكثر من مائة ألف مقاتل ، وقدم الطلائع أمامه . وكتب إلى هرقل فأمدّه بمائة ألف أخرى . ويقال إن هرقل نفسه كان على رأس الجيش . وقد نزل " ماب " من أرض البلقاء .

بلغ المسلمين ذلك ، فتوقفوا فى " مُعان " من أرض الشام يفكرون فى أمرهم ، ماذا يفعلون وقد انقلبت الموازين ، وانعكست الرؤى ، وحدث ما لم يكن فى الحسبان وما لم يتوقعه أحد . لقد خرجوا وهم يعتقدون أن جيشا من ثلاثة آلاف مقاتل هو بالطبع قوة داحرة يصعب التصدى لها ، فما تعودوا الخروج من قبل إلا فى مئات . لكنهم فوجئوا بعدو خرج لهم فى مائة ألف أو يزيد .

^٢ كان عبد الله بن رواحة من النقباء الذين يابىعوا النبى فى العقبة ، ومن أوائل من أسلموا بالمدينة . وكان يكتب من الشعر أرقا وأحلاه وأروعه .

^٣ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

كان الوضع بالغ الصعوبة ، بالغ التعقيد . كانت المفاجأة أكبر من كل توقعاتهم . قال الحكماء منهم وأصحاب الرأي : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا فنمضي له . كان هذا هو الرأي الواجب اتباعه ، إذ كان يتميز بالتدبر والعقلانية في مواجهة الواقع .

لكن عبد الله بن رواحة ، أحد الأمراء الثلاثة - وكان كما سبق وقلنا شاعرا متدفق الأحاسيس ، قوي العاطفة ، عميق الإيمان - كان له رأى آخر . كانت روحه ، بكل إيمانها وتقواها ، تهفو إلى لقاء الله . كان من المستحيل إقناعه ، أو إرغامه على التراجع إلى الخلف ولو مقدار خطوة . قام فى الناس خطيبا . قال : يا قوم ، والله إن التى نكرهون للتى خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة . قال الناس : قد والله صدق ابن رواحة .^٤

لقاء الجيشين:

ومضى الناس للقاء هرقل وجنوده من الروم والعرب . وصلوا قرية يقال لها "مشارف" . دنا العدو واقترب . انحاز المسلمون إلى قرية يقال لها " مؤته " ، على البحر الميت فيما يعرف الآن بالأردن^٥ ، ذلك لأنهم رأوا أن موقعها أفضل من موقع "مشارف" ويمكن التحصن بها ، وفى مؤته بدأت المعركة بين جيشين لا تكافؤ بينهما فى العدد والعدة . لقد فاجأهم العدو ، كما يقول ابن سعد ، بما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والكرّاع والديباج والحريير والذهب .^٦

حمل اللواء زيد بن حارثة ، أميرا . اقتحم الصفوف بشجاعة قلب ، وثبات جنان ، وإيمان مطلق بقدر الله . قاتل وقاتل معه المسلمون ما تراجع منهم أحد . اشتد القتال وحمي الوطيس ، وزيد يحمل الراية بيد وباليد الأخرى يعمل سيفه فى رقاب أعداء الله حتى شاط هو نفسه فى رماح القوم ، مزقت جسده السيوف والرماح . واختتم حياته الرائعة بما هو أروع : الاستشهاد بطلا فى سبيل الله . ولو ختمت حياته بغير هذا التتويج ما اكتملت .

لكن ما سقطت الراية . أسرع جعفر بن أبى طالب ، زين شباب بنى طالب وفارسهم ، فحملها ، قاتل وهو على فرسه ، حتى إذا ما اشتدت ضراوة القتال ، وعنفه ،

^٤ ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٤٣٣ .

^٥ كلارين ارمسترونج ، ص ٣٤٩ .

^٦ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

وقسوته ، ترجل . كان على فرس له شقراء عقرها . وكما يقول الطبرى ، كان أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام فرسه .

صال فارس بنى هاشم وجال في صفوف العدو كليث غاضب ، الراية مرفوعة بيمينه والسيف مشتعل بدم العدو في يساره ، وجموع البغاة تحيط به وتتدفع إليه : الجيش يسقط بسقوط الراية ، وقد كانت غايتهم أن تسقط راية النبی . ناشت السيوف جسد جعفر وأسالت دمه . قطعت يمينه ، حاملة اللواء ، فأخذه بشماله . لكنهم لم يمهلوه فقطعت شماله . عندها احتضن اللواء بعضديه ، وقد سقط سيفه وما سقطت رايته ، حتى ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين . وفيما يحكي ابن سعد ، وجد في أحد نصفيه بضعة وثلاثون جرحا . ووجد فيما قيل من بدن جعفر اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح ^٧ .

النقط اللواء عبد الله بن رواحة ، ثالث أمراء الجيش المكلفين بأمر النبی . تقدم بفرسه نحو الهول المهالك ، اعترى نفسه في لحظة خاطفة لمح تردد ، تخلص منه بأسرع مما ومض ، ثم اقتحم وهو يقول :

أقسمت يا نفس لتتزلزله لتتزلزن أو لتكترهنه
إن أجلب الناس وشدو الرنه ما لى أراك تكرهين الجنه

وقاتل الشاعر الفارس حتى لحق بصاحبيه . لكن ما سقطت الراية . أسرع برفعها رجل من بنى العجلان ، وهو ثابت بن أرقم ، الذى شعر فى قرارة نفسه أنه ليس كفوا لحملها فنادي : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . طلبوا منه أن يستمر فى حملها وتحمل تبعاتها لكنه رفض .

اصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فارس قريش فى جاهليتها المعتبر من المعدودين بين أبطالها ، والذي يصبح منذ هذه اللحظة سيف الله البتار وقائد جنده المظفر دوما بنصر الله .

حمي الوطيس وانكشف الناس ، كما يقول ابن سعد ، وكانت الهزيمة . ولكن خالد بخبرته القيادية ومهارته الحربية ، نجح فى المقاومة حتى حل الظلام وتوقف القتال . عندها ، فى حكمة بالغة ، بدأ الانسحاب . لا جدوي من الاستمرار فى معركة غير متكافئة ، وهى لا محالة خاسرة ، والابقاء على أرواح المسلمين خير من فقدانها . رغم ذلك لم تكن خسائر المسلمين فادحة . القتل جميعا كانوا اثنى عشر ، بما فيهم الأمراء الثلاثة : زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة .

^٧ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ .

العودة :

عاد خالد بالجيش ، وقد أدار حركة الانسحاب باقتدار . كان من الممكن أن يكون عدد القتلى بالمئات فى حالة انسحاب غير منظم قد يجر الجميع إلى حالة من الاضطراب والفرار ، لكن خالد بخبرته ومهارة قيادته ، ألقى فى روع العدو أنهم صامدون مقاتلون ، فى نفس الوقت الذى كانوا تحت جناح الظلام - بانتظام صارم - يترجعون وينسحبون . ويعد هذا الانسحاب أول نصر لخالد بن الوليد . لقد أنقذ الآلاف وهو يحمل لأول مرة ، راية رسول الله .

وفى هذه السرية ، كان زيد بن حارثة أول مسلم يموت من أجل العقيدة فى أرض غريبة .

سرية ذات السلاسل

فى جمادى الآخرة ، العام الثامن الهجرى ، أرسل النبى عمرو بن العاص فى سرية من ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار ، ومعهم ثلاثون فرسا ، إلى ذات السلاسل ، من بلاد قضاة ، فيما وراء وادي القري وتبعد عن المدينة مسيرة عشرة أيام .

السبب فى إرسال عمرو بن العاص بالذات على رأس هذه السرية هو أن أمه كانت قضاة ، وأراد النبى أن يتألفهم بذلك . كما أراد أن يسترد هيبة المسلمين فى شمال شبه الجزيرة ، وذلك بأن يثبت لبعض القبائل التى حاربت إلى جانب الروم فى معركة مؤتة من أمثال بللى وقضاة وجذام ، أن المسلمين ما زالوا يمثلون قوة لا يستهان بها ، وأن مؤتة كانت مجرد جولة لم يخسروا فيها الكثير ، ولم تفت من عضدهم ولم تكسر إرادتهم ، بل زادتهم قوة وتصميما على نشر دين الله وتبليغ رسالته .

استخدم عمرو دهاءه فى القيادة . كان يسير ليلا ويكمن نهارا ، ويبعث العيون تسبق رجاله وتأتى له بالأخبار . سار مدة عشرة أيام ، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام ، يقال له السلاسل ، خاف . كان سر خوفه هو أن عيونه أخبروه أن القبائل التى يريد حربها كثيرة العدد والعدة . خشى أن يحدث له ولمن معه ما حدث للمسلمين فى مؤتة ، وبذلك يعود خائبا منكسرا ، فى أول معركة له ، وقد لا يعود .

لم يكن عمرو بن العاص من خامه عبد الله بن رواحة أو جعفر بن أبى طالب أو زيد بن حارثة . كان حديث عهد بالإسلام ، وكان أحرص ما يكون على الحياة . كان

مقاتلاً وشجاعاً ، هذا صحيح ، لكنه ما كان ليخاطر بحياته أبداً . حتى في أيام جاهليته ، ما سمعنا أنه غامر واقتحم ، أو امتشق سيفه وتقدم الصفوف صائحاً : هل من مبارز . كان في بدر واحد والخندق . لم يجزؤ على أن يواجه أى من أبطال المسلمين من أمثال حمزة ، أو علي ، أو الزبير ، أو أبي دجانة ، أو عبدالله بن رواحة ، أو أبي عبيدة بن الجراح . يبدو أنه كان يطلب السلامة بعيداً عن المخاطرة ، يكتفى بالفرجة حفظاً لحياته ، ثم يحتفل بالنصر مع المنتصرين إن كان هناك نصر ، أو يلوذ بالفرار مع الفارين طلباً للنجاة في حالة الهزيمة . ما كان من المعدودين بين أبطال العرب في جاهلية أو إسلام . لكن كى لا نظلمه ونعطيه حقه ، كان من المعدودين بين عتاة الدهاء . لن نتحدث في هذا المجال عن دوره في مقتل عثمان ولا عما فعله في كارثة التحكيم بين علي ومعاوية ، وقد كان هو محوراً الرئيسى ودعامتها الأولى ، ودافعها في إصرار إلى نهايتها المأساوية من أجل مكاسب دنيوية .

قد لا يعجب هذا الكلام عن عمرو بن العاص بعض المعاصرين ، من أصحاب الثروات المتاجرين بالدين ، فيملأون الدنيا صراخاً ، ويستزلون اللعنات على رأس كاتب هذه الكلمات : كيف يكتب هذا عن أحد الصحابة ، كيف يجزؤ ويتجاسر !!؟ وكان عمرو ابن العاص هذا كان من طبقة فوق طبقة البشر ، منزله عن الخطيئة والخطأ ، أو كأنه كان من أجلاء الصحابة الأخيار ، يقف على قدم المساواة مع أبي بكر وعمر وعلي وعثمان .

لم يتقدم عمرو للقاء العدو ، بعد أن وصلته الأخبار أن العدو يتفوق عدداً وعدة . طلب مدداً من النبي ، ثم جلس ينتظر . إنه لم يخرج للشهادة . ولو بُعث عبد الله بن رواحة وصرخ فيه بكلماته : والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة .. لو صرخ عبد الله بن رواحة بهذه الكلمات في وجه عمرو بن العاص مائة ألف مرة ، ما اُكترت عمرو به ، وما التفت إليه . لن يغامر عمرو بحياته .

بعث له النبي أبا عبيدة بن الجراح في مائتي مقاتل وعقد له لواءً ، وجعل تحت إمرته جماعة من خيرة كبار المهاجرين والأنصار ، على رأسهم أبي بكر وعمر بن الخطاب . وطلب النبي من أبي عبيدة ألا يختلف مع عمرو في أى من الأمور ، كى لا يحدث شقاق بين المسلمين .

قدم أبو عبيدة على عمرو بن العاص ، وأصبح جيش المسلمين خمسمائة . حان وقت الصلاة ، وتقدم أبو عبيدة كى يصلى بالناس . تصدى له عمرو . منعه .

هذه هي التركيبة النفسية لعمر بن العاص : عشق السلطة ، وحب الرئاسة ، وفرض إرادته بالقوة أو بالدهاء علي الآخرين . كان منطقهُ أن أبا عبيدة ومن معه قد قدموا له مددا . وعلى ذلك فليس من حق أبي عبيدة ، أو أى ممن معه حتى لو كان أبا بكر أو عمر ، أن يؤمّه فى الصلاة . إنه هو الأمير القائد ، على من معه وعلى القادمين . نسى عمرو بن العاص أنه حديث عهد بالإسلام ، وأنه ما أسلم إلا فى شهر صفر من نفس العام ، وأنه يتحدث إلى كبار الصحابة أصحاب القدر والمكانة والمهابة . تطاول على أبي عبيدة بن الجراح ، وهو لا يساوى القليل أو الكثير إذا ما قورن به ، قال : إنما قدمت مددا لى ، وليس لك أن تؤمنى وأنا الأمير على من معي ومن معك . لم يخجل عمرو بن العاص ، لم يملكه حياء ، وهو ينطق بفجاجة بتلك الكلمات .

وبشموخ المؤمن النقى المتسامي ، يقول أبو عبيدة : يا عمرو إن رسول الله قد قال لى : لا تختلفا . وأنت إن عصيتني أطعك .. فدونك !! فصلى عمرو بالناس ^٨ .

لن نعلق على هذه الصورة الشوهاء التي أظهرت بجلاء فجاجة عمرو وسوء تقديره لأقدار الآخرين . يكفى ما ذكرناه من قيل عن مجمل شخصيته . ولسنا مبتدعين فى موقفنا منه ، فقد سبقنا إلى نفس رأى نخبة من الدارسين العلماء الأجلاء ، الذين لا يقيمون وزنا لجعجة الأدعياء من المتفقيهن .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : لقد تحرك فى عمرو حب الرئاسة التى ظهرت من بعد فى عهد عثمان عندما عزله ، وفى عهد على التى تفرق بها وبغيرها أمر المسلمين . هذه صورة عمرو فى أول إسلامه ، وهى صورته عندما تولى الإمرة على مصر عندما عزله ذو النورين عثمان بن عفان ، لقد قال : كنت ألقى الراعى فأحرضه عليه . وهى صورته عندما اجتمع مع معاوية ضد إمام الهدي على لأنه يعلم أن عليا لن يعطيه إمرة فى شئ ^٩ .

على أية حال . انتهى أمر هذه السرية بمطاردة جيش المسلمين لبعض القبائل التى ناصرت الروم وظاهرتهم . كانت محاولة لمحو الأثر الذى خلفه عدم النصر فى موقعة مؤته . لكنهم لم يواجهوا جيشا يتصدى لهم من عرب الشمال ، ولم يخوضوا معركة يذكر بها عمرو بن العاص ، وعادوا دون غنائم تذكر . كانوا كلما لاقوا قوما هربوا منهم وتفرقوا فى البلاد . وبذلك لا يمكن أن يقال إن عمرو بن العاص قد أحرز نصرا ، لأنه لم يخض حربا .

^٨ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

^٩ أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ٨٥٢ .

فتح مكة

نقض صلح الحديبية :

بعد انكسار جيش المسلمين في مؤته ، ومقتل امرائه الثلاثة ، ظن مشركو مكة أنه قد أصبح من اليسير أن يهون أمر المسلمين على الناس ، وأن بإمكانهم استرداد سطوتهم وسلطانهم القديم عندما كانوا هو أصحاب الحول والطول وقوة التخويف والترهيب .

لقد عقدوا مع محمدا صلحا في الحديبية : سلم وسلام ، لا اعتداء ولا عدوان ، إلى أجل معلوم ، ولم ينته الأجل بعد . لكن هذا لا يمنع ، في حالة ضعف الطرف الآخر - أو ما خيل للمشركين أنه ضعف - أن ينقض الصلح ، ويستهان بشروط العهد المكتوب ، ويفرض سلاح القوة واقعا جديدا يحو ما سبق من شرط أو عهد . لقد انهزم المسلمون في " مؤته " فلم لا ينهزمون في غير " مؤته " ؟!

بدأ نقض العهد ، ثم العدوان . كانت خزاعة قد دخلت في عهد محمد ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، وبذلك أصبح من حق خزاعة على النبي أن يكونوا - مسلمهم ومشركهم - في حماه ، يجب عليه نصرتهم إذا ما تم الاعتداء عليهم ، وأصابهم العدو بمكروه ، أيا كان هذا العدو .

كان لبنى بكر عند خزاعة ثارات قديمة ، بدأت في الجاهلية واستمرت ما بعد الإسلام . ثم كان صلح الحديبية ، فاعتقد الناس أنهم قد أمنوا ، وأن باستطاعتهم العيش في سلام . لكن بنى بكر كان لهم رأى آخر . رأوا في هزيمة مؤته لحظة انكسار للمسلمين يمكنهم انتهازها وأخذ خزاعة على غرة ، وضربها ، انتقاما لثأر قديم .

طلبوا من قريش - وقد كانوا في عهدها وعقدها - أن تمدهم برجال وسلاح . لم يمتنع القرشيون ، وافقوا ، رغم علمهم أن ذلك ينقض صلح الحديبية ، ويفرغه من مضمونه ، ويفتح عليهم أبواب صراع لا يمكن التكنن بنتائجه . لم يكتفوا بأن يمدوا بنى بكر بالسلاح ، بل أمدوهم أيضا بالرجال ، فانضم إليهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزي وسهيل بن عمرو ، ومعهم من والاهم ومن هم تحت سطوتهم من الأرقاء .

وفي شعبان من العام الثاني من صلح الحديبية^١ ، دهموا خزاعة ليلا وهم على ماء لهم ، أخذوهم على غرة وهم لا يشعرون . لانت خزاعة بالحرم ، بعد أن قتل منهم من

^١ العام الثامن للهجرة (نوفمبر ٦٢٩م).

قتل ، وقد ظنوا أنهم بلجونيهم للحرم سوف تحرم دماؤهم ولا تزهق أرواحهم ، لكن للأسف خاب ظنهم . لقد صاح بعض بنى بكر أنفسهم مذكرين قائدهم أن الناس قد اعتصموا بالحرم ، قالوا : يا نوقل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إليك إليك !!

لم تكن هناك استجابة . كانت الإجابة : أنه لا إله له اليوم . وفي حماقة جاهلية ، أضاف : يا بنى بكر أصيبوا بأركم ، فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم أفلا تصيبون بأركم فيه !!؟^٢

قتل من خزاعة قرابة عشرين رجلا ، لم يشفع لهم احتماؤهم بالحرم ، فروا إلى بيوت مكة مستجيرين . ويقال إنهم لجأوا إلى دار بُذَيْل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يقال له رافع .

خزاعة تشتكي إلى النبي:

أرسل الخزاعيون إلى النبي يشتكون ما فعلت قريش ونصرتهم لبنى بكر فى غدرهم اللئلى ، يستصرخونه ، يطلبون عونه ونصرتة . خرج عمرو بن سالم الخزاعي ، وصل مسجد النبي بالمدينة ، بثه شكواه شعرا ، وكان ضمن ما قال :

إن قريشا أخلفوك الموعدة ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فقتلونا رُكعا وسُجّدا^٣

وتبعه بُذَيْل بن ورقاء الخزاعي - الذى لجأ الخزاعيون إلى داره فى مكة - فى أربعين رجلا من خزاعة ، فأخبروا النبي بما أصابهم ، طالبوا النبي أن لا تضيع دماء من قتل منهم هدرا ، فقد أخذوا غدرا . وعدهم النبي خيرا ، ورغم أنه لم يفصح ، إلا أنه كان قد انتوى فى داخله أمرا .

أبو سفيان يحاول رأب الصدع:

وجدت قريش نفسها أمام عدة اختيارات ، كانت كلها شائكة يصعب تفضيل أى منها: إما أن تدفع دية القتلى من خزاعة ، وقد زاد عددهم عن العشرين ، وفى هذا فقدان للكثير من الأموال ، وإما أن تتخلى عن بنى بكر ، وفى هذا فقدان للكرامة ، أما الاختيار الأصعب والأكثر خطورة فهو أن يعترفوا بنقض الهدنة مع محمد ، وهذا معناه إعلان الحرب .

^٢ ابن هشام ، ح ٤ ، ص ٤ .

^٣ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

كان لابد من إيجاد حل يخرجهم من المأزق الذى انساقوا إليه دون أن يفكروا فى عواقبه . وهداهم تفكيرهم إلي أن يرسلوا أبا سفيان نفسه إلى محمد ، يتحدث إليه ، ويتباحث معه ، وكلهم ثقة فى دهاء أبى سفيان وثقل شخصيته ، إن مثل أبى سفيان - فى رأيهم - لا يمكن أن يهان .

نرى أن كتاب السيرة - ومن نقل عنهم من قدامي ومحدثين - قد بالغوا فى وصف ما لاقاه أبو سفيان من عنت واستخفاف بلغ حد السب والإهانة ، وهى محاولة - بالتأكيد - للتقليل من قدر أبى سفيان وهو آنذاك قائد قریش وسيدها .

على سبيل المثال ، يروى الإخباريون أن أبا سفيان توجه ، أول ما توجه فى المدينة ، إلى بيت ابنته أم حبيبة ، وهى زوجة النبى ، وإحدى أمهات المسلمين . وقد امتلأ قلبه بالشوق إليها والرغبة فى التحدث معها خصوصا وأنه لم يرها منذ غادرت مكة وهاجرت إلى الحبشة ، كما كان بالطبع يريد أن يُسرَّ إليها بما جاء من أجله على أمل أن تكون عوناً له فى الوصول إلى ما يرضى مكة والمدينة ويُجد من حدة الصراع بينهما .

مبالغة الإخباريين وكتاب السيرة تكمن فى أسلوب وصفهم لكيفية استقبال أم حبيبة لأبيها. عندما دخل حجرتها - هكذا يقولون - طوت الفراش وأزاحته بعيداً ، رفضت أن يجلس عليه أبوها بحجة أن الفراش هو فراش النبى ولا يحق لأبيها أن يجلس عليه ، وإذا أراد الجلوس فعليه أن يجلس على الأرض . لماذا ؟ لأن أباه - فى رأيها - رجل نجس!! قالت لأبيها بالحرف الواحد ، كما يسجل كتاب السيرة : أنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو سفيان : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر ، ثم خرج .^١

إن زوج النبى تطعن أباهاً بشركه وتسبه بنجسه وتمنعه من الجلوس على فراش فى حجرتها ، فينصرف الرجل وقد أصابته الدهشة من سلوك ابنته . ونحن بدورنا نستبعد أن تصدر هذه الكلمات من إحدى أمهات المؤمنين ، زوج نبى الرحمة الذى أوصى بحسن معاملة الوالدين حتى ولو كانا مشركين .

النبى نفسه لم يقابل أبا سفيان ويعامله بنفس الأسلوب الذى ادعى كتاب التراث أن أم حبيبة قد قابلت وعاملت به أباهاً ؟ لقد استمع إليه وأصغى ، ولم يقل شيئاً . أحسن استقبال الرجل ، وأحسن الاستماع ، ولم يصدر منه ما يسيئ فما كان هكذا خلقه . أما أنه لم يرد

^١ ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٣ .

عليه ولم يناقشه فيما جاء من أجله ، فما كان ذلك إلا لأنه كان قد اتخذ قرارا لا يمكن البوح به . هذا مجرد احتمال ، وهناك احتمال آخر نعرضه بعد أسطر قليلة .

أما المبالغة الأخرى التي أوردتها كتاب السيرة ، ونقلها عنهم جماعة النقالين دون تفكير ، فتبدوا فيما تمت روايته عن ذهاب أبي سفيان إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كي يشفعوا له ولقريش عند النبي .

ذهب أبو سفيان إلى أبي بكر - كما جاء في تاريخ الطبري - فكلمه أن يكلم له رسول الله ، فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله !! فوالله لو لم أجد إلا النذر لجاهدتكم . ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وعنده فاطمة ابنة رسول الله ، وعندها الحسن بن علي ، غلام يدب بين يديها ، فقال : يا علي ، إنك أمس القوم بي رحما ، وأقربهم منى قرابة ، وقد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لنا إلى رسول الله . قال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة . فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجبر بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر !!^٥

الملاحظ هنا أن أبا سفيان - كما يروى الراوى - توجه إلى الأربعة الذين أصبحوا فيما بعد هم الخلفاء الراشدين ، بترتيبهم في تولي الخلافة : أبي بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، كل حسب دوره وكأنه كان يتتبا بما هو آت في قلب الغيب . ولو ذهب إليهم على أنهم من كبار الصحابة الذين ترجي شفاعتهم ، لذهب أولا إلى عثمان بن عفان وهو من بنى أمية الذين ينتمي إليهم أبو سفيان ، أو إلى علي بن أبي طالب ابن عم النبي الذي اعترف أبو سفيان أنه أمس القوم به رحما .

الأدهي من ذلك أن يدعي الرواة أن أبا سفيان طلب من فاطمة أن تطلب من ولدها الحسن - وهو مجرد غلام يدب بين يديها - أن يجبر بين الناس . أبو سفيان ، بكل عنفوانه وجبروته الجاهلي وهو زعيم مكة وقائدها ، يرجو أن يخرج طفل ويخرج قریش كلها من مأزقها . كلام يرفضه المنطق ويصعب أن يصدق عقل .

ومما يفقد كلام هؤلاء الرواة مصداقيته عبارة أوردوها على لسان أبي سفيان .. يقول لعلي : اشفع لنا إلى رسول الله !! ولو قد نطق أبو سفيان بهذه الكلمات ، لكان هذا معناه أنه أسلم ، ففي العبارة اعتراف صريح منه بأن محمدا رسول الله حقا . ولا ننسى موقف

^٥ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

سهيل بن عمرو في صلح الحديبية عندما اعترض على عبارة "محمد رسول الله" ورفض أن تكتب في الوثيقة ، قائلا : لو اعترفت أنك رسول الله ما قاتلتك .

عاد أبو سفيان إلى مكة . لكنه لم يعد مهانا مذموما مدحورا ، كما أجمع على ذلك كل من تناول هذا الحدث بالرواية أو النقل ، ولا نقول بالبحث والتدقيق والتحصيص وإعمال العقل .

كان أبو سفيان -كما سبق وأكدنا- من دهاة مكة وعتاتها ، محنك واسع الخبرة ، يملك مقدرة تحليل الحدث والتنبؤ بما سيتولد عنه من نتائج . لقد أحس بعد غزوة الخندق مباشرة ، عندما أسرع إلى ناقته وصاح في من اتبعه : يا قوم ، ارحلوا ، إني راحل.. أحس بعدها أنه من الصعب هزيمة محمد . لقد اشتد العود وقوى وأصبح من الصعب كسره ، وسطع النجم وتلأأ ومحال أن يُطمس ضوؤه . لن تستطيع قريش المقاومة مهما بلغ مقدار ثرائها ، ومهما بلغ عدد حلفائها . القوة الجديدة تقوم على عقيدة جديدة ، باع أصحابها الدنيا واستخفوا بها ورغبوا عنها ، هؤلاء تصعب مجابتهم أو التصدي لهم .. قدر حظ على قريش.. ولا اختيار لها .

ونرى- إن لم نكن على خطأ - أن أبا سفيان قد اتفق على تسليم مكة دون إراقة دماء ، على أن يكون له حق إجارة أهلها . وستثبت الأحداث التالية صدق ما نقول . ويشير مونجمري وت إلى هذه النقطة إشارة عابرة ، دون توضيح أو تصريح ، يقول : إن دور أبي سفيان في استيلاء المسلمين على مكة أكثر أهمية مما هو معروف . وربما تعمدت المصادر المتداولة تعميم هذا الدور كي تتجنب إظهار أن دوره في هذا المضمار كان أعظم من دور العباس⁶ .

الإعداد للخروج :

أمر النبي أصحابه أن يعدوا أنفسهم للقتال ، إنهم خارجون للغزو . أما ما هي وجهتهم . فهذا ما لم يتم التصريح به ، ربما إلى الشام لمحو الأثر الذي تركته "موتة" وربما إلى ثقيف أو هوازن . لم يصرح النبي في البداية بالهدف الذي حدده . كان يريد أن يفاجئ أهل مكة ولم يستعدوا للقتال . وبذلك يتجنب إراقة الدماء ، قدر الإمكان . كان من المتوقع أن يقاوم البعض وأن يقاتلوا وأن يخرجوا عن طوع أبي سفيان ، وأن لا يكثرثوا بكلماته مهما أعلن عن إجارته لهم ومهما أكد على ضمان سلامتهم . من أجل هذا حرص

⁶ Montgomery Watt, Muhammad at Medina, p. 64 .

النبي على سرية الهدف الذي خرج من أجله : اللهم خذ على أبصارهم فلا يروني إلا بغتة.^٧

استعد الجميع للخروج ، مهاجرون وأنصار ، لم يتخلف أحد . وبعث النبي إلى من حوله من العرب : أسلم وغفار وجهينه وأشجع وسليم ، فوافاه البعض في المدينة ولحقه آخرون بالطريق . بلغ تعداد الجيش عشرة آلاف . استخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وخرج يوم الأربعاء في العاشر من رمضان (العام الثامن الهجري) بعد صلاة العصر . عندها أعلم الناس أنه سائر إلى مكة .

ابن أبي بلتعة يكتب لقريش:

ما أن أعلم النبي من حوله ، حتى كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا إلى قريش يحيطهم علما بخبر النبي وتجهيزه الجيش لغزو مكة . هكذا باح بما يجب عدم البوح به ، وأفشى سرا من أسرار المسلمين . أعطي الخطاب لامرأة من مزينة . أمدها بزيادة ونفقة للطريق . طلب منها أن تفعل كل ما باستطاعتها تفننا في إخفاء ما كتب ، كي لا يفتضح أمرها وتسوء العاقبة . وضعت المرأة الخطاب في رأسها وفتلت عليه جداول شعرها ، غطت شعرها وأرخت حجابها ، ثم أسرع بالخروج .

ويذكر د. شوقي ضيف أن كتاب ابن أبي بلتعة إلى قريش كان موجها إلى ثلاثة نفر منهم : صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبي جهل ، يقول فيه : إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم . وقد أحببت أن يكون لي عندكم يد بكتابي إليكم.^٨

عبارة ابن أبي بلتعة " ولا أراه يريد غيركم " واضحة في معناها ومغزاها : أبو سفیان خارج نطاق الغزو !! زيارته للمدينة ، وما تم أثناءها ، ما كان ليخفى على أحد من الصحابة . ولقد قدمنا تفسيرنا في هذا المجال في صفحة سابقة .

كان للنبي عيون بين الناس . بلغه ما صنع حاطب . في الحال أرسل على بن أبي طالب والزيبر بن العوام كي يلحقا بالمرأة . أسرع في أثرها حتى أدركاها . نزلت عن ركبها . بحثا محتويات ما تحمل . لم يجدا شيئا . هنا خبرها على بن أبي طالب بين أمرين : إما أن تخرج الكتاب طواعية أو لتكشفن عارية . لم يكن أمامها سوى الإذعان وقد لمحت

^٧ ابن سعد ، ٢ ، ص ١٣٤ .

^٨ شوقي ضيف ، ص ٣٤٩ .

الصرامة القاطعة في عيني على . أخرجت الكتاب من بين جدائل شعرها . عاد على والزيبر إلى النبي ومعهما المرأة والكتاب ، أى الجريمة وأداتها .

وقف حاطب ، وقد طأطأ الرأس في انكسار ، بين يدي النبي . كان من الذين شهدوا بدرا . تركزت عليه الأنظار . سأله النبي : يا حاطب ما حملك على هذا ؟ الجرم يصل إلى حد الخيانة ، والنبي يعز عليه أن يتهم رجلا من أصحاب بدر بالخيانة ، لذا نجد فى سؤاله خليطاً من اللوم والرفق ، وكأنه يود أن يوجد حاطب لنفسه مخرجاً .

قال حاطب : يا رسول الله أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت . ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم .

إجابة كهذه لا تكفى لتبرئة صاحبها من تهمة الخيانة . لذا نجد عمر بن الخطاب ، فى عفه المعهود ، يقول : يا رسول الله ، دعنى فلاضرب عنقه فإن الرجل قد نافق .

رفض النبي اقتراح عمر . كان طبعه العفو والصفح . قال موجها حديثه لابن الخطاب : وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما تشقون فقد غفرت لكم^١ وأنزل الله تعالى فى حاطب قوله : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ " (الممتحنة: ١) .

الخروج بالجيش:

خرج الرسول بالجيش ، كما ذكرنا من قبل ، فى العاشر من رمضان ، لم يتخلف من المهاجرين والأنصار أحد ، وانضمت إليه القبائل المسلمة . بلغ عدد من اتبعه عشرة آلاف . ترك المدينة صائماً ، وصام الناس معه ، حتى إذا كان بالكُدَيْد - ما بين عُسْفَانَ وأمْج - أفطر . ونادي منادي النبي : من أحب أن يفطر فليفطر ، ومن أحب أن يصوم فليصم . ترك النبي للناس الخيار . لن يكره أياً منهم على صيام أو إفطار . لكنهم عندما رأوا النبي وقد أفطر ، أفطروا .

مضى النبي ومن معه حتى بلغوا مرَّ الظهران ، على بعد خمسة أو ستة أميال من مكة ، نزلوا بالمكان . أمر النبي جنده أن يوقدوا النيران ، فأوقدوا عشرة آلاف نار!! كان المنظر مهيباً رهيباً ، يبعث فى قلوب أعتي العتاة ارتعادة خوف ويأس وإحباط .

^١ ابن هشام ، ج٤ ، ص ١٧ .

العباس يلتقى بالنبي:

خرج العباس وأهله من مكة : يقال إنه أسلم عند لقائه بالنبي في عمرة القضاء .
وادعي هو ، عندما أسر يوم بدر ، أنه قد أسلم منذ البداية وأبقى إسلامه سرا ، حفاظا
على مصالحه المادية في مكة .

كان لابد للعباس أن يخرج من مكة وينضم إلى ابن أخيه القادم في قوة ، كي يدخل
معه في موكب النصر . لقد هبت رياح التغيير عاصفة لا تقاوم . دار الزمن دورته ، وأن
للأولية الجاهلية أن تطوى ولأصنامها أن تحطم ، وما كان للعباس أن يتمسك أو يتعلق
بحطام سفن غارقة . لم يكن هذا منهجه . وكما قلنا من قبل في حالة إسلام عمرو بن
العاص : إنهم لا يتبعون الشمس الغاربة . وكان الكل يرى وبوضوح أن شمس قریش
تختنق !!

ظهور أبي سفيان بن حرب :

التقى العباس بالنبي بالجحفة (مكان قرب مكة) ، وعسكر مع الجيش بمر
الظهران . لم يكن يفصلهم عن مكة سوى ما يقرب من خمسة أميال . وكما ذكرنا من قبل ،
أوقدت النيران ، عشرة آلاف نار ، وصهلت الخيول . وانتشرت الإبل . الكل ينتظر .
لحظة فارقة في تاريخ مكة وتاريخ الإسلام .

هنا يظهر أبو سفيان !!! .. كي يستكمل الدور الذي بدأه في المدينة .

لكن كتبة التراث يجمعون على عكس ما نقول ، يؤكدون أن ظهور أبي سفيان ، في
تلك اللحظة الفارقة في تاريخ العرب ، ما هو إلا مجرد مصادفة ساقتها الأقدار ، وكأن أبا
سفيان لا يزيد عن كونه مجرد مخلوق ساذج أبله لا يدري ولا يدرك خطورة ما يجري في
مكة ، وخارج مكة ، من أحداث . وكأنه لا يعرف بخروج العباس ، ولا باقتراب عشرة
آلاف مقاتل من كعبة قریش وقدس أقداسها .

لنتابع الحكاية ، كما يرويها ابن إسحق ، ويتوقع - بالطبع - من الجميع تصديقها ،
يقول : فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران قال العباس بن عبد
المطلب: واصباح قریش ، والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل
أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلك قریش إلى آخر الدهر .

فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء فخرجت عليها .. حتى
جنت الأراك .. لعلی أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن ، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم
بمكان رسول الله ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .. فوالله إنى لأسير

عليها ولأنتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعا
فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتي ، فقال : أبو الفضل ؟ .. قلت :
نعم ، قال : مالك فذاك أبي وأمي ؟ .. قلت : ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله صلى الله
عليه وسلم في الناس ، واصباح قریش والله !!!¹⁰

القصة - كما يحكيها ابن إسحق - تنسم بالسذاجة في الحكي ، ولا يمكن أن يقتنع بها
قارئ واع حاضر الذهن وهو يتابع تسلسل الأحداث . العباس خائف على أهل مكة لأنهم
أهله وأصله ، فيهم امتدت الجنور إلى القديم ، وفيها نمت الفروع وأزهرت . والعباس
ليس بجاد كى يتكرر لأهله وقد عاش بينهم عمره كله ، وما تركهم إلا منذ ساعات ، ولا
نقول منذ أيام . إنه يريد أن ينقذ أهل مكة ، يريد أن يخرجوا إلى النبي فيستأمنوه . ولا
يمكن أن ينكر أحد أن العباس مُحَقٌّ في خوفه ، مُحَقٌّ في لهفته على إنقاذ قومه . لا
يتعارض ما يريده مع المنطق .

أما غير المنطقي فهو أن العباس ، وقد خرج بأهله جميعا وانضم إلى النبي والعشرة
آلاف الذين معه ، لا يجد فردا واحدا بين كل هؤلاء كى يحمل كلمات تحذير إلى أهل
مكة . غير المعقول أن يخرج العباس في رحلة بحث عن خطاب ، أو صاحب لبن ، أو
عابر طريق ، كى يحمل رسالته . قد يجد وقد لا يجد ، ويصبح مصير أهل مكة جميعا
مرهون بأن يظهر ذلك المجهول كى يحذر أهل مكة ، الذين تخيل الحكاء أنهم قد راحوا
في سبات عميق وعلى أبواب مكة عشرة آلاف نار مشتعلة .

غير المنطقي وغير المعقول هو أنه بدلا من أن يجد العباس ضالته فى راع أو
خطاب أو عابر سبيل ، لا يجد أمامه فجأة سوى أبي سفيان بن حرب !! هكذا !! أى والله،
أبى سفيان نفسه .

ويصور الحكاء مقدار الدهشة التى استولت على العباس ، وعظيم قدر الدهشة التى
استولت أيضا على أبى سفيان بسبب تلك القترية المذهلة التى وجهت خطاهما ، دون أن
يدريا ، فالتقيا . أبو حنظلة ؟! يصبح العباس فى اندهاش . أبو الفضل ؟! يرد أبو سفيان
فى اندهاش أروع يتجسد فى سؤاله الذى لا معنى له : مالك ، فذاك أبى وأمي ؟ وكأن
كارثة لا قبل لأحد بها على وشك أن تحل بالعباس . وكان من الأفضل أن يوجه هذا
السؤال من أبى الفضل إلى أبى حنظلة ، أى من العباس إلى أبى سفيان .

¹⁰ ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٠-٢١ .

الحكاية كلها تخلو من المصادقية ، ومن المستحيل أن يكون هذا سلوك رجلين من أكثر رجال مكة خبرة وحيطة ردهاء . ومن المستحيل ألا يعرف أبو سفيان ، وهو قائد مكة المحنك ، من هؤلاء ولماذا جاءوا . ويجب ألا ننسى ما فعله في الحديبية . وكيف أرسل فرسان مكة قبل وصول النبي إليها . وتم منعه بالفعل من دخول مكة .

هل من الممكن أن يؤخذ أبو سفيان هكذا على حين غرة ؟ منطق الأحداث وتسلسلها يرفض أن تكون الإجابة : نعم .

منطقنا يقول : لقد اتفق العباس - قبل أن يترك مكة - وأبو سفيان على مكان اللقاء وزمانه ، وتم تدبير الأمر بحنكة وفي سرية تامة . كان على أبي سفيان أن يكمل ما بدأه في المدينة .

إسلام أبي سفيان :

ركب أبو سفيان البغلة خلف العباس ، إنهما يعرفان جيدا ما هما مقدمان عليه . توجهها مباشرة إلى خيمة النبي . ويقول الحكاؤون إن عمر بن الخطاب طلب من النبي أن يسمح له بضرب عنق أبي سفيان وقد طلب من قبل - كما سبق وذكرنا - أن يسمح له النبي بضرب عنق ابن أبي بلتعة ، وكان عمر بن الخطاب ، وهو الفاروق العادل ، لا شغل له إلا سل السيف وضرب الأعناق . وهذه من المبالغات المموجة ، خصوصا وأننا جميعا نعلم الكثير عن عدالة عمر . وقد كان أبو سفيان أمامه في المدينة - وقد نقصت قريش عهد الحديبية - فلماذا لم يضرب عنقه ؟

لم يتبق أمام أبي سفيان ، وقد جاء مسالما لا مقاتلا ، إلا أن يعتنق الإسلام . في أمر كهذا لا تصلح المراوغة ولا يجدى الدهاء : إما أن يسلم أو لا يسلم . لم يكن هناك من اختيار آخر .

قال النبي : ويحك أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟

لم ينكر أبو سفيان أن لا إله إلا الله ، أعلن إيمانه صراحة بوحداية الله ، وأن لا إله إلا الله ولا شريك معه ، وفي هذا إقرار واضح بأنه قد تخطى عن شركه . عندها أضاف النبي : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله ؟ إنه يريد من أبي سفيان أن يعلن صراحة وأمام الجميع ، أنه ، أي محمد ، هو رسول الله .

لقد أنكر أبو سفيان ، على مدي سنين طويلة ، نبوة محمد . ما كانت أقصى درجات التخيل يمكن أن تصل به إلى حد التصور أن هذا اليتيم الفقير ، راعي الغنم ، سائق الإبل، يمكن أن يوحى إليه من السماء فيصبح رسول الله إلى البشر . كانت الفكرة ثابتة في عقله،

راسخة في وجدانه ، من المستحيل أن تتزعزع . لذا نجده يعلن دون وجل - إذ أنه رغم كل ما أحاط به من ظروف كان لا يزال يشعر أنه قائد مكة وسيدها - قائلا : أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئا .

هكذا واجه أبو سفيان الموقف بشجاعة ولم يجبن . لم يكن من شيمته الكذب . استعلى على أن ينطق لسانه بما لم يؤمن به قلبه .

هنا يتدخل العباس مهيدا : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك^{١١} .

لقد لجأ العباس إلى التهديد بالسيف : الإسلام أو السيف . وهذا منطق لا إسلامي ، أي لا صلة له بمبادئ الإسلام وتعاليمه . ونسى العباس ، ولعله كان لا يعرف فهو حديث عهد بالإسلام ، أن لا إكراه في الدين . هذا ما أوحى به رب العزة لنبيه : لا إكراه في الدين . نكررها ثانية كي تنفذ إلي أعماق القلوب ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وإنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .

موقف العباس هذا ، وتهديده لأبي سفيان أن تضرب عنقه إن لم يسلم ، يعطي المستشرقين وأعداء الدين فرصة سانحة لمهاجمة الإسلام واتهام أتباعه - بل ونبي الإسلام نفسه - بالدموية والإرهابية ، مدعين أن هكذا انتشر الإسلام ، تحت رايات سوداء لشعار لا إنساني مهلك : الإسلام أو السيف .

هكذا - كما يقول الرواة - أسلم أبو سفيان تحت تهديد السيف . وإن كان هذا قد حدث حقا ، فما أسلم أبو سفيان . لقد أكره على النطق بكلمات لم يؤمن بها ، وبذلك انتفى شرط الإيمان : لا إكراه في الدين ولقد أكره وما ذلك بإسلام .

ربما يكون هذا الموقف هو الذي دفع مفكرا مصرياً ، وهو الأستاذ العشماوى إلى أن يقرر أن أبا سفيان لم يؤمن أبداً بنبوّة محمد ، يقول : وبعد فتح مكة وقف النبي يستعرض جيوش المسلمين بالويتهم ، لواء بعد لواء ، ووقف أبو سفيان الأموى والعباس عم النبي يشاهدان الاستعراض فقال أبو سفيان للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً . فرد عليه العباس قائلا : إنها النبوة وليس الملك يا أبا سفيان . فقال أبو سفيان : أما هذه فما زال في نفسي منها شيء .

هذا هو رأى أبي سفيان كبير الأمويين بعد أن أعلن إسلامه ، وهو رأى واضح صريح بأن النبي ملك أنشأ ملكا ، وليس رسولا أرسى دعائم دين ، ورسخ قواعد شريعة .

^{١١} ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٢ .

ولعل أبا سفيان - بل غالبا ما يكون- قد أورث هذا الاعتقاد إلى أولاده وأحفاده وعشيرته من بعده . ولئن كان معاوية بن أبي سفيان حذرا حريصا ماكرًا لئنما فلم يصدر عنه ما يفيد تأكيد هذا المعنى أو إظهاره صراحة ، فإن ابنه يزيد ثم خلفاؤه من بعده لم يحرصوا على إخفاء آرائهم ولم يعملوا على ستر معتقداتهم ، ولم يحفلوا بمشاعر المسلمين ، ولا بالإسلام ذاته ، وهم يعلنونها صريحة واضحة حينًا ، وتعرضها وتلميحًا حينًا آخر .

وما هو الوليد الثاني خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وحامي حامي الإسلام ورافع راية الشريعة يقول في غير خجل ودون ما خوف أو حياء :

تَلْعَبُ بِالنَّبِوةِ هَاشِمِي بَلَا وَحْيِ أَتَاهُ وَلَا كِتَابِ

وهو قول حاد المعنى ، جارح الفهم ، صارخ الزعم بأنه لم تكن ثمة نبوة ، ولا وحي ولا كتاب وإنما كان ذلك كله تلعبًا لأغراض السياسة وتوسلًا لأهداف السلطان .^{١٢}

عاد أبو سفيان إلى مكة وقد سيطرت عليه حالة من الانبهار بما رأى من عظم جيش النبي : ما لأحد بهؤلاء من قوة ولا طاقة . لقد نجح يتيم مكة في أن يقيم دولة وينشئ ملكًا : " والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا " .

حتى بعد إسلامه لم يتحدث أبو سفيان عن نبوة محمد ولم يشر إليها بكلمة ، بل تحدث عن السطوة والسلطان والملك . ما اكثرث بكلمات العباس عندما قال إنها النبوة . ليقُل العباس ما يشاء ، فما كانت كلمات العباس لتقنعه أو لترغمه على ما لا يشاء .

نبوة أو لا نبوة ، ملك أو لا ملك ، ما عادت هذه هي مشكلة أبي سفيان . لقد آن لمكة أن تفتح ذراعيها وتحتضن وليدها ، وأن لقريش أن تلقى سلاحها وترحب - إن أمكن - بطريدها . وكان على أبي سفيان أن يتم ما بدأ .. أن يلعب دوره .

صاح أبو سفيان في أهل مكة بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

هكذا لعب دور سيد مكة حتى النهاية . أجار بين الناس ، وأصبح بيته ملاذًا للخائفين الذين يطلبون النجاة ، لا يضار فيه أحد ولا يمسسه سوء . لكن ما كانت داره لتسع أهل مكة ، لهذا أضاف - أيضا - بسلطان : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

تفرق الناس : ذهبوا إلى دورهم أو إلى المسجد . هذا معناه أنهم - أو غالبيتهم - لم يفكروا في مقاومة أو قتال . الذين خرجوا عن هذا الإجماع ، ولم يكثرثوا بكلمات أبي

^{١٢} العشماوى ، ص ٧٨-٧٩ .

سفيان كانوا هم فقط جماعة مخزوم تحت قيادة عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، وقد تبعهم من القرشيين عدد لا يعدد به .

دخول مكة:

أعطى النبي رايته الزبير بن العوام ، وأمره على خيل المهاجرين والأنصار ، وأمره أن يغرز الراية بالحجون بأعلى مكة فى شمالها ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل بمن معه من أسفلها ، أى من جنوبها ، وإلى الشمال الغربى اتجه أبو عبيدة بقوة المهاجرين التى يقودها ، أما الأنصار فقد كان على رأسهم سعد بن عباد ، وكان عليهم أن يدخلوا مكة من الغرب .

لم يتعرض أى من قادة المسلمين لقتال باستثناء خالد بن الوليد . تصدى له صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل ، فى جمع من بنى بكر والأحابيش ، أسفل مكة فقاتلهم حتى هزمهم ألقب انهزام . لم يقتل من رجال خالد سوى رجلين ، وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلا ، ويقال أربعة وعشرون ، وفر الثلاثة الكبار : صفوان وسهيل وعكرمة .

قال النبي عندما علم : ألم أنه عن القتال ، فقيل : خالد قوتل فقاتل ، فقال : قضاء الله خير^{١٣} ، وبسبب هذه المعركة الصغيرة التى خاضها خالد ، مال بعض المؤرخين إلى القول بأن مكة قد أخذت عنوة .

الذين أمر النبي بقتلهم:

رغم أن النبي أمر بعدم القتال وسفك الدماء إلا فى حالة الضرورة القصوى وعند الإرغام ، إلا أنه أمر بقتل عدد من المشركين سماهم بأسمائهم ، كان لابد من قتلهم حتى ولو وجدوا تحت أستار الكعبة ، لا مهرب ولا نجاه لهم ، وهذا دليل على جرمهم : عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعبد الله بن خطل ، والحارث بن نفيل ، ومقيس بن صباب ، وهبار بن الأسود ، وجاريتين لابن خطل كانتا فى غنائهما تقومان بهجاء النبي ، وسارة مولاة لبنى عبد المطلب .

كان عبد الله بن أبي سرح قد أسلم ولزم النبي . أولاه النبي الكثير من ثقته لدرجة أنه كان يملئ عليه الوحي . لكن بن أبي سرح ارتد عن الإسلام وعاد إلى شركه ، ثم عاد إلى قريش . وقد ادعى أنه كان يغير فيما يملئ عليه النبي ، كى يتحقق من صدق نبوته .

^{١٣} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

إن كان نبيا حقا فسوف يدرك ما يحدثه كاتبه من تغيير . لكن محمدا - كما ادعى ابن أبي سرح - لم يدرك شيئا . هذا معناه أنه ليس بنبي .

وجريمة كهذه ، تشكك في الوحي ومن أوحى إليه ، لا عقاب لها سوى الموت . لقد حاول أن يدمر الدعوة وصاحبها ، ومثله يجب أن يقتل حتى ولو تعلق بأستار الكعبة . لكن ابن أبي سرح عندما علم بإهدار دمه ، فر إلى عثمان بن عفان وكان أخا له في الرضاة . آواه عثمان في بيته وأخفاه ، حتى إذا ما هدأت الأمور في مكة واطمأن الناس ، ذهب به إلى النبي واستأمن له . ويقول ابن إسحق : فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صمت طويلا ثم قال : نعم . فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله من أصحابه : لقد صمت ليقوم إليهم بعضكم فيضرب عنقه . فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلي يا رسول الله . قال : النبي لا يقتل بالإشارة .^{١٤}

ولقد أحسن ابن إسحق عندما استخدم كلمة " زعموا " ومن دلالاتها أنها تفتقد مصداقية اليقين . ونميل إلى القول إن القصة مدسوسة ملفقة ، وتسيئ بأسلوب مقنع لثيم إلى قيم وسلوكيات أرساها النبي ، وهو الذي أدبه ربه وعلمه بوحى مباشر منه . ومن الصعب أن نتصور أن النبي في أية لحظة من لحظات حياته كان يختلف باطنه عن ظاهره ، يتمنى أن يحدث الشيء وفي نفس الوقت يتردد أو يخفي الرغبة في إحداثه . هذه من صفات الضعف والعجز والنفاق . وما كان للمسلم العادي أن يكون كذلك ، والإسلام يعلمه ويربيه على غير ذلك ، فما بالكم بنبي الإسلام الذي هو القدوة والمثل وحامل وحي السماء .

وبما أن ابن أبي سرح كان من المقربين لعثمان بن عفان ، فقد ولاء مصر بعد أن عزل عنها عمرو بن العاص . وكان هذا من أسباب انقلاب عمرو على عثمان وإشارة الناس عليه .

وكما استؤمن لابن أبي سرح ، استؤمن أيضا لهبار بن الأسود وعكرمة بن أبي جهل وكان قد خرج فارا إلى اليمن ، فاستأمنت له زوجته أم حكيم بنت الحرث بن هشام وخرجت في طلبه حتى أتت به فأسلم وأصبح من خيار الصحابة واستشهد في معركة اليرموك . ويقال إن النبي أحسن استقباله ، وحرص على ألا يسئ إليه أى من الحضور

^{١٤} ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

حولہ ، قائلًا : لقد جاءكم عكرمة بن أبى جهل مسلما فلا تسبوا أباه لأن ذلك يؤذي الحي ، ولا يصيب الميت .^{١٥}

لم يكن صفوان بن أمية ممن أبيح دمهم ، لكنه بعد دخول النبي مكة فضل الرحيل . توجه إلى جدة ليركب منها إلى اليمن ، كما فعل من قبل عكرمة ، لكن عمير بن وهب طلب له الأمان فأمنه النبي . لحقه عمير قبل أن يركب البحر وعاد به ، بعد أن أقنعه أن النبي قد عفا عنه ، ولا داعي لأن يقدم على ما قد يكون فيه هلاكه .

عاد صفوان . لكنه لم يعلن إسلامه . طلب من النبي أن يمهله بالخيار شهرين ، فأمهله النبي أربعة أشهر . وقد أسلم فيما بعد بالجعرانة (بين مكة والطائف) بعد أن حضر معركة حنين ، كما سنفصل فيما بعد .

قد يسأل البعض عن سهيل بن عمرو الذى عقد صلح الحديبية مع النبي ورفض أن يكتب فى الوثيقة أن محمدا رسول الله . لقد لزم بيته ، ثم أرسل ابنه عبد الله يطلب له الأمان ، وعامله النبي بكرمه المعهود وعفوه وحسن صفحه ، مما دفعه إلى أن يعلن إسلامه فى " الجعرانة " كما فعل صفوان بن أمية ، وكان قد اشترك هو أيضا فى معركة حنين وحارب فى صفوف النبي .

ولقد قتل بالفعل بعض الذين أمر النبي بإهدار دمهم ، منهم عبد الله بن خطل الذى قتل رجلا من الأنصار ثم ارتد عن الإسلام ، قتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي ، اشتركا فى دمه . أما قينتا ابن خطل ، اللتان كانتا تهجوان النبي فى غنائهما ، فقد قتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها هى وسارة - مولاة لبنى عبد المطلب ثم لعكرمة بن أبى جهل - التى كانت هى أيضا تهجو النبي . أما مقيس بن صبابة فقد قتله نميلة بن عبد الله وهو رجل من قومه . وقتل على بن أبى طالب الحويرث بن نقيذ ، وكان الحويرث ممن يؤذون النبي بمكة ، كما أنه آذى فاطمة وأم كلثوم ، ابنتي النبي ، وهما خارجتان للهجرة إلى المدينة .

وكان هبار بن الأسود بين من أبيح دمهم ، ذلك لأنه أساء لزينب ، ابنة النبي ، عند خروجها للهجرة وكان سببا فى سقوطها من فوق راحلتها وهى حامل فسقط ما فى بطنها . لم يكثر بما أحدثه من جرم ، بل عاد إلى قومه منتشيا مفاخرًا ، وكأنه عائد فى زهو المنتصر من معركة حربية . لكنه لم يقتل ، وأمنه النبي .

^{١٥} أبو زهرة ، ج ٢ ، ص ٨٩٧ .

ولقد قامت أم هانئ ابنة أبي طالب بإجارة رجلين من مخزوم ، عشيرة زوجها ، وهما الحرث بن هشام وزهير بن أبي أمية بن المغيرة . كان علي بن أبي طالب يريد قتلها ، ففرا إليها ، فأغلقت عليهما باب بيتها وذهبت إلى النبي معلنة أنها قد أجارتهما . وكان رد الكريم كريما : قد أجرنا من أجزرت وأمانا من أمنت فلا يقتلها .^{١٦}

مكة حرام :

منع النبي السلب والنهب يوم فتح مكة : لا يسلب رجل ولا يقتحم بيت ولا يعتدي على امرأة ولا يقطع شجر . وقد خطب في الناس بعد الفتح فقال : يا أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك منها دما ولا يعضد فيها شجرا ، لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضبا على أهلها ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم إن رسول الله قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم .^{١٧}

كان لهذا السلوك ، بالتأكيد ، أثره على بعض أتباع النبي ، خصوصا الفقراء منهم الذين كان لابد وأن يحسوا بالاحتياج . يقول مونتجمري وت إنه من أجل هؤلاء طالب النبي بقروض من بعض أثرياء مكة الذين عاملهم بكرم ورحابة صدر . ويقال إن صفوان قد أقرض خمسين ألف درهم ، وحويطب أربعين ألفا ، ونفس المبلغ قدمه عبد الله بن أبي ربيعة . بهذه المبالغ تمت مساعدة المحتاجين في جيش محمد .^{١٨}

كانت غزوة في سبيل الله بلا غنائم وبلا أسلاب . كانت الجائزة الكبرى هي تخليص مكة من أصنامها .

العفو العام:

استقرت الأمور في هدوء ، كان أهل مكة ينتظرون ، ربما يتوجسون ، لا يعرفون ما هي خطوة النبي التالية ، ما هو الحكم الذي سيصدره عليهم ، ماذا سيحل بهم . لقد أخرجوه طريدا ، وها هو قد عاد فاتحا ... ثم .. ؟؟

لم يطل الانتظار . دخل النبي المسجد وطاف . وقف على باب الكعبة وقد تجمع الناس ، في صمت ينتظرون . قال لهم : فيما قال : يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالأباء ، الناس من آدم وآدم من تراب .

^{١٦} ابن هشام ، ج٤ ، ص ٣١ .

^{١٧} ابن هشام ، ج٤ ، ص ٣٦ .

^{١٨} Montgomery Watt, Muhammad at Medina, p. 67.

ثم سألهم سؤالا ، كان يعرف تماما أن قد شغلت به أذهانهم : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

وصدر العفو لثنائى ، القائم على عقيدة الإسلام السمحاء : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

كان عثمان بن طلحة قد سلمَ النبی مفتاح الكعبة ، ففتحت له . ويقال إن علی بن أبی طالب تقدم إلى النبی ومفتاح الكعبة بيده . طلب منه أن تكون سدانة الكعبة فى بنى هاشم إلى جانب سقاية الحجيج التى كان يقوم بها العباس ، ولم يستجب النبی لعلی . سأل النبی عن عثمان بن طلحة ، الذى ربما ظن بعد أن سلم مفتاح الكعبة ، أن دوره قد انتهى ، فقد تغيرت الأمور وتبدلت الأحوال . ولكن عندما طلبه النبی ومثل بين يديه ، قال له النبی وهو يسلمه المفتاح : هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم برٍّ ووفاء . وكان عثمان بن طلحة قد اسلم عندما توجه إلى المدينة فى صحبه خالد بن الوليد وعمر بن العاص .

تحطيم الأصنام:

ارتفع صوت بلال بالأذان من فوق ظهر الكعبة . أمر النبی بطمس الصور الموجودة على جدران الكعبة من الداخل ، كانت صوراً ساذجة لملائكة وأنبياء . ثم تحطيم الأصنام ، داخل الكعبة وخارجها ، ما يقرب من ثلاثمائة وستين صنماً . ارتفع النداء وانتشر فى كل أرجاء مكة ، ترديداً لكلمات النبی : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره . هكذا تم القضاء على عبادة وثنية استمرت قروناً طويلاً رغم زيفها . لقد حل قضاء الله . كان قدراً مقدوراً .

هدم العزى ومناة وسواع:

أمر النبی خالد بن الوليد أن يخرج لهدم العزى ببطن نخلة وهو صنم لبنى شيبان ، وهم بطن من سليم حلفاء بنى هاشم . اعتقد سادن العزى أن خالداً لن يقدر على هدم الصنم ، مجرد المحاولة ستصيب خالداً بوبال لا يقدر عليه . صاح الحاجب وخالد يقترب : أغزى اغضبى بعض غضباتك !! لكن العزى خيبت أمل سادتها فلم تغضب ، وهدم خالد الصنم . وما عادت العزى تعبد بعد ذلك .

وخرج سعد بن زيد الأشهلى فهدم صنم مناة بالمشلل ، وكان للأوس والخزرج . وفعل عمرو بن العاص نفس الشئ بصنم هذيل ، وكان يدعى سواع . هدمه رغم تحذير

اللسان له ، فقد خيل إليه هو أيضا أنه لا عمرو ولا غيره يستطيع . وعندما تم هدمه التفت عمرو للسان وقال : كيف رأيت . قال : أسلمت والله !!^{١١}
البيعة :

اجتمع الناس لبيعة النبي على الإسلام . جلس النبي على الصفا ، وجلس عمر بن الخطاب أسفل مجلسه بقليل . بايع الناس ، أفواجا يدخلون في دين الله ، ما أرغهم أحد . ما سمعنا عن أحد من أهل مكة تم عقابه أو إهانته لأنه لم يسارع بالبيعة . لا إكراه فسي الدين . ولقد ذكرنا من قبل أن صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وآخرين لم يؤمنوا إلا بعد غزوة حنين ، وكان النبي حليما كريما في تعامله معهم ، رغم أنه كان باستطاعته وهو في مركز القوة ، إجبارهم . لكن ما بهذا أمر وما لهذا بُعث : إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .

انتهتبيعة الرجال ، وبدأتبيعة النساء . كان النبي لا يصافح النساء اللاتي جئن لمبايعته . كان يضع بين يديه وعاء فيه ماء ، فإذا ما قبلت المرأة بما اشترط عليها غمس يده في الإناء ثم أخرجها ، بعدها تغمس المرأة يدها ، هكذا تتم البيعة : اذهبن فقد بايعتكن .. ولا يزيد .

جاءت هند بنت عتبة ضمن النساء ، وقد احتواها - رغم كل ما أحاط بها من أمان - خوف مكين . كيف تواجه النبي وتبايعه وتعلن إسلامها ، من لاكت كبد حمزة!! أمن الممكن أن ينسى ذلك النبي ؟ هل نسيت ذلك قريش . هل نسيت مكة ؟ لقد أقدمت على فعل وحشي من المستحيل أن يقدم عليه أحد ، مهما استحكمت الكراهية ومهما تمكن الحقد المغلول : كبد حمزة تلوكه بين شذقيها ودمه يسيل على صدرها من بين شفتيها . صورة محفورة بالنار في تاريخها الأسود .

هل يحدث المستحيل فتتجر بجرمها من عقاب النبي .. يعفو ويسامحها ؟ كان السؤال في أعماقها رعبا . كانت جهلا وجاهلية لا تعرف ما النبي ، وما جاء به النبي : فاصفح الصفح الجميل .

تقترب هند من مجلس النبي وهي في جمع من نساء . تنقبت ، أخفت وجهها ، وقد اعتراها من القلق ما اعتراها . ولنتابع ما كتبه الطبري في وصف الموقف : قال رسول الله : تباعنني على ألا تشركن بالله شيئا . قالت هند : والله إنك لتأخذ علينا أمرا ما تأخذ على الرجال وسنؤتيكه . قال : لا تسرقن . قالت : والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان

^{١١} الطبري ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

الهنة والهنة ، وما أدرى أكان ذلك حلاً لي أم لا ! فقال أبو سفيان وكان شاهداً لما نقول :
أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل . فقال رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة !
قالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف عفا الله عنك !!²⁰

هكذا تكلمت هند ، وهكذا بايعت ، طلبت السماح والعفو ، وسامح النبي وعفا ، بل
إن عفوة بلغ قمة من قمم النبيل المتسامي الذي ينذر أن يبلغها أحد ، عندما عفا في
المستقبل عن وحشى ، العبد الذى قتل حمزة غيلة وغدرا .

أليس فى هذا الموقف - ومثله كثير - ما يكذب ادعاءات أعداء الإسلام الذين
ينشرون ، بالحدق المتعمد ، أكاذيب عن دموية الإسلام وقسوة نبي المسلمين ؟ ألم يكن من
الأفضل لهم أن يقرأوا ويفهموا ويخضعوا - فيما يكتبون - لمبادئ الشرف
وإملاءات الضمير ؟

مخاوف بعض الأنصار :

أقام النبي بمكة ثمانى عشرة ليلة ، وقيل خمس عشرة ليلة . انتابت الهواجس بعض
الأنصار . كانوا يعلمون أن مكة هى أحب أرض الله إليه . هل يظل بها ؟ أم يمكن أن
يظل بها ، وأن يتخلى عن من بايعوه واحتضنوه وناصروه ؟

سمع النبي بما قالوه سألهم : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شئ يا رسول الله . لكنه كان
يعلم . ألح عليهم فأخبروه . ما كان يريد أن يسمع منهم إلا ليهدي من مخاوفهم فتطمئن
نفوسهم . قال لهم النبي : معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم²¹ . اطمأنت النفوس ،
بعد أن طهرها النبي من هواجسها بكلماته . لن يعود الأنصار إلى المدينة إلا
فى صحبة النبي .

فى ختام هذا الجزء عن فتح مكة ، نروى قصة ذكرها عبد الرحمن الشرقاوى ،
لسنا متأكدين من صحتها ، لكننا نوردتها لطرافتها ، يقول الشرقاوى : دخلت فاطمة على
أبيها فوجدته مهموماً حزينا يفكر .. يجب ألا ينتظروا حتى تدهمهم ثقيف وحلفاؤها بجند
لم يواجهوا مثلهم من قبل .. عشرين ألفاً من خيرة المحاربين فى الصحراء .. لئن دخلوا
مكة لسحقوا كل شئ . فمكة ليست ذات أسوار .. قام محمد يستقبل ابنته .. أجلسها إلى
جواره .. حاولت أن تخفف عنه .. إنها لا تبالي بالضرورة !!!

²⁰ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

²¹ ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

ما هذا الذى تقوله فاطمة ؟ اضطربت فاطمة فقد كانت تحسب أن أباهما يعرف..
حتى الذين حوله هم أيضا لا يعلمون .. لا أحد يعرف أن زوجها على بن أبى طالب قد
فتن بابنة أبى جهل الصغيرة الجميلة الغنية فأراد أن يتزوجها على فاطمة التى تعتل
صحتها من كثرة ما تكابد .

قالت فاطمة : زعم قومك إنك لا تغضب لبناتك ، وهذا على قد خطب بنت
أبى جهل .

غضب و غام وجهه من الضيق . أرسل يستدعي على بن أبى طالب وأقبل على
فابتدريه محمد قائلا : إني زوجت أبا العاصى من بنتى زينب فحدثني وصدقني ووعدني
فوفى لى ، وكذلك فعل عثمان ، وإن فاطمة بضعة منى ، وإنى أكره ما يسوءها ، والله لا
تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد ، أجل يا على .. فما جدوى زواجك
من بنت أبى جهل ؟

وخرج على ففسخ خطبة بنت أبى جهل ، وعاد يعتذر لفاطمة . ولا تعليق لنا على
هذه القصة الطريفة !!!

غزوة حنين وحصار الطائف

هوازن تعد نفسها للقتال:

فى الجنوب الشرقى من مكة كانت قبيلة هوازن تقيم فى جبال هناك ، وهى قبيلة ذات شهرة واسعة فى شدة البأس فى القتال ، وقد عرف مقاتلوها بالشراسة والضراوة مما جعلهم مثار خشية يتجنب العدو ما لمكنه أى لقاء معهم .

وفى الطائف كانت ثقيف تعيش . وهى مكونة من قسمين : بني مالك والأحلاف . ارتبط بنو مالك بهوازن ، أما الأحلاف فقد كانت لهم علاقات صداقة ونسب مع قريش . بين مكة والطائف كانت هناك ثارات قديمة ومعارك متفرقة ، من أشهرها حرب الفجار - التى تناولنا موضوعها فى كتابنا السابق : سنوات مكة - التى كان من نتيجتها سيطرة مكة على تجارة الطائف . وما كان هذا الوضع ليرضى ثقيف ، وما كانت - بحكم طبيعة تكوينها - لتستكين له .

تصور الثقفيون أن الفرصة سانحة واللحظة مواتية كى يضربوا ضربتهم ويستعيدوا سطوتهم . لقد فاجأ محمد قريشا واستولى على مكة ، لابد وأن القتال قد أنهك أهل مكة كما أجهد جيش محمد . تخيلوا أن قد حانت لحظة تسوية حسابات قديمة مع قريش ومداواة جراح لم تندمل ، فى نفس الوقت قد تمكنهم الظروف من القضاء على جيش محمد الذى لابد وأن قد أرقه طول المسير من المدينة إلى مكة .. وربما أيضا قد أنهكه القتال . لقد هدم محمد الأصنام . أرسل خالد إلى نخلة فهدم " العزى " ، وأرسل عليا إلى هزيل فهدم " مناة " . لن يعطوه فرصة لهدم " اللات " ، وإن صمم على ذلك فسيجد نفسه فى مواجهة قوة لا قبل له بها .

ظهر على الساحة مالك بن عوف النصري ، زعيم هوازن ، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، كما انضمت إليه نصر وجشم كلها . وكان فى بنى جشم دريد بن الصمة وهو شيخ كبير لا يقدر بشخصه على القتال ، لكنه كان صاحب حكمة ورأى ، لما كان له من تاريخ طويل وتجربة معروفة وقيادة قديمة ، مما جعل رأيه مطلوبا واستشارته ضرورة ، فأصحاب التجربة والحكمة لا يمكن تجاهلهم فى أمثال هذه المعارك الفاصلة .

جمع مالك من المقاتلين عشرين ألفا ، وهو جيش فى عدده يكاد يكون ضعف عدد جيش المسلمين . طلب من رجاله ألا يخرجوا بسلحهم فقط ، بل أن يخرجوا معهم أموالهم ونسائهم وأولادهم . وقد تخيل أنه بذلك يدفع جنده إلى الاستماتة فى القتال ، دفاعا عن نسائهم وأولادهم وأموالهم . كان هذا السلوك من القائد الشاب ، الذى يقال إنه كان فى الثلاثين من عمره ، خطأ فادحا ، ما كان ليقع فيه قائد خبير محنك .

ولقد أشار دريد بن الصمة إلى نقطة الضعف هذه فى جيش مالك عندما نزلوا بأوطاس (واد فى ديار هوازن وقعت فيه معركة حنين) ، سأل من حوله : بأى واد أنتم؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل . ثم عاد يسأل من جديد : ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار (صوت) النساء ، قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونسائهم وأبنائهم .

طلب دريد أن يدعوا له مالكا ، فدعوه . وجه إليه السؤال الذى سأل من قبل ، ثم أضاف : ولم ذاك ؟ قال مالك : أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم . زجره دريد ساخرا من سوء تصرفه وعدم خبرته ، واصفا سلوكه هذا بأنه سلوك راعي ضأن ، لا سلوك قائد محارب : راعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شئ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحت فى أهلك ومالك .^١

استخف القائد الشاب بالمحارب القديم . رفض الأخذ برأيه . تمحور حول ذاته ولم يستمع لحكمة السنين المتمثلة فى من كان يوما سيد قومه . اتبع الناس مالكا ، دون أن يناقشوا رأي دريد . بعدها دفعوا الثمن ، ثمن استبداد قائدهم بالرأى ، وكان ثمنا فادحا ، ما دار بخلداهم يوما أن يدفعوه : هزيمة عشرين ألف مقاتل من أفضل مقاتلى العرب وضياع الأموال والنعم ، وسبى النساء ، وإلحاق العار بهوازن وثقيف ومن حارب معهم . سمع النبى بأمر هوازن وما جمعوا له . أمر أن يؤذن فى الناس بالخروج للقتال .

الجيش يتحرك:

لم يكن قد مضى على مقامهم فى مكة أكثر من أسبوعين . تجهز الجيش العشرة آلاف الذين جاءوا مع النبى ، وانضم إليهم من أهل مكة ألفان ممن أسلموا ، وأيضا ممن لم يسلموا ، وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، ولم يكن قد أسلم بعد . وقد علم النبى أن عند صفوان وفرة من السلاح والدروع يمكن أن تكون لهم عوننا فى

^١ ابن هشام ، ج٤ ، ص ٦٦ .

معركة قد تكون طويّنة قاسية بسبب الأعداد الهائلة المشتركة فيها . قال النبي لصفوان : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا .

كان رد صفوان يتسم بالصراحة والقوة وشدة الحساسية ، فهو لا يريد أن يشعر بالضعف أو القهر رغم استيلاء النبي على مكة فقال : أغضباً يا محمد ؟ ورد عليه النبي متفهماً : بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك .

لقد كان بإمكان النبي أن يأخذها غصبا بالفعل والجيش في حاجة إليها ، وهو في مقام المنتصر ، وصفوان في مقام المنهزم ولكن ما كان هذا بسلوك النبي الذي أراد أن يأتلف القلوب ويقرّبها . لا أن يباعدّها وينفرها . ضمن لصفوان رد ما سيؤخذ منه ، مائة درع بما يكفيها من السلاح وردّه بالفعل وزاد عليه ، مما دفع صفوان بإرادته الخالصة إلى اعتناق الإسلام .

الجيشان يلتقيان

هزيمة المسلمين في بداية القتال:

استعمل النبي عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس أميراً على مكة ، وخرج في السادس من شوال على رأس جيش جرار قوامه - كما ذكرنا - إثنا عشر ألف مقاتل ، ألفان منهم من أهل مكة وما حولها ، لم يكونوا جميعاً قد أسلموا ، بينهم مشركون ومنافقون وحاقدون ، خرجوا وهم يتمنون في أعماق قلوبهم أن يشهدوا اندحار المسلمين وهزيمتهم وهم يواجهون عشرين ألفاً من أبطال ثقيف وهوازن ونصر وجشم وهم في أفضل عدة وأنتم سلاح يسيطرون على مداخل الوديان ومرتفعات الجبال .

أحقاد ، وضغائن ، وضعف ، ونفاق ، كانت كلها تعتمل في صدور بعض من خرج مع النبي من أهل مكة . بل إن أحدهم قد خرج فقط على أمل أن تتاح له فرصة في خضم المعركة فينجح في قتل محمد .

اتجه النبي إلى وادي حنين حيث تجمع العدو ، أعجب المسلمون بكثرتهم ، وخيل إليهم أن " لا غالب لهم اليوم " . ويزعم البعض أن رجلاً من بني بكر قال : لن نغلب اليوم على قلة ^٢ . وهم لا يعلمون بالطبع أن كثرتهم قد لا تعني عنهم شيئاً . وهذا ما حدث بالفعل في بداية المعركة . ونزل قوله تعالى : " لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّحِينَ " (التوبة : ٢٥) .

^٢ ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

وادي حنين واد ضيق تحف به الجبال ، لا يستطيع جيش المسلمين أن يقتحمه ويمر منه دفعة واحدة ، وكان الطبيعة بحكم تكوينها كانت تناصر مالك بن عوف الذي كمن رجاله في المرتفعات على جانبي المضيق .

في العاشر من شوال وصلت طلائع جيش المسلمين ، المقدمة من فرسان بني سليم وعلى رأسهم خالد بن الوليد . نزلوا على أبواب الوادي في المساء . في عمية الفجر بدأ الاقتحام ، خالد في المقدمة والنبي على بغلته البيضاء في المؤخرة . بدا لهم وكأن لا أحد هناك ، إذ لم يبرز لهم من العدو مقاوم أو طالب نزال . اندفعوا في عدم روية ، وكان الأرض قد أسلمت قيادها واستسلمت دون قتال .

فجأة ، في عمية الصبح ، سقط المندفعون دون روية في قلب الكمين . أصدر مالك ابن عوف أمره ، ومن كل الأنحاء انهال النبل والسهم . أخذ المسلمون على غرة ، من كل جانب انهزم سيل الموت ، غاضبا كاسحا مدمرا . حل الاضطراب ، وسيطر للخوف ، وزاغت الأبصار . فقدت القيادة سيطرتها فلم يعد هناك من يقود ، ولو وجد فرضا من يقود ، فلم يكن هناك من هو على استعداد لأن يقاد ، لا سمع ولا طاعة ، انقلب الفرس على فارسه ، وحملت الإبل بعضها على بعض ، انهزم الناس . لم يكن لهم من مخرج إلا الفرار . لم تغن عنهم كثرتهم شيئا . وضاعت عليهم الأرض بما رحبت ، كما نصت كلمات الله .

الفرحون بالهزيمة من أهل مكة:

هنا فرح الكافرون ، المشركون والمنافقون والذين في قلوبهم مرض ، وعلى رأسهم أبي سفيان بن حرب الذي - كما أوضحنا من قبل - لم يعلن إسلامه عن إيمان واقتناع ، إنما فعل ذلك مداراة ونفاقا وإبقاء على الحياة . لقد خرج مع الجيش لكنه لم يحارب ، وعندما انهزمت المقدمة لم يتقدم ومن معه لشد الأزر والدعوة إلى الثبات . بدلا من ذلك ، صاح أبو سفيان في فرح : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .^٣

نلفت الانتباه لاستخدامه كلمة " هزيمتهم " هو يقصد بالطبع هزيمة المسلمين ، لم يقل " هزيمتنا " فالهزيمة ليست هزيمته هو ذلك لأنه ببساطة لا يعتبر نفسه واحدا من المسلمين ، ولا دخل له بما يحدث أمامه ، والهزيمة هي هزيمة هؤلاء : المسلمين ، أما هو فلا صلة له بإسلام أو مسلمين . هكذا انتهى - بالنسبة له - أمر هؤلاء الذين انتصروا

^٣ ابن هشام ، ج٤ ، ص ٧٢ .

بالأمس . لن تقوم لهم قائمة . وليسترد أبو سفيان المجد القديم . وليعل هُبُل . هل آمن حقا أبو سفيان !!؟

وصاح شيبه بن عثمان بن أبي طلحة : اليوم أدرك ثأرى ، اليوم أقتل محمدا .^٤
وكان أبوه من حملة اللواء الذين قتلوا فى " أحد " خُبِلَ إليه أن باستطاعته اغتيال محمد
وسط طوفان الهزيمة ، ولم ينجح فى الوصول إليه .

وارتفع صوت كَلْدَة بن الحنبل صارخا فى نشوة : أَلَا بَطُلَ السحر اليوم !! اعتبر
محمدا ساحرا ، وقد بطل سحره ، قضت الهزيمة - فى رأيه - على محمد . انقلب السحر
على الساحر ، ما عاد لمحمد سلطان .

كان كلداء أخو صفوان بن أمية لأمه . سمع صفوان صياحه النشوان وأسكته فى
الحال . صرخ فيه : أسكت فض الله فاك !! فوالله لأن يَرُبُّنِي رجل من قريش أحب إلي
من أن يَرُبُّنِي رجل من هوازن .^٥

موقف صفوان بن أمية يظهر أصالة معدنة وقدر سموق هامته وارتفاعه مطلقا فوق
صغائر الأحقاد وجاهلى الثارات . إنه رغم شركه لا يتمنى هزيمة محمد فهو أولا وقبل
كل شئ مكى قريشى وهزيمته معناها أن تسقط مكة فى قبضه هوازن وثقيف . وفى هذا
هوان ما بعده هوان .

ثبات النبى يعيد المسلمين إلى رشدهم فيقاتلون وينتصرون :

تدافع الناس ، منهزمين ، لا يلوون على شئ ، والنبى فى مؤخرة الجيش ينظر إلى
الجماعات الهاربة ، جماعة تلو جماعة ، وهو لا يكاد يصدق عينيه . انقضت من حوله
الجموع ، لم يتبق سوى ما يقرب من عشرة نفر : أبو بكر وعمر وثمانية من بنى هاشم
على رأسهم على بن أبى طالب والعباس عم النبى والفضل بن عباس وأبو سفيان بن
الحارث بن عبد المطلب .

ثبت النبى فى مكانة لا يتزعزع عنه . من المستحيل أن ينتهي الأمر بالهزيمة . ما
كان لنبى أن يهزم وقد خرج مقاتلا فى سبيل الله . وهزيمة ساحقة ماحقة كهذه لو وصلت
إلى منتهاها لكان معناها نهاية هذا الدين وما كان هذا ليحدث أبدا ، فالذى بعثه بالحق نبيا
لا بد وأن يكون هو ناصره . هكذا ترسخ الإيمان فى قلب النبى . صاح قدر ما أمكنه : أين
أيها الناس !! أين أيها الناس !!

^٤ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

^٥ نفس المرجع ، نفس الصفحة .

والناس يفرون . لا يسمعون ولا يستمعون . قال النبي : يا عباس أصرخ !! وكان
العباس قوى الصوت جهورية . أصرخ يا عباس ، ناد : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب
السُّمرة ، يا أصحاب سورة البقرة !!

انتشر النداء ، قويا ، نافذا ، أخذا ، اخترق الأسماع والأفئدة ، وتردد الصدي .
وكان جنبات الوادي كلها تصيح : يا أصحاب السمرة (يعني شجرة الرضوان التي بايعوا
تحتها) ، يا أصحاب سورة البقرة ، يا للأنصار ، يا للخزرج !!

استفاق الناس ، توقف الهاريون ، استدار المنهزمون ارتفعت الأصوات وهى تسرع
إلى حيث النبي : لبيك ، لبيك ، لبيك !!

التف ما يزيد عن مائة مقاتل حول النبي . برز على بن أبى طالب ، كما هى عادته
دوما فى مقدمه الجمع وقد اندفع نحو رجال هوازن كبركان ثائر ، يدمر حممه ما
يعترضه ، لا يوقفه شئ . اتجه إلى حامل اللواء . سقوط اللواء - لو سقط - هو بداية
سقوط الجيش . كان الرجل على ناقة ، يحمل الراية بيد وباليد الأخرى بمسك برمح طويل
يطعن به كلما لاحت له فرصة طعن . كان على مترجلا . كان من العسير عليه أن يقاتل
الرجل وجها لوجه وسيفا لسيف . بسرعة بدهية خاطفة تركز على خلف الناقة . انطلقت
ضربة فى سرعة الملح . قطع عرقوبى الناقة . وقعت على عجزها . وثب رجل من
الأنصار على حامل الراية . ضربة ضربة أطاحت بنصف ساقه .

سقطت راية هوازن . اندفع المسلمون يقاتلون كأنهم لم يفروا من قبل . تبدل الحال
غير الحال . حلت فيهم روح " بدر " ، الآن حمي الوطيس !! قالها النبي وهو يرفع يديه
إلى السماء مبتهلا داعيا : " اللهم إنى أنشدك ما وعدتني ، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا
علينا " . قبض قبضة من الحصباء رمي بها فى اتجاه مقاتلة المشركين وهو يقول :
شاهت الوجوه !!!^٦

أمر النبي أن يُنادى : من قتل قتيلًا فله سلبه ، تزايدت أعداد المسلمين وقد استردوا
رباطة جأشهم وثبات يقينهم وقوة إيمانهم . واجهوا العدو وقد خرج إليهم فى الوادي
المنبسط تحت أشعة الشمس التى بددت غبش الفجر وعدم وضوح الرؤية . صمد
المسلمون ، ثم اندفعوا مهاجمين فى ضراوة أثارت دهشة أعدائهم وذهولهم ، مما قل فى
عزيمتهم وأفقدتهم الثقة فى النصر . دارت الدائرة فإذا بهم هم ينهزمون ، يلونون بالفرار .

^٦ أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ٩٢٣ .

فرث جموع منهم إلى وادي أوطاس ، وجموع إلى الطائف كي يتحصنوا خلف أسوارها .
ولوا مدبرين ، لا يلوون على شيء ، مخلفين وراءهم النعم والمال والنساء والأطفال .

هنا لا نجد مفرا من أن نسأل أكثر من سؤال : أين كان عمرو بن العاص إبان هذه المعركة العاصفة ؟ أين كان موقعه في هذه المعركة الطاحنة ؟ ماذا فعل والنبي يصيح بأعلى صوته : أين أيها الناس ؟! والناس منهزمون لا يلوون على شيء ؟ ألم يكن عمرو ابن العاص بين هؤلاء للناس ؟ ألم يخرج مع الناس ؟ ألم تصك أذنيه صرخات العباس : يا معشر الأنصار ، يا معشر الخزرج ، يا معشر أصحاب السمره ؟ هل قال " قمبجل " عمرو لنفسه إنه ليس من معشر الأنصار ، وليس من معشر الخزرج ، وليس من أصحاب السمره ، وعلى ذلك فالنداء لا يخصه ؟! هل كان " الفاتح العظيم " عمرو بن العاص مختبئا بعيدا خلف إحدى الصخور يرقب الموقف ، ينتظر على من ستدور الدائرة ، وبعدها هو يعرف جيدا كيف يختار ؟!! لقد اختفى " سيدنا " - هكذا يحب بعض الأتقياء أن يلقبوه - عمرو بن العاص عند فتح مكة ، لم يرد له ذكر . كان ينتظر . وفي حين أيضا اختفى ، لا هو في المقدمة ، ولا في القلب ولا في المؤخرة . لم يرد له من نكر . كان أيضا ينتظر !!

نحن لا نملك إجابة وافية كافية ، شافية ، على هذه التساؤلات . هل يستطيع " محترفو " الفتوى ، و " أتقياء " حفلات التليفزيون ، وحملة المباخر المرهبون بسيات " التكفير " أن يقدموا لنا إجابة ؟ أم أن هذا العلم يخرج عن نطاق " علمهم " ، وقد اكتفى معظمهم - ولا نقول كلهم - بحفلات الحديث عن الجنة والنار ، وقصور الذهب والفضة وحصى الأرض الذي هو لؤلؤ ومرجان ، وعذاب القبر والشعبان الأقرع ، وحلقات تفسير الأحلام ، وهذا هو الدين ؟!!؟ ويكفي أن السلطة راضية عنهم فقد نجحوا في أن يشغلوا الناس ويلهوهم عن التفكير فيما وصل إليه حالهم من تعاسات .

مقتل دريد بن الصمة :

نعود إلى هزيمة هوازن . قتل دريد بن الصمة قتله ابن الدغنة ، والدغنة هي أمه ، أما اسمه فهو ربيعة بن رفيع بن أهبان . أدرك دريد وهو على ناقته في شبه هودج ، وقد ظن أنه امرأة . لكنه عندما أناخ الناقة وجد أمامه شيخا طاعنا في السن . وابن الدغنة غلام لا خبرة له ولا يعرف قدر الشيخ . كل ما سيطر عليه في تلك اللحظة هو أن يقتله ويأخذ سلبه . نظر الشيخ إلى الغلام في ترفع ، سأل : ماذا تريد ؟ قال الفتى ، غير

مكثرت بشيبه الشيخ وكبر سنه : أفتاك . وعاد دريد يسأل من علياء كبريائه : ومن أنت ؟ قال الصبي : أنا ربيعة بن رافع السلمى .

ضرب الصبي الشيخ بالسيف فما استطاع قتله . نظر إليه دريد فى ازدياء . قال : بئس ما ملحتك أمك . خذ سيفي هذا من مؤخرة الرجل ، ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ، فإني كذلك كنت أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فربُّ الله يوم قد منعت فيه نساءك .^٧

درس في الكبرياء والاستعلاء على الحياة ، والأزدياء لصبي لم يخجل من شيخ أخبره أنه قد أنقذ يوما نساءه وحماهن من عار السبي . ويقال إن ربيعة عندما عاد إلى أمه وأخبرها بقتله دريد بن الصمة ، قالت له : حرق الله يدك !! فإنما قال ذلك ليذكر نعمة عليك فوالله لقد أعتق لك ثلاث أمهات فى غداة : أنا وأمى وأم أبيك .^٨

بعث النبى فى أثر المنهزمين من هوازن ، إلى وادي أوطاس ، أبا عامر الأشعرى فقاتل حتى قتل . أخذ الراية ابن عمه أبو موسى الأشعرى فقاتل حتى هزم من تصدوا له . ويقال إن الذى قتل أبا عامر الأشعرى هو سلمة بن دريد بن الصمة ، رماه بسهم فأصابه وكانت الإصابة قاتلة . وقد عاد أبو موسى من أوطاس بسبي وغنائم كثيرة ثم ضمها إلى سبي وغنائم حنين . أقام النبى على المغانم مسعود بن عمرو القاري وأمر بالسبياء والأموال إلى الجعرانة فحبست بها .

القتلى:

يقال إنه قتل من قريش يوم حنين ، أيمن ابن أم أيمن مولاة رسول الله وهو الأخ غير الشقيق لأسامة بن زيد ، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، ومن الأنصار سراقه بن الحارث ، ومن الأشعريين أبو عامر الأشعرى .

هذا ليس بإحصاء لعدد قتلى المعركة . فلقد كان لهلعهم وانهزامهم بداية المعركة أثر مدمر . لقد فنيت قبيلتان كاملتان من القبائل المسلمة . وقال النبى : اللهم أجبر مصيبتهم !! هذا معناه أن ثمن النصر كان باهظا ، ولم يكن سهلا هينا . أما عن قتلى هوازن وتقيف فيقال إنهم بلغوا السبعين .

^٧ ابن هشام ، ج٤ ، ص ٨٤ .

^٨ هيكل ، ص ٣٤٥ .

الملائكة:

وكعادة الإخباريين ، وكتاب السيرة وسدنة التراث ، لا تخلو هذه المعركة من الإشارة إلى تدخل الملائكة ونصرتهم للمسلمين : قال ابن إسحق : وحدثني أبي إسحق بن يسار ، عن جبير بن مطعم قال : لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل اللجّاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادي ، لم أشك أنها الملائكة ، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم ^٩.

الملائكة أتت هذه المرة في صورة نمل أسود ، ملأ الوادي ، وهزم القوم . كيف ؟ هذا ما لا نعرفه وما لا يخبرنا به ابن إسحق أو من روى عنهم . وبالطبع نتوقع أن يقدم لنا سدنة كتب التراث آلاف التفسيرات ، ونحن على تمام التأكد من مقدرتهم الغضة في التفسير والتأويل وإبداع ما لم يبدع من قبل .

ويختلف ابن سعد مع ابن إسحق في موضوع النمل الذي لم يشك الراوى في كونه الملائكة . يقول ابن سعد : وكان سيماء الملائكة ، يوم حنين ، عمائم حمراء قد أرخواها بين أكتافهم .

ومن الصعب أن نوفق بين رأى ابن إسحق ورأى ابن سعد فيما يختص بالملائكة الذين قاتلوا يوم حنين والذين لولاهم ما انهزم القوم ، إذ أنه من المستحيل أن يتصور أخصب الناس خيالاً أن الملائكة " النمل " قد وضعوا عمائم حمراء على رؤوسهم وأرخواها بين أكتافهم . وإن تطيل الحديث في هذا الموضوع ، فلقد أشرنا من قبل إلى كثير من هراء الإخباريين في هذا المجال .

حصار الطائف

كان لابد من السير إلى الطائف وحصارها تمهيدا للاستيلاء عليها ، كي يتم كسر إرادة من فروا إليها من ثقيف وهوازن . كانت الطائف ذات موقع طبيعي مرتفع وحصين . حصونها قوية يصعب اقتحامها ورجالها رماة أشداء من الصعب أن يخيب لهم نبل أو سهام . كما أنها كانت غنية بأقواتها وثمارها ويمكن أن تصمد للحصار مهما طال وقته ، والخطر المحقق بالمهاجمين أكثر بكثير من أى خطر قد يتعرض له المدافعون .

اندفع المسلمون في الهجوم . انهزم عليهم النبل كالطر فأسال الدماء وأسقط الشهداء . طلب النبي من جنده أن يتوقفوا . لابد وأن يتراجعوا بعيداً عن رمي النبل والسهام . إنهم في حاجة إلى مهلة للتفكير في أسلوب أكثر أماناً للهجوم والاقتحام ، دون

^٩ ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٧٩ .

سقوط المزيد من الشهداء . ويقال إن الذين سقطوا فى بداية الهجوم كانوا حوالى اثني عشر رجلا .

حاصر المسلمون الطائف ما يقرب من عشرين يوما ، وهم لا يقدرزون ، فقد كان أصحاب للطائف فى قلاعهم المحصنة ، الأعلى موقعا ، هم الأكثر قوة والأشد بأسا . كان مع النبي سيدتان من نسائه ، هما أم سلمة ابنة أبى أمية وزينب بنت جحش ، ضرب لهما قبتين ثم صلى بين القبتين . وفى هذا المكان أقامت تقيف - بعد إسلامها - مسجدا . ويقال إن الذى لقاه هو عمرو بن أمية بن وهب بن مالك .¹⁰

استخدم النبي عدة طرق لاختضاع الطائف ولم تتجح أى منها ، أمر أن ينادي أنه من جاءه طائعا مختارا من عبيد الطائف فهو حر ، له من الحقوق ما لجميع المسلمين . لم ينزل إليه أكثر من خمسة عشر أو عشرين رجلا ، لم يكن لهم من تأثير يذكر فى ميزان القوى بين الطرفين ، لكنه - على أية حال - علم منهم الكثير عن أحوال الطائف وتحصيناتها ، لكن المعلومات التى أدلوا بها لم تُجد شيئا .

لجأ النبي إلى المنجنيق يرمي به القلاع والحصون على أمل أن تنهار من قواعدها وتهدم على رؤوس من فيها فيلاقوا حتقهم أو يخرجوا مستسلمين . لكن هذه الوسيلة من وسائل الهجوم لم تثمر شيئا ، بل كان حصاها عدد آخر من قتلى المسلمين . وكان بين من استشهدوا عبد الله بن أبى بكر الصديق ، رمي بسهم فمات منه ، فيما بعد ، فى المدينة .

أشار البعض على النبي استخدام دبابات من خشب فى قلبها رجال تقتحم الحصون . لكن رجال الطائف صبوا عليها الحديد المنصهر ، حاول من فيها الفرار فتلققتهم سهام تقيف وهوازن . قتل من قتل ، ولاذ بالفرار من استطاع . وفشلت هذه الوسيلة أيضا .

وقف المسلمون فى دهش يتأملون الموقف بالغ الصعوبة ، بالغ التعقيد ، لا يعرفون تماما ما يجب عليهم أن يعملوا فى مواجهة عدو شرس صلب عنيد ، وحصون هائلة شامخة لا يملكون فى الوصول إليها من سبيل .

عز على النبي أن يعود دون فتح الطائف . إنه لا ينسى يوم ذهب إليها داعيا - بعد موت أبى طالب وخديجة عام الحزن - عله يجد من يؤمن بدعوته ويكون له سندا وعزاء ، لكنه لم يواجه إلا بالازدراء والإهانة والسباب ، ثم بالحجارة يقذفها العبيد والرعا . لم

¹⁰ ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .

يكن يريد الانتقام ، بل كان يريد لهم أن يهتكوا ويسلموا ، وفى إسلامهم دعم وقوة ، لهم ولسائر المسلمين .

لجأ النبي إلى آخر سهم فى جعبته كوسيلة من وسائل التهديد ، على أمل أن تدفع أهل الطائف إلى الخضوع والتسليم . أعلن أنه سيأمر أن تجث أعناب تقيف وأن تقطع أشجار النخيل . لم يكثر أهل الطائف فى البداية بالتهديد ، مما دفع المسلمين إلى تنفيذ الأمر . اندفعوا وسط الزروع يجثثون ويقطعون ويحرقون . أصيب أهل الطائف بالصدمة وهم ينظرون أموالهم تفسد وثروتهم تبدد بأسلوب لم يتوقعوه . من المستحيل أن يلجأ المسلمون إلى التدمير والتخريب كوسيلة من وسائل القتال . خرج منهم مناد يصيح : يا محمد لا تفسد الأموال ، خذها لنفسك إن شئت أو دعها لله وللرحم . وأمر النبي رجاله أن يكفوا : تركها لله وللرحم .

ولم يؤذن للنبي فى تقيف ، لم يأن أوان فتح الطائف بعد . قارب الحصار ثلاثين يوما . ولم يكن هناك من نتيجة سوى مقتل عدد آخر من المسلمين . كان ذو القعدة على وشك الحلول ، وهو من الأشهر الحرم التى لا يجوز فيه قتال .

كان لابد وأن يؤخذ فى الحسبان أيضا- الحالة النفسية للآلاف التى خرجت تحت راية محمد . إنهم فى أعماقهم يتلهفون للعودة سريعا إلى الجعرانة ليأخذ كل منهم نصيبه من الغنيمة التى فاقت فى ثرائها كل التوقعات . أمر النبي عمر بن الخطاب أن يؤذن بالرحيل .

وفد هوازن:

انصرف النبي عن الطائف ، نزل الجعرانة بمن معه . كان قد قدم سبى هوازن إلى الجعرانة فحبس بها . بلغ عدد السبى ما يقرب من ستة آلاف ما بين نساء وولدان . أما عدد الإبل التى حصل عليها المسلمون غنيمة فقد بلغ أربعة وعشرين ألفا ، وعدد الغنم أربعين ألفا ، أما الفضة فبلغت زنتها ما يقرب من أربعة آلاف أوقية .

قبل أن يبدأ النبي توزيع الغنائم ، وصل وفد من هوازن ، أعلنوا إسلامهم وطالبوا برد الأموال والنساء والذرية . رجوا النبي أن يمن عليهم بعد أن أصابهم من البلاء ما أصابهم ، تقدم إليه رجل من بنى سعد بن بكر ، قال : يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك (حليمة السعدية كانت من بنى سعد ، وهم من هوازن) اللاتي كن يكفلنك . ولو أننا ملحنا (أرضعنا) للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن

المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به ، رجونا عطفه وعائنته ، وأنت خير المكفولين .^{١١}

كان من الصعب أن ترد إليهم نساؤهم وأبنائهم وأموالهم ، ويعود ذلك الجيش الذى قاتل بخفى حنين ، خصوصا وأن العشرة آلاف الذين اشتركوا فى فتح مكة لم يغنموا من الفتح شيئا ، لا ناقة ولا جمل ولا مجرد شاة . لقد حرم ما فى مكة عليهم ، بحكم الله ورسوله ، ورضوا بحكم الله وحكم الرسول . وكان من المستبعد أن يرضخ الجميع لنفس الحكم ثانية . وإن قيلت به جدلا جماعة الصحابة المقربين ، فلن يضمن أحد رضى المشركين والمنافقين والذين فى قلوبهم مرض .

لذا سأل النبى وفد هوازن : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ كان عليهم أن يختاروا . وكان النبى على تمام اليقين من أن هوازن لن تتخلى عن نساؤها وأبنائها، مهما كانت الخسائر فى الأموال والنعم ، أجابوا : يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساؤنا وأبنائنا فهمو أحب إلينا .^{١٢}

الشيء أخت النبى من الرضاة:

ضمن السباء كانت سيدة مقدمة فى السن رفضت غلظة الجند عليها فى السياق . قالت لهم : تعلموا والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاة . لم يصدقوها . لكنها كانت هى الشيعة بنت الحارث بن عبد العزى . عرفها النبى . أدناها منه . بسط لها رداءه . أجلسها إلى جواره . خيرها بين أمرين : إما أن تمكث عنده محبة مكرمة ، أو أن يمتعها- أى يعطيها ما يكون لها متاعا- ويردها إلى قومها ، فاخترت أن يمتعها ويردها إلى قومها . ويقال إن النبى أعطاها ، ضمن ما أعطاها ، غلاما وجارية .^{١٣}

انتهى الموقف بأن رد المسلمين إلى الناس أبنائهم ونساءهم ، أما الأموال فكان من المستحيل أن تُرد .

إسلام مالك بن عوف:

أرسل النبى رسالة إلى مالك بن عوف النصرى مع وفد هوازن ، وكان بالطائف مع ثقيف : إن جاء مسلما رد النبى إليه ماله وأهله وأعطاه مائة من الإبل ، وهو عرض كريم من النادر أن يقدمه منتصر إلى مهزوم . لكن النبى كان يريد أن يكسب الإسلام قائدا شجاعا ومحاربا صلبا ، والهزيمة واردة حتى فيما يختص بعمالقة الأبطال . ولم يكن فى

^{١١} الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .

^{١٢} ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٣٥ .

^{١٣} نفس المرجع ، ص ٩١ .

عرض النبي ما يمس كبرياء مالك أو يشعره بالإهانة أو الإذلال . لذا كانت الاستجابة فورية ، ومالك يدرك تمام الإدراك أن النبي إذا قال صدق .

خرج مالك ليلا ، فى خلسة من ثقيف ، أخفى الهدف الذى من أجله خرج ، امتطى فرسه وأطلق له العنان دون أن يصحبه أحد . أدرك النبي بالجعرانة ، ويقال بمكة ، أعلن إسلامه ، رد عليه النبي أهله وماله وأعطاه مائة ناقة ، حسب ما وعد .

توزيع الغنائم:

شهدت الآلاف من حول النبي سيايا هوازن وهي ترد إلى أهلها . انتابت البعض حالة من التسرع فى رد الفعل . من يدري ، ربما يرد عليهم أموالهم أيضا ، ويخرجوا هم من حنين والطائف ، كما خرجوا من مكة ، صفر الأيادى . تراحموا حول النبي ، تصايحوا : يا رسول الله أقسم علينا فيأنا . لن يصبروا أكثر من ذلك . الغنائم أمام أبصارهم ، تحت أيديهم ولن تقلت منهم بأية حال من الأحوال .

اشتد التراحم حول النبي لدرجة أن انتزع رداؤه ، وكاد الأمر أن يتحول إلى فوضى . صاح النبي : ردوا إلى رداى أيها الناس . فوالله لو أن لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألفتكموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا .^{١٤}

أخرج الخمس وأعطى منه لمن أطلق عليهم المؤلفة قلوبهم ، والذين كانوا من أشد أعدائه إلى أيام قليلة مضت . أعطى أبا سفيان بن حرب مائة بغير وأربعين أوقية من الفضة ، رغم أن أبا سفيان لم يقاتل ، بل وأعلن شمانته ولم يخف فرحه عندما انهزم المسلمون فى بداية المعركة . كان النبي يعلم ما فى نفس أبى سفيان ، ومع ذلك أجزل له العطاء .

لم يتقبل أبو سفيان كرم العطاء بالامتنان ، بل سولت له شراؤه نفسه أن يطلب المزيد . قال : وابنى يزيد ؟ فأمر النبي أن يزيدوه مائة أخرى من الإبل وأربعين أوقية من الفضة . وتجلي طمع أبى سفيان فى خبث لنيم . أضاف : وابنى معاوية ؟! وأمر النبي له بمائة ثلاثة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة . ويتضح من هذا الوضع أن معاوية بن أبى سفيان كان من المؤلفة قلوبهم ، لا ممن أسلموا عن إيمان . والمؤلفة قلوبهم هم حديثوا العهد بالإسلام الذين يرجي تقوية إيمانهم بجزيل العطاء ، وأيضا هؤلاء الذين يرجي حثهم - بنفس الأسلوب أى بالعطاء - على اعتناق الإسلام .

^{١٤} هيكل ، ص ٣٤٩ .

ويدعي مونتمجرى وت أن الحظوة التي خص بها محمد أبا سفيان ما كانت إلا تقديرا للدور الذي لعبه في استسلام مكة وخضوعها دون قتال . ويضيف مونتمجرى وت: إن محابة محمد لأبى سفيان ظهرت أيضا بجلاء عندما أقام على شئون مكة - قبل أن يتركها إلى المدينة - شابا من عشيرة أمية بن عبد شمس وهو عتّاب بن أسيد .. وحقيقة أنه من عشيرة أبا سفيان يدل على أن محمدا قد مال إلى جانب أبى سفيان ، ولم يمل إلى الثلاثى صفوان وعكرمة وسهيل .. كما أن محمدا عين أبا سفيان حاكما لنجران.¹⁵

إلى جانب أبى سفيان ، كان هناك من أطلق عليهم : أصحاب المئين ، أى الذين حصل كل منهم على مائة بعير ، وهم كما يذكر أسماءهم ابن إسحق: الحرث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزي ، والعلاء بن جارية الثقفي حليف بنى زهرة ، وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، والأقرع بن حابس التميمي ، ومالك بن عوف النصرى (وقد ذكرناه من قبل) ، وصفوان بن أمية .

وأعطي غيرهم من المؤلفرة قلوبهم كل واحد من العير خمسين ، مما أغضب بعضهم ، وكان من بين من غضبوا عباس بن مرداس . لم يرض بما قسم له النبى ، فعبر عن سخطه شعرا ، والشعر آنذاك كان أكثر حدة ومضاء من السيف ، مما دفع النبى إلى أن يقول لمن حوله : اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه ، أى اسكتوه بالعطاء ، ولم يسكت ابن مرداس حتى حصل على مائة من الإبل .

ثم أمر النبى زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ، بعد أن تم إخراج الخمس الذى وزع منه على المؤلفرة قلوبهم ، وكان نصيب كل رجل أربعة من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارسا أخذ اثنى عشر من الإبل ومائة وعشرين شاة .
لم أرك عدلت :

لم تفهم الكثرة السر الكامن وراء تصرف النبى ، أخذوا الأمور بظاهرها . لقد حابى النبى قومه من قريش ، أغدق عليهم وأجزل العطاء ، رغم أن هؤلاء الذين أخذوا النصيب الأوفر لم يقاتلوا !!

لم يتمالك أحد الذين قاتلوا نفسه ، عبّر عن غضبه واضحا فاضحا فى مواجهة النبى ، صاح : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم ، سألته النبى : أجبل ، فكيف رأيت ؟

أجاب ذو الحويصرة وهو من تميم : لم أرك عدلت !!

¹⁵ Montgomery Watt, Muhammad at Medina, p. 75..

فوجئ النبي بكلمات التميمي الخسنة البائرة . بدا عليه الغضب رغم أنه نادرا ما يغضب ، قال : ويحك !! إن لم يكن العدل عندي فعند من يكون !!؟

لم يعاقبه النبي . لم يأخذ برأى عمر بن الخطاب الذى أشار بقتل الرجل عقابا له على جرائته وتطاوله . كان النبي يشعر فى داخله أن التميمي عبر بفجاجة عما كان يعمل فى صدور الكثرة التى قصر إدراكها ، وساء فهمها ، وأخطأ تفسيرها وتأويلها ، لدرجة أن قال بعضهم : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .^{١٦}

حتى الأنصار لم تطب نفوسهم وترضى:

ما قاله التميمي كان له صدق فى نفوس الأنصار ، أو ربما عبر الرجل دون أن يدري عما كان يعمل فى نفوسهم . شاهدوا العطايا توزع بسخاء مفرط فى قريش وفى قبائل العرب . تساءلوا : ثم ماذا ؟ أين نصيبهم هم ؟ وكما يقول ابن هشام : لم يكن فى الأنصار منها شئ .

تحركت أسنة البعض تعبر عما يجيش فى الصدور . ما كان الموقف يحتمل الصمت : لقى النبي قومه فأعطى وأجزل العطاء ، ونسى الذين صدقوه وآووه ونصروه ، نسى الذين نادى عليهم ساعة الهزيمة : يا معشر الأنصار ، يا معشر الخزرج ، فالتقوا حوله وقاتلوا حتى النصر واستشهد منهم من استشهد . لم يلب نداءه أى من الذين حصلوا على منات العير ومنات أوقيات الفضة . لقد اختل الميزان . وكأنهم دون أن يدروا كانوا يرددون كلمات التميمي : يا محمد . لم أرك عدلت !!

دخل سعد بن عباد على النبي ينقل له شكاية قومه . لم يخف ما اعتمل فى نفوسهم . وما اعتمل فى نفسه هو أيضا . قال دون موارد وأمام الجميع : يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفئ الذى أصبت ، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحي من الأنصار منها شئ .

قال النبي : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

أجاب سعد : ما أنا إلا من قومي !!

لم يخف سعد ضيقه مما حدث وهو يعبر عن ضيق قومه . ما رحلوا ، وعانوا ، وقاتلوا ، وكثرت جراحاتهم ، وسالت دماؤهم ، كي يفوز بالغانم من لم يؤمن ، ومن لم يقاتل ، ومن لا يستحق : تلك إذن قسمة ضيزى .

^{١٦} أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ٩٣٩ .

قال النبی : اجمع لی قومك .

یدعی کتبه التراث أن النبی طلب من سعد أن یجمع قومه فی " الحظيرة " أو فی " هذه الحظيرة " .^{١٧} والحظيرة - كما جاء فی هامش ابن هشام - هی مکان یتخذ للإبل والغنم یمنعها من الانفلات . فهل کان الهدف من جمع الأنصار فی الحظيرة أن یعاملوا معاملة الإبل والغنم ویمنعوا من الانفلات ؟ معاذ الله ، وللأنصار فی نفس النبی مكانة وحظوة . لهذا نستبعد أن یكون النبی قد طلب من سعد أن یجمعهم فی " الحظيرة " أو فی " هذه الحظيرة " .

اتجه النبی إلى حیث اجتمع الأنصار . فسرّ لهم ما استغلق علی أفهامهم وما لم تدرکه عقولهم ولو تأملوا قليلا وتدبروا لأدركوا الحکمة الكامنة فی سلوك النبی . ولما صدر عنهم ما صدر . قال النبی وكلماته تموج بالحب الخالص : أوجدتم یا معشر الأنصار فی أنفسكم فی لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما لیسلموا وولدتكم إلى إسلامكم . ألا ترضون یا معشر الأنصار أن یذهب الناس بالشاة والبعیر وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذی نفس محمد بیده لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

وبكى الناس حتّى ابتلت لحاهم بالدمع . لقد رضوا برسول الله قسماً وحظاً . وانتهی الموقف بسلام .

العودة إلى المدينة:

وصل النبی إلى الجعرانة لیلة الخمیس فی الخامس من ذی القعدة ، فأقام بها ثلاث عشرة لیلة ، ثم خرج لیلة الأربعاء لاثنتی عشرة بقیة من ذی القعدة فأحرم بعمره ودخل مكة فطاف وسعی وحلق رأسه ورجع إلى الجعرانة . وفی یوم الخمیس انصرف إلى المدينة .^{١٨} وقد ولی علی شئون مكة عتاب بن أسید ، وخلف معه معاذ بن جبل یفقه الناس فی الدین ویعلمهم القرآن . وأمر النبی أن یؤخذ بقایا الفئ إلى المدينة . وكانت غیبتة عن المدينة حوالی شهرین وستة عشر یوما . خرج فی العاشر من رمضان ، وعاد فی الرابع والعشرین من ذی القعدة ، سنة ثمان هجرية .

^{١٧} ابن هشام ، ج٤ ، ص ١٤٦ .

^{١٨} انظر ابن هشام ، ج٤ ، ص ١٤٨ .

وفى هذا العام ، أى العام الثامن ، ولدت مارية إبراهيم ، فى ذى الحجة ، وفرح
به النبى فرحا كبيرا لدرجة أن كان يحمله ويسير به بين الناس . وقامت على إرضاعه أم
بُرْدَة بنت المنذر بن زيد من بنى النجار .

الموقع

تقع تبوك في منتصف المسافة بين المدينة ودمشق . في الجنوب الشرقي من العقبة ، وتبعد عن المدينة حوالي سبعمائة كيلو متر يقطعها المسافر فيما يقرب من أربعة عشر يوما .

أسباب الغزوة:

كان النبي يرنو ببصره دوما نحو الشمال . حيث يسيطر الروم على بلاد الشام ، وحيث تنتشر النصرانية ، وهي بلاد أحق بأن ينتشر فيها الإسلام ، فيشملها نور الله وعدله ، ويخلصها من استعباد قوم لأقوام خلقهم الله منذ البدء كي يعيشوا أحرارا .

كانت " مؤته " أيضا لا تفارق أذهان المسلمين . ما كان استشهاد الأمراء الثلاثة بالأمر الهين ، رغم أن الجيش انسحب تحت قيادة خالد بن الوليد دون خسائر تذكر . صحيح أنه لم يكن نصر الروم حاسما ، ولم تكن هزيمة المسلمين مؤثرة . لكن تلك الجولة كان لابد وأن يتبعها المسلمون بجولة أخرى تشعر الروم ومن والاهم أن المسلمين قادمون ، لن يرهيبهم عدد أو عدة .

الأمر بالتهيؤ للغزو:

قرر النبي أن يكون هو نفسه على رأس الجيش . أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، ليذهب المسلمون إليهم قبل أن يأتوا هم لغزو المسلمين . مهاجمة العدو في دياره خير من إعطائه الفرصة كي يهاجم هو ويتحمل المسلمون عبء الدفاع وربما معاناة الحصار وما يصحبه من خوف وجوع وخيانة بعض ضعاف النفوس .

كان النبي في غزواته السابقة لا يعلن صراحة عن مقصده ، تعمية للعدو كسي لا يأخذ أهبطه ويطول أمد الحرب وتراق دماء ما أراد لها النبي أبدا أن تراق . أخذ العدو على غرة واستسلامه دون قتال ، كان أفضل في رأى النبي من قتل الرجال وتخريب الديار . كان هدفه الأسمى هو نشر الإسلام في سلام .

فى هذه الغزوة أعلن النبى فى صراحة ووضوح أنه خارج لغزو الروم . كان لهذا الإعلان ما يبرره ، فالمسافة بعيدة والرحلة شاقة وبأس العدو شديد .

فوجئ الناس ، فالدعوة جاءت فى زمن عسرة والحر شديد والطريق طويل . قد يتساقط منهم الكثير كأوراق الشجر الجافة قبل أن يصل الجيش إلى حيث يريد . الثمار فى المدينة على وشك أن تطيب ، اقترب وقت القطاف . من يترك الظل والثمر ، وصحبة الأهل فى أمن وطمأنينة ، كى يخرج فى غزوة قد تستغرق عشرات الأيام ، فوق رمال ملتربة كالحمم وشمس حارقة كالجحيم !!

حتى لو نجحوا فى الوصول ، وقد أنهمكهم طول السفر وربما العطش والجوع أيضا ، سوف يتلقاهم عدو وافر العدد والعدة مستريح الجسد لا ينقصه زاد ، عدو يقاتل على أرضه التى يعرف جيدا مداخلها ومخارجها ، تحت قيادة واعية متمرسة ، ذات صيت فى معاركها المنتصرة .

الذين كرهوا الخروج:

الخروج لقتال هؤلاء ، وفى هذا التوقيت بالذات ، أمر يبعث على التردد ، وهو أيضا مخيف . بدا ذلك واضحا فى سلوك البعض ، رغم محاولتهم الاستخفاء وراء أعدار كان من الواضح أنها واهية ، لا تصلح فى ستر عوار أصحابها.

سأل النبى أحد أصحابه ، وهو الجَدُّ بن قيس أحد بنى سلمة : يا جد هل لك العام فى جلاذ بنى الأصفر (أى الروم) ؟ بهذا السؤال كان النبى يريد أن يعرف مدى اقتناع أصحابه وقدر حماسهم للخروج والقتال ، وهو يدرك كل الإدراك أنه لا خير فى أناس ضعف فيهم العزم واهتزت الثقة وفتر الحماس .

جاء رد الجَد بن قيس مؤيدا لصدق أحاسيس النبى قال الجَد ، وهو يحاول أن يستر تخاذله بحجة واهية : يا رسول الله ، أو تأذن لى ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر .

هكذا !! الرجل أظهر جبنه وتخاذله ، رفض الخروج مجاهدا فى سبيل الله لأنه يخشى على نفسه الفتنة . هو ضعيف أمام النساء ، قد يسقط صريع اهتزازه فى رمش امرأة . وكيف لهذا الملتاث بجسد الأنثى أن يصمد فى ساحة الوغي حيث لا صمود إلا لكبار النفوس ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وهذا إن كان قد عاهد بإعلانه أن قد أسلم ، إلا أنه ما صدق . ما بأمثال هذا تكسب المعارك ويصنع المستقبل ويُسَطِّر التاريخ . قال له النبى بإيجاز شديد وكأنه يطلب منه أن ينصرف : قد أذنت لك ؟ وفيه نزلت الآية :

" وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ اِنَّنِي لِي فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ " (التوبة : ٤٩) .

وقال بعض المنافقين والمتخاذلين : لا تتفروا في الحر ، وهم في الحقيقة يهربون من الجهاد ، خيفة وخشية . وهؤلاء نزل فيهم قوله تعالى : " فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تُنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ " (التوبة : ٨١) .

كان بين القاعدين المتخاذلين من قصد عمدا أن يثبط همم الناس . اجتمع هؤلاء في بيت رجل من يهود ، يبيثون الفرقة ويخوفون الناس من مخاطر الخروج في وقت لا يصلح - من وجهة نظرهم - للقتال ولقاء عدو لا قبل لهم به ، ولا طائل من خوض معركة ضده . كان هؤلاء أشد خطرا على المسلمين من أعدائهم ، لذا بعث النبي إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يُحَرِّقَ البيت على من فيه ، وقام طلحة بتنفيذ أمر النبي .

ويذكر ابن سعد أنه قد جاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله في التخليف من غير علة فأذن لهم ، وهم بضعة وثمانون رجلا . وجاء المعززون من الأعراب ليؤذن لهم فاعتذروا إليه فلم يعنهم وهم اثنان وثمانون رجلا .^١

وقد تخلف بعض من أبطاط بهم النية وكانوا لا يقصدون التخليف ، ومنهم كعب بن مالك أخو بني سلمة ، ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف ، وهلال بن أمية أخو بني واقف ، وكانوا نفر صدق لا يُتَّهَمُونَ في إيمانهم .

لم يخرج على بن أبي طالب مع الجيش . مما أعطي فرصة للمرجفين في المدينة وناشروا الفتنة والحاقدين علي ابن عم النبي كي يبيثوا سمومهم . ادعوا أن النبي ما خلفه إلا استنقالا له وتخففا منه ، لا يريد أن يصحبه ولا يرغب في رفقته . لم يعط على الفرصة لهؤلاء كي ينشروا أكاذيبهم ، أخذ سلاحه وخرج إلى النبي وهو وسط جنده الذين سمعوا وأطاعوا . قال على : يا نبي الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني ، أنك استنقلتني وتخففت مني ! قال النبي : كذبوا ، ولكني إنما خلفتك لما ورائي ، فارجع فاخلفني فسي أهلي وأهلك . أفلا ترضى يا على أن تكون مني بمزله هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي .^٢

^١ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

^٢ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

والعبارة الأخيرة غير مفهومة . فقد مات هارون قبل موسى وكان من المستحيل أن يصبح نبيا بعده .

تجهيز الجيش :

حض النبي الأغنياء والموسرين على النفقة في سبيل الله ، عليهم أن يقدموا المال والزاد والحملان ، أي الركائب ، كل حسب استطاعته . من جهز جيش العسرة غفر الله تعالى له . هذا ما قال به النبي ، وهذا ما جعل الناس يسارعون بالعطاء .

تبرع أبو بكر وعمر بزاد وحملان ، وتبارى نوو اليسار في البذل والعطاء . أما عثمان بن عفان فكان نهرا دافقا ، صب في حجر النبي ألفي دينار ، وتبعها بمائة ناقة ، ثم أضاف مائة ناقة أخرى ، مما دفع النبي إلى أن يقول : اللهم ارض عن عثمان ، فإني راض عنه .

تجهز الجيش . ثلاثون ألفا من الناس ، والخيول عشرة آلاف فرس . وكان عبد الله ابن أبيّ قد عسكر على " ثنية الوداع " في حلفائه ، لكن عندما بدأ المسير تخلف هو ومن معه ، لم يكن سلوكه هذا بمستغرب فقد فعلها من قبل وتخاذل قبيل غزوة أحد ، وعاد إلى المدينة رافضا الاشتراك في القتال .

الخروج:

استخلف النبي على المدينة محمد بن مسلمة . أمر كل بطن من الأنصار والقبائل من العرب ، أن يتخذوا لهم ألوية أو رايات يعرفون بها . وخرج من المدينة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة .

البكاؤون:

ولحق بهم من اطلق عليهم " البكاؤون " . وهم سبعة نفر من الأنصار ، أبدوا رغبتهم الجارفة في الخروج للجهاد ، لكنهم لم يجدوا ما يركبون . طلبوا من النبي أن يوفر لهم ما يحملهم ، ولم يجدوا عنده ما يحملهم عليه ، وما كان باستطاعتهم السير كل تلك المسافة في رمضاء الهجير . تولوا وأعينهم تفيض من الدمع ألما وحرزا ، وتخلفوا مرغمين .

انطلق الجيش تحت قيادة النبي ، في مسيرة طويلة ، والمسلمون يكبرون ويهللون ، غير عابئين بنقص الزاد أو ندرة الماء أو قيط الصحراء . كان وجود النبي في وسطهم يمدحهم بما هم في حاجة إليه من صبر على البلاء في سبيل الله .

اشتد الحر ، ونفد الماء ، وعظم البلاء ، وكاد الناس يهلكون على الطريق ، مما دفعهم إلى أن ينحروا ليلهم ، يعصرون أكراسها ويشربون ماءها ، وما تورع البعض عن شرب أبوالها ، فكان ذلك - كما يقول ابن سعد - عسرة من الماء ، وعسرة من الطهر ، وعسرة من النفقة .^٣

ارتفعت أصوات الناس بالشكوى ، يطلبون من النبي أن يدعو ربه بقرع عنهم الكرب ويخرجهم من عسرتهم . ولم يكن أمام النبي إلا الدعاء والابتهال إلى الله أن لا يهلك قوم خرجوا في سبيله . ومرت صحابه فأمطرت . ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء . اعتبرها البعض معجزة من معجزات النبي ، وارتأى آخرون أنها مجرد سحابة عابرة ، أمطرت ولا صلة لمطرها بالمعجزات .

لم يلق حربا:

وصل النبي وجيشه إلى تبوك . لم يجد هناك من يقاومه ، لا جيش الروم ، ولا جيشا لأنصار الروم . انسحب من كان في المنطقة من جند ، ربما لقتلهم ، وربما لعزوفهم عن القتال في وقت لا يستحب فيه القتال ، وربما لأنهم رفضوا أن يحدد عدوهم مكان وزمان المعركة فتركوه يواجه الخلاء .

أقام النبي بتبوك ما يقرب من عشر ليال ، لم يجاوزها إلى ما بعدها ، ولم يأمر بنشر الجيش فيما حولها . اكتفى بأن أثبت بوجوده أن المسلمين قادرين على الوصول إلى تخوم الروم ، وأنهم لا يقلون عن بيزنطة عددا وعدة ، بل إنهم يزيدون بالإيمان الراسخ في قلوبهم . إنهم جند الله وإن جند الله هم الغالبون .

وتعلق كارين ارمسترونج على هذه القوة المتألقة البازغة بقولها : لا شك أن هذا النجاح قد بهر الأعراب المقيمين في المنطقة . وعقد الرسول أثناء وجوده هناك بعض الموائيق مع الحكام المحليين ، فقام الملك النصراني يحنه بن رؤية صاحب أيلة (وهي ميناء إيلا في إسرائيل الحديثة) بدفع الجزية له ، وكذلك فعل رؤساء ثلاث مستوطنات يهودية في جرباء وفي أنرح الواقعتين في الأردن الحديثة وفي مقنا على ساحل البحر الأحمر . كما أرسل خالد علي رأس قوة صغيرة لاختضاع حاكم دومة الجندل ، ومن ثم وصل هو الآخر لعقد صلح مع محمد .^٤

^٣ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .

^٤ كارين ارمسترونج ، محمد ، ص ٣٦٧ .

أمر النبي بالاستعداد للرحيل ، أى العودة إلى المدينة . لقد كان الأمر محزننا للبعض ، مثيرا لسخرية البعض الآخر . من أجل ماذا إذن خرجوا ؟ لم يقاتلوا ، لم يغنموا ، لم يأسروا ، لم يتجحوا حتى فى سبى امرأة واحدة من نساء بنى الأصفر اللاتي سمعوا الأقاصيص عن سحر جمالهن ، لا مال ، ولا سبايا ، لا ناقة ولا جمل ولا مجرد شاة . ثلاثون ألفا أو يزيد ، عانوا الأهوال ذهابا ، ولابد وأن يعانون الأهوال إيابا ، والخيبة بادية فى الذهاب ، جليلة فى الإياب ، مما دفع بعض المسلمين بعد العودة إلى بيع أسلحتهم . وكما يذكر ابن سعد : جعل المسلمون يبيعون أسلحتهم ويقولون : قد انقطع الجهاد .^١

محاولة قتل النبي:

أثناء العودة كان الأمر أهوى وأمر . لقد تأمر بعض المحبطين الغاضبين على حياة النبي ، قرروا الخلاص منه قبل أن يعود إلى المدينة حيث مصدر قوته وسلطانه . تربصوا به . بدا لهم الأمر يسيرا وسط القفر والهضاب والجبال . مراقبته ليست شيئا عسيرا والاقتراب منه إلى حد الملامسة ميسور ولا غرابة فيه . إنهم ينتظرون الفرصة فقط ، فرصة أن يمر من فوق صخرة مرتفعة ، يفضل أن تكون شاهقة الارتفاع ، يدفعونه بكل قواهم دفعة رجل واحد . يسقط بعدها من الأعلى إلى الهاوية . وبذلك تنتهي قصة النبي .

علم النبي بما تم ضده من تأمر . كانت له عيون ترصد الناس وتنقل الأخبار ، حتى يمكن السيطرة على الجموع وكبح جماح المتفلقين والخارجين على الإجماع . ولقد أشرنا إلى هذه النقطة فى أكثر من موقف سابق .

كان عليه أن يأخذ حذره وأن يعد للأمر عدته ، وهو على ذلك قادر . لكن نفسه ضاقت ، وحزن قلبه ، فما كان يتوقع حتى من أشد المنافقين مروقا أن يقدم على جريمة قتله . وبدا ضيق النبي فى بعض تصرفاته . كان فى طريق العودة - بواد يقال له وادي المشقق - ماء يخرج من صخرة ، ولم يكن بالماء الوفير . أصدر النبي أمرا : من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقين منه شيئا حتى نأتيه . فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا منه . فلما أتاه رسول الله - كما يحكي ابن إسحق - لم ير فيه شيئا ، فقال : من سبقنا إلى هذا

^١ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .

الماء ؟ فقيل له : يا رسول الله ، فلان وفلان . فقال : أَلَمْ أَنهَهمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْهُ شَيْئاً حَتَّى آتِيَهُ ؟ ثُمَّ لَعَنَهُمْ .. ودعا عليهم ^٦ .

هذا غير مألوف في سلوك النبي ، فما كان شتأماً أو لعناً . وكم من موقف طلب فيه أصحابه منه أَنْ يدعوا على قوم أو أقوام كي يصيبهم الله بالعذاب ، فكان يرفض رفضاً قاطعاً مطلقاً ، معلناً أنه ما أرسل إلا رحمةً للعالمين .

على أية حال ، أخذ النبي حذره ، وبث عيونه ترقب المتآمرين عليه ، وأحاط نفسه بمجموعة من خلائه حتى نزل بذي أوان ، وهو مكان بينه وبين المدينة مسيرة ساعة .

فشل المتآمرون فيما اعتزموا القيام به ، خاب سعيهم ، وحبط عملهم . ورغم أن النبي عرف أسماء وشخص بعضهم ، إلا أنه رفض عقابهم . أشار عليه أحد أصحابه بضرب أعناقهم . لكنه رفض . قال : أكره أن يتحدث الناس ، أن يقولوا : إن محمداً قد وضع يده في أصحابه (أى قام بقتلهم) ^٧ .

حرق مسجد الضرار:

لما نزل النبي بذي أوان جاءه خبر المسجد الذي أطلق عليه - بعد أن أمر النبي بهدمه وتحريقه - مسجد الضرار . كان أصحاب هذا المسجد الذين بنوه كى يجتمعوا فيه ، هم وأتباعهم ، اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج ، ويقال إنهم كانوا على صلة بمن تأمروا على حياة النبي وهو في طريق العودة . قبل خروجه للغزو طلبوا منه أن يذهب إليهم ليصلى فيه ، لكنه أمهلهم حتى يعود .

ونزل قوله تعالى : " وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (التوبة : ١٠٧-١١٠) .

لقد بنوا المسجد كي يكون مقراً لهم ، وبؤرة للتآمر ضد المسلمين ، وبث الفتنة والتفرقة وتكذيب الحق ما أمكنهم إلى ذلك من سبيل . ويؤكد مونتجمري وت : أنهم كانوا من عشيرة عمرو بن عوف . ومن الواضح أنهم كانوا من أنصار أبي عامر الراهب ،

^٦ ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٨٢ .

^٧ أبو زهرة ، ج ٦ ، ص ٩٦٨ .

الذى ربما كان هو نفسه فى المدينة فى ذلك الوقت . فى المسجد الجديد كانوا سيجدون مكان لقاء مناسب كي يدبروا المكائد ضد محمد دون أن يرعجهم أحد .^٨

قبل دخوله المدينة أرسل النبى رجلين من خالصائه - مالك بن النخشم ومغن بن عدي - إلى قباء ، حيث أقيم المسجد ، وطلب منهما هدمه وحرقه . قال لهما النبى : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه .^٩ وتم بالفعل هدمه وحرقه ، ودخل النبى المدينة فى رمضان من نفس العام ، أى سنة تسع . وكانت تبوك هى آخر غزوات النبى .

موت عبد الله بن أبى :

كان هدم مسجد الضرار وحرقه ضربة أخافت أهل النفاق من أصحاب الأحقاد ، وناشروا الفتنة ، وزارعي الضغينة . انكسرت شوكتهم ، ثم لم يلبثوا أن انهاروا انهيارا كاملا عندما أعلن عن موت عبد الله بن أبى ، رأس النفاق فى المدينة . مرض بعد تبوك ، ولم يمهل المرض أكثر من شهرين ، بعدهما مات . مرض فى ليال بقين من شوال ، ومات فى ذى القعدة ، وكان مرضه عشرين ليلة .

دعى النبى للصلاة على ابن أبى ، فقد كان عظيما فى قومه موقرا بين نويه وأهله . قام النبى إليه . اعترضه عمر بن الخطاب قائلا : يا رسول الله ، أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى ابن سلول القائل كذا وكذا وكذا . وأخذ عمر يعدد مساوئ ابن أبى وقدر الضرر الذى حاول أن يلحقه بالنبى وبالمهاجرين . كل ذلك والنبى فى صبر يستمع ، حتى إذا أكثر عمر أسكته النبى بقوله : يا عمر أخر عني ، إني قد خيرت فاخترت ، قد قيل لى استغفر لهم ولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم . فلو أعلم أنى زبت على السبعين غفر له لزبت .^{١٠}

صلى النبى على ابن أبى وقام على قبره حتى دفن .. بعدها نزل قوله تعالى : " وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَابَ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ " (التوبة : ٨٤) .

ويرى لينجز Lings أن كلمات الآية السابقة لا ينطبق ما جاء فيها على عبد الله بن أبى ، ذلك لأن النبى زاره فى مرضه الأخير ووجد أن شدة المرض قد غيرته . وأثناء تلك الزيارة طلب ابن أبى من النبى أن يعطيه ثوبا من ثيابه كي يكون له كفنا . وأن

^٨ Montgomery Watt, Muhammad at Medina, p. 190.

^٩ ابن هشام ، ج٤ ، ص ١٨٥ .

^{١٠} نفس المرجع ، ص ٢١٠ .

يصحب الجثمان إلى القبر بالصلاة عليه ، ووافق النبي . وكان عبد الله بن عبد الله بن أبي حاضرًا وشاهدًا .¹¹

موت أم كلثوم:

فى نفس هذا العام ، أى العام التاسع الهجري ، ماتت أم كلثوم لبنة النبي ، فى شعبان أثناء حملة تبوك .

موت إبراهيم :

كان إبراهيم ، ابن النبي من مارية القبطية ، قرة عين النبي ومصدر سعادته ، وقد تقدمت به السنون ، لم يعيش له من قبل ولد . مات القاسم وعبد الله ، ابنا خديجة ، وهما طفلان فى مكة ، وعلى ذلك فعندما ولد إبراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة فرح به النبي فرحاً كبيراً . كان يكثر من زيارته هو وأمه . وأحياناً كان يحمله بين ذراعيه يسير به بين الناس فى فرح . هذا هو ولده الحبيب الذى من الله به عليه فى آخر سنوات عمره .

لكن هذه السعادة الغامرة بالفرح الصافى لم تستمر . مرض إبراهيم ، بعد ما يقرب من ستة عشر شهراً ، ولم يطل به المرض . رآه النبي وهو يحتضر ، ووقف أمام جلال الموت القاهر لا يستطيع فعل شئ : يا إبراهيم إنا لا نغني عنك من الله شيئاً . مات آخر أبناء النبي ، كما ماتت كل بناته باستثناء فاطمة زوجة على بن أبى طالب . تم دفنه فى البقيع . تصادف أن كسفت الشمس فى نفس اليوم . خيل لبعض الصحابة أن هذه معجزة . وأن الشمس ما كُفيت إلا لموت إبراهيم . سمع النبي بما تناقلوه ، خرج عليهم ، قال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفن لموت أحد .

رفض النبي وهو فى لحظة من أعمق لحظات حزنه - وقد كان كثير الأحزان - أن تنتشر خرافة على سبيل العزاء . ما كان بهذا منهجه ، وما كانت الكهانة أو الشعوذة لتجد إلى قلبه من سبيل .

إجمالى عدد المغازى والسرايا :

قلنا من قبل إن تبوك كانت آخر غزوات النبي . وقد خرج النبي فى سبع وعشرين غزوة قادماً بنفسه ، قاتل منها فى تسع غزوات فقط هى : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف .

¹¹ Lings, p. 321.

أما عدد السرايا والبعوث التي أمر بخروجها فقد اختلف كتاب السيرة في ذكر عددها، فابن هشام على سبيل المثال يذكر أنها كانت ثمانية وثلاثين بعثا ومصرية، والطبري يرى أنها كانت خمسا وثلاثين، أما ابن سعد فيقول إنها كانت سبعا وأربعين، ويدعي أبو حسن علي أن عدد السرايا التي أرسلها النبي تبلغ الستين، رغم أن أغلبها لم يقع فيه قتال.

وفي كل هذه المعارك التي خاضها المسلمون لم يُرَق إلا القليل من الدماء، فقد كان النبي حريصا على نشر دين الله بآيات القرآن، وقد احتواها المسلمون فأصبحت لهم منهجا جذب الأصدقاء وبهر الأعداء، قسعوا إلى هذا النبي حيث هو في المدينة كي يروا عن قرب ويتعلموا عن فهم. وبدأ عام الوفود، وكان إيذانا بدخول الناس في دين الله أفواجا.

الوفود

وحج أبى بكر بالناس

يطلق على العام التاسع الهجرى عام الوفود وذلك لكثرة الوفود التى أقبلت على مسجد النبي بالمدينة معلنة إسلامها ، أو محاوره ومجادلة فى سبيل استجلاء الحقيقة ، أو مفاخرة ومكابرة ، أو طامعة ومناجزة . وكان النبي فى كل الحالات ، وفى لقائه مع كل الوفود ، هو هو النبي يلقاهم فى حب ، ويجادلهم فى رفق ، ويعاملهم فى ترحاب وحنو . حتى الذين خرجوا فى لقائهم به عن حدود اللياقة وتخلوا فى معاملته عن أصول الكياسة ، لم يجدوا سوى التسامح والصفح ، فما كان بملك ولا جبار ، إنما أرسله الله هدى وبشرى ورحمة للعالمين .

ليس معنى قولنا أن العام التاسع هو عام الوفود أنه لم تكن هناك وفود قبله أو وفود بعده . كانت قبله وبعده وفود ، لكنها لم تكن بنفس الكثرة . وسنعرض هنا لبعض الوفود التى كان لمقدمها دلالات نود إبرازها . ومن غير المجدى أن نكتب عن الوفود كلها عددا وتعدادا ، ذلك لتشابه أكثرها فى المقدمات والنتائج . ومن يريد أن يقرأ ذلك تفصيلا فعليه أن يرجع إلى ابن سعد ، الجزء الأول من الطبقات الكبرى ، فقد كتب عن ثلاثة وسبعين وفدا فيما يقرب من سبعين صفحة .

١ - وفد ثقيف :

بعد عودة النبي من تبوك ، فى شهر رمضان من العام التاسع ، قدم عليه فى نفس الشهر وفد من ثقيف . لم ينسوا انتصار المسلمين فى موقعة حنين ، وحصارهم للطائف ما يقرب من شهر ، ولولا دخول الشهر الحرام لاستمر الحصار حتى سقوط الأسوار . لقد بدأت شبه الجزيرة تتجه إلى الإسلام وتعلن اعتناقها له ، أعداد المسلمين تتزايد وقوتهم بدت واضحة للعيان لدرجة أن توجهوا بأكثر من ثلاثين ألف مقاتل إلى أرض الشام لمواجهة الروم دون رهبة أو خشية . إن توقعهم قوة إذا ما قرروا حصار الطائف من جديد . وإذا كانت ثقيف قد نجحت فى مقاومة الحصار شهرا ، فمن يدرى ربما بعد ذلك لا تستطيع .

رأوا أنه من الأسلم والأحوط أن يذهبوا إلى النبي ويفاضوه أو بالأحرى يساوموه.
وهم - كما خيل إليهم - فى مركز قوة ، مما قد يسهل عليهم فرض ما يشاءون من
شروط مقابل اعتناقهم للإسلام .

يحكى ابن إسحق أنه بعد انصراف النبي عن الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود
التقى حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة . أعلن عروة إسلامه . وأخبر النبي أنه راجع
إلى قومه كي يدعوهم للإسلام . حذره النبي . قال له عبارة قصيرة ، شديدة الدلالة ، شديدة
الوقع : إنهم قاتلك .

كان للنبي يعرف طبيعة التقيين وما جبلوا عليه من صلابة وعناد لكن ثقة عروة بن
مسعود فى نفسه وفى مكانته عند قومه دفعته إلى أن يقول : يا رسول الله ، أنا أحب إليهم
من أبكارهم . ويروى ابن هشام أنه قال : أنا أحب إليهم من أبصارهم^١ .

ما تصور عروة أن يخالفه قومه فيما يدعو إليه . كان سيدا مهابا مطاعا ، لا تُنكر
له منزلة ولا يُعصى له أمر ، ذلك لرجاحة عقله وحسن شمائله واتزان فكره وحرصه
على ما يعود على قومه بالمنفعة والخير .

عاد إلى قومه ، دخل الطائف ليلا ، لم يتوجه - كعادة أهل الطائف عند عودتهم من
سفرهم - إلى اللات كي يقدم لها فروض ولاء العابد للمعبود . كانت اللات - كما سبق
وذكرنا فى كتابنا سنوات مكة - صخرة تعبدها تقيف ، أحاطتها بأسوار جعلوها لها بيتا
تقدم فيه القرابين على غرار الكعبة التى وضع فيها وثنيو قريش أصنامهم ، وبذلك أصبح
بيت اللات مركزا من مراكز العبادة ذات الأهمية والثقل فى
شبه جزيرة العرب .

أشرف عروة على عليّة له . تحدث إلي قومه . أنصتوا إليه . أعلن إسلامه ودعاهم
إلى الحق ، أى إلى عبادة إله واحد لا إله إلا هو ، خالق كل شئ . فجاهم ما حدث لعروة ،
ما لم يكن يتوقعه أحد . انصرفوا دون أن يجادلوه . بيتوا فى أنفسهم أمرا انتمروا به . ما
أن طلع الفجر حتى وقف عروة فى عليّته يؤذن للصلاة . خرج رجال تقيف أحاطوا به .
رموه بالنبل . أصابه سهم قاتل . لبس أنصاره السلاح . حشدوا الرجال . استعدوا لقتال .
لن يضيع دم عروة هذرا .

لكن عروة حتى وهو يموت ، أظهر من الحكمة ما يندر وجوده بين الكثير من
الرجال . سأله أصحابه : ما ترى فى دمك ؟ أجاب فى سمو الشهداء : قد تصدقت بدمي

^١ ابن هشام ، ج ٤ ، ص ١٩٤ .

على صاحبه لأصلح بذاك بينكم . وهى كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلسى ..
ادفتوني مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله . ومات فدفنوه معهم ^٢ .

مرت أشهر على قتل عروة بن مسعود ، والتقيون فى حيرة من أمرهم . لقد أقبلت
قبائل العرب على الإسلام . واستسلمت قريش وأشهرت إسلامها ، و" القرشيون هم أهل
البيت الحرام وصريح ولد إسماعيل وقادة العرب ، كانت قريش هى التى نصبت لحرب
رسول الله ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ، عرف العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب
محمد ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله " ^٣ .

وصل التقيون إلى اقتناع يتفق مع منطق الواقع . لقد أصبح محمد ومن معه قوة لا
يستطيعون مجابهتها والانتصار عليها . لا طاقة لهم بحرب محمد . حرب من هذا النوع
وفى مثل هذه الظروف ستكون بكل المقاييس خاسرة . وبناء عليه ، من الأفضل إرسال
وفد يرسى دعائم السلام ويصل مع محمد إلى أفضل شروط يمكن الحصول عليها .
اختاروا ستة منهم علي رأس وفد مكون من سبعين رجلا ، وقد ارتضى الجميع أن يكون
عبد ياليل بن عمرو بن عمير هو رائدهم وصاحب أمرهم .

وصلوا مسجد النبى ، ضربت لهم قبة فى ناحية منه ، تحدث النبى إليهم كثيرا
وطويلا عن الإسلام . أعلنوا إسلامهم ، لكنهم فى نفس الوقت تقدموا بشروط أملوا أن
يستجيب النبى لها ، وقد رفضها النبى جميعا .

كان أول ما طلبوه أن يترك لهم النبى " اللات " لايهدمها ثلاث سنين . لم يدر
بخلداهم أنهم يطلبون المستحيل ، وأنه لا مكان لـ " اللات " بعد الإسلام . كان الرفض
قاطعا . سأله فى إلحاح أن يتركها عاما .. شهرا .. أسبوعا بعد عودتهم .. يوما . سمعوا
نفس الرفض فى حسم . هذا موضوع لا جدل فيه . عندها طلبوا منه أن يعفيهم من هدمها
بأيديهم ، وافق النبى . قرر أن يرسل أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن عتبة فيهدماها .

تقدموا بمطلب آخر ، خيل إليهم أنه يمكن التساهل فيه ، وهم بالطبع لجهلهم لا
يدركون مقدار خطورة ما يطلبون : الإعفاء من الصلاة ، أى أن يكونوا مسلمين بلا
صلاة . كان رد النبى : لا خير فى دين لا صلاة فيه . إنهم يريدون هدم ركن يستحيل أن
يقوم بدونه إسلام . ما كانوا يدركون ، لأنهم كانوا لا يعلمون . واستجابوا ، لأنه لم يكن
أمامهم خيار .

^٢ ابن سعد ، ج١ ، ص ٣١٢ .

^٣ ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٢٢ .

استمروا في جلدكم يطالبون بإباحة بعض ما كان مباحا لهم في الجاهلية . الزنا ، على سبيل المثال ، لماذا لا يباح لهم الزنا وقد ألفوه وتعودوه وهم قوم يغتربون . وكان الرد بكلمات القرآن " وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا " (الإسراء: ٣٢) . انتهت الآية كل حديث في هذا المجال .

ارتفعت الأصوات: وماذا عن الربا والخمر : الربا هو كل أموالنا والخمر عصير أرضنا ومصدر ثرواتنا ، ولا غناء عنهما . بدونهما يختل الميزان . وكان الرد ربانيا : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " (البقرة : ٢٧٨) . و " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (المائدة : ٩٠) .

قضى الأمر . كان عليهم أن يسلموا قولا وفعلًا . أمرَ عليهم النبي عثمان بن أبي العاص ، وكان من أحدثهم سنا ، ذلك لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام ، كما تمكن من حفظ بعض سور القرآن . وكان أبو بكر هو الذي أوصى بالغلام عندما قال للنبي : يا رسول الله إنني قد رأيت هذا الغلام منهم أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن^٤ .

أسلمت تقيف وتم هدم اللات . هدمها المغيرة بن عتبة الذي انتزع حليها وكسوتها وأرسلها للنبي .

٢- وفد تميم :

كان لبني تميم عند النبي أسرى وسبايا . أغار عليهم عيينة بن بدر الفزاري فأخذ منهم أحد عشر رجلا وثلاثين صبيا وسبى إحدى عشرة امرأة . قدم عدد من رؤساء تميم على رأسهم غطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي ، والزُّبرقان بن بدر التميمي ، وعمر بن الأهتم ، والحجاب بن يزيد . ويقال إنهم كانوا ثمانين أو تسعين رجلا . دخلوا المسجد وقد أذن بلال لصلاة الظهر . لم يكن النبي قد خرج بعد للصلاة . انتظره الناس . لكن بنى تميم استبطوه ، تعجلوا ، فنادوه من وراء حجراته : أخرج إلينا يا محمد . لم يكونوا يعرفون شيئا عن آداب الإسلام وكيفية التأدب في التعامل مع النبي . أدى صياحهم النبي ونزلت فيهم الآية الكريمة " إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " (الحجرات : ٤) .

^٤ ابن هشام ، ج٤ ، ص ١٩٧ .

أَقَمَ بِلَالُ الصَّلَاةِ . صَلَّى النَّبِيُّ بِالنَّاسِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْوَفْدَ . مَا شَعَرُوا بِالْخَجَلِ مِنْ
مَنَادَاتِهِمْ وَصِيَاخِهِمْ . دَفَعَهُمُ الصَّلَفُ الْوُثْقَى أَنْ يَعلنُوا أَنَّهُمْ جَاءُوا لِمَفَاخِرَةِ النَّبِيِّ ،
وَلِيَكُنْ مِنْهُمْ خَطِيبٌ وَشَاعِرٌ وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ خَطِيبٌ وَشَاعِرٌ . وَكَانَ الْقَضِيَّةُ الَّتِي جَاءُوا مِنْ
أَجْلِهَا لَيْسَتْ قَضِيَّةً أُسْرَى وَسَبَايَا ، وَلَا قَضِيَّةً دِينٍ وَعَقِيدَةٍ ، مِمَّا يَدُلُّ دُونَ شَكِّ عَلَى
خَوَائِهِمْ قَدَاخِلِي .

قَالَ النَّبِيُّ : قَدْ أَذْنْتُ لَخَطِيبِكُمْ فَلْيَقُلْ .

وَتَحَدَّثَ خَطِيبُهُمْ عَطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ أَخُو بَنِي
الْحَرْثِ بْنِ الْخَزْرَجِ : ثُمَّ قَامَ شَاعِرُهُمْ وَهُوَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَدْرِ فَأَلْقَى قَصِيدَةً يَمْتَدِّحُ فِيهَا قَوْمَهُ
وَيُبَيِّنُ عَنْهُمْ مَكَانَتَهُمْ وَسَمُو قَدْرَهُمْ . وَرَدَّ عَلَيْهِ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ . وَكَانَ تَعْلِيْقُ الْأَقْرَعِ بْنِ
حَابِسٍ - كَمَا يَقُولُ ابْنُ إِسْحَاقَ - بَعْدَ أَنْ فَرَّغَ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ : وَأَبَى إِنْ هَذَا الرَّجُلُ لِمَوْتِي
لَهُ . لَخَطِيبِهِ أَخْطَبَ مِنْ خَطِيبِنَا ، وَلشَاعِرِهِ أَشْعَرَ مِنْ شَاعِرِنَا ، وَلَأَصْوَاتِهِمْ أَعْلَى مِنْ
أَصْوَاتِنَا .^٥ وَكَانَتْ النَّتِيجَةُ أَنَّ أَسْلَمَ بَنُو تَمِيمٍ ، وَرَدَّ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ أَسْرَاهُمْ وَسَبْيَهُمْ ، وَمَنْحَهُمْ
مِنَ الْعَطَايَا مَا أَرْضَاهُمْ .

٣- وَفْدُ طَيْئٍ :

قَدِمَ وَفْدُ طَيْئٍ عَلَى النَّبِيِّ ، خَمْسَةُ عَشَرَ رَجُلًا ، عَلَى رَأْسِهِمْ قَائِدُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ زَيْدُ
الْخَيْلِ بْنُ مَهْلَهْلٍ مِنْ بَنِي نُبَهَانَ . اتَّقَوْا بِالنَّبِيِّ فِي الْمَسْجِدِ . حَدَّثَهُمْ عَنِ التَّوْحِيدِ وَكَرَهُ إِلَيْهِمُ
الشَّرْكَ وَعِبَادَةَ الْأَوْثَانِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، فَأَسْلَمُوا . وَلَقَدْ وَجَدَ النَّبِيُّ فِي زَيْدِ
الْخَيْلِ شَخْصِيَّةً جَدِيرَةً بِالثَّقَّةِ وَالتَّقْدِيرِ لَمَّا بَدَأَ مِنْ حَسَنِ شَمَائِلِهِ ، مِمَّا جَعَلَهُ يَعْبُرُ صَرَاخَةً
عَنِ إِعْجَابِهِ بِهِ وَثَنَائِهِ عَلَيْهِ ، يَقُولُ : مَا ذُكِرَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بِفَضْلِ ثُمَّ جَاعَنِي إِلَّا
رَأَيْتُهُ دُونَ مَا يُقَالُ فِيهِ إِلَّا زَيْدَ الْخَيْلِ فَإِنَّهُ لَمْ يُبْلَغْ كُلُّ مَا فِيهِ ، ثُمَّ سَمَاهُ زَيْدَ الْخَيْرِ بَدَلًا مِنْ
زَيْدِ الْخَيْلِ ، وَكَتَبَ لَهُ أَرْضًا يَسْتَعْدِمُهَا لِمَصْلَحَتِهِ وَمَصْلَحَةِ قَوْمِهِ .

خَرَجَ زَيْدُ الْخَيْرِ مَعَ قَوْمِهِ مَتَجِّهَا إِلَى أَرْضِهِ . وَكَانَ النَّبِيُّ يَتَمَنَّى أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ
إِلَى مَوْطِنِهِ سَالِمًا وَأَنْ يَنْجُو مِنْ حُمَى الْمَدِينَةِ . لَكِنِهَا لِلْأَسْفِ كَانَتْ قَدْ أَصَابَتْهُ . فَلَمْ يَنْجُ
مِنْهَا وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ . حَزَنْتَ لِذَلِكَ زَوْجَتَهُ وَغَضِبَتْ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَيُقَالُ إِنَّهَا عَمِدَتْ
إِلَى مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ كُتُبِهِ الَّتِي قَطَعَ لَهُ النَّبِيُّ فَحَرَقَتْهَا بِالنَّارِ .

^٥ ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ .

وكان علي بن أبي طالب قد خرج في مائتي فارس كي يهدم " الفلّس " صنم طيئ. هدم الصنم وعاد إلى المدينة بسبايا كان من بينهن ابنة حاتم الطائي ، وكان أخوها عدي ابن حاتم قد هرب من خيل النبي حتى لحق بالشام .

عدي بن حاتم كان نصرانيا ، شريفا في قومه يعاملونه كما الملك . سمع عن النبي فكرهه كراهية شديدة ، ولم يفكر أبدا في اعتناق الإسلام . وعلي ذلك فعندما وطئت خيل النبي بلاد طيئ ، احتمل أهله وولده وهرب كي يلحق بأهل دينه من النصاري ، لكنه خلف وراءه أختا له ، أخذت بين السبايا وجيئ بها إلي النبي . وعندما مر بها النبي وهي بين السبايا في حظيرة بباب المسجد ، قامت إليه وعرفته بنفسها ، وكانت شهرة أبيها نعم كل بلاد العرب ، في حياته وبعد موته ، فقد كان من أكرم وأنبل من وُلد على أرضها ، لدرجة أن كان يضرب بكرمه المثل .

احتقى النبي بابنة حاتم وأكرمها ، كساها ، وأعطاهها نفقة ودابة تحملها ، حتى إذا قدم رهط من قومها استأذنت النبي في أن تخرج معهم فأذن لها .

واجهت أخاها ، عندما وصلت إلى الشام ، ولامته على تركه لها . لم يجادلها فقد كانت على حق في لومها . سألها عن محمد ، فنصحته أن يذهب إليه : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيا فليسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن نذل في عز اليمين وأنت أنت^٦ .

أخذ عدي برأى أخته فقد كانت امرأة حازمة راجحة العقل . وصل المدينة . دخل على النبي في مسجده . ألقى السلام . سأله النبي : من الرجل ؟ أجاب : عدي بن حاتم . رحب به النبي ترحيبا كبيرا . انطلق به إلي بيته . في الطريق استوقفته امرأة عجوز ضعيفة . أصغى إليها في اهتمام وهي تحدثه عن حاجتها . استرعى هذا السلوك انتباه عدي . همس في داخله صوت : والله ما هذا بملك . ما وقف هكذا للفقراء والضعفاء أبدا ملك . هذا شأن أصحاب الرسالات الكبرى .

وكان الصوت الذي همس في أعماق عدي كان هو هاديته إلى الإسلام . وتحول الهاجس الهمس إلى ثبوت يقيني بعد أن دخل عدي بيت النبي . ألقى إليه النبي بوسادة محشوة ليفا وطلب منه أن يجلس ، وجلس النبي بالأرض دون حشية أو وسادة . أحس عدي بالخجل ، حاول أن يردها للنبي كي يجلس هو عليها ، ويبدو أنه لم يكن هناك

^٦ ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٤٨ .

غيرها . ورفض النبي . تأكد ما كان يدور في أعماق عدى : ما هذا بملك ، إن هو إلا نبي كريم .

تحدث النبي وهو يجلس في مواجهة عدى : لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدن ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال إن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وأبسم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيضاء من أرض بابل قد فتحت عليهم .^٧

نفدت كلمات النبي إلى قلب عدى ، وكان قد انبهر بكرم لقائه ، وتلقائية سلوكه ، وبساطة أدائه ، ونقاء سريره . أعلن إسلامه .

وتحققت كلمات النبي بعد موته . انتشر المسلمون فى أغلب بقاع الأرض . دانست لهم الأمم وأسلم أهلها . وآمن الناس . وفاض المال . لم يعد هناك جائع أو محتاج . ظلت رايات المسلمين خفاقة عدة قرون . وقد جعلوا كلمة الله هى العليا واتبعوها ، ما فرطوا منها فى حرف .. ثم .. وبأ ويل المسلمين من " ثم " .. ثم نسوا الله ، وأخذتهم الدنيا بأطماعها وشهواتها وأقذارها .. سرق الحكام شعوبهم ، وتجبروا ، ونهبوا ثروات بلادهم وهربوا إلى أمم لا تعرف شيئا عن الإسلام ، بل تكنى له العداوة والبغضاء والكراهية والاحتقار . أصبحت ثروات المسلمين فى أيدي المسيحيين واليهود الذين أغروا الأشاوس الحكام المسلمين بأفخر قصور الدعارة وأجمل صالات القمار ، أعادوهم إلى الجاهلية الأولى : الخمر والميسر والأجساد العارية ، سواء كانت أجساد نساء أو غلمان . وكذا سهل ضربهم بالنعال ومعاملتهم كالنعا .

وانهارت الشعوب الإسلامية . وانتشر الفساد والفقر والبطالة والتشرد والنهب والقتل والسرقات . لم تعد الشعوب الإسلامية تحمل من الإسلام سوى الاسم ، ولا تعرف ما الإسلام ، وما هو جوهر الإسلام . لا نقول انهار الإسلام . هذا لن يحدث أبدا بإذن الله . ستدور عجلة التاريخ ، ودورانها حتمي . لن يستطيع إيقافه اللصوص والمنحرفون من سادة هذا الزمان . وستأتي لحظة لن يجدي فيها استخدام المدفع والمسدس والكرياج لقهر الناس ومعاملتهم معاملة الكلاب ، بل أقل بكثير من الكلاب ، ذلك لأن كلاب السادة الحكام اللصوص تعيش حياة ارسقراطية ويستورد لها الطعام من أرقى الدول الأوروبية ، بينما

^٧ ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٤٩ .

التعساء من المسحوقين - وهم بالملايين - يعيشون فى المقابر بين الموتى ، ويبحثون يوميا عن لقمة الخبز فى أكوام الزباله ، والمحفوظ هو من يجد فيها شيئا عافته وامتنعت عن أكله الكلاب .

نقول ونؤكد أنه لابد وأن تدور عجله التاريخ دورة كاملة : تنثر الشعوب المقهورة وتمزق جلاذيتها الذين أذلوا وأهانوها ونهبوها وحولوها إلى شعوب من المتوسلين والمتسولين . هؤلاء الحكام الذين - لأنهم جهلة - لم يقرأوا التاريخ ، لابد وأن يَقتَفَ بهم يوما فى محرقة التاريخ . وثانية تصبح كلمة الله هي العليا ، وترفرف من جديد رايات الإسلام .

٤- وفد بني عامر:

قدم وفد بني عامر على النبي وفيهم رؤساؤهم من كبار القوم : عامر بن الطفيل ، وأرتد بن قيس ، وجبار بن سلمى . أشار بعض القوم على عامر بن الطفيل أن يسلم ، فقد أسلمت أغلب القبائل ولا داعي لخوض معارك لا طائل من ورائها . لكن عامر استكبر ، وأبت نفسه أن تخضع لسلطان الحق ، قال فى استعلاء : والله لقد كنت قد آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبى ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ؟ وأضمر فى نفسه الغدر .

قرر أن يذهب إلى محمد ، لا كى يتبعه ، بل كى يساومه ، فإن لم يحصل منه على ما يريد غدر به وقتله . قال لصاحبه أريد بن قيس : إذا قدمنا على الرجل فإني سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف (أى أقتله) .^٨

دار بينه وبين النبي حوار . سأل عما سيحصل عليه إن أعلن إسلامه ، ما هو المقابل ، وما هو الثمن ؟ وكأنه يعقد صفقة بيع وشراء لا صلة لها بعقيدة أو دين . قال عامر : يا محمد ، مالى إن أسلمت ؟ قال النبي : لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين . قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟ قال النبي : لا ذاك لك ولا لقومك . قال : أفجعل لى الوبر ولك المدر ؟ قال النبي : لا ، ولكني اجعل لك أعنة الخيل فإنك أمرؤ فارس . قال عامر : أوليست لى ؟ أما والله لأملأنها عليك خيلا خُمرا ورجالا .^٩

لقد خيل لابن طفيل أن النبي يقيم ملكا ، وأن باستطاعته أن يرث هذا الملك مقابل أن يعلن إسلامه . وكان طوال حوارهم مع النبي ينظر إلى أريد بن ربيعة متوقعا بين لحظة

^٨ ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٣٤ .

^٩ انظر ابن سعد ، ج١ ، ص ٣١٠ والطبرى ، ج٢ ، ص ٢٠٢ .

وأخرى أن ينفذ أريد ما اتفقا عليه ، وهو أن يضرب محمدا بالسيف ضربة تقضى عليه . لكن أريد كان يقف كتمثال جامد لا يقدر على شئ . لقد شئت إرادة أريد ، وغامت الرؤيا أما عينيه ، فعجز عن الفعل ، وعصم الله نبيه : " والله يعصمك من الناس " .

بعد رحيل بني عامر رفع النبي يديه إلى السماء ، داعيا : اللهم اكفني عامر ابن الطفيل .

ويبدو أن السماء استجابت : أصيب عامر بن الطفيل بالطاعون وهم ببعض الطريق . مات قبل أن يصل إلى دياره . أما أريد فقد قدم أرض بني عامر هو ومن معه . وعندما سأله قومه عما تم بينهم وبين محمد ، أجاب : لا شئ ، والله لقد دعانا إلى عبادة شئ لو كنت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله ^{١٠} .

لقد تمادي أريد في كفره ، وتمسك بشركه ، وأظهر سوء خلقه ، وأساء الأدب ، عندما ادعى أن محمدا قد دعاه إلى عبادة " شئ " وما دعاه النبي إلا إلى عبادة الواحد الأحد . كان يود تحقير محمد وما يدعو إليه . لكنه لم يمهل حتى يتناول مرة أخرى . خرج بعد مقالته تلك بيوم أو يومين ، على جمل له . انقضت عليه صاعقة من السماء أحرقتة هو والجمل .

إن في ذلك لعبرة لمن يعتبر . فهل من معتبر ؟ أم أن الكل قد أصبح " أريد " ونسوا الله ، ثم تمادوا في الفساد والإفساد سرقة ونهباً ورشوة ودعارة ؟ ما زلنا ننتظر الصاعقة .

٥- وفد بنى حنيفة ، ومسيلمة الكذاب :

تكمُن أهمية وفد بنى حنيفة في وجود مسيلمة بن حبيب الحنفي ، وقد اشتهر فيما بعد باسم مسيلمة الكذاب بعد أن ادعى النبوة . أتى الوفد من اليمامة ، بضعة عشر رجلا ، وكان على الوفد سلمى بن حنظلة .

كان مسيلمة ، على مدي سنين طويلة ، يطوف بين الناس يحدثهم عن الحكمة ويطلب منهم البحث عن الحقيقة . ومع تقدمه في السن اكتسب الكثير من الخبرة والحكمة . استمع الناس إليه . وانبهروا بحلاوة حديثه وطلاوة منطقته وفصاحة بيانه ، لدرجة أن اعتبره البعض حكيماً اليمامة وملهمها .

^{١٠} ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ .

التقى الوفد بالنبي في مسجده ، ومعهم حكيمهم " مسيلمة " الذى خيل إليه أنه بالإمكان أن يشركه محمد معه فى رسالته ، وأن يكون له بعض ما تحت يده من سلطان. كان بيد نبنى وهو يتحدث إليهم عسيب (جريد) نخل قال النبى لمسيلمة وهو يشير بأصبعه إلى العسيب : لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتك .

انسحب مسيلمة إلى رجال قومه ينتظر . أعلن بنو حنيفة إسلامهم وأمر النبى لهم بالعطايا . ذكروا مسيلمة وهو فى رجالهم - كما قالوا - يحفظها لهم ، فأمر النبى له بمثل ما أمر لهم . ويذكر ابن إسحق أن النبى قال : " أما أنه ليس بشركم مكانا " ^{١١} ، وهى عبارة قد يحار المرأ فى تفسيرها . ويرى ابن إسحق أن النبى قال ذلك عن مسيلمة لحفظه ضيعة أصحابه . وربما يقصد بهذه العبارة أن مسيلمة ليس بأكثر شرا من أصحابه ، فالشر لا ينمو ويتزعرع إلا فى بيئة مجالها للشر ، وربما يكون قومه هم الذين وافقوه وشجعوه على أن يطالب بما ليس له ، وأن يدعي ما لا يمكن أن يكون أهلا له .

عاد الوفد إلى اليمامة . وهناك ارتدوا !! وأعلن مسيلمة صراحة أنه قد أشرك فى الأمر مع محمد . لم ينكر أن محمدا رسول الله ، لكنه أضاف أنه هو أيضا رسول الله . تنبأ وتكذب ، وادعي أن جبريل يهبط بالوحي عليه ، وتسمي بالرحمن . ^{١٢} صدقه من حوله ، واتبعوه بعد أن وضع عنهم الصلاة ، وأحل لهم الخمر والزنا ، وأعفاهم من الزكاة .

ازدادت ثقته فى نفسه ، فتجراً وكتب إلى النبى يقول : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد ، فإنني قد أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون .

حمل الخطاب إلى النبى رسولان . سألهما النبى عن رأيهما فيما يقول مسيلمة ، فلم ينكرا اتباعهما له وإيمانهما بما يقول . لم يعاقبهما النبى ، ولم يأمر بقتلها ، فالرسل لا تقتل . اكتفى النبى بأن كتب إلى مسيلمة يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . ^{١٣}

^{١١} ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٤٤ .

^{١٢} مختصر تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص ٥٩٩ .

^{١٣} ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٧٢ .

لم يكثر مسيلمة بخطاب النبي ، ظل يطلق على نفسه اسم الرحمن ، وظل يصف نفسه بأنه رسول الله ، وظل يتنقل بين الناس يدعو إلى دين بلا صلاة وبلا زكاة ، والناس يلتفون حوله فرحين بسهولة ما يدعو إليه .

تمادي مسيلمة فزعم أن له قرآنا نزل عليه به الملك من السماء ، ونكتفى بذكر بعض الأمثلة من سجع مسيلمة الذي يعارض به بعض سور القرآن ، والذي يدعو بضحاكته وسذاجته إلى السخرية والإضحاك . يقول الكذاب : " والطاحنات طحننا ، والعاجنات عجننا ، والخابزات خبزنا ، والثارذات ثردنا ، واللاقمات لقمننا ، إهالة وسمننا .. "

ويعوذ الكذاب فيقول : " الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل " .

ومتسربلا بعباءة صغار المضحكين وهو يتصور أنه من كبار المهملين ، يعود فيقول : " يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي ما تتقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين " .

وفي معارضة لسورة الكوثر ، خرج على الناس بهذا الهذيان " إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر ، إن شانئك هو الكافر " .^{١٤}

ثم يعود فيسجع السجعات ، ويقول لأتباعه فيما يقول ، مضاهاة للقرآن : " لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعي . من بين صفاق وحشى " .^{١٥}

لم يفلح مسيلمة فيما ادعاه من نبوة . كان أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة - كما نص على ذلك الرافي - يقولون إنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقا ، ولا في دعوى النبوة صادقا ، وإنما كان أتباعهم إياه على حد قول قائلهم : كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .^{١٦}

وعلى عكس ما يقول به الرافي من أن أشياع مسيلمة كانوا يعرفونه بالكذب والحماقة ، يرى ابن سعد أن الناس قد افتتنوا به ، وقويت شوكتة وذاع أمره بعد موت النبي ، حتى تم القضاء عليه قتلا في حروب الردة في معركة قادها خالد بن الوليد ، وطواه النسيان هو وما ادعاه من سجع هزيل قال بأنه قرآن .

^{١٤} الصابوني ، التبيان في علوم القرآن ، ص ١٤٥ .

^{١٥} الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .

^{١٦} اقتباس الصابوني ، التبيان في علوم القرآن ، ص ١٤٤ .

لن نسترسل فى الكتابة عن بقية الوفود وقد زاد عددها عن السبعين ، ذلك لتشابه الأمر فى انضوائهم تحت راية الإسلام ، ومن يريد أن يستزيد فعليه الرجوع إلى ابن سعد وقد كتب عن وفادات العرب ما يقرب من سبعين صفحة .^{١٧}

وقبل أن نختم هذا الموضوع لابد من الإشارة إلى وفد نصارى نجران الذين جادلوا النبى ولم يؤمنوا ، ورغم ذلك سمح لهم أن يقيموا صلاتهم فى مسجده . وعندما حان وقت رحيلهم ، رحلوا فى سلام آمنين ، لم يمسه سوء .

هذه تذكره لبعض المستشرقين الذين يكتبون ضد الإسلام ، إما عن جهل وإما عن كراهية وحقد ، ويتهمون المسلمون - وعلى رأسهم النبى - بالقسوة والعنصرية والإرهاب والميل دوما إلى سفك الدماء . لقد سمح النبى للنصارى أن يقيموا صلاتهم فى مسجده وهم لا يؤمنون . حلوا ضيوفا فى محبة وسلام . ورحلوا فى محبة وسلام . وهذا يكذب رأى ألوجوروتوس - وأمثاله من متعصبى كتاب الغرب - عندما يقول : إن هذا الدين لم يأت إلا ليخضب الأرض بنماء مخالفه .. وإنه دين خارجي ، قائم على عدد كبير من الطقوس ، كما أنه يفرض على الناس اتباعه ، كما يجب الخضوع له بطاعة عمياء دون مناقشة .^{١٨}

لماذا يتجاهل كتاب الغرب ما فعله النبى مع نصارى نجران ، ومثله كثير مما يدل على سماحة الإسلام وعدالته ، بدلا من غرس بذور الكراهية والفتنة والشقاق ؟ هل نقول هو الجهل ؟ هل نقول هى الكراهية ؟ هل نقول هو الحقد ؟ هل نقول هو الخوف ؟ ربما إحداها ، وربما هى جميعا .

على أية حال لقد كتبنا عن وفد نصارى نجران بالتفصيل فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

حج أبى بكر بالناس

انتشر الإسلام فى ربوع شبه جزيرة العرب ، وقويت شوكة المسلمين وعلا قدرهم ، أصبح يُنظر إليهم نظرة إكبار وإجلال فهم حملة لواء التوحيد ورافعو رايات الحق والعدل والمساواة بين البشر مهما تعددت لغاتهم واختلفت ألوانهم : لا فضل لعربى على عجمي ، ولا لأحمر على أسود ، الكل سواسية ، وكلمة الله هى قانون السماء الذى يجب أن يخضع له أهل الأرض سواء ، لا تفضيل لحاكم على محكوم ، ولا لأمير على مأمور ، ولا لغني

^{١٧} ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

^{١٨} عبد الرحمن بدوى ، محمد ، ص ١٢٣ .

على فقير ، ولو سرق فتاة بنت محمد لقطع محمد يدها . هذا ما أعلنه النبي . فأى عدالة يبتغيها البشر أعدل من عدالة هذا الدين ؟

إن هذه العدالة الباهرة المبهرة ، أول ما طبقها النبي طبقها على نفسه ، فقد كان هو القدوة والمثل . وكما ذكرنا في أكثر من موضع - من قبل - كان خلقه القرآن . هذا اليتيم الأمي الذي خصه الله بالنبوة دون كل عظماء قومه ، كان بإمكانه ، بعد أن خضعت له قبائل العرب وانهارت أمام صلابته إيمانه قبائل يهود ووصل بالآلاف جنده إلى حدود امبراطورية الروم ، أن يعيش كما الملوك والأباطرة في قصور مشيدة وعلى أسرة مزينة مزركشة . ولم يفعل . عاش في حجرات أزواجه على الوسادة والحصير ، مترفعاً ومتسامياً على كل إغراءات الترف المادي والنعيم الدنيوي . لم يفعل رغم أنه كان يملك المقطرة ، ورغم أن بعض أصحابه المحيطين به كانوا على قدر هائل من الثراء ولم يجدوا منه اعتراضاً على ثرائهم من مال حلال ، بشرط أن يؤدوا ما عليهم من حقوق تجاه أصحاب الحاجة من الفقراء . هكذا كان سلوك النبي : ما أنا بملك ولا جبار . وهكذا كان دوماً سلوك الأنبياء .

وعلى الذين يهاجمون النبي دون وعي ديني أو ثقافي أو اجتماعي ، أن يقرأوا ويفكروا ويحكموا ضمائرهم ، قبل أن يخطبوا كلماتهم المسمومة لو كانوا يعرفون ما الضمير .

على أية حال ، نعود إلى السنة التاسعة من الهجرة ، وقد تعاقبت الشهور بعد عودة النبي من آخر غزواته . اقترب موسم الحج . استعد من أراد من المسلمين فقد أصبحت مكة أمناً وأماناً بعد الفتح : الحج مباح للمسلمين على شريعة إبراهيم ، ومباح أيضاً للمشركين ممن لم يؤمنوا من قريش ومن عرب شبه الجزيرة وهم أيضاً يحجون على شريعة إبراهيم بعد أن أدخلوا عليها ما ليس فيها .

دعاة التوحيد ، حاملو لواء لا إله إلا الله يطوفون حول الكعبة وبينهم دعاة الشرك وعبدة الأوثان ، يطوفون هم أيضاً كتفا بكتف وساقا بساق . بدا الأمر مُحيرًا ، داعياً للارتباك . رأى النبي ألا يقوم بنفسه بالحج بالناس ، حتى يقضى الله أمره ، ويصدر بالوحي حكمه ، ويتطهر بيت الله تطهيراً أبدياً من رجس الشرك ووثنية طقوس المشركين .

أمر النبي أبا بكر أن يحج بالناس . وخرج أبو بكر من المدينة في ثلاثمائة رجل ،
وبعث النبي معه بعشرين بَدَنَةً للنحر بمكة ، وساق أبو بكر من عنده خمس بدنان .
وخرج معه عبد الرحمن بن عوف ، ومعه هديه .

المسلمون والمشركون ، عبدة الله وعبدة الأوثان ، بعد أيام يلتقون في مكان واحد
هو بيت الله الحرام ، يطوفون جميعا حول الكعبة المشرفة ، هؤلاء يتعبدون ويبتهلون
لإله واحد ، وأولئك يتعبدون ويبتهلون لأصنام وأوثان . تناقض يثير في النفوس الكثير من
الارتباك والارتباك .

ما كان لهذا الوضع المربك أن يستمر . هبط جبريل بصدر سورة " التوبة " ثلاثون
آية تحرم على المشركين دخولهم البيت الحرام بعد " عامهم هذا " : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا... " .. (التوبة : ٢٨) .
وتنقض الآيات كل ما كان بين النبي والمشركون من عهود إلا ما عقد لأجل مسمي فإنه
يبقى حتى يستوفى أجله . ويقال إن السورة كلها أنزلت عقب " تبوك " وحملها على بن
أبي طالب ليتلوها على الناس ، ويبين ما يتعلق بالحج .^{١٩}

تبدأ سورة التوبة بقوله تعالى : " بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ
مُخْزِي الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تُؤْلِيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ
وَيَنْشُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ
يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " (التوبة : ١-
٤) .

بعد أن نزلت سورة التوبة ، وكان أبو بكر قد خرج بالناس ، أشار بعض الصحابة
على النبي أن يرسلها إلى أبي بكر كي يبلغ بها الناس . لكن النبي قال : لا يبلغ عنى إلا
رجل من أهلى ، وكان على ، من أهله ، هو أقرب الناس إليه . ولقد عبر النبي عن ذلك
فى أكثر من مناسبة ، نذكر منها قوله لعلى عند الخروج لغزوة تبوك وتركه علىا فى
المدينة ليقوم على أهله : " أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبي بعدى " ،
وقوله : من كنت مولاة فعلى مولاة ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " .^{٢٠} وقوله ،

^{١٩} أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ١٠٥٠ .

^{٢٠} أبو زهرة ، ج ٣ ، ص ١٠٤٧ .

عندما اشتكى الناس عليا في مكة بداية حجة الوداع وكان قد عاد بهم توا من اليمن: " بأبيها الناس لا تشكرو عليا . فوالله أنه لأخشى في ذات الله من أن يشكبي " .^{٢١}

ويقول ابن إسحق إن النبي دعا علي بن أبي طالب ، فقال له : اخرج بهذه القصصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .^{٢٢}

خرج علي ، تنفيذا للأمر ، على ناقه النبي " العضباء " ، حتى أدرك أبا بكر بالطريق . خيل لأبي بكر أن النبي قد أرسله كي يكون أميرا للحج بدلا منه ، سأل : أمير أم مأمور ؟ واطمأنت نفسه عندما أجاب علي : مأمور .

أقام أبو بكر الحج للناس . والعرب إذ ذاك - كما يقول ابن إسحق - في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية . حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته .. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .^{٢٣}

وفي هذا العام فرضت الصدقات : " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (التوبة : ١٠٣) .

^{٢١} الطبري ، ج٢ ، ص ٢٠٥ .

^{٢٢} ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٠٣ .

^{٢٣} نفس المرجع ، ص ٢٠٥ .

الفصل الثامن
الْوَدَاعُ وَالْمَوْتُ

الفصل الثامن الوداع والموت

(١)

حجة الوداع

التسمية :

تسمى حجة الوداع ، وحجة البلاغ ، وحجة التمام ، وحجة الإسلام .. الوداع ذلك لأن النبي اعتراه الإحساس بأنه قد لا يلتقى بهذا الجمع الهائل - أكثر من مائة ألف - في مكة مرة أخرى ، لذا كانت أول كلماته في خطبته التي تسمى هي أيضا خطبة الوداع : أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا^١. كانت هذه الحجة إذن بمثابة الوداع لمكة بجبالها ووديانها ، وتلالها وشعابها ، وكعبتها وحرمها ، وأهلها ومقدساتها .. لكل هذا وداع ، وللجميع وداع .. لقد أحس بدنو الأجل .. : لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا .

أما عن تسميتها بحجة الوداع وحجة التمام - والمعنيان مرتبط كل منهما بالآخر - فيمكن القول تفسيراً إن النبي قدم فيها خاتمة بلاغيه للمسلمين في كل مكان وصله الإسلام، فما كان بعد هذا البلاغ من بلاغ . وكان التمام بنزول قوله تعالى : " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا " (المائدة : ٣) وما بعد هذا التمام من تمام .

وكلمات الآية السابقة تتضمن المعنى الأخير وهو : حجة الإسلام ، لقد اكتملت الرسالة بهذه الحجّة التي تعلم فيها الناس بأسلوب عملي كيف تؤدي مناسك الحج طبقاً لتعاليم الإسلام ، وبذلك اكتملت أركان الإسلام فهما وعملاً. ما ترك الوحي منحي من مناحي الحياة الدنيا إلا أكمله ، ومناحي الحياة الآخرة إلا صوّره . أصبح الإسلام هو الدين الذي يجب أن يتّبع وقد اكتمل .

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام هو الدين السماوي الوحيد الذي علم الإنسان وهداه لما فيه خير الدنيا والآخرة . المسيح بشرٌ بملكوت السموات وأهمل ملكوت الأرض . ولا لوم عليه فقد كان هذا هو جوهر رسالته . وموسى ركز على ملكوت الأرض ونسى

^١ الطبري ، ج٢ ، ص ٢٠٥ .

ملكوت السماء ، لم يُشر أبداً إلى الحياة الآخرة . هذا ما نجده في التوراة التي بين أيدينا ، ولا نستطيع الحديث عن توراة أخرى ، فنحن لا نتحدث ولا نكتب إلا عما نستطيع إثبات وجوده .

الخروج للحج :

تجهز النبي للحج ، وأمر الناس بالجهاز له كان ذلك صباح يوم السبت : الخامس والعشرين من ذى القعدة ، السنة العاشرة من الهجرة . استعمل على المدينة أبا دجاجة السَّاعِدِيّ ، ويقال سباع بن عَرْقُطَةَ الغفاري .^٢ أخرج معه كل نسائه في الهوداج ، وأشعر هديةً وقلده . كانت حجته الأولى والأخيرة .

صلى الظهر بذي الحُلَيْفَةِ (على بعد ستة أميال من المدينة) ، ثم أحرم واستوى على ناقته القصواء . ويقال إن الذين خرجوا للحج في ذلك العام زاد عددهم عن المائة ألف ، وكلهم من المسلمين ، بعد أن حُرِّم الحج على المشركين .

وصل النبي مكة في اليوم الرابع من ذى الحجة وبدأ الطواف سبعا ، ثم اتجه إلى الصفا وأتم سعيه بين الصفا والمروة ، وفي الثامن من ذى الحجة اتجه إلى منى وقضى الليل حتى مطلع الفجر . وعندما بزغت الشمس شق طريقه إلى عرفات ، على بعد ستة عشر ميلا خارج مكة ثم ارتقى الجبل وعشرات الآلاف من المسلمين يملأون فراغ الكون من حوله في مشهد جليل مهيب لم تشهده تلك البقعة المقدسة من قبل .

يقول ابن إسحق : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حَجَّة . فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سُنَنَ حجهم وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين ، فحمد الله عليه ، ثم قال :

خطبة الوداع :

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . وقد بلغتُ ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وإن كل ربا موضوع (باطل) ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله . وإن كل دم في الجاهلية موضوع ، وإن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا في بني لُبَيْث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

^٢ ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٧٢ .

أما بعد أيها الناس ، إن النسئ (التأجيل والتأخير فى الأشهر الحرم) زيادة فى الكفر يضلُّ به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤ عدة ما حرم الله فيجولوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حُرُم : ثلاثة متوالية ، ورجب مُضَرَّ٢ . أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نساءكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهم أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ... واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عَوَان (أى أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله .. واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

فاعقلوا أيها الناس قولى فإنني قد بلغت ، وإنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بيّنا : كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه . تَعَلَّمُنْ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وإن المسلمين إخوة . فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمُنْ أنفسكم اللهم هل بلغت .

وتعالت أصوات الناس : اللهم نعم .

فقال النبى : اللهم اشهد٤ .

ونزل جبريل بكلمات الوحي : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " نزلت وهو واقف بعرفة حين وقف موقف إبراهيم واضمحلُّ الشرك وهُدمت منار الجاهلية ولم يطف بالبيت عريان ٥ .

عندما تلا النبى تلك الآية ، وسمعها أبو بكر بكى ، لقد تمت الرسالة . استدار الزمان واكتملت الحلقة ، واقترب اليوم الذى تصعد فيه روح الهادي البشير إلى بارئها . وفى رفته المعبودة ، وقد غمره الإحساس بالحزن ، بكى صاحب النبى ورفيقه فى الغار وأول من آمن به من الرجال . ما بعد الكمال إلا النقصان . لقد تم البلاغ واقتربت ساعة الوداع .

نذكر دعاء من الأدعية التى ردها النبى فى حجة الوداع ، والدعاء فى الحج لا يُحد بنص محدود أو مكتوب ، إنما يصدر مباشرة من وجدان العابد الخاشع إلى سماءات المعبود . قال النبى فى دعائه : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد ،

٢ أضاف رجب إلى مضر لأنها كانت تعظمه ، وما كان أحد من العرب يفعل ذلك سواها (الشيخ العلامة محيى الدين عبد الحميد) .

٤ ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

٥ ابن سعد ، ج٢ ، ص ١٨٨ .

وهو على كل شئ قدير ، اللهم اجعل فى بصري نورا وفى سمعي نورا ، وفى قلبى نورا ،
اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى . اللهم إني أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات
الأمر ، وشر فتنة القبر ، وشر ما يلج فى الليل ، وشر ما يلج فى النهار ، وشر ما تهيب
به الرياح ، وشر بوائق الدهر ^١ .

أتى النبي مناسك الحج ثم قفل عائدا إلى المدينة . وكانت مدة إقامته فى مكة منذ
وصوله إليها وخروجه منها عشرة أيام .

ومن الملاحظ أننا قد ركزنا على خطبة الوداع فى وادي منى حيث اجتمع أكثر من
مائة ألف من المسلمين ، وهو حشد - بمقاييس تلك الآونة - هائل مهيب ، وقفوا فى
صمت خاشع وهم لا يدركون أنه الوداع ، وأنهم لن يلتقوا بنبيهم بعد عامهم هذا .

مائة ألف ، أو يزيد ، وقد أصغت الأذان كى لا تفوتها كلمة ، وخشعت النفوس من
جلال الموقف وابتهلت القلوب ، وذاب العابد فى ترنيمة شكر للمعبود . ويرتفع صوت
النبي بكلمات التمام فتتخذ مباشرة إلى الأعماق . الأعماق كانت تنادي الأعماق ، والإيمان
يشع بفيض نوره فيملأ الوديان ويحيط بقمم الجبال . لقد أصبحت مكة بكعبتها هى حجر
الزاوية ومركز عبادة الله فالوحد الأحد الرحمن الرحيم . ويعلو صوت النبي واعظا
ومعلما ومبشرا ونذيرا ، فتعانق الكلمات الأسماع وتستقر فى القلوب كى لا تمحي أبدا .

كان الوداع مهيبا ، يذكرنا بموسى عليه السلام وقد صعد إلى الجبل وقد تعلقت به
عيون عشرات الآلاف من بنى إسرائيل يودعهم الوداع الأخير . لقد صدر له الأمر الإلهي
بأن يصعد إلى الجبل كى يموت هناك . لقد تم دوره واختتمت رسالته : وكلم الرب موسى
فى نفس ذلك اليوم قائلا : اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نبؤ الذى فى أرض موآب
الذى قبالة أريحا .. ومُت فى الجبل الذى تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هرون
أخوك فى جبل هور وضُم إلى قومه (تثنية ٣٢ : ٤٨-٥٠) .

ألقي موسى خطبة طويلة رائعة وانشد نشيدا استمعت إليه الجموع المحتشدة ، ثم
بارك الشعب الذى كثيرا ما تمرد عليه وثار ضده ، ولم يستجب له إلا بعد طول عناء .

وشعر الشعب أن هذه هى آخر كلمات : " هذا الرجل موسى " الملقب برجل الله .
وتبكى إسرائيل - كما يقول كتبة التوراة - تبكى كل إسرائيل .

ومن المثير للدهشة والحيرة فى أن ، أن موسى هذا الذى يودع قومه الوداع الأخير ،
يختلف تماما عن موسى الذى التقى به الرب لأول مرة عند " جبل الله " . لقد اختفى

^١ أبو زهرة ، ج٣ ، ص ١٠٨١ .

موسى ثقيل اللسان . وبدا موسى فى وداعه لقومه فصيحاً بليغاً تتساب من بين شفثيه الكلمات فى قوة وسلاسة واقتدار .. صورة من النوع البطولى النادر لرجل حاول أن يصنع شعباً ويخلق أمة ويرسى دعائم دين .. وكأنه فى وقفته الخاتمة المسيطرة - بشعره الفضى ولحيته الكثة وثيابه الواسعة الفضفاضة وقد بلغ المائة والعشرين - قد تحول بلمسة سحرية بارعة إلى بطل من أبطال الأساطير.^٧

خطبة وداع ، وخطبة وداع ، ونبي ونبي ، لكن موسى أرسل إلى شعب واحد هو شعب إسرائيل ، أما محمد بن عبد الله فقد أرسل للدنيا بأسرها.

^٧ أنظر كتابنا ، موسى فى الأساطير الإسرائيلية ، ص ٢٨٢.

المَرَضُ وَالْمَوْتُ

بعث أسامة بن زيد :

عاد النبي ، بعد فراغه من حَجِّهِ ، إلى المدينة حيث أقام بقية ذى الحجة والمحرم والصفري ، وفي المحرم من العام الحادي عشر للهجرة قرر أن يرسل بعثا إلى الشام . لم ينس النبي غزوة مؤتة التي اندحر فيها المسلمون ، وقتل أمراء الجيش الثلاثة وعلى رأسهم زيد بن حارثة . كان لابد وأن يمتد الإسلام إلى الشمال حيث يسيطر الروم ، كما كان لابد من إشعارهم بأن المسلمين قوة لابد وأن يُرهَّب جانبها ، وإنهم وإن كانوا قد انسحبوا مرة لعدم تكافؤ العدد والسلاح ، فلن ينسحبوا مرة أخرى ، وقد أعدوا للأمر عنه .

أمّر النبي على الجيش أسامة بن زيد بن حارثة ، وكان أسامة آنذاك فى السابعة عشرة ، أو الثامنة عشرة من عمره . لذا أثار هذا الاختيار دهشة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، خصوصا إذا ما عرفنا أن أبا بكر وعمر بن الخطاب وأبا عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبى وقاص أمروا بأن يكونوا جميعا تحت إمرة أسامة الذى اختاره النبي عامدا كي يقاتل حيث قُتل أبوه . لكن الحكمة البالغة السامية من اختيار أسامة أميراً للجيش كانت تكمن فى درس أراد النبي أن يعلمه لكبار الصحابة وبصورة عملية وهو : أنه لا صفوة فى الإسلام ولا ارسنقراطية ، إنما يتولى الأمر من هو أحق بالاختيار حتى ولو كان فى مثل سن أسامة ، وقد اشتهر أسامة - كما اشتهر أبوه من قبل - بالبسالة والقوة والإقدام وعدم الإحجام فى مواجهة الخطر .

طلب النبي من أسامة أن يُوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين (جنوبى فلسطين) . سمع كبار المهاجرين والأنصار وأطاعوا . انضموا إلى الجيش تحت لواء أسامة . تجهَّز الناس . وخرج أسامة بجيشه حتى نزل الجرف عن بعد فرسخ من المدينة ، حيث ضرب عسكره . تنام الناس . لم يكن أمامهم إلا أن يودعوا النبي ويأخذوا الإذن بالرحيل .

مرض النبي :

لكن فجأة وصلت الأخبار أن النبي يعاني من وجع يؤلمه ، وأحيانا يقعده . كان على الجمع أن ينتظر ، فما مرض النبي من قبل ولا استنكي . لا يمكن أن يتحرك جيش وتطمئن قلوب المحاربين فيه ، والنبي نفسه يعاني ، وصحته قد تكون في منحنى خطر .

بدأ الوجع في أول شهر ربيع الأول . خرج النبي إلى البقيع ليلا . يقال إنه في جوف الليل نادي مولاہ أبا مويهبه ، قال له : يا أبا مويهبه ، إني قد أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي .. فلما وقف بين أظهرهم قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ليتهني لكم ما أصبحت فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها . الآخرة شر من الأولى .. ثم انصرف ، فبدأ برسول الله وجعة الذي قبض فيه ^١ .

زار الموتى من أصحابه ، أقرأهم السلام وودعهم ، وكأنه كان يحس في أعماقه أنه لابد من توديع الموتى قبل توديع الأحياء ، والسلام على هؤلاء الذين أحبهم وفارقوه .

لا نستطيع أن نجزم بصورة قاطعة ونحدد سبب المرض الذي أصاب النبي وكان سبب وفاته ، ربما أصابته نوبة برد شديدة وقد خرج في جوف الليل يصلى بين المقابر على أهل البقيع ، أى يناجيهم ويدعو لهم ، وربما أثرت تلك النوبة الخاطفة على الرئتين فأصابتهما . ربما كانت حمى المدينة التي لم يسلم منها المهاجرون منذ بداية القدوم . وربما كان تأثير السم الذي وضعته زينب ، يهودية خبير ، في كتف الشاه منذ ما يقرب من أربع سنوات ، كمن في جسد النبي حتى إذا ما تقدم السن ، وأرهب الجسد من ثقل الأعباء قلقت المقاومة ، وجد فرصة كي يسرى وينتشر في الجسد الطاهر ويكون سبب النهاية . لكن على أية حال هذا احتمال بعيد . ونرجح أنها كانت الحمى التي هاجمت فجأة وفي ضراوة ولم تمهل النبي أكثر من أيام ، ما زالت عن العشرين يوما .

وارأساه !! كانت أول صيحة ألم صدرت عن المبعوث رحمة للعالمين صباح عودته من زيارته الليلية لمقابر أهل الرجيع . وجد زوجته الحبيبة تنتظر وهي تمسك برأسها وتقول " وارأساه " . كاد الصداع أن يشق رأس السيدة عائشة وهي لا تستطيع الاحتمال . كان رد النبي معبرا عن بداية المعاناة : بل أنا والله يا عائشة . وارأساه !!

^١ ابن هشام ، ج٤ ، ص ٣٢٠ .

ثم داعبها بكلمات ربما أراد بها أن يخفف الألم الذي ألمَّ بهما ، قال لها النبي مضاحكا : وما ضرك لو مُتُّ قبلي فقامت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك .
قالت : والله لكأنني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك .^٢ وتبسم النبي رغم اشتداد الوجع .

اشتداد المرض :

ازداد وجع النبي وتنامٌ وهو يدور على نسائه ، وفي بيت ميمونة تقلت وطأته بصورة تكاد لا تحتل . عندها دعا نساءه فاستأذنهن أن يُمرض في بيت عائشة . وكان له ما أراد ، كن جميعا يعرفن أنها أحب نسائه إليه وأقربهن إلى قلبه .

خرج النبي من بيت ميمونة إلى بيت عائشة بين رجلين من أهله : أحدهما الفضل ابن العباس ورجل آخر ، تخط قدماه الأرض ، عاصبا رأسه حتى دخل بيت عائشة . وكان الرجل الآخر الذي استند إليه النبي هو علي بن أبي طالب ، لكن عائشة - كما يقول عبد الله بن عباس - كانت لا تقدر على أن تذكره بخير .^٢ أبدا ما نسيت عائشة طوال حياتها ، موقف علي من حديث الإفك ، وقد كتبنا بالتفصيل في هذا الموضوع من قبل .

الإصرار على بعث أسامة :

رغم شدة سريان الحمي في جسد النبي ، وسيطرة الصداع على رأسه ، تحامل على نفسه وخرج إلى الناس عندما سمع أن بعض القوم قد ضاقوا بتأخير أسامة لأنه مجرد غلام حدث وفي الجيش خيرة المهاجرين الأولين ، وكان من الأولى أن يؤمر أبو بكر أو عمر أو أبو عبيدة بن الجراح أو سعد بن أبي وقاص ، وهم جميعا أعلام لهم في عهد النبي وما بعده علامات ووقفات .

غضب النبي ، وهو في شدة مرضه ، غضبا شديدا . لقد عقد لأسامة اللواء بيده وأمره أن يخرج غازيا في سبيل الله ، فكيف لا يُطاع أمره ؟ خرج وقد عصب على رأسه عصابة . صعد المنبر وتحدث إلى الناس ، قال : أما بعد أيها الناس . فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأخير أسامة ، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه

^٢ نفس المرجع ، نفس الصفحة .

^٢ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

من قبله !! وأيم الله إنه كان للإمارة لخليقا وإن ابنه من بعده للإمارة لخليقا .. استوصوا به خيرا فإنه من خياركم^٤.

كان ذلك يوم السبت ، العاشر من ربيع الأول ، وما كان على المسلمين إلا الطاعة ، فجاءوا يودعون النبي ويمضون إلى العسكر بـ " الجرف " ، استعدادا للرحيل . لكن المرض اشتد على النبي ، وازدادت وطأته ، فلم يتحركوا وقد سيطر عليهم الخوف وتملكهم الهلع خشية أن يحدث للنبي مكروه . وما توقعوه بالفعل حدث .

النبي ينعي نفسه إلى الناس:

ازداد الألم وتمكنت الحمي من جسد النبي ، لكنه كان يقاوم في بطولة نادرة ، وقوة إيمان لا يتصف بها إلا من هو مثله ، وما مثله أحد . قال لمن حوله : أهريقوا عليّ من سبع قرب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم^٥.

صبوا عليه قرب الماء السبع ، حتى طفق يقول : حسبكم .. حسبكم !!

خرج إلى الناس وقد عصب رأسه ، وقد أخذ بيده الفضل بن عباس . جلس على المنبر . اجتمع إليه الناس . كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد ، واستغفر لهم وأكثر الصلاة عليهم ، ثم قال : إن عبدا من عباد الله خيرَ الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله .

فهم أبو بكر ما يرمي إليه النبي ، علم أنه يريد نفسه ، فبكى ، وقال : بل نفسيك بأنفسنا وبأبنائنا . قال النبي : على رِسْلك يا أبا بكر . انظروا هذه الأبواب الشوارع .. في المسجد فسدوها ، إلا ما كان من بيت أبي بكر ، فإني لا أعلم أحدا كان أفضل عندي في الصحبة يدا منه .

ويقال إن النبي في كلامه هذا يومئذ أضاف : فإني لو كنت متخذًا من العباد خليلا لاتخذتُ أبا بكر خليلا .

وكانت وصية النبي الأخيرة خاصة بالأنصار ، فما نسى أبدا سبقهم وفضلهم ونصرتهم له وجهادهم في سبيل الله ، قال : أما بعد يا معشر المهاجرين ، إنكم قد أصبحتم تزيدون ، وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيتها التي هي عليها اليوم ، والأنصار عيبتى (خاصتى) التي أويت إليها ، فأكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مُسيئهم^٦.

^٤ ابن سعد ، ج٢ ، ص ١٩٠ .

^٥ الطبري ، ج٢ ، ص ٢٢٦ .

^٦ الطبري ، ج٢ ، ص ٢٢٧ .

اشتد الوجع ، والنبي يتقلب في فراشه ويشتكي إلى الله ، يُعوذ - كما تقول عائشة -
بهذه الكلمات : أذهب قبأس ، رب الناس اشف وأنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء
لا يغادر سقماً .

وعائشة إلى جانبه تمسح على جبهته بالماء البارد . كان أحياناً يفيق ، وأحياناً يغمي
عليه . حاولوا إعطائه نواء صبوه في فمه وهو في إغمائه ، وما كان للدواء من أثر أو
نتيجة سوى غضب النبي عندما أفاق .

وبخبرته الطويلة ، رأى العباس بن عبد المطلب الموت وقد حانت ساعته . بدت
علاماته على وجه النبي . قال لابن أخيه علي بن أبي طالب : إنني أرى رسول الله
سينتوفي في وجعه هذا ، وإنني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت . فإذهب إلى
رسول الله فسله فيمن يكون هذا الأمر . فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا أمر
به فأوصى بنا . قال علي : والله لا أسألها رسول الله أبداً .^٧

العباس والنبي أمامه علي الفرائش يعاني كرب المرض ، ويتأوه من شدة الحمى ،
كان يفكر في الخلافة ، من سيؤول إليه الأمر بعد موت النبي . لم يدر بخلده ما سيحدث
للمسلمين بعد وفاة النبي ، ومن يتمسك بالعروة الوثقى ، من يدافع عن هذا الدين ، ومن
يرتد مشركاً كافراً منكراً لكل ما جاء به محمد ، خصوصاً وأنه قد قام أنبياء كذبة ،
أدعياء نبوة ، حاولوا فتنة الناس من حولهم : الأسود العنسي ، بصنعاء اليمن ، وطلحة
بن خويلد في بني أسد ، ومسيلمة بن حبيب في أرض اليمن . لم يدر هذا بخلد العباس .
كل ما كان يشغله هو لمن تكون الخلافة بعد النبي . تصور أنها لابد وأن تكون في بني
عبد المطلب . كان يتخيل ملكاً شاسعاً ، بعد النبوة ، يكون على رأسه بنو عبد المطلب ،
وهو بالطبع أولاهم به . لهذا حاول دفع عليّ للتحديث في هذا الأمر إلى النبي . لكن علياً
رفض . كان عليّ بن أبي طالب من خاماة أخرى غير خاماة العباس ، فقد تربى منذ
صغره في بيت النبوة .

أبو بكر يصلي بالناس :

خاب أمل العباس بعد أن رفض علي أن يتحدث إلى النبي ، وازدادت خيبته عندما
أمر النبي أبا بكر أن يصلي بالناس .

تقول عائشة إن النبي سمع صوت الأذان ، وقد ثقل عليه المرض . فقال : أصلي
بالناس . أمر بالماء فأحضر . اغتسل وتوضأ . حاول الخروج إلي المسجد فأغمي عليه .

^٧ نفس المرجع ، ص ٢٢٩ .

عندما أفاق قال : أصلى بالناس . أحضروا الماء ثانية فتوضأ وحاول الخروج . لكنه لم يستطع وأغمي عليه من جديد ، والناس عكوف في المسجد ينتظرون لصلاة العشاء . وعندما أفاق وقد أدرك أنه لن يستطيع الخروج . قال : ليصل أبو بكر بالناس .

حاولت عائشة أن تثني النبي عن رأيه وأن تجنب أباهما حرج الموقف ، وكانت لها حجتها فيما أقدمت عليه . قالت عائشة للنبي : يا رسول الله ، إن أبا بكر رجل رقيق كثير البكاء حين يقرأ القرآن ، فمر عمر فليصل بالناس .

وتضيف عائشة : لقد راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وما حملني على مراجعته إلا أنه وقع في قلبي أنه لن يحب الناس رجلاً بعده قام مقامه . وكنت أرى أنه لن يقوم مقامه أحد إلا تشاءم الناس به . فأردت أن يعدل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن أبي بكر .^٨

كان أبو بكر غائبا عند امرأة له من الأنصار بأطراف المدينة . ويقول عبد الله بن زمعة بن الأسود إنه خرج من عند النبي بعد أن عاده ، وقد أذن بلال للصلاة ، بحث عن أبي بكر فلم يجده ، فلما لقي عمر قال له : صل بالناس يا عمر .

قام عمر يصلي بالناس ، وكان رجلاً مَجْهَرًا ، أى جهير الصوت ، فلما كبر سمع النبي صوته . عندها أخرج رأسه من وراء ستر حجرته صائحا : لا ، لا ، لا !! ليصل بهم ابن أبي قحافة .^٩

منذ تلك اللحظة قام أبو بكر مقام النبي في الصلاة بالناس ويقال إن أبا بكر صلى بالناس سبع عشرة صلاة في ثلاثة أيام .

ويفهم من إصرار النبي على أن يصلي أبو بكر بالناس ، ولا يصلي بهم غيره - سواء كان عمر أو غير عمر - أن النبي قد أوصى بالخلافة لأبي بكر ، وأن لم يقل ذلك بأسلوب مباشر صريح . صلاة أبي بكر هذه بالناس كانت أول مظهر من مظاهر الاستخلاف . وعندما شعر النبي بشئ من التحسن ذات صباح ، خرج متوكئا على العباس وعليّ ، وصلى جالسا إلى جوار أبي بكر ، وأمر أبا بكر - الذي حاول أن يتأخر - أن يستمر في إمامته للصلاة ، وكأنه يؤكد بذلك أمام المسلمين أن أبا بكر هو خير من خلفه . وقد اختاره وارتضاه خليفة وإماما . وكما ذكرنا من قبل ، خاب أمل العباس .

^٨ ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

^٩ نفس المرجع ، ص ٢٢٠ .

يوم مات النبي :

ثلاثة عشر يوما عاني فيها النبي من الألم أشده . كان صوته يرتفع بين لحظة وأخرى ، يقول وهو يرنو ببصره إلى أعلى ، إلى خالقه وبارئه : اللهم أعني على سكرات الموت .. يمد يده في بطنه إلى قذح ماء وضيع إلى جواره ، يدخل يده في القذح ، ويمسح وجهه بالماء ، وثانية يدعو ربه : اللهم أعني على سكرات الموت .

في آخر يوم من أيام المرض الثلاثة عشر ، وكان يوم الاثنين ، وهو نفس اليوم التي صنعت فيه روحه الطاهرة إلى بارئها ، وجد النبي في نفسه قوة لا يدرى سر انبعاثها في أوصاله ، وكأنها مدد من خالقه كي ينهض ويلقى نظرة أخيرة على المسلمين وهم يصلون الصبح في وحدة وإجماع ما كان ليخطر على بال بشر . قلوب كانت كالصخر ، ما عبت قبل هذا الدين من إله سوى آلهة الحجر ، توحدت وركعت وسجدت في خشوع وإيمان مطلق ، لإله واحد هو الله الأحد الصمد .

رفع النبي الستر ، خرج من ورائه ، قام بباب عائشة ، رآه المسلمون ، دهشوا من شدة المفاجأة ، إذ دار بخلد الكثيرين أنه لا يستطيع القيام . خيل إليهم أنه استرد عافيته وعاد كما كان . تحركت الصفوف توسع الطريق للنبي كي يتقدم يوم الصلاة . أشار لهم النبي بيده أن اثبتوا عنى صلاتكم . تبسم في فرح . لقد أتم الله نعمته . ويقول أنس بن مالك : مارأيت رسول الله أحسن هيئة منه تلك الساعة .^{١٠}

دخل النبي الحجرة وأرخى الستر . انصرف الناس وقد استبشروا خيرا . ظنوا أن النبي قد تعافى وغلب مرضه ، بدلا من أن يغلبه المرض . بلغ التفاؤل بأبي بكر أن رجع إلى زوجته الخرجية في أطراف المدينة وهو يعتقد أن لا خطورة على حياة النبي .

آخر كلمات نطق بها النبي واستمع إليها المسلمون كانت صباح ذلك اليوم . آخر أيام النبي . قال عليه السلام : يا أيها الناس . إني لم أحل لكم إلا ما أحل لكم القرآن ، ولم أحرم عليكم إلا ما حرم عليكم القرآن .

تمدد النبي في فراشه . ألقى برأسه في حجر عائشة .

هنا لا يسعنا إلا أن نصمت ونترك الحديث لأُم المؤمنين عائشة تقول: رجع رسول الله في ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع في حجرى ، فدخل على رجل من آل بكر في يده سواك أخضر . فنظر رسول الله إلى يده نظرا عرفت أنه يريد ، فأخذه فمضغته حتى ألقته ، ثم أعطيته إياه .. فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قبله ، ثم

^{١٠} الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

وضعه . ووجدت رسول الله يقبل في حجرى .. فذهبت أنظر في وجهه ، فإذا نظره قد شخص ، وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .. قلت : خيّرْتَ فاخترتَ والذي بعثك بالحق .. وقبض رسول الله ^{١١} .

وضعت رأسه على وسادة ، وقامت تضرب وجهها مع بقية النساء . شاع الخبر . انتقلت الصيحة من بيت عائشة إلى بيوت الصحابة . تردد صداها في كل أرجاء المدينة . مات النبي .. النبي مات !!

كان لتأثير تلكما الكلمتين وقع صاعق . لم يصدق الناس . لقد رأوه منذ وقت قصير في الصباح ، فكيف يموت هكذا فجأة منتصف النهار؟! موقوف عمر:

كان عمر بن الخطاب ، كبقية الناس ، قد تملكه عدم التصديق ، وسيطر عليه .. اندفع إلى بيت النبي ومعه المغيرة بن شعبة . استأذنا ودخلا . همس تمغيرة : لقد مات . أما عمر فلم تستطع حواسه جميعا تقبل الحقيقة ، رفضها داخله ، إنها مجرد إغماء شديدة وسيعود النبي إلي وعيه من جديد ، صاح عمر : واغشياه ، ما أشد غشى رسول الله !! وعندما أصر المغيرة على قوله أن النبي قد مات ، غضب عمر - كما هي عادته - واتهمه بالكذب والنفاق ، ثم اندفع خارجا وقد تجمع الناس .. وقف فيهم خطيبا وهو في حالة اندفاع لا شعورى ، قال : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد توفي ، وإن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما مات . ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات .. والله ليرجعن رسول الله . صلى الله عليه وسلم ، كما رجع موسى فلبيطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مات ^{١٢} .

كلمات عمر تلك نقلناها عن ابن إسحق ، وهو باعتراف الجميع شيخ كتاب السيرة ، كما نقلها كل من كتب وأرخ وكتب في هذا المجال ، لكن دون نقاش .

هل حقا نطق عمر بهذه الكلمات ؟ أم أنها بعض المدسوس من الإسرائيليات المتناثرة في أغلب كتب السيرة ، والتي ناقشنا بعضها في هذا الكتاب وفي كتابنا السابق سنوات مكة ؟

^{١١} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

^{١٢} ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .

نذكر خبراً أورده ابن سعد يتصل بموت النبي ، وربما هو الذي قاد إلى ما نسب إلى عمر . ولو صدقنا هذا لابد وأن نصدق ذلك . ولو كذبنا هذا لابد وأن نكذب ذلك . يقول ابن سعد : حدثونا عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : لما بقي من أجل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ثلاث نزل عليه جبريل ، فقال يا أحمد .. كيف تجدك ؟ قال : أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً . فلما كان اليوم الثاني هبط إليه جبريل فقال : يا أحمد .. كيف تجدك ؟ فقال : أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً . فلما كان اليوم الثالث نزل عليه جبريل وهبط معه ملك الموت ونزل معه ملك يقال له إسماعيل يسكن الهواء ، لم يصعد إلى السماء قط ولم يهبط إلى الأرض .. قال جبريل : يا أحمد ، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلاً لك وخاصة لك يسألك عما هو أعلم به منك ويقول لك : كيف تجدك . قال : أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً .

ثم استأذن ملك الموت ، فقال جبريل : يا أحمد ، هذا ملك الموت يستأذن عليك ، ولم يستأذن على آدمي كان قبلك ولا يستأذن على آدمي بعدك ، قال : ائذن له .

فدخل ملك الموت . فوقف بين يدي رسول الله .. فقال : يا رسول الله يا أحمد .. إن الله قد أرسلني وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني ، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها ، وإن أمرتني أن أتركها تركتها ، قال : وتفعل ذلك يا ملك الموت ؟ قال : بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني . فقال جبريل : يا أحمد إن الله قد اشتاق إليك . قال : فامض يا ملك الموت لما أمرت به .^{١٢}

وفي تعليقنا على ما سبق نقول:

أولاً : نحن لا نعرف من هو أبو جعفر هذا الذي نقل عنه أنس ابن عياض الذي أخبر ابن سعد بما سمع فخطه لنا على الورق وكأنه حقائق مطلقة .

ثانياً : كما أننا لا نعرف كيف وصل ما دار بين النبي وجبريل وملك الموت من حديث إلى أبي جعفر المذكور . هل حضر المشهد واستمع إلى ملك الموت وهو يعلن الطاعة وينتظر الأمر ؟ هل حضر أبو جعفر هذا لحظة موت النبي ؟

الذي نعرفه ، والذي أجمع عليه الرواة ، هو أن النبي مات ورأسه في حجر عائشة ، ولم يكن هناك أحد . فمن أين أتى أبو جعفر " المنكور " بهذا الكلام الخرافي الذي لا يقدر على الإتيان بمثله إلا كتاب الأساطير ؟

^{١١} ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

ثالثا : يذكر لنا أبو جعفر اسم ملك لم يرد له ذكر من قبل ، لا فى القرآن ولا فى ما نعهده من أقوال الرسول ، ولا حتى فى قول من أقوال الصحابة ، ملك اسمه إسماعيل ، نـ يصعد إلى السماء أبدا ولم يهبط إلى الأرض : منذ يوم كانت الأرض على سبعين ألف ملك ليس منهم ملك إلا على سبعين ألف ملك .^{١٤}

هل فهم أحد شيئا من هذا الكلام ؟ هل ورد ذكر الملك إسماعيل فى آية واحدة من تـب القرآن ؟ هل توجد فى القرآن الكريم كلمة واحدة تشير إلى مثل هذا الملك ؟ هل يستطيع العلماء الفضلاء الأجلاء أن يحدثونا عن وجود هذا الملك المعلق بين السماء والأرض ، إن كان قد وجد فعلا ؟ نقول العلماء الفضلاء الأجلاء ، وهؤلاء نصدقهم ونثق بهم وننحني لهم فى إكبار وإجلال . أما إذا طرح السؤال على المتعالمين الأدعياء ، لتنبعجين بنقل الفتاوى وحمل تفسير الأحلام ، والرافدين ليل نهار أمام أبواب مبني الإنذاعة والتلفزيون .. إذا ما طرح على هؤلاء السؤال فسنجد عندهم فيضا من التفسير وفيضا من البلاغيات الطنانة الجوفاء ، وربما جاعونا بأسماء أخرى بالآلاف على شاكلة سم الملك إسماعيل . فمن المستحيل أن يسأل أحدهم سؤالا ولا يجب ، وهو العلامة لقائمة " المتفوق " ليل نهار فى " بوتقه " الدين . وكل ما يهمه مقابل ما يبذله من جهد خارق جبار فى الوعظ والإرشاد والتفسير ، والهدى والتنوير ، هو أن يقف فى النهاية أمام شباك الصراف ، ويمد يده !! جنب الله علماعنا الأتقياء الأنقياء - وهم قلة - مهانة هذا الموقف البغيض .

رابعا : لم يذكر لنا صاحب الحكاية شيئا عن سبب حضور الملك إسماعيل مع ملك الموت وجبريل . لم يتكلم . لم يتحرك . لم يفعل شيئا . إذن لماذا حضر ، وما الجدوى من وراء وجوده فى تلك اللحظة الرهيبة ، لحظة موت النبى ؟ لو فتح الباب أو حرك الستر . بصفته الملك ساكن الهواء ، لقلنا حضر من أجل هذا ، لكنه للأسف لم يفعل . لماذا جاء ؟ لن ندهش مطلقا إذا ما سمعنا آلاف الإجابات من محترفى تقديم الفتاوى ومدمنى تفسير الأحلام .

خامسا : هل توجد فى القرآن آية دالة على أن ملك الموت قد صدر له الأمر الإلهي بأن يخضع خضوعا كاملا لسلطان النبى وإرادته : إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها ، وإن أمرتني أن أتركها تركتها !! هل هناك ما يثبت هذا القول فى القرآن ؟ نحن من

^{١٤} نفس المرجع ، نفس الصفحة .

أصحاب القرآن قراءة وحفظا واستيعابا وفهما ، فى حدود ما منحنا الله من قدرة ، ولا نجد فى القرآن من أوله إلى آخره ما يثبت صحة هذا الحكى .

خلاصة القول : هذه حكاوي مدسوسة ، لا تضيف شيئا لقدر النبى ولا لمقدار عطائه للبشرية كلها . ونعتقد أن الذين قاموا بتأليفها وحشرها فى كتب التراث ، ما هم إلا أناس من منافقي يهود بهدف تشويه سيرة النبى وذلك بمزجها بخلط من الخرافات الإسرائيلية المعروفة ، أو ربما قام بروايتها بعض بسطاء العقول ممن سمعوا بعض الأساطير عن موت موسى فنشروا هم أيضا بعض الأساطير عن موت محمد النبى ، كى يبدو أمام الناس على أنه لا يقل مجدا أو عظمة أو هيبة أو جلالا عن موسى النبى ، وهم لا يدركون أنهم بهذا الوهم لا يضيفون ، بل ينتقصون .

ولنذكر الآن خرافة موت موسى فى الأساطير الإسرائيلية التى نعتقد أنه قد بزغت من تحت عباءتها هذه الخرافة :

تحكى الأسطورة الإسرائيلية أن الملائكة الواحد تلو الآخر حاولوا قبض روح موسى وإنهاء حياته فلم يستطيعوا . جاءه فى البداية ذلك الملك الذى كان يعلمه كى يقبض روحه ، لكن شجاعته خائنه عندما حاول أن يحطم " المادة " التى أسهم فى صنع فكرها . وعلى ذلك فقد تم استدعاء ملك الموت كى يقوم بتلك المهمة الصعبة . اقترب ملك الموت من موسى فى فضول ، لكنه عندما رأى تلك الهالة النورانية تحيط بوجهه وتشع منه كما الشمس ، واستمع إليه وهو يردد أمجاد ماضيه البطولى ، تراجع هو أيضا ولم يستطع .

وعندما أعلن هذان الملكان العظيمان أن هذا العمل يفوق مقدرتهما . التفّت موسى إلى إله إسرائيل الجبار - هكذا تحكى الأسطورة - وقال : يارب هذا الكون .. يا من أقصحت لى عن سر وجودك فى ضوء نار العليقة المشتعلة .. تذكر أنك قد حملتني إلى سمانك حيث مكثت أربعين يوما وأربعين ليلة .. اشملي برحمتك الآن .. لا تسلمني إلى ملك الموت .

وتروى الأسطورة ، المزيّنة بالحب والمدبجة بالإجلال والتي تناقلتها الأجيال ، أن موسى قد مات " بكلمة من الله " .. ويبالغ بعض صنّاع الأسطورة فيقولون إنه مات بقبلة من الله ، أى أن إله إسرائيل قد قبّل موسى فانطلقت روحه فى لحظة عناق حلو رقيق .

ويقال إنه هو نفسه ، أى الرب ، قد قام بدفن النبى فى مكان لم يعرفه إنسان حتى اليوم .^{١٥}

^{١٥} انظر كتابنا موسى فى الأساطير الإسرائيلية ، ص ٢٨٤ .

أسطورة غزل سطورها بعض بنى إسرائيل عن موت موسى ، وأسطورة تم نسجها على نفس المنوال . وإن اختلفت التفاصيل ، عن موت محمد . لا نعرف على وجه التحديد من الذى بدأ الأسطورة ، ومن الذى أضاف إليها وزاد عليها ، وما الهدف من وراء ذلك .

الإسلام لا يعترف بالأساطير ، والقرآن الكريم فيما يختص بموت النبى ، واضح الكلمات : " إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون " ، " كل نفس ذائقة الموت وإنا نؤفون أجوركم يوم القيامة " (آل عمران : ١٨٥) ، " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم " (آل عمران : ١٤٤) .

هذا معناه أننا ننكر تماما هذه الأسطورة الخرافية وأمثالها ، ومن ابتدع الخرافة السابقة - أو من هم على شاكلته - يمكنه أن يبتدع الكلمات التى نسبت إلى عمر بن الخطاب التى تعلن صراحة أن النبى ما مات ولا يمكن أن يموت . كل ما فى الأمر أنه صعد إلى ربه وسيعود ، كما صعد موسى إلى ربه أربعين يوما وأربعين ليلة ثم عاد .

كلام هزيل رخيص يجب ألا ينسب إلى الفاروق عمر الذى من المستحيل أن يكون قد نسى كل آيات القرآن التى تنص صراحة على أن موت النبى قضاء محتوم كموت كل البشر : " وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مِتُّ فهُمُ الْخَالِدُونَ " (الأنبياء : ٣٤) ، " كل نفس ذائقة الموت ثم إنا نرجعون " (العنكبوت : ٥٧) .

ثم تكلم أبو بكر :

وصل الخبر أبا بكر وهو فى بيت زوجته الخزرجية فى أطراف المدينة . أسرع إلى بيت عائشة . أقبل على النبى وهو مسجى فى ركن البيت . كشف عن وجهه ثم قبله . تأكد من صحة الخبر . مات النبى .

خرج إلى ساحة المسجد حيث احتشد الجمع . كان عمر يتحدث إلى الناس . عمر من هول الصدمة لا يريد أن يقر بأن النبى قد مات . والناس أيضا مشدوهون . لقد رأوه فى الصباح وهو فى هيئته أفضل ما يكون . فكيف يموت هكذا فجأة فى الضحي ؟ إنها إغماءة . هكذا تخيل عمر ، وقد جرفته الصدمة إلى الاقتناع بما يقول ، إغماءة لابد وأن يفيق منها ويعود وسطهم كما كان ، شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . من المستحيل هكذا فجأة أن ينطفئ السراج .

كان على أبي بكر أن يُخرج الناس من انفعال المفاجأة التي غيبت عقولهم ، وعطلت تفكيرهم ، وملأت نفوسهم بكرب مخيف .

حاول أن يُسكِت عمر : كي يتحدث هو إلى الناس . لكن عمر في انفعالاته الطاغية لم يسكت .

تكلم أبو بكر ، والمسلمون كل المسلمين يعرفون قدر أبي بكر . التفوا حوله . إنه الصادق الصديق فكيف لا تنصت الأذان إليه . قال : أيها الناس إن الله قال لنبيه " إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ " . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ " (الزمر : ٣٠-٣١) . " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ " (آل عمران : ١٤٤) . أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فقد مات إليه الذي كان يعبد ، ومن كان يعبد الله الذي لا شريك له ، فإن الله حي لا يموت .^{١٦}

فجأة أفاق الناس ، وأثاق عمر ، عادوا إلى الوعي ، وأدركوا الحقيقة بسلطان كلمات القرآن .

بدأوا يعيشون الواقع ويصطدمون به من جديد .

ماذا بعد النبي ؟ ثار السؤال نفس يوم الموت ، ولم يكن النبي قد دفن بعد .

المبايعة :

من يخلف النبي في إدارة شئون هذه الأمة ؟ سؤال يبدو شديد البساطة في طرحه ، شديد الخطورة في الإجابة عليه .

أسرع جمع من الأنصار بالاجتماع في سقيفة بنى ساعدة . استقر رأى الحضور على أن يكون سعد بن عباد هو خليفة النبي . إنهم هم الذين بايعوا ، وهم الذين أووا المهاجرين جميعا ولم ييخلوا في العطاء ، وهم الذين ناصروا ، وهم الذين قاتلوا وقتل منهم الكثيرون في . . . ببيل . إعلاء كلمة هذا الدين .

أسرع إليهم أبو بكر وعمر في جمع من المهاجرين . احتدم الحوار . قال خطيب الأنصار : نحن أنصار الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة (أنت جماعة) من قومكم . . وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر .^{١٧}

^{١٦} الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

^{١٧} ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٣٣٨ .

على أية حال انتهى النقاش والجدل بين المهاجرين والأنصار بأن طلب عمر من أبي بكر أن يبسط يده ، فبسطها ، فبايعه عمر ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم بايعه أغلب الأنصار ، ولا نقول جميعهم فقد رفض سعد بن عبادة هذا الاختيار ، وصمم علي الرفض .

ولم يحضر هذه البيعة عليّ أو العباس أو أي من بنى هاشم ، فقد شغلوا جميعاً بأمر النبي ، وكان من المستبعد تماماً أن يتركوا جسده الطاهر مسجى في ركن بيته كي يشغلوا أنفسهم باختيار خليفه له ولم يتم الدفن بعد .

هكذا تمت مبايعة أبي بكر في نفس يوم الاثنين الذي قبض فيه النبي .

ونشير إلى أن المبايعة لأبي بكر لم تكن مطلقة . وقد حاول بعض المهاجرين والأنصار رأب الصدع ، كي لا يحدث شرخ في كيان الأمة . بعثوا إلى سعد بن عبادة أن أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك . قال سعد : أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلى ، وأخضب سنان رمحي ، وأضربكم بسيفي ما ملكتة يدى ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ، فلا أفعل ، وأيم الله ، لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس منا بايعتكم^{١٨} .

ويعلق الدكتور طه حسين على انشقاق سعد بن عبادة الأنصارى بقوله : أبى أن يبايع أبا بكر ، وأن يبايع عمر ، وأن يصلي بصلاة المسلمين وأن يحج حجهم . وظل يمثل المعارضة قوى الشكيمة ماض العزيمة ، حتى قُتل غيلة في بعض أسفاره . قتله الجن فيما يزعمون^{١٩} .

الغسل والدفن:

تمت المبايعة لأبي بكر . لم يشترك فيها علي أو العباس أو أي من بنى هاشم - رغم أنهم بايعوا فيما بعد - وذلك لانشغالهم بجهاز النبي . في يوم الثلاثاء ، أي بعد يوم من الوفاة ، تولى غسل النبي وتكفينه علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله . وقد تم غسل الجسد الطاهر وعليه قميصه ، لم يجردوه ، وبعد الغسل كُفّن في ثلاثة أثواب ، واتفق الجميع علي أن يدفن حيث مات . رفع الفراش الذي توفي عليه . حُفِرَ تحته . دخل الناس أرسالا

^{١٨} الطبرى ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

^{١٩} طه حسين ، في الشعر الجاهلى ، ص ٥١ .

للصلاة على رسولهم الكريم ، الرجال ثم النساء ، ثم الأطفال ، وتم الدفن منتصف ليل الأربعاء .

هكذا انتهت حياة النبي وهو في الثالثة والستين من عمره ، بعد أن بلغ الرسالة التي اختير من أجلها : رسالة السماء والأرض .

ولقد أفضنا - في كتابين كاملين - في شرحها وتحليلها قدر ما نملك من طاقة ، وقدر ما منحنا الله من فكر وعلم . ولا نملك شجاعة الإدعاء بأننا قد فصلنا كل شيء ، وشرحنا كل شيء ، وقدمنا ما لم يقدمه أحد وما لن يقدمه أحد ، حاشا لله .

فيلا الكرمستان

طنطا

ت : ٤٥٠٤١٩٠٣٤٠٤٠

- [illegible]

- داوود ، عبد الأحد (قيس أورميا فى إيران سابقا) ، محمد : كما ورد فى كتاب اليهود والنصارى ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثانية ترجمة فاروق الزين ، ١٩٩٦ .
- رسلان ، فكتور صلاح الدين بسيوني ، القرآن الكريم ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- سالم ، الدكتور السيد عبد العزيز ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
- (إين) سعد ، محمد بن ، الطبقات الكبرى، تسعة أجزاء، دار صادر، بيروت ١٩٦٨
- عبد الرحمن ، للدكتورة عائشة ، أم النبى ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٩٩٦ .
- على، مولاى محمد ، محمد رسول الحرية ، ترجمة مصطفى فهمي وعبد الحميد جودة السحار ، مكتبة مصر، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ضيف، الدكتور شوقى، محمد : خاتم المرسلين ، دار المعارف ، القاهرة، ٢٠٠٠
- لوقا ، الدكتور نظمي، محمد : الرسالة والرسول ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٩ .
- (إين) هشام ، أبو محمد عبد الملك بن ، سيرة النبى ، أربعة أجزاء ، مكتبة دار التراث ، القاهرة بدون تاريخ.
- هيكل ، الدكتور محمد حسين ، حياة محمد ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية والعشرون ٢٠٠٠ .

المراجع الأجنبية

- The Koran, Translated into English by N. J. Dawood Penguin Books, Middlesex, England , 1968.
- Ali, Abu Hasan , Muhammad Resuluallah (the life of prophet Muhammad), translated by Mohiddin Ahmed Academy of Islamic Research and publications, Lucknow, India, 1979.
- Ali, Maulana Muhammad, The religion of Islam, a comprehensive discussion of the sources, principles and practices of Islam, National publication & printing houses U.A.R n.d.
- Carlyle, Thomas , On Heroes, Hero – worship and the Heroic in History, J.M. Dent & Sons London , 1910.
- Edposito, John L., Islam : The straight path Expanded edition, New York, Oxford University press, 1991.
- Gabrielo , Francesco, Muhammad and the conquests of Islam, translated from Italian by Virginia Luling and Rosmund Linell, World University library, weidenfeld and nicolson, London, 1968.
- Guillaume, Alfred, Islam, penguin Books, Middlesex , England 1971.
- Husain, Athar, Prophet Muhammad and His mission , Asia publishing House , Bombay, 1967.
- Jeffery, Aruthur, ed, Islam: Muhammad and His religion, the library of Liberal arts. The bobs-Merrill company , New York, 1958.
- Johnstone, P. De Lacy, Muhammad and his power, T. & T. Clark Edinurgh, 1901.
- Kelen, Betty, Muhammad : The messenger of God, Thomas Nelson Inc., New York, 1975.
- Lings, Martin, Muhammad his life based on the earliest sources, Inner traditions international Ltd., Rochester, Vermont, U.S.A., 1983.
- Moore, George Foot, History of religions T. & T. Clark Edinurgh, 1965.
- Pike, E. Royston., Muhammad : Prophet of the religion of Islam, weidnfeld & Vicolson LTD, London, 1968.
- Rahman, Afzalur, Muhammad , Encyclopedia of seera, Vol. I. the Muslim schools trust , London, 1981.
- Arbthnot, F. The construction of the Bible and the Qur'an London 1885
- Archer, John Clark, Mystical Elements in Mohammad, yale oriental series, New Haben , 1924 .
- Bell, Richard , The Origin of Islam in its Christian environment, Edinurgh, 1926.
- , International to the Qur'an , Edinurgh, 1952.

- Bennett, Clinton, in search of Muhammad, London, 1999.
- Besant, Annie, The life and teachings of Muhammad , Madras, 1932.
- Bodley, Ronald Victor, The Messenger: The life of Muhammad, Washington, 1945.
- Bucaille, The Bible, The Qur'an and science, U.S.A. 1978.
- Cook, Michael, Muhammad , London , 1984.
- Cragg, Kenneth , call of the Minaret, New York, 1956.
- Stubbe Henry, An Account of the rise of progress of mahometanism, with the life of Mohamet, Afzal Chmbers, Lahore, n.d.
- Tames, Richard, Approaches of Islam, John Murray, publishers Ltd, London, 1987.
- Watt, W. Montgomery, Muhammad at Mecca, the Clarendon press, Oxford, 1953.
- , Muhammad at Medina, the Clarendon press, Oxford, 1956.
- , Muhammad: Prophet and statesman. Oxford University pres, London, 1980.

For Further Reading

- Ali, Maulana Muhammad , The holy Qur'an , Lahore, 1920.
- Ali, Sayed Ameer, The spirit of Islam : A History of the evaluation and ideals of Islam, London, 1955.
- Andrae, Tor , Mohammad , translated from Swedish into English by T. Menzel as Mohammed: the man and his message , New York, 1936.
- Arberry, A. J. The Holy Koran. London. 1953.
- Davenport, John , apology for Muhammad and the Que'an , London, 1969.
- Dorman, Harry, Towards Understanding Islam, New York, 1984.
- Duncan, Greenless, the Gospel of Islam , Adyar, 1948.
- Feruson, John, war and peace in the world's religions, Sheldon press London, 1977.
- , An Illustrated encyclopedia of Mysticism and the Mastery of religion, Thames and Hudson, London 1976.
- Gradner, W.R. The Qur'anic Doctrine of God, Madras, 1916.
- Gibbon, Edward, The decline and fall of the Roman Empire, Heron Books, Washington square press, Inc., New York. n.d.
- Gibbs, H. A.R. Mohammedanism , Oxford University press, 1949.
- Gliman, Arthur, the Saracens, London, 1887.
- Glubb, Sir John, The life and times of Muhammad, London, 1998 .

- Grimme, H., Muhammad, 2 vols, Muster, 1892.
- Guillume, A., the traditions of Islam. Oxford 1924.
- Hart, Michael H., the 100 : A ranking of the most influential persons in history , New York, 1978.
- Irving, Washington, Mahomet and his successors, London, 1909.
- Jeffery, Arthur, The Qur'an as scripture. New York, 1952 .
- Kelin, F. A., Religion of Islam , London, 1906 .
- Koelle, S.W., Mohammed and Mohammedanism, London, 1889.
- Lammens, H., L. Islam: Croyance et Institutions , Beirut, 1926 (English translation by sir E. Dension Ross, Islam: Beliefs and Institutions, London, 1929) .
- Lane - pool, Stanely , The speeches and table- talk of the prophet Muhammad , London, 1882.
- Leonard, Arthur Glyn, Islam : Moral and spiritual values, London, 1927.
- Lewis, Benard, ed., Islam from the prophet Muhammad to the Capture of Constantinople, London, 1987.
- Margoliouth, David S., Mohammed and the rise of Islam, London, 1940 .
- Marshall, G. S. The venture of Islam, London, 1974.
- Muir, William, Life of Mohamet , Edinburgh, 1934 .
- Newby, Gorden Darnell, The Making of the last prophet: A reconstruction of the earliest biography of Muhammad, University of south Carolina press, Columbia, 1989.
- Newman, N.A., Muhammad, the Qur'an & Islam. London, 1996.
- Nicolson, R.A., The Mystics of Islam, Cambridge, 1914 .
- , A literately history of the Arabs, Cambridge, 1930.
- Peters, F.E., Muhammad and the origin of Islam , London, 1994.
- Phipps, William E., Muhammad and Jesus: A comparison of the prophets and teachings, London, 1996.
- Pickthall, Marmaduke William, the life of prophet Muhammad, A Brief History, London, 1998.
- Rauf, M. , Life and teaching of the prophet Muhammad, Longmans, London, 1964.
- Rodinson, Maxime, Mohammed, penguin, 1973.
- Schacht, Joseph, Origins of Muhammadan Jurisprudence, Oxford, 1950.
- Schimmel, Annemaire, And Muhammad in his messenger : the veneration of the prophet in Islamic piety (studies in religion), London, 1985.
- Smith, R. Bosworth , Mohammed and Mohammadism, London, 1976.

- Spellberg, D.A., Politics, Gender and the Islamic past, London, 1994.
- Stanton, H.U.W., The teachings of the Qur'an, London, 1919.
- Torrey, C., The Jewish foundation of Islam, New York, 1933.
- Toynbee, A. J., civilization on trial, New York, 1948.
- Watt, Montgomery, Islam and the integration of society, Oxford, 1961.
- Wells, H.G., The outline of History, London, 1920.
- Widgery, A.G., living religions and modern thought, round table press,
New York, 193.

محتويات الكتاب

رقم الصفحة	العنوان
٢	مقدمة بقلم أ.د. حامد أبو أحمد
٢	مدخل
٤	الفصل الأول : تكوين الأمة
٥	١- بناء المسجد
١٠	٢- بداية تكوين الأمة
١٧	٣- دستور الأمة
٢٢	٤- الدفاع عن الأمة
٢٨	٥- الغزوات والسرايا
٣٥	الفصل الثاني : غزوة بدر الكبرى
٣٦	١ - تاريخ المعركة ودوافعها
٣٨	٢ - اخرجوا إلى عير قريش
٤١	٣ - رؤيا عاتكة
٤٢	٤ - رؤيا جهم بن الصلت
٤٢	٥ - قريش تخرج إلى بدر
٤٣	٦ - النبي يستشير أصحابه
٤٥	٧ - شقاق في صفوف قريش
٤٨	٨ - النبي يسوي الصفوف
٥٠	٩ - القتال والنصر
٥٩	١٠ - الأنفال
٦٠	١١ - الأسرى
٧٢	١٢ - قتال الملائكة
٨١	١٣ - آثار بدر
٨٦	الفصل الثالث : ما بين بدر وأحد
٨٧	١- أفراح بعد بدر
٨٩	٢ - سرية زيد
٩٠	٣ - صغائر بعض الكارهين
٩٤	٤ - أحقاد اليهود

١٠٩	٥ - تحويل القبلة
١١٣	٦ - وفد نصارى نجران
١١٤	٧ - غزوة بنى قينقاع
١٢٠	٨ - قتل بعض الذين خانوا
١٣٤	الفصل الرابع : غزوة أحد
١٣٥	١ - قریش تعد جيشها وتخرج
١٤١	٢ - موقف النبي والمسلمين في المدينة
١٤٥	٣ - جيش المسلمين
١٥٠	٤ - القتال
١٥٣	٥ - مقتل حمزة وهزيمة المسلمين
١٦٣	٦ - التمثيل بالقتلي
١٦٥	٧ - توقف القتال وانسحاب قریش
١٦٧	٨ - دفن القتلي
١٧٠	الفصل الخامس : من آثار أحد
١٧١	١ - استخفاف المشركين واليهود بالمسلمين
١٧٣	٢ - سرية أبي سلمة
١٧٤	٣ - زواج النبي من زينب بنت خزيمة وأم سلمة وزينب بنت الجحش
١٧٦	٤ - الغدر بالمسلمين : شهداء الرجيع . شهداء بئر معونة
١٨٥	٥ - إجلاء بنى النضير
١٩٠	٦ - غزوات بلا قتال (ذات الرقاع - بدر الموعد - دومة الجندل)
١٩٥	الفصل السادس : من الخندق إلى الحديبية وخيبر
١٩٦	١ - غزوة الخندق
٢١٨	٢ - غزوة بنى قريظة
٢٣٥	٣ - غزوة بنى المصطلق
٢٤٣	٤ - حديث الإفك
٢٥٥	٥ - صلح الحديبية
٢٨٢	٦ - غزوة خيبر
٣٠٣	الفصل السابع : للقوة والانتشار
٣٠٤	١ - عمرة القضاء
٣١٧	٢ - الرسل إلى الملوك والحكام
٣٣٦	٤ - فتح مكة

٣٥٦

٥- غزوة حنين وحصار الطائف

٣٧٣

٦- تبوك : آخر غزوات النبي

٣٨٣

٧- الوفود وحج أبي بكر بالناس

٣٩٨

الفصل الثامن : الوداع والموت

٣٩٩

١- حجة الوداع

٤٠٤

٢- المرض والموت

٤١٩

قائمة المراجع

الدكتور وجدى الفيشاوى

- ليسانس فى الأدب الإنجليزى . آداب القاهرة .
 - ماجستير فى النقد الإنجليزى . آداب القاهرة .
 - دكتوراه فى النقد الإنجليزى . جامعة برمنجهام . إنجلترا .
 - أستاذ النقد الإنجليزى . كلية اللغات والترجمة .
- أهم ما نشر له :

- محمد (ص) : سنوات مكة ، دراسة نقدية .
 - محمد (ص) : سنوات المدينة ، دراسة نقدية .
 - لا تصليوا المسيح : دراسة نقدية .
 - موسى فى الأساطير الإسرائيلية : دراسة نقدية .
 - لليهودى لا يحب السلام : مسرحية مأساوية .
 - مأساة الفرعون : مسرحية .
 - رجل لا أعرفه : مسرحية عبثية .
 - الجامعة والصعود إلى الهاوية : رواية .
 - منحرفون وبغايا . بصقة فى وجه الفساد : رواية .
 - الحزن فى عيون الرجال : رواية .
 - الطيران بلا أجنحة : رواية مؤلفة بالإنجليزية .
 - د. هـ. لورانس : دراسة نقدية . مؤلف بالإنجليزية . تقديم ستانلى ويلز Stanley Wells
 - الأستاذ بجامعة أكسفورد والمدير السابق لـ The Shakespeare Institute .
 - نقد النقد فى التراجيديات الشكسبيرية : مؤلف بالإنجليزية . تقديم روبرت سمولود Robert Smallwood الأستاذ بجامعة برمنجهام .
 - مدخل إلى الملك لير : مؤلف بالإنجليزية .
 - دراسات نقدية : مؤلف بالإنجليزية .
 - مختارات من القصص القصيرة بالإنجليزية . تقديم الدكتور وجدى الفيشاوى .
 - جورج برنارد شو : حياته بقلمه . مترجم من الإنجليزية .
 - فطة فوق صفيح ساخن : مسرحية مترجمة من الأدب الأمريكى .
- تحت الطبع :
- كتاب الآلهة .

رقم الإيداع
٢٠١١/٧٥٦٧ م

إلى أسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة
نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم
كتب النبي يقول:

إن لهم على ماتحت أيديهم من قليل
وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم
وجوار الله ورسوله لا يغير أسقف عن
أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا
كاهن عن كهانته، ولا يغير حق من
حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شئ مما
كانوا عليه ما نصحوا وأصلحوا فيما
عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين.